مارك مازّيتي

حائز جائزة بوليتزر



حروب الظلّ

الحروب السرّية الأميركية الجديدة

«تقارير مذهلة عن تحوّل الـ «سي. آي. إيه» بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر إلى آلة قتل سرّية دوليّة. كتاب مازّيتي مخيف ولا بدّ من قراءته».

جين ماير، صحافية في النيويوركر

الطبعة الثالثة



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مارك مازّيتي

حروب الظلّ

الحروب السرّية الأميركية الجديدة



إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
publishing@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الثالثة ٢٠١٦

ISBN: 978-9953-88-840-8

Originally published as: **The Way of the Knife.**

ترجمة: أنطوان باسيل

تدقيق لغوي: محمد زينو شومان
تصميم الغلاف: داني عوّاد
الإخراج الفني: فدوى قطيش

المحتويات

إلى ليندزي وماكس

الشخصيات الرئيسية

الوكالة المركزية للاستخبارات (سي. آي. إيه)

تشارلز ألن، مساعد المدير لشؤون جمع المعلومات، ١٩٩٨ - ٢٠٠٥.

ج. كوفر بلاك، مدير مركز مكافحة الإرهابيّين، ١٩٩٩ - ٢٠٠٢.

دنيس بلير، المدير المساعد لشؤون المساندة العسكرية، ١٩٩٥ - ١٩٩٦؛ مدير الاستخبارات الوطنية، ٢٠٠٩ - ٢٠١٠.

ريتشارد بلي، رئيس محطة «ألك» (وحدة بن لادن في مركز مكافحة الإرهابيّين)، ١٩٩٩ - ٢٠٠١.

وليام كايسي، مدير، ١٩٨١ – ١٩٨٧.

دوان «ديوي» كلاريدج، ضابط عمليات ومؤسس مركز مكافحة الإرهابيّين.

رايموند دايفيس، متعاقد مع الـ «سي. آي. إيه»، أوقف في باكستان في ٢٠١١.

بورتر غوس، مدير، ٢٠٠٤ - ٢٠٠٦.

روبرت غرونييه، رئيس محطة إسلام آباد، ١٩٩٩ - ٢٠٠٢؛ مدير مركز مكافحة الإرهاب، ٢٠٠٤ - ٢٠٠٦[1].

مايكل هايدن، مدير، ٢٠٠٦ - ٢٠٠٩.

ستيفن كابس، نائب مدير، ٢٠٠٦ - ٢٠١٠.

(١) تغيّر الاسم في ٢٠٠٥ من مركز مكافحة الإرهابيّين إلى مركز مكافحة الإرهاب.

أرت كيلر، ضابط عمليات في باكستان، ٢٠٠٦.

مايك، مدير مركز مكافحة الإرهاب، ٢٠٠٦.

روس نيولاند، ضابط عمليات في أميركا اللاتينية وأوروبا الشّرقية؛ أصبح لاحقاً واحداً من كبار المسؤولين في مقر قيادة الـ «سي. آي. إيه».

ليون بانيتا، مدير، ٢٠٠٩ - ٢٠١١.

جايمس بافيت، مساعد المدير لشؤون العمليات، ١٩٩٩- ٢٠٠٤.

ديفيد بترايوس، مدير، ٢٠١١ - ٢٠١٢؛ قائد القيادة المركزية للولايات المتّحدة، ٢٠٠٨ - ٢٠١٠.

أنريكي برادو، ضابط عمليات أدار مركز مكافحة الإرهاب وأصبح لاحقاً موظفاً في بلاكووتر.

خوسيه رودريغيز، مدير مركز مكافحة الإرهابيّين، ٢٠٠٢ - ٢٠٠٤؛ نائب المدير للعمليات، ٢٠٠٤ - ٢٠٠٧.

جورج تينيت، مدير، ١٩٩٧ - ٢٠٠٤.

وزارة الدفاع

روبرت أندروز، مساعد وزير الدفاع بالوكالة للعمليات الخاصة والنزاعات المنخفضة الحدة، ٢٠٠١ - ٢٠٠٢.

ستيفن كامبون، وكيل وزير الدفاع للاستخبارات، ٢٠٠٣ - ٢٠٠٧.

مايكل فورلونغ، مسؤول في وزارة الدفاع منخرط في عمليات جمع المعلومات وقد أشرف في مآل الأمر على عمليات التجسّس الخاصة.

روبرت غايتس، وزير الدفاع، ٢٠٠٦ - ٢٠١١.

الجنرال ستانلي ماك كريستال، قائد القيادة المشتركة للعمليات الخاصة، ٢٠٠٣ - ٢٠٠٨.

الأميرال وليام ماك رافن، قائد القيادة المشتركة للعمليات الخاصة، ٢٠٠٨ - ٢٠١١.

الأميرال مايكل مولن، رئيس هيئة الأركان المشتركة، ٢٠٠٧ - ٢٠١١.

توماس أوكونيل، مساعد وزير الدفاع للعمليات الخاصة والنزاعات المنخفضة الحدة، ٢٠٠٣ - ٢٠٠٦.

ليون بانيتا، وزير الدفاع، ٢٠١١ - ٢٠١٣.
دونالد رامسفلد، وزير الدفاع، ٢٠٠١ - ٢٠٠٦.

البيت الأبيض

جون برينان، مساعد الرئيس لشؤون الأمن الداخلي ومكافحة الإرهاب، ٢٠٠٩ - ٢٠١٣.
ريتشارد كلارك، منسّق مكافحة الإرهاب، ١٩٩٨ - ٢٠٠١.

باكستان

شاكيل أفريدي، طبيب باكستاني جُنّد للتجسس لمصلحة الـ «سي. آي. إيه»
الفريق محمود أحمد، المدير العام لوكالة الاستخبارات الباكستانية، ١٩٩٩ - ٢٠٠١.
الفريق علي خان أوراكزي، قائد عسكري باكستاني مسؤول عن العمليات في المناطق القبلية الخاضعة للإدارة الاتحادية.
رايموند دايفيس، متعاقد مع الـ «سي. آي. إيه» أوقف في لاهور في ٢٠١١.
الفريق إحسان الحق، المدير العام لوكالة الاستخبارات الباكستانية، ٢٠٠١ - ٢٠٠٤.
جلال الدّين حقّاني، زعيم شبكة إجرامية متمركزة في المناطق القبلية في باكستان شن هجمات على القُوات الأميركية في أفغانستان.
الجنرال أشفق برويز كاياني، المدير العالم لوكالة الاستخبارات الباكستانية، ٢٠٠٤ - ٢٠٠٧؛ رئيس أركان الجيش ٢٠٠٧.
بيت اللّه محسود، زعيم الطالبان الباكستانيّين بعد مصرع نيك محمد وزير.
العميد أسد منير، رئيس محطة الاستخبارات الباكستانية في بشاور، ٢٠٠١ - ٢٠٠٣.
كاميرون مونتر، سفير الولايات المتّحدة في إسلام آباد، ٢٠١٠ - ٢٠١٢.
الفريق أحمد شوجا باشا، المدير العام لوكالة الاستخبارات الباكستانية، ٢٠٠٨ - ٢٠١٢.
حافظ محمد سعيد، رئيس «لشكر طيبة» («جيش الأطهار»).
نيك محمد وزير، زعيم الطالبان الباكستانيّين في المناطق القبلية.

اليمن

إبراهيم العسيري، معلّم صناعة القنابل لتنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية.

عبد الرحمن العولقي، ابن أنور العولقي.

أنور العولقي، داعية راديكالي وعضو في تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية، وكان مواطناً أميركياً.

علي عبد اللّه صالح، رئيس، ١٩٩٠ - ٢٠١٢.

الصومال

آدن هاشي فرح أيرو، تولى في فترة مبكرة زعامة «الشباب».

الشّيخ حسن ضاهر عويس، رئيس اتحاد المحاكم الإسلامية.

ميشال «أميرة» بالارين، سيدة أعمال أميركية ومتعاقدة مع الحكومة.

صالح علي صالح نبهان، العضو الكيني في خلية تنظيم القاعدة في شرق إفريقيا قُتل في ٢٠٠٩.

تحالف إرساء السّلام ومكافحة الإرهاب، مجموعة من أمراء الحرب الصّوماليين الذين تموّلهم الـ «سي. آي. إيه».

«الشّباب»، الجناح العسكري لاتحاد المحاكم الإسلامية.

توطئة:
الحرب القصيّة

«العمل الاستخباري الجيّد الذي دعا إليه كونترول على الدوام يقوم على التدرّج وعلى نوع من الرفق. وقد شذَّ سالخو فروة الرأس(*) عن قاعدته هذه. فلم يكونوا متدرّجين ولا رفقاء».

- جون لو كاريه، «السمكري والخياط والجندي والجاسوس»

جُلب الجاسوس الأميركي القوي البنية بمواكبة من رجال الشُّرطة الباكستانيين إلى غرفة الاستجواب المزدحمة. ووسط فوضى رنين الهواتف المحمولة والحديث المتبادل بين الشَّرطيين الذين تحدثوا خليطاً من الأوردو والبنجابية والإنكليزية، حاول المحقق فك طلاسم وقائع القضية.

«أميركا، أنت من أميركا؟»

«نعم».

«أنت من أميركا وتنتسب إلى السَّفارة الأميركية؟»

«نعم»، هدر صوت الأميركي القلق بالرغم من اللغو. «جواز سفري – أظهرته في الموقع لضابط الشَّرطة ... إنه في مكان ما. لقد ضاع».

وبدا في شريط الفيديو المهتزّ للتحقيق وهو يمد يده من تحت قميصه الفانيلا ويُظهر

(*) المقصود بسالخي فروات الرأس رجال الاستخبارات ذوي البأس الذين يتولون عمليات التصفية الجسدية أو التعذيب أو التعنيف الجسدي. (الناشر)

خليطاً من شارات التعريف من حبل قصير موضوع حول عنقه. وهذا واحد من الأشياء القليلة التي تمكن من التمسّك بها بعد المشهد الفوضوي عند مستديرة المرور.

«هذه شارة قديمة. هذه إسلام آباد». وأظهر الشّارة للرجل في الجانب الآخر من المكتب، ثم قلّب بين الشّارات إلى واحدة أكثر حداثة تثبت عمله في القنصلية الأميركية في لاهور.

رنّ أحد الهواتف وأنهى أحد الضّباط في الغرفة المزدحمة المكالمة سريعاً. «أوقفنا أحد رجال السّفارة. سأعاود الاتصال بك». واستؤنف التحقيق.

«أنت تعمل في القُنصلية العامة في لاهور؟»

«نعم».

«بوصفك ...؟»

«أنا، أنا مجرد مستشار فيها».

«مستشار؟» وبدا الرجل الجالس وراء المكتب شاكاً. توقف برهة ثم طرح سؤالاً بالأوردو على شرطي آخر. «وما الاسم؟»

«رايموند دايفيس»، أجاب الشّرطي.

«رايموند دايفيس»، أكّد الأميركي. «أيمكنني الجلوس؟»

«أرجوك. هل تريد ماء؟»

وسأله دايفيس، «ألديك قنينة؟ قنينة ماء؟»

ضحك ضابط آخر في القاعة. وسأله، «أتريد ماء؟ لا مال، لا ماء».

دخل شرطي آخر إلى الغرفة من وراء الكرسي الذي جلس عليه دايفيس وطلب الاطلاع على آخر المستجدات.

«هل يفهم كل شيء؟ وهل قتل رجلين من فوره؟»[1].

قبل ذلك بساعات كان رايموند ألن دايفيس – نجم كرة القدم والمصارعة السّابق

---

(١) مصدر التحقيق الذي أجرته شرطة لاهور مع رايموند دايفيس هو فيديو التُقط عبر هاتف خلوي في سياق التحقيق. وتمكن رؤية الفيديو على www.youtube.com/watch?v=o10sPS6QPXk

في المدرسة الثانوية، ابن فرجينيا، والمتقاعد من القُبّعات الخضر في الجيش، والجندي السّابق في بلاكووتر، وهو الآن عميل سرّي للـ «سي. آي. إيه» في باكستان – يشق حركة السّير الكثيفة في لاهور وبنيته الضّخمة محشورة في مقعد السائق في سيارة هوندا سيفيك بيضاء. ولاهور، المدينة التي حكمها سابقاً المغول والسّيخ والبريطانيون، هي عاصمة باكستان الثقافية والفكرية، وتقع منذ ما يقارب العقد عند أطراف حرب أميركا السّرية في باكستان.

لكن أعيد، بحلول ٢٠١١، رسم خريطة الجهاد الإسلامي داخل باكستان، وعمدت الفصائل التي لم تتصل في السّابق كثيراً بعضها ببعض إلى توطيد تحالفات جديدة للنّجاة من الحملة في الجبال الغربية، التي تشنّها طائرات الـ «سي. آي. إيه» التي تطير من دون طيار. وشرعت المجموعات، التي ركّزت معظم طاقاتها على تخيل الهجمات الدموية على الهند، في الاصطفاف في شكل أقرب من القاعدة وغيرها من التنظيمات الأخرى المتعطشة إلى الجهاد العالمي. ولبعض هذه المجموعات جذور عميقة في لاهور، وهو السّبب الذي حدا برايموند دايفيس وبالـ «سي. آي. إيه» إلى إعداد العمليات من أحد المنازل الآمنة في المدينة.

لكن ها هو دايفيس يجلس في أحد مخافر الشّرطة في لاهور، بعدما أطلق النار على شابين اقتربا من سيارته شاهرين مسدسيهما وهما يمتطيان درّاجة نارية سوداء عند إحدى مستديرات المرور المكتظة بالسّيارات والدرّاجات الهوائية والمركبات ذات العجلات الثلاث. سحب دايفيس مسدسه الـ «غلوك» نصف الآلي وأطلق عدداً من الرصاصات من خلال زجاج سيارته الأمامي محطّماً الزجاج ومصيباً أحد الرجلين في بطنه وذراعه ومكان آخر من جسمه. وشرع الآخر في الفرار فخرج دايفيس من سيارته الهوندا وأطلق بضع رصاصات على ظهره.

اتصل لاسلكياً بالقنصلية الأميركية طالباً المساعدة، وظهرت بعد بضع دقائق سيارة تويوتا لاند كروزر وهي تندفع بسرعة في الاتجاه الخاطئ في شارع أحادي الاتجاه. لكنّ السّيارة صدمت وقتلت درّاجاً باكستانياً شاباً وغادرت ودايفيس لا يزال متوقفاً في منتصف الطريق. وتبعثرت في الساحة تشكيلة من الأغراض الغريبة بما فيها قناع أسود

ونحو مئة رصاصة وقطعة ثياب مع علم أميركي. واحتوى الهاتف الخلوي داخل سيارة دايفيس على صور لمنشآت عسكرية باكستانية التُقطت في شكل خفي[1].

وسيعمد مدير الـ «سي. آي. إيه»، في غضون أيام على نكبة مستديرة المرور، إلى الكذب على رئيس الاستخبارات الباكستانية في خلال محادثة هاتفية وفي اجتماع خاص نافياً أن دايفيس يعمل للـ «سي. آي. إيه». واعتمد الرئيس باراك أوباما الغموض حول دور دايفيس في البلاد داعياً، في مؤتمر صحافي، إلى إطلاق «دبلوماسيّنا في باكستان»[2]. ولم يمض على وصول رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد إلى البلاد سوى أيام وحسب على إطلاق النار، وتحارب علانيةً مع السّفير الأميركي هناك مصرّاً على عدم تقديم الولايات المتّحدة أي نزول أو عقد أي صفقة لضمان إطلاق دايفيس. وقال إن اللعبة في باكستان قد تغيرت وولّى زمن العلاقات الودية بين الـ «سي. آي. إيه» وجهاز الاستخبارات الباكستاني.

وسيتم من الآن فصاعداً التعامل مع الأمور وفق قواعد موسكو - السّبل غير المكتوبة التي لا تعرف الرحمة، والتي مورست بين الأعداء في خلال الحرب الباردة[3].

بدا أن القضية الدموية أكدّت في لحظة كل ما يُثار في البازارات المكتظة وفي أروقة السلطة في باكستان من أحاديث عن مؤامرات فحواها: أنّ الولايات المتّحدة بعثت بجيش سري كبير إلى باكستان مؤلف من رجال زرعوا الفوضى والعنف كجزء من الحرب الأميركية الخفية في البلاد. وقامت زوجة واحد من ضحيتي دايفيس، وقد تولّد لديها الاقتناع بأن قاتل زوجها لن يمثل أبداً أمام المحكمة، بابتلاع حفنة قاتلة من سَمّ الجرذان.

لكن قضية دايفيس تُخبر أيضاً قصة أكبر. فعنصر القُبّعات الخضر السابق الذي جندته الـ «سي. آي. إيه» للمطاردة المنظمة في باكستان، يمثل وجه وكالة التجسس الأميركية التي تبدّلت بعد عقد من النزاعات في أمكنة بعيدة من مناطق الحرب المعلنة.

---

(١) Mark Mazzetti et al., "American Held in Pakistan Worked With CIA", *The New York Times* (February 21, 2011).

(٢) مؤتمر صحافي للرئيس باراك أوباما في ١٥ شباط/فبراير ٢٠١١.

(٣) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤولَين أميركيين.

ولم تعد الوكالة المركزية للاستخبارات جهاز التجسس التقليدي المتكرس لسرقة أسرار الحكومات الأجنبية، بل أضحت آلة قتل وتنظيماً تستهلكه المطاردة المنظمة.

وفي الوقت الذي أخذت الـ «سي. آي. إيه» على نفسها مهمّات مرتبطة تقليدياً بالجيش، وتحوّل الجواسيس إلى جنود، جرى النقيض نفسه من الجانب الآخر. فقد تشتت الجيش الأميركي في المجالات المظلمة للسياسة الخارجية الأميركية حيث شرعت فرق الكوماندوس في القيام بمهمّات تجسسية لم يسبق لواشنطن قط أن حلمت بالموافقة عليها في السّنوات التي سبقت ٩/١١. ونادراً ما قام البنتاغون، قبل ٩/١١، بالتجسس البشري ولم تُعط الـ «سي. آي. إيه» ترخيصاً رسمياً بالقتل. وقام الطرفان، في السنوات التي تلت ذلك، بارتكاب الكثير من هذين العملَين وظهر مجمّع عسكري - استخباري لتنفيذ الطريقة الأميركية الجديدة في الحرب.

باتت الأطر التاريخية للحربين في أفغانستان وفي العراق معروفةً جداً الآن. لكن حرباً منفصلة ومتوازية خيضت منذ أكثر من عقد وهي بمنزلة انعكاس قاتم لـ «الحروب الكبرى» التي شرعت فيها أميركا بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. ولاحقت أميركا أعداءها في حرب ظلّ خيضت عبر العالم واستخدمت فيها روبوتات قاتلة وقوات عمليات خاصة. ودفعت المال لأنفار لإنشاء شبكات تجسس خفيّة واعتمدت على ديكتاتوريّين متقلبين وعلى أجهزة استخبارات أجنبية لا يُعوَّل عليها، وعلى جيوش غير منظمة عملت بالوكالة. في المناطق التي لا تستطيع الولايات المتّحدة إرسال قوات برية إليها، أرسلت شخصيات هامشية لتؤدي أدواراً أكبر من حجمها، بما في ذلك مسؤول كثير التدخين في البنتاغون انضم إلى شخصية في الـ «سي. آي. إيه» كان لها دور بارز في فضيحة إيران - الكونترا، لإدارة عملية تجسس لم يعلن عنها في باكستان، ووريثة فرجينيا بلاد الأحصنة، أصابها هوس بالصّومال وأقنعت البنتاغون باستخدامها لمطاردة عملاء القاعدة فيها.

امتدّت الحرب عبر قارات متعدّدة، من جبال باكستان إلى صحارى اليمن وشمال إفريقيا، ومن الحروب القبلية الجيّاشة في الصّومال إلى الأدغال الكثيفة في الفيليبين. وقد وضع أسس الحرب السّرية رئيس جمهوري محافظ واعتنقها ديمقراطي ليبرالي أصبح مفتوناً بما قد ورثه. ورأى فيها الرئيس باراك أوباما بديلاً من الحروب الفوضوية

والمكلفة، التي تطيح حكومات وتتطلب سنوات من الاحتلال الأميركي. وبكلمات جون برينان، واحد من أقرب المستشارين إلى الرئيس أوباما وقد عيّنه الأخير في النهاية مديراً لـ «سي. آي. إيه»، فإن أميركا باتت الآن تعتمد على «المبضع» بدلاً من «المطرقة».

توحي هذه المقارنة أن النوع الجديد من الحرب خالٍ من أي كلفة أو من الإخفاقات - عملية جراحية من دون تعقيدات. وليست هذه الحال. فنهج المبضع خلق من الأعداء بقدر ما قلّص منهم. وأثار الاستياء بين الحلفاء السابقين وساهم أحياناً في عدم الاستقرار حتى وهو يحاول دفع النظام إلى الفوضى. وقد عطّل الآليات الطبيعية لكيفية دخول الولايات المتّحدة كأمة في الحرب، وحوّل الرئيس الأميركي إلى الحكم النهائي في شأن حياة أو موت شعب معيّن في أرض بعيدة. وحظي هذا النّوع من الحرب بنجاحات عديدة بما فيها في النهاية قتل أسامة بن لادن وأتباعه المؤتمنين لديه بشدة. لكنه أدى أيضاً إلى تسهيل خوض الحرب وبات من الأسهل الآن على الولايات المتّحدة أن تنفّذ عمليات قتل في أقاصي الأرض أكثر من أي زمن آخر في تاريخها. وما يلي هو قصة التجربة التي دامت أكثر من عقد وما أظهره المختبر من نتائج.

شاهد السّير ريتشارد ديرلاف لمحةً عن المستقبل بعد أسابيع وحسب على هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. فقد جاء ديرلاف، رئيس الاستخبارات البريطانية، «أم آي ٦»، إلى الولايات المتّحدة مع غيره من كبار مسؤولي الاستخبارات للتعبير عن التضامن مع أقرب حلفاء بريطانيا إليها. ووصل ديرلاف إلى مقر قيادة الـ «سي. آي. إيه» في لانغلي، فرجينيا، ليبلغ بنفسه رسالةً فحواها أن الجواسيس البريطانيين يفتحون سجلاتهم ويقدّمون لـ «سي. آي. إيه» وصولاً نادراً إلى كل ملفات «أم آي ٦» المتعلقة بعناصر القاعدة.

سبق للبريطانيين أن دربوا الأميركيين على الفنون الظلامية في خلال الحرب العالمية الثانية لكنهم قاربوا منذ زمن طويل لعبة التجسس بطريقة مختلفة. واشتكى، في ١٩٤٣، أحد أعضاء الجهاز التنفيذي للعمليات الخاصة التابع لونستون تشرتشل من أن «الطبع الأميركي يتطلب نتائج فورية مذهلة، فيما تتحدّث السياسة البريطانية عموماً عن المدى الطويل والرويّة». وأشار إلى مخاطر الاستراتيجية التي ينفّذها مكتب الخدمات الاستراتيجية («أو. أس. أس».)، سلف الـ «سي. آي. إيه»، والتي تعتمد على نسف

مخازن الأسلحة وقطع خطوط الهاتف وزرع الألغام على خطوط تموين العدو. وحذّر من أن الأميركيين يملكون من المال أكثر من العقل، ومن أن «تحرّق [الـ «أو. أس. أس.»] إلى لعبة رعاة البقر والهنود الحمر» لن يؤدّي إلا إلى المشاكل للتحالف[1].

ترعرع ديرلاف على التقليد الجاسوسي البريطاني الكلاسيكي. تخرج في معهد كوينز في جامعة كامبريدج، وهي ميدان التجنيد التقليدي للاستخبارات السّرية البريطانية، وعمل في مواقع أجنبية في إفريقيا وأوروبا وفي واشنطن. وهو على غرار أسلافه يوقع، بوصفه رئيساً لـ «أم آي ٦»، كل المذكرات الداخلية باسمه الرمزي، «سي» C – ودوماً، بحسب العادة، بالحبر الأخضر.

بعد وقتٍ قصير على هبوط طائرته التي تحمل إشارة النداء «أسكوت-١» في واشنطن، وجد ديرلاف نفسه في مركز مكافحة الإرهابيّين في مقر قيادة الـ «سي. آي. إيه». وراقب الضباط على شاشة كبيرة بثّاً بالفيديو لشاحنة ميتسوبيشي بيضاء تسير على أحد الطرق في أفغانستان. وعرف ديرلاف أن الولايات المتّحدة طورت القدرة على شن حرب بواسطة التحكّم من بعد، لكن لم تسبق له مشاهدة طائرة «البريداتور» التي تطير من دون طيار في أثناء العمل.

انقضت عدة دقائق فيما أصبحت الميتسوبيشي داخل إطار التصويب وسط شاشة الفيديو إلى أن غمر انفجار الصاروخ الشاشة برمتها بالأبيض. واتضحت الصّورة بعد ذلك بثوانٍ ليظهر حطام الشاحنة التي التوت وهي تحترق[2].

استدار ديرلاف نحو مجموعة من ضبّاط الـ «سي. آي. إيه»، بمن فيهم روس نيولاند وهو من قدامى الوكالة وقد تولى قبل ذلك بأشهر مهمّة الإشراف مع مجموعة من الضبّاط الآخرين العاملين في برنامج «البريداتور». وافترّت شفتاه عن ابتسامة ملتوية.

«تكاد لا تمنحهم أملاً بالفرار، أليس كذلك؟»

---

(١) رأي الضابط في شأن الـ «أو. أس. أس» وارد في: Douglas Waller, *Wild Bill Donovan: The Spymaster Who Created the OSS and Modern American Espionage* (New York: Free Press, 2011): 188–189.

(٢) تفاصيل رحلة السّير ريتشارد ديرلاف إلى مقر قيادة الـ «سي. آي. إيه» مصدرها روس نيولاند المسؤول السابق في الـ «سي. آي. إيه» وقد وقف إلى جانب ديرلاف في خلال غارة «البريداتور».

١ : ترخيص بالقتل

«أنتم هنا لقتل الإرهابيّين، لا لصنع الأعداء»(١).

- الرئيس الباكستاني برويز مشرّف للسفيرة
الأميركية ويندي تشامبرلين، ١٤ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠١

خُفضت الأضواء في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض، وشرع رجال الـ «سي. آي. إيه» في عرض الشرائح المصوّرة.

التُقطت الصور على عجل وهي مبرغلة وغير واضحة. بعضها لرجال يدخلون إلى سيارة أو يسيرون في الشارع. بدا المشهد في الغرفة الدكناء أشبه بفيلم عن المافيا يرتشف فيه ضباط الـ «أف. بي. آي» القهوة ويقلّبون صور زعماء العصابات. بيد أن الصور والحالة هذه هي لرجال تقترح وكالة الاستخبارات المركزية قتلهم.

تجمع من حول الطاولة جميع رجال نائب الرئيس، بمن فيهم المستشار القانوني ديفيد أدينغتون ورئيس الموظفين إ. لويس ليبّي، وهو صاحب باع طويل في واشنطن ويعرف باسم «سكوتر». وشاهد نائب الرئيس ديك تشيني، من على رأس الطاولة، عرض شرائح صور المجرمين باهتمام شديد. جرى ذلك في يوم بارد من أيام آخر خريف ٢٠٠١ بعد أسابيع وحسب على توقيع الرئيس جورج و. بوش أمراً سرّياً يمنح الـ «سي. آي. إيه» السّلطة التي خسرتها في السبعينيات بعدما دفعت سلسلة من الإفشاءات المرعبة، والمضحكة أحياناً، عن محاولات الاغتيال التي قامت بها الوكالة

(١) برقية سرية من السّفيرة الأميركية في باكستان ويندي تشامبرلين إلى وزارة الخارجية في ١٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. نُزع خاتم السرّية عن البرقية ونشرها لاحقاً أرشيف الأمن القومي.

بالبيت الأبيض إلى منعها من القضاء على أعداء أميركا. وشرعت الـ «سي. آي. إيه» في ذلك اليوم في غرفة الأوضاع في الإفادة من كيفية استخدام ترخيصها الذي حصلت عليه حديثاً بالقتل[1].

أبلغ خوسيه رودريغيز وإنريكي برادو، ضابطا الـ «سي. آي. إيه» اللذان يديران العرض، المجموعة أن مركز مكافحة الإرهابيّين في صدد تجنيد ضباط من الوكالة لبرنامج جديد فائق السّرية: مشروع يقضي بإدخال فرق من القتلة إلى بلدان أخرى لمطاردة واغتيال الأشخاص الذين أدرجتهم إدارة بوش على لائحة القتل. ومن بين الصور واحدة لمأمون دركزلّي السّوري الذي تعتقد الـ «سي. آي. إيه» أنه ساعد على تنظيم هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ويعيش في ألمانيا في العلن. ووجدت أيضاً صورة للدكتور عبد القادر خان، وهو يعد بطلاً في باكستان لتطويره قنبلتها النووية وشريراً في الغرب لقيامه سرّاً بتحويل التكنولوجيا النووية إلى إيران وليبيا وغيرهما من الدول المنبوذة. وأثبتت الـ «سي. آي. إيه» بالتقاطها كل صورة من الصور من مجال قريب نقطة غريبة واضحة: إذا أمكننا الاقتراب ما يكفي لالتقاط صورهم، فيمكننا أيضاً الاقتراب ما يكفي لقتلهم.

لكن اختفت من وراء هذا التبجّح أسئلة من دون جواب. كيف ستتسلل فرق القتل التابعة للـ «سي. آي. إيه» إلى ألمانيا وباكستان وغيرهما من الدول من دون أن تجذب الانتباه إليها؟ هل يمكن فعلاً مجموعة من القتلة الأميركيين إنشاء شبكة مراقبة والتمكن من ثم، في الوقت المحدّد، من إدخال رصاصة في رأس هدفهم؟ لم تتصور الوكالة أياً من اللوجستيات، لكن رودريغيز وبرادو لم يأتيا إلى البيت الأبيض مستعدين للإجابة عن الأسئلة المفصّلة حول العمليات. بل جاءا وحسب طلباً للإذن.

وأبلغهما تشيني بالشّروع في العمل.

ورث الرئيس جورج و. بوش، ابن المدير السابق للاستخبارات المركزية (حَمَلَ مدير الـ «سي. آي. إيه» قبل ٢٠٠٥ رسمياً لقب مدير الاستخبارات المركزية). الذي أعادت

(١) وصفُ العرض الذي قدمته الـ «سي. آي. إيه» في اجتماع غرفة الأوضاع في البيت الأبيض مصدره أحد المشاركين في الاجتماع، إضافة إلى مسؤول أميركي سابق على معرفة مباشرة بما رشح عن ذلك الاجتماع.

الوكالة تسمية مقرها في لانغلي على اسمه، جهاز تجسس متقلّص وفاقد المعنويات، وهو ظِلّ لما كان عليه في خلال الحرب الباردة. لكن بوش كلّف الـ «سي. آي. إيه» في الأشهر الأخيرة من ٢٠٠١ مسؤولية المطاردة العالمية المنظمة، ولمّعت تأدية الوكالة صورتها بوصفها حيوية ومتجاوبة مع مطالب القائد الأعلى - نقيض البنتاغون المتثاقل والبيروقراطي.

وها إن الـ «سي. آي. إيه» تدير حرباً سرّية بتوجيه من البيت الأبيض، وأصبح مركز مكافحة الإرهابيّين في الوكالة كثير الانشغال لقيادة الحرب بعدما تم تجاهله في السابق. وهو قد مثّل في السابق حالة انعزال داخل الـ «سي. آي. إيه» وقد رأى فيه الكثيرون في لانغلي مجموعةً من المتحمّسين الغريبين الذين انتهى بهم الأمر هناك بعدما فشلوا في مهمّات أكثر اعتباراً. لكن مركز مكافحة الإرهابيّين شرع بعد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر في أكبر توسّع له في تاريخه، وسيصبح على امتداد العقد قلب الـ «سي. آي. إيه» النابض.

سُحب مئات الضباط السرّيين والمحللين من مكاتب آسيا وروسيا وأعيد تعيينهم في متاهة من الحجيرات المبنية على عجل والمحشورة داخل مجمع عمليات مركز مكافحة الإرهابيّين. وبلغ التصميم درجةً من التعقيد بحيث وجد الأشخاص صعوبةً في العثور على زملائهم. ورُفعت شارات من الكرتون للمساعدة على العثور على الحجيرات الواقعة على امتداد «جادة أسامة بن لادن»، و«طريق الظواهري»[1]. ووُضعت في مآل الأمر لافتة فوق بوابة المركز – وهي كناية عن تذكير دائم وثقيل الوطأة بأن هجوماً إرهابياً آخر قد يقع في غضون أيام، بل حتى دقائق. وجاء في اللافتة: اليوم هو ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

قاد ج. كوفر بلاك دوّامة الأشهر الأولى من الحرب، وهو ضابط متوقّد تملّكه هوس مطاردة أسامة بن لادن منذ توليه محطة الـ «سي. آي. إيه» في الخرطوم، عاصمة السُّودان، في الفترة التي عاش فيها بن لادن في المنفى في البلاد. وقد لمّع صورته داخل الـ «سي. آي. إيه» بوصفه نوعاً من التقاطع بين عالِم مجنون وبين الجنرال جورج

(١) Jose A. Rodriguez Jr., *Hard Measures: How Aggressive CIA Actions After 9/11 Saved Lives* (New York: Threshold Editions, 2012): 75.

باتون. وفي ١١ أيلول/سبتمبر عندما خشي بعضهم من توجه الطائرة الأخيرة المخطوفة صوب لانغلي، رفض بلاك السّماح لضباط مركز مكافحة الإرهاب بإخلاء مقر قيادة الـ «سي. آي. إيه» ومجاراة بقية موظفي الوكالة.

ونادراً ما توجه مدير الـ «سي. آي. إيه» في الأشهر التالية إلى البيت الأبيض من دون أن يواكبه بلاك، ونشأت أسطورة حول تصميم بلاك على قتل ما أمكن من عملاء القاعدة[١]. وفي خلال اجتماع عُقد في المكتب البيضوي بعد يومين على الهجمات سأل بوش بلاك هل الـ «سي. آي. إيه» قادرة على الاضطلاع بمهمّتها الجديدة التي تتضمّن إدخال فرق شبه عسكرية إلى أفغانستان لتتحالف مع أسياد الحرب الأفغان ومحاربة الطالبان. وادعى بلاك، في مبالغة بغيضة، أنه في الوقت الذي تنتهي الـ «سي. آي. إيه» من القاعدة «سيسير الذّباب على أحداق بن لادن وأقرانه»[٢]. وذلك هو نوع الكلام الذي أراد بوش سماعه، وأُعجب من فوره برئيس مكافحة الإرهاب ذي الكلام المنمق. إلا أن بعضاً من وزراء حرب الرئيس انكمش من جراء هذا الكلام الذكوري وشرع في الإشارة إلى بلاك بوصفه «فتى الذباب على حدقات العيون»[٣].

أدت مكانة بلاك الرفيعة مع من يُحسب لهم حساب في البيت الأبيض إلى احتكاك داخل الـ «سي. آي. إيه» وإلى معارك مستمرة مع رئيسه جايمس بافيت وقد عده بلاك ضعيفاً ومفتقراً إلى المخيلة. وترأس بافيت مديرية العمليات، ذلك الفرع من الوكالة المسؤول عن كل التجسس الأجنبي ومهمّات العمل الخفي، واعتبر أن بلاك متباهٍ وراعي بقر. كما اعتقد أن بلاك متلهف جداً على توريط الـ «سي. آي. إيه» في ذلك النّوع من المآثر الخارجية، التي شكلت مصدر مشاكل دائمة للوكالة، وهما في السّنوات التي سبقت هجمات ٩/١١ تنازعا في شكل مرير في موضوع هل يجب على الـ «سي. آي. إيه» أن تتبنّى «البريداتور» لمطاردة بن لادن في أفغانستان وقتله.

بيد أن نجاح الاستراتيجية الأولية للـ «سي. آي. إيه» في أفغانستان في أواخر ٢٠٠١، شكل انتصاراً لبلاك ولمركز مكافحة الإرهاب، وبدا أن ذلك يثبت لمن يحطون

---

(١) George J. Tenet, *At the Center of the Storm* (New York: Harper Collins, 2007): 165.

(٢) مقابلة لكوفر بلاك مع برنامج ٦٠ دقيقة، في ١٣ أيار/مايو ٢٠١٢.

(٣) Bob Woodward, *Bush at War* (New York: Simon & Schuster, 2002): 52.

من قدر الـ «سي. آي. إيه» أن ثمة مزايا لقيام كادر صغير من ضباط الوكالة بإدارة حملة ضد تنظيم منتشر مثل القاعدة. وحوّلت فرق من الضبّاط شبه العسكريين في الـ «سي. آي. إيه»، وقد انضم إليهم لاحقاً جنود القُبّعات الخضر في الجيش، شرذمة متصدّعة من المليشيات الأفغانية إلى جيش فاتح. وقام الأفغان الذين يمتطون الجياد أو يركبون آليات عسكرية صدئة من الحقبة السوفياتية بدحر الطالبان من كابول وقندهار.

وقلب النزاع الغريب الجديد كيفية خوض أميركا الحرب رأساً على عقب. فقد تم الدوران بهدوء من حول التسلسل القيادي في زمن الحرب – مروراً بالبيت الأبيض إلى وزير الدفاع إلى قائد ذي أربع نجوم مع المئات من الأركان لوضع خطة الحرب وتنفيذها. وبات مدير الـ «سي. آي. إيه» الآن قائداً عسكرياً يدير حرباً عالمية خفية بواسطة فريق قليل العدد ومن دون الكثير من الإشراف. وأخذ تينيت يدفع بقوة لزيادة عدد فرق الـ «سي. آي. إيه» شبه العسكرية في أفغانستان، وأقنع البيت الأبيض ببرنامج لاعتقال الإرهابيّين وإخفائهم في سجون سرّية وإخضاعهم لنظام «أورويلي» من أساليب الاستجواب الوحشية. وأشرف كل من بوش وتشيني ومجموعة صغيرة في البيت الأبيض فقط على القرارات المتعلقة بمن يجب أن يُعتقل ومن يجب أن يُقتل ومن يجب أن يُترك وشأنه[1].

شكل هذا تغييراً مفاجئاً لتينيت الذي أحب على مدى السنوات التي سبقت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر أن يقول لرؤسائه في البيت الأبيض بأن على ضباط الـ «سي. آي. إيه» أن يبقوا مُستَبعَدين عن عملية صنع السياسة. واستحضر ما يكاد يوازي الصّورة الرهبانية للجواسيس في لانغلي الذين ينتجون تقويمات استخبارية فيما يتخذ أولئك الموجودون «في الضفة المقابلة من النهر»، في البيت الأبيض والكونغرس، القرارات استناداً إلى هذه التقويمات. وسيبلغ جايمس بافيت لاحقاً محقّقي لجنة ٩/١١ أن إحدى أُمثولات فضيحة إيران – الكونترا في الثمانينيات تمثلت في «أننا لا نصنع السياسة من [لانغلي] ... وأنتم لا تريدوننا أن نفعل ذلك»[2].

(١) استُكشفت هذه الفكرة في شكل أكثر عمقاً في: Philip Zelikow, "Codes of Conduct for a Twilight War", *Houston Law Review* (April 16, 2012).

(٢) "Intelligence Policy", National Commission on Terrorism Attacks Upon the United States, 9/11 Commission Staff Statement No. 7 (2004).

وإذا شكَلت هذه الفكرة بالفعل نوعاً من الأسطورة المفيدة، فإنه لم يعد في وسع الـ «سي. آي. إيه» الادعاء مع حلول أواخر ٢٠٠١ أنها تنأى بنفسها عن القرارات المختلطة المتعلقة بالحرب وبالسّلم. وطلب بوش بأن يحضر تينيت في كل يوم إلى المكتب البيضوي للمشاركة في الموجز الرئاسي اليومي - وتلك هي المرة الأولى منذ تأسيس الوكالة التي يقدّم فيها مدير الـ «سي. آي. إيه» بدلاً من محلل عادي الموجز اليومي المنتظم في البيت الأبيض. وتاق تينيت، على غرار أسلافه في الـ «سي. آي. إيه»، إلى بلوغ الرئيس ووصل في كل صباح، يرافقه كوفر بلاك، إلى البيت الأبيض مع قائمة من المؤامرات الإرهابية والمتآمرين ليخبر الحضور المنتشين بالخطوات التي تتّخذها الـ «سي. آي. إيه» لحماية البلاد. وجعلت اللقاءات اليومية مع الرئيس من تينيت والـ «سي. آي. إيه» ضرورةً للبيت الأبيض، الذي تملّكه عطش لا يرتوي إلى المعلومات في شأن أي تهديدات.

غير أنه كان لمثل هذا الانتباه الرفيع المستوى تأثير مشوه في التحليل الصادر عن الـ «سي. آي. إيه» - فضاق أفقه وأصبح أكثر تكتيكية. وانكب حينئذٍ المئات من محللي الـ «سي. آي. إيه» على العمل على الإرهاب، وهذا مفهوم في أعقاب الهجوم الذي قتل ما يقارب الثلاثة آلاف أميركي. غير أنه اتضح للمحللين على الفور أن طريق الترقية في المهنة في الـ «سي. آي. إيه» يتمثل في الشّروع في العمل على الإرهاب بغية إنتاج مادة قد تُقرأ على مسامع الرئيس في المكتب البيضوي في الصباح الباكر من أحد الأيام. وأكثر ما اهتم به البيت الأبيض هو الخيوط التي تؤدّي إلى معرفة مكان عملاء محدّدين للقاعدة وليس الموضوعات الأوسع مثل مستوى الدعم الذي تحظى به القاعدة في العالم الإسلامي، أو التأثير الممكن لعمليات الجيش والاستخبارات في تطرف الجيل الجديد من المناضلين. وركّزت الـ «سي. آي. إيه» جهودها وفقاً لذلك.

وأخذت حتى لغة حرفة التجسس تتغير تدريجاً. وسبق للضباط المشغلين والمحللين في الـ «سي. آي. إيه» أن استخدموا تعبير «استهداف» وهم يتّخذون القرارات في شأن أي مسؤول حكومي أجنبي يجب استهدافه للحصول على معلومات أو أي مواطن أجنبي يمكن تحويله إلى مخبر للوكالة. وباتت عبارة «استهداف» تعني في النهاية أمراً مختلفاً

تماماً بالنسبة إلى المحللين، الذين انتقلوا إلى مركز مكافحة الإرهاب. وباتت تعني مطاردة شخص يُعتبر أنه يمثّل تهديداً للولايات المتّحدة واعتقاله أو قتله.

احتدت النزاعات بين كوفر بلاك وجايمس بافيت، وقرر بلاك بحلول مطلع ٢٠٠٢ قبول وظيفة في وزارة الخارجية[١]. وحل محله خوسيه رودريغيز وكان في السابق واحداً من كبار ضباط مركز مكافحة الإرهاب وهو القرين المتواضع لبلاك. حاز كوفر بلاك خبرةً في الشّرق الأوسط وهو واحد من قلّة من ضباط الـ «سي. آي. إيه» الذي يمتلك معرفة وثيقة بشبكة الإرهاب التي يقودها أسامة بن لادن؛ ولم يسبق قط لرودريغيز أن خدم في العالم الإسلامي كما أنه لا يتحدث العربية. لكنه مقرّب من بافيت وقد ارتاب بعض ضباط الجهاز الخفي في وضع رودريغيز أساساً في المركز ليتمكن بافيت من مراقبة بلاك. والتحق رودريغيز، المولود في بورتوريكو لوالدين مدرّسين، بوكالة الاستخبارات في أواسط السبعينيات بعد تخرّجه في كلية الحقوق في جامعة فلوريدا. أمضى معظم حياته المهنية السرّية داخل قسم أميركا اللاتينية، موطن مغامرات الـ «سي. آي. إيه» في نيكاراغوا والسّلفادور وهندوراس في خلال الثمانينيات. لكن رودريغيز كان لا يزال في ذلك الوقت ضابطاً صغيراً بما يكفي لتفادي الوقوع في شرك التحقيقات في فضيحة إيران - الكونترا التي ستعطّل القسم على مدى سنين. وكان محبوباً داخل الجهاز الخفي لكنه لم يميّز نفسه قط كواحد من أفضل الضبّاط المشغّلين في مجموعة أقرانه في الـ «سي. آي. إيه». خدم في عدد من محطات الوكالة في أميركا اللاتينية، بما في ذلك بوليفيا والمكسيك، وأعطى صورة أنه متمرّد يحب مواجهة البيروقراطيين في لانغلي الذين اعتقد أنهم يتدخلون في الإدارة التفصيلية للعمليات الميدانية. وهو متعطّش إلى الفروسية، وفيما تولى رئاسة المحطة في مكسيكو أطلق على حصانه المفضل اسم «عمل» («بيزنيس»)، وأعطى التعليمات لمرؤوسيه في حال اتصل أحد الرؤساء في لانغلي للاستعلام عن مكانه أن يبلغوه بأن رودريغيز «خرج في عمل»[٢].

---

(١) لم يعد بلاك وبافيت يتبادلان الكلام إلا لماماً. وبحسب عدد من المسؤولين السّابقين في الـ «سي. آي. إيه» دفعت شعبية بلاك في البيت الأبيض رئيس مركز مكافحة الإرهاب إلى تجاهل رؤسائه في لانغلي، وقد أعلن في شكل متكرر «أنا أعمل للرئيس». وقبل بلاك، بعد انقضاء زمنه في وزارة الخارجية، وظيفةً إدارية رفيعة في «بلاكووتر يو. أس. إيه».

(٢) Rodriguez Jr.، مصدر سابق، ص ٢٠.

عندما تولى في ١٩٩٥ قسم أميركا اللاتينية حدث ذلك مرةً أخرى في حالة من اللغط. فقد طرد جون دويتش، المدير الثاني للـ «سي. آي. إيه» في عهد كلينتون، من فوره عدداً من الضبّاط المشغَلين في ما تطلق عليه الـ «سي. آي. إيه» مجازاً «إقفال واستمرار الاتصالات مع مواطنين أجانب». وبعباراتٍ أخرى، قام الرجال الموجودون في أميركا اللاتينية بأعمال غير مشروعة، وساد القلق من أن فحشهم سيجعلهم عرضةً للابتزاز. وسرعان ما تعرّض رودريغيز لمشكلاته الخاصة. فقد قام، بعد توقيف أحد رفاق طفولته في جمهورية الدومينيكان بتهمة تتعلق بالمخدرات، بالتدخل لمنع الشّرطة الدومينيكانية من ضرب صديقه وهو في السجن. وشكل ذلك تضارباً واضحاً في المصالح أن يتدخل رئيس قسم أميركا اللاتينية في الـ «سي. آي. إيه» لدى حكومة أجنبية لمصلحة صديق له، وأنّب المفتّش العام لوكالة الاستخبارات رودريغيز على «إظهاره عجزاً ملحوظاً عن الحكم على الأمور». وفصل من عمله[1].

لكن سيرته المهنية عادت وانطلقت بحلول ٢٠٠١، ووجد رودريغيز نفسه بين عدد من قدامى أميركا اللاتينية - بمن فيهم صديقه إنريكي برادو - يساعد على إدارة حرب الـ «سي. آي. إيه» الجديدة. وأصبح من المواظبين على حضور اجتماعات الساعة الخامسة من بعد ظهر كل يوم حول طاولة مؤتمرات تينيت حيث يُطلع كبار مسؤولي الـ «سي. آي. إيه» على آخر تطوّرات ساحة المعركة المتعلقة بالعمليات في أفغانستان وغيرها. وكان أن طرح رودريغيز في واحد من هذه الاجتماعات اقتراحاً مرتجلاً سيؤدّي إلى واحد من أكثر القرارات الفادحة التي تتّخذها إدارة بوش.

تمثل السؤال المطروح على المجموعة عمّ يجب فعله بجميع مقاتلي الطالبان الذين تقبض عليهم القوات الأميركية والـ «سي. آي. إيه» في أفغانستان. أين يمكن احتجازهم على المدى الطويل؟ وتحول الاجتماع إلى جلسة استحثاث ذهني اقترح فيها مختلف ضباط الـ «سي. آي. إيه» بلداناً قد تكون على استعداد لاستقبال المحتجزين. واقترح أحد الضبّاط سجن أوشويًا في تييرا دل فويغو الأرجنتينية، وهي منشأة موحشة في قعر العالم. واقترح آخر جزيرتي كورن، وهما بقعتان صغيرتان في البحر الكاريبي قبالة

(١) David Wise, "A Not So Secret Mission", *Los Angeles Times* (August 26, 2007).

سواحل نيكاراغوا. لكن تم رفض كل هذه الاقتراحات بوصفها خيارات غير واقعية. وطرح رودريغيز في النهاية فكرةً أشبه بالدعابة.

قال: «حسناً، يمكننا وضعهم في خليج غوانتنامو».

ضحك جميع من حول الطاولة وهم يفكرون كم سيغضب فيدل كاسترو لو أن الولايات المتّحدة ستعمد إلى سجن أسرى حربها الجديدة في القاعدة الأميركية في كوبا. لكنهم كلما فكروا في هذا الاحتمال بدا للجميع أن غوانتنامو هي في الواقع فكرة منطقية. فهي منشأة أميركية ولن يُجازف بمصير السّجناء كما سيجري في بلد آخر في حال تغيرت زعامة حكومتها وقرّرت طرد سجناء الولايات المتّحدة. وتصوّر مسؤولو الـ «سي. آي. إيه» أن السّجن في خليج غوانتنامو سيكون خارج نطاق سلطة المحاكم الأميركية. وبدا أنه الموقع المثالي.

أضحت كوبا المكان الأول الذي توصي به الـ «سي. آي. إيه» للسجن الأميركي الجديد. وسرعان ما ستبني الوكالة سجنها السرّي الخاص في واحدة من زوايا مجمع سجن خليج غوانتنامو، وهو منشأة تخضع لإجراءات أمنية قصوى أطلق عليها ضباط الـ «سي. آي. إيه» اسم «حقول الفراولة» لأنه افتُرض بالسّجناء أن يبقوا فيها «إلى الأبد» كما تقول أغنية البيتلز[1].

تبين في الميدان المشوش للمعركة على بعد سبعة آلاف ميل من واشنطن، أن حرب القرن الواحد والعشرين الأولى تتحول إلى مسألة أكثر اتساماً بالفوضى، مما ظهر في البداية داخل متاهات الحجيرات في الـ «سي. آي. إيه»، أو في عروض «الباوربوينت» المرتّبة التي قَدمت في المكاتب المدفوفة بالخشب في الطبقات العليا من البنتاغون. ولم تعد أفغانستان، بحلول مطلع ٢٠٠٢، حرباً تشهد إطلاق نار يومياً ولا سلاماً مأمولاً، بل نزاعاً مدمراً ينهكه التنافس والارتياب في الجنود والجواسيس. وغالباً ما ارتكزت المهمّات الأميركية على أجزاء من الاستخبارات من مصادر غير موثوق بها، كما عندما أمضى عشرات مغاوير البحرية والمارينز ثمانية أيام يحفرون القبور في عقدة من الكهوف في زهوار كيلي، في شرق أفغانستان، استناداً إلى معلومات بأن بن لادن قد يكون قتل في

(١) David Johnston, and Mark Mazzetti, "A Window into CIA's Embrace of Secret Jails", *The New York Times* (August 12, 2009).

غارة أخيرة على القاعدة. وأملوا نبش جثة بن لادن وتوفير سبب لإنهاء حرب أفغانستان بعد ثلاثة أشهر وحسب على بدئها. استخرجوا عدداً من الجثث لكنهم لم يعثروا على تلك التي بحثوا عنها(١).

وأدى سوء التواصل بين الـ «سي. آي. إيه» والجيش في بعض الأحيان إلى نتائج قاتلة. ففي الثالث والعشرين من كانون الثاني/يناير شنّت مجموعة من القُبّعات الخضر في الجيش غارةً تحت جُنْحِ الظلام على مجمّعين في «هزار قدام» على بعد مئة ميل شمال شرقي قندهار. والمجمعان كناية عن عدّة مبان تجثم على سفح إحدى التلال. حلّقت طائرة هليكوبتر هجومية من نوع «إي سي ١٣٠» في شكل دائري من فوق، فيما اقتحمت فرقتان المجمعين في وقت واحد(٢).

انطلقت رشقات متقطّعة من رشاشات الكلاشنكوف من المباني، فيما فجّرت الفرقتان ثغرةً في السّور الخارجي. ردّ الأميركيون على النار وشرعوا في الانتقال من غرفة إلى غرفة فيما اشتبك بعضهم بالأيدي مع المسلحين الذين يُشتبه في كونهم من الطالبان. وبانتهاء المهمّة كان الأميركيون قد قتلوا ما ينيف على أربعين شخصاً داخل المجمعين وحولت الهليكوبتر الأبنية إلى ركام.

لكن ما عرفه الجنود بعودتهم إلى قاعدتهم هو أن الـ «سي. أي. «إي». عمدت قبل يومين إلى إقناع الرجال في المجمعين بإدارة ظهورهم للطالبان والمحاربة لمصلحة الطرف الآخر. وقد رُفع على المباني في تلك الليلة علم حكومة أفغانستان الجديدة بقيادة حامد كرزاي. ولم تخبر الـ «سي. آي. إيه» قط قوة مهمّات العمليات الخاصة أن عشرات الرجال الأفغان المقيمين في المجمعين باتوا الآن من الحلفاء.

نتج جزء من البلبلة في أفغانستان من الاضطراب الطبيعي في ميدان المعركة، لكنه يجد أيضاً أصوله في التسابق بين البنتاغون والـ «سي. آي. إيه» على السيطرة في النزاع

---

(١) تفاصيل عملية التنقيب في زهوار كيلي تأتي من تأريخ مغاوير البحرية للمهمة في ٢٠٠٢. والتأريخ بعنوان "The Zhawar Kili Cave Complex: Task Force K-Bar and the Exploitation of AQ008, Paktika Province, Afghanistan".

(٢) تأتي تفاصيل عملية هزار قدام من التاريخ الداخلي للغارة في قيادة العمليات الخاصة الأميركية، إضافة إلى مقابلات مع عناصر من قوة عمليات المهمّات الخاصة المتمركزة في قندهار.

الأميركي الجديد. فقد شعر وزير الدفاع دونالد رامسفلد بقرصة لأن فرق الـ «سي. آي. إيه» شبه العسكرية وصلت أوّلاً إلى أفغانستان. وليس الأمر مجرّد لوجستيات وحسب مع أنه صحيح أن الطقس السيّئ ومشاكل الوصول إلى القواعد حول أفغانستان أخّرا وصول القُبّعات الخضر؛ ولكن الـ «سي. آي. إيه». هي التي تصوّرت الاجتياح، منذ استهلاله، وقادته فيما أدى الجيش دوراً مسانداً. وتضايق رامسفلد من قدرة الـ «سي. آي. إيه» على التحرك بسرعة أكبر من الجيش وبكسر بسيط من ميزانية البنتاغون ومن طاقته البشرية. وشرع في إصلاح شامل لبيروقراطية البنتاغون لضمان عدم حدوث ذلك من جديد.

أخذ رامسفلد يكافح في جهوده لتجديد وزارة الدفاع وقد وجدها ضيّقة الأفق تسيطر عليها كثيراً أجهزة عسكرية محدودة التفكير، مشغولة في حماية أنظمتها الدفاعية القيمة. وسبق لرامسفلد أن تولى وزارة الدفاع في عهد إدارة فورد، وها قد عاد إلى البنتاغون بعد جولةٍ ناجحة في عالم الأعمال. وجمع ثروةً شخصية في شركة ج. د. سيرل للأدوية حيث سوّق منتجات أغرقت الأسواق مثل «نيوتراسويت» وبرتقال «ميتاموسيل»، وقد أوضح نياته لدى توليه البنتاغون: أراد تطبيق قوانين القطاع الخاص على وزارة الدفاع المتورّمة.

وسرعان ما سيصبح رامسفلد، وقد بلغ التاسعة والستين، وزير الدفاع الأكبر سنّاً في التاريخ الأميركي، وحازت شكاواه المتكررة من الهدر في وزارة الدفاع نكهة الجَدّ، الذي ينسج الروايات عن الحياة في خلال الركود الاقتصادي الكبير. وأدت جهوده لتجديد البنتاغون إلى مقارنات فورية بتلك التي بذلها روبرت مكنمارا، وزير الدفاع في عهد إدارتي كنيدي وجونسون، وقد أتى من شركة «فورد موتور» مع «أطفاله النوابغ» (Whiz kids) وهو مصمّم على تغيير ثقافة البنتاغون. وأطلق بعض الجنرالات ممن أثارت مقاربة رامسفلد استياءهم على مجموعة رجال الأعمال المتقدّمين في السن، الذين جلبهم رامسفلد معه لإدارة مختلف الأجهزة العسكرية لقب «الأطفال الذين يجدون صعوبة في التنفس» (Wheeze kids)[1] وقد سبق للجيش، حتى الوقت الذي ارتطمت فيه طائرة الرحلة ٧٧ التابعة لشركة الخطوط الأميركية بالواجهة الغربية للبنتاغون

(١) تعمد الكاتب اللعب على الكلام حين استخدم عبارتي: Whiz وWheeze بالإنكليزية. (المترجم)

صباح ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، أن نجح في إحباط الكثير من المحاولات الأكثر طموحاً التي بذلها رامسفلد لإلغاء الأسلحة الغالية الثمن والعائدة إلى حقبة الحرب الباردة. ودارت تكهنات «على المفضوح» في واشنطن بأن رامسفلد قد يصبح أول عضو كبير يستقيل في إدارة بوش. لكنه تحوّل في السنة التالية إلى أكثر أعضاء حكومة بوش بروزاً وشعبية. وبحلول كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ دفعت الولايات المتّحدة الطالبان خارج مدن أفغانستان مستخدمةً خطة حرب مبتكرة حاز فيها رامسفلد الفضل المعلن وجعلت منه ملخصاته الصحافية الفظة والبارزة الوجه العام، الذي يمثل ردّ إدارة بوش على الهجمات الإرهابية، التي قتلت ما يقارب الثلاثة آلاف أميركي. ولم ينمّق رامسفلد ألفاظه أو يغرق في التعابير العسكرية لدى الحديث عن أهداف الحرب. بل تحدث عن «قتل الطالبان».

رأى رامسفلد في قت مبكر أن الكثير من الحروب الجديدة سيُخاض في الزوايا المظلمة من العالم، بعيداً من مناطق الحرب المعلنة. وهي لن تشبه في شيء المناوشات التي دارت بين جنود المشاة في القرن التاسع عشر، وحرب الخنادق في الحرب العالمية الأولى، ومعارك الدبابات في الحرب العالمية الثانية. فالبنتاغون يحتاج إلى الشروع في إرسال جنود إلى أماكن لا يُسمح – بحسب القانون والعرف – إلا للجواسيس بالذهاب إليها. ولم يمتلك البنتاغون، مثلاً، في ذلك الوقت خلية متكرّسة لمكافحة الإرهاب شبيهة بمركز مكافحة الإرهاب في الـ «سي. آي. إيه»، غير أن رامسفلد اقترح في غضون أسابيع على هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، إنشاء واحدة خاصة به، ولكن أكبر. وكتب في مذكرة إلى مدير الـ «سي. آي. إيه» تينيت، «بحسب كل ما سمعته فإن مركز مكافحة الإرهاب صغير جداً للقيام بعمله ٢٤ ساعة على ٢٤»، وبعث لتينيت باقتراح يشرح فيه خطته لإنشاء قوة مهمّات استخبارية مشتركة لمكافحة الإرهاب، وهي منظمة جديدة تماماً تمنح البنتاغون السيطرة على الحرب الجديدة[1].

بعد أربعة أيام على إرسال الاقتراح إلى تينيت، جمع رامسفلد أفكاره حول مدى الحرب الجديدة في مذكرة فائقة السّرية رفعها إلى الرئيس بوش. قال إن الحرب ستكون

(١) Donald H. Rumsfeld memorandum to George Tenet, "JIFT-CT". September 26, 2001.

شاملة وعلى الولايات المتّحدة أن تكون واضحةً في شأن أهدافها النهائية. وكتب للرئيس، «إذا لم تغيّر الحرب بصورة واضحة خريطة العالم السياسية فلن تحقّق الولايات المتّحدة هدفها»(١).

لما يمتلك البنتاغون بعد الآلية الجاهزة لخوض مثل هذه الحرب، وقد عرف رامسفلد، والجميع، ذلك جيداً. وهناك الكثير مما ينبغي القيام به.

في ليلة صافية من مطلع شباط/فبراير ٢٠٠٢، قفز ثلاثة رجال أفغان وصبي من شاحنة بيضاء إلى الظلمة وثيابهم تتطاير من حولهم فيما مراوح الهليكوبتر الأميركية تحرّك بعنف الغبار المتصاعد إلى السّماء. لوّحوا بأيديهم بشدة فيما اقتربت منهم مجموعة من الكوماندوس وفُوّهات أسلحتهم مصوبة إلى الأمام(٢).

وعلى بعد خمسة أميال إلى الشمال، في داخل مركز للعمليات مرتجل محاذ لقندهار، شاهد جنود العمليات الخاصة مسار المهمة في بث فيديو وفّرته طائرة لـ«سي. آي. إيه» تطير بلا طيار. التقط قائد العمليات الخاصة النقيب في البحرية روبرت هارْوِرْد هاتفاً مأموناً واتصل برؤسائه في الكويت لإبلاغهم في شأن الأسرى. وقال إن الملا خيرالله خيرخوا، أحد قادة الطالبان الذي يطارده الجميع، أصبح الآن قيد التوقيف.

سادت فترة توقف طويلة على الجانب الآخر من الخط. وأخيراً تحدث من الكويت الفريق بول ميكولاشيك. وسأل، «هل ستتمكن من إعادتهم إذا تبيّن أنهم ليسوا الأشخاص المطلوبين؟».

ألقى هارورد نظرة حائرة على الضباط الآخرين في مركز القيادة. وأخذ نفساً عميقاً لاحتواء غضبه وأكد للفريق أنه في الإمكان - إذا اقتضى الأمر ذلك - إعادة الموقوفين إلى المكان الذي أُسروا فيه، وهم قد كُبّلوا على الفور ودُفعوا إلى الهليكوبتر التي تطير بهم إلى قندهار.

(١) Donald H. Rumsfeld, "Memorandum for the President", September 30, 2001.

(٢) تفاصيل ملاحقة الملا خيرخوا واعتقاله مأخوذة من التأريخ السرّي لقيادة العمليات الخاصة الأميركية، وكذلك من مقابلات مع عناصر في قوات المهمّات الخاصة المتمركزة في قندهار.

وما عرفه ميكولاشيك من فوره، لم يكن هارورد قد أخذ علماً به بعد، حيث أن الهليكوبتر لا تقل الملا خيرخوا ومساعديه. فقد انتقل خيرخوا، وزير داخلية الطالبان، بشاحنة أخرى بيضاء عبر الحدود تواً إلى باكستان. والـ «سي. آي. إيه» عرفت ذلك.

إنه الشهر الرابع للحرب الأفغانية والجنود الأميركيون يتدفقون على البلاد بأعداد كبيرة. شُكّلت على الفور حكومة جديدة في كابول، وأمضى الملا خيرخوا أياماً في التفاوض مع أحمد والي كرزاي، الأخ غير الشقيق للرئيس الأفغاني الجديد، في شأن أن يستسلم ويصبح مخبراً للـ «سي. آي. إيه». وأحمد والي هو نفسه على جدول رواتب الـ «سي. آي. إيه» - التحالف الذي سيصبح بعد ذلك بسنوات مصدراً للتوتر بين الـ «سي. آي. إيه» والجيش في كابول - وأوصل الجواسيس الأميركيون الرسالة إلى الملا خيرخوا بأن في وسعه تفادي التوقيف والإقامة الطويلة في السجن المبني حديثاً في خليج غوانتنامو.

إلا أن الملا خيرخوا بقي بعد عدة أيام من التفاوض غير متيقن أن في إمكانه الوثوق بالأميركيين. واتصل هاتفياً بقائد آخر في الطالبان لإبلاغه بتخطيطه للهرب إلى باكستان؛ واعترض الجواسيس العسكريون الأميركيون الاتصال. وحذّر ضباط الاستخبارات ميكولاشيك الذي طلب إلى النقيب هارورد في قندهار اعتقال وزير الطالبان قبل تمكنه من بلوغ الحدود. انطلقت طائرات الهليكوبتر متجهة جنوباً للإمساك بخيرخوا وطارت في الطليعة «البريداتور» التابعة للـ «سي. آي. إيه» وهي تتعقّب الشاحنة البيضاء.

بيد أن الـ «سي. آي. إيه» امتلكت خطة أخرى. فقد أجبرت حرب أفغانستان وكالة التجسس على التعاون الوثيق مع وكالة الاستخبارات الباكستانية، مديرية أجهزة الاستخبارات، واعتقد ضباط الـ «سي. آي. إيه» أنهم قد يتمكّنون من حمل الجواسيس الباكستانيين على اعتقال الملا خيرخوا وتشجيعه على أن يصبح مخبراً. أو، على أقل تقدير، إن عملية توقيف معلنة في باكستان لزعيم في الطالبان قد تكسب إسلام آباد بعضاً من الرضا في واشنطن.

بعد قليل على انطلاق الهليكوبتر من قندهار انحرفت طائرة الـ «سي. آي. إيه» التي تطير من دون طيار عن تعقّب شاحنة خيرخوا وأعمت الجنود في الهليكوبتر عن موقع هدفهم. وشرع ضباط الاستخبارات داخل موقع قيادة العمليات الخاصة في الصياح عبر

هواتفهم طالبين استئناف عملية المراقبة، التي تقوم بها «البريداتور». وانقضت عدة دقائق قبل أن تصل «بريداتور» ثانية - وتشرع في تعقّب شاحنة بيضاء مختلفة تماماً.

أخذت الـ «سي. آي. إيه» الآن تقود الكوماندوس في الهليكوبتر إلى الهدف الخاطئ، فيما أسرع الملا خيرخوا وحاشيته إلى الحدود الصحراوية في «سبين بولداك» ومنها إلى داخل باكستان. وبعد ذلك بأيام، وفي إثر جولات غير مثمرة من المفاوضات لتحويل خيرخوا إلى مخبر، طوقت قوات الأمن الباكستانية المنزل الذي يختبئ فيه في قرية شامان. وسلّم الجواسيس الباكستانيون القائد في الطالبان إلى ضباط الـ «سي. آي. إيه» في كويتا، باكستان، وشرع الملا خيرخوا في رحلته الطويلة إلى خليج غوانتنامو في كوبا ليصبح واحداً من أول نزلاء سجن الجزيرة[١].

أما بالنسبة إلى الرجال الثلاثة والصبي الذين أوقفوا وجُلبوا إلى منشأة للتوقيف في قندهار، فقد أعيدوا إلى الهليكوبتر التي طارت بهم عائدةً مسافة أربعين ميلاً إلى الجنوب حيث بقيت شاحنتهم في الموقع نفسه، الذي كانت فيه قبل أن تكمن لهم الهليكوبتر الأميركية. وأُرسل الأفغان في حال سبيلهم مع عدة صناديق تحتوي على أطعمة عسكرية جاهزة. وقد أزيلت منها كل الوجبات التي تحتوي على لحم الخنزير احتراماً لإيمان الموقوفين.

(١) Memorandum for Commander, United States Southern Command, March 6, 2008, "Recommendation for Continued Detention Under DoD Control for Guantánamo Detainee, ISN US9AF-000579DP(S)". Available at http://projects.nytimes.com/guantanamo/detainees/579-khirullah-said-wali-khairkhwa.

٢: تزاوج بين الجواسيس

«رأت باكستان دوماً مثل هذه الأمور بالأسود والأبيض»[1].

- الفريق محمود أحمد، رئيس وكالة الاستخبارات الباكستانية ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

تخرجت أجيال من ضباط الـ«سي. آي. إيه» من «المزرعة»، منشأة التدريب التابعة للوكالة في سهل فرجينيا، وقد تعلمت الدرس الأول في حرفة التجسس: لا يوجد شيء اسمه جهاز استخبارات صديق. بل وُجدت أجهزة التجسس في البلدان الأخرى ليتم اختراقها و«تحويل» ضباطها إلى العمل لمصلحة الولايات المتّحدة من خلال التجسس على بلدانهم. قد تشكّل أجهزة الاستخبارات الأجنبية فائدة في العمليات المشتركة، إلا أنه لا يمكن الوثوق بها تماماً أبداً. وكلما زاد الاعتماد على أجهزة الارتباط في عملية ما زاد حجم الخطر حول نسف العملية.

وتلك فلسفة عملت بما يكفي من الجودة في خلال الحرب الباردة عندما تمثلت مهمة الـ«سي. آي. إيه» الأساسية في سرقة أسرار الاتحاد السوفياتي والدول التابعة له - أي التجسس الخارجي التقليدي. وعرف الرؤساء في لانغلي أن السوفيات يحاولون القيام بالأمر نفسه تماماً في الولايات المتّحدة، كما عرفوا أن موسكو زرعت جواسيسها

(١) Mahmoud Ahmed to Richard Armitrage, "Deputy Secretary Armitage's Meeting with Pakistan Intel Chief Mahmud: You're Either with Us or You're Not", State Department cable, September 12, 2001. أزال أرشيف الأمن القومي طابع السرّية عن هذه الوثيقة والكثير غيرها مما تم الاستشهاد به في هذا الكتاب ونشرها في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠١١.

في أجهزة الاستخبارات الأجنبية لمزيد من الوصول إلى الأسرار الأميركية. وما السبب الرئيس في التقرب من الجواسيس الأجانب إلا لأهداف مكافحة التجسس: تصوّر العمق الذي اخترق جهاز استخبارات أجنبي آخر الـ «سي. آي. إيه» والإمساك بالخلد (الشخص العامل في الظلام) قبل أن يتمكن من الحفر عميقاً جداً.

لكن سرعان ما غيّرت إملاءات الحرب الجديدة قواعد لعبة التجسس. لم تعد أولوية الـ «سي. آي. إيه» القصوى تتمثّل في جمع المعلومات عن الحكومات الأجنبية وبلدانها، بل في المطاردة. وأضفت المهمّة الجديدة قيمةً على عملية الحصول على معلومات مفصّلة عن أفراد محدّدين، ولا تهم كثيراً كيفية جمع تلك المعلومات. وبنتيجة ذلك أصبحت الـ «سي. آي. إيه» في شكل فوري أكثر اعتماداً على أجهزة التجسس الخارجية، التي أمضت أعواماً في تكديس الملفات المتعلقة بالتنظيمات الإرهابية. وسعت الـ «سي. آي. إيه» يائسة إلى المعلومات لوقف الهجوم التالي فلم تدقّق كثيراً في عملية اختيار أصدقائها. وفي السنوات الأولى التي أعقبت هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، أخذت علاقات الـ «سي. آي. إيه» بأجهزة الاستخبارات ذات التاريخ الوحشي الكريه - مخابرات مصر، مديرية الاستخبارات العامة الأردنية، وكذلك جهاز استخبارات الدولة الليبية المنبوذة التابعة لمعمر القذافي - تصبح أشد وثوقاً.

استساغ بعض زعماء هذه البلدان فكرة إلقاء المحاضرات على الولايات المتّحدة في شأن العمل الشجاع المتمثل في مطاردة الإرهابيّين. وفي خلال حفلة عشاء في القاهرة في مطلع تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، نصح الرئيس المصري حسني مبارك دونالد رامسفلد بأنه لا نفع كبيراً للقنابل في الحرب الأميركية الجديدة، وبأن على الولايات المتّحدة أن «تستخدم أموالها لشراء الحلفاء على الأرض في أفغانستان». ولا شك في أن مبارك، الفرعون المعاصر الذي وطد جزءاً من سلطته بسحق الحركات الإسلامية في بلاده، وجد أن لديه الكثير ليربحه من شراكته مع الولايات المتّحدة التي تتلمس استراتيجية جديدة ضد الإرهابيّين. وقال لرامسفلد، بمباهاة بلاغية: إن الحرب على الإرهاب ضرورية «لإنقاذ كوكب الأرض»[1].

(١) Donald Rumsfeld to George W. Bush, "Memorandum for the President: My Visits to Saudi Arabia, Oman, Egypt, Uzbekistan, and Turkey", (October 6, 2001).

إلا أنه لم توجد بالنسبة إلى الـ «سي. آي. إيه»، وهي الآن في حالة حرب، علاقة أهم من تلك القائمة مع وكالة الاستخبارات الباكستانية. وهي العلاقة التي امتلكت عبر الأعوام كل خصائص الزواج الفاشل: فقد الطرفان منذ زمن بعيد ثقة كليهما بالآخر، لكنهما لم يتمكنا قط من تخيل الانفصال بينهما.

وهكذا شكّلت الصلة بين جهازي الاستخبارات صورة مصغّرة عن العلاقات الأميركية - الباكستانية. فالروابط الوثيقة بين الـ «سي. آي. إيه» ووكالة الاستخبارات الباكستانية في الثمانينيات، عندما أدخل الجواسيس الأميركيون والباكستانيون الأسلحة إلى أفغانستان ودرّبوا المجاهدين على إسقاط الهليكوبتر الروسية، قد تأكلت في التسعينيات. وقد فقدت واشنطن الاهتمام بأفغانستان ما بعد السّوفيات وفرضت عقوبات قاسية على إسلام آباد قصاصاً لها على برنامجها الذري السّري. وشرعت باكستان في رعاية الطالبان، وهم مجموعة من رجال القبائل البشتون شبه الأميّين من الجزء الجنوبي من أفغانستان، كثقل موازن للفصائل التي يتألف منها تحالف الشّمال الذي يتلقى منذ وقت طويل الدعم من الهند.

رأت وكالة الاستخبارات الباكستانية في الطالبان حلفاء من البشتون يمكنهم، بالرغم من أنهم غريبو الأطوار ومتعصّبون، منع تحالف الشمال من السّيطرة على أفغانستان وإقامة ما تخشى إسلام آباد من أن يصبح دولةً وكيلةً للهند على امتداد حدودها الغربية. وتصوّر المسؤولون العسكريون الباكستانيون أيضاً أنهم استحقوا الإمساك بخيوط الحكم في كابول بعد كل ما فعلوه لطرد الاتحاد السوفياتي من أفغانستان.

ومع توفير الاستخبارات الباكستانية الدعم للطالبان بالمال والمشورة المتعلقة بالاستراتيجية العسكرية ومع إقفال صنبور المال من واشنطن إلى إسلام آباد، وجد المسؤولون الأميركيون المتمركزون في إسلام آباد في خلال التسعينيات، أنهم لا يمتلكون نفوذاً لدى وكالة الاستخبارات الباكستانية حين طلبهم من الجواسيس الباكستانيين أن يحثّوا حكومة الطالبان في كابول على تسليم أسامة بن لادن. ورفعت الولايات المتّحدة في أواخر ١٩٨٩ من وتيرة ضغطها بعدما فجرت القاعدة في وقت واحد السفارتين الأميركيتين في كينيا وتنزانيا، لكن جهاز التجسس الباكستاني لم

يتزحزح. وبعث الأميركيون في باكستان بسلسلة من البرقيات إلى واشطن يفصلون فيها إحباطاتهم. وحملت إحدى برقيات وزارة الخارجية من إسلام آباد في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٨ العنوان الجاف، الذي يصور الموضوع بأقل من الحقيقة: «أسامة بن لادن: يبدو أن باكستان تميل إلى عدم المساعدة»[١]. وعندما أثار أحد الدبلوماسيين الأميركيين اسم بن لادن في خلال اجتماع مع الجنرال إحسان الحق، الرئيس المقبل للاستخبارات الباكستانية، ثارت ثائرة الجنرال.

وانفجر قائلاً: «لا أستطيع أن أفهم أيها الأميركيون لماذا تهتمّون إلى هذا الحد بأفغانستان»[٢].

واتفق في صباح الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ أن كان رئيس الاستخبارات الباكستانية الجنرال محمود أحمد مجتمعاً مع المشرعين في واشنطن داخل غرفة مأمونة تابعة للجنة الدائمة للاستخبارات في مجلس النواب. وأحمد قصير القامة ممتلئ الجسم له شاربان أبيضان كثيفان يمتدان حتى منتصف خديه، وقد تولى رئاسة وكالة الاستخبارات الباكستانية في إثر الانقلاب العسكري في ١٩٩٩ الذي أوصل الجنرال برويز مشرّف إلى رئاسة البلاد، ولم يبذل الكثير من الجهد لإخفاء تعاطفه مع الطالبان. وقد وبّخ مرةً محللاً عسكرياً باكستانياً أبلغ الرئيس مشرّف بأن سياسة باكستان حيال الطالبان تضر بمكانتها بين الدول الأخرى. وقال رئيس الاستخبارات إن «الطالبان هم مستقبل أفغانستان»[٣].

أخذ أحمد في صباح ذلك اليوم في تلة الكابيتول يجري حديثاً ودياً مع النائب بورتر غوس، الجمهوري الأعلى رتبة في اللجنة، ويُمْتع عضو الكونغرس بمعرفته بالوقائع الغامضة المتعلقة بالحرب الأهلية الأميركية. وسبق لغوس أن أعد كتاباً عن الحرب الأهلية يقدمه هديةً إلى أحمد، لكن قوطعت الدعابات عندما هرع موظفو اللجنة إلى

(١) U.S. embassy in Islamabad cable to U.S. Secretary of State, "Usama bin Ladin: Pakistan seems to be leaning against being helpful", State Department cable, December 18, 1998.

(٢) John R. Schmidt, *The Unraveling: Pakistan in the Age of Jihad* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2011): 109.

(٣) مقابلة أجراها الكاتب مع شوكت قادر.

غرفة الاجتماع لإبلاغ المشرّعين ورئيس الاستخبارات الباكستانية بأن الطائرة الثانية قد اصطدمت تواً بمركز التجارة العالمية. «وامتقع وجه محمود» بحسب ما يستذكر غوس. واعتذر رئيس الجواسيس الباكستانيين سريعاً وانسحب من الاجتماع وقفز إلى سيارة السّفارة التي كانت في الانتظار[1]. وبقي الكتاب داخل الغرفة وهو لا يزال ملفوفاً بورقة الهدية.

استُدعي الجنرال أحمد في اليوم التالي إلى مكتب نائب وزير الخارجية، ريتشارد أرميتاج، الذي لم يكن في مزاج للتصرّف الدبلوماسي الصحيح. وسبق أن أعلن الرئيس بوش في الليلة السابقة أن الولايات المتّحدة ستعامل الإرهابيّين وأسيادهم على قدم المساواة، وعرض أرميتاج معضلة وكالة الاستخبارات الباكستانية بعبارات الخير والشر.

«تواجه باكستان خياراً قاسياً؛ فإما أنها معنا وإما ضدنا»، قال أرميتاج لرئيس الجواسيس الباكستانيين، موضحاً أن القرار إما أبيض وإما أسود، ولا وجود للرمادي.

أصابت فظاظة أرميتاج أحمد بالإهانة وردّ بأن الاتهام الموجه منذ زمن بعيد إلى باكستان بأنها «على علاقة تعاون سرّية» مع الإرهابيّين أمر أبعد ما يكون عن الحقيقة. وقال إن بلاده ستدعم الولايات المتّحدة من دون تردّد مؤكداً لأرميتاج أن باكستان «رأت دوماً مثل هذه الأمور بالأسود والأبيض». وحذّره أرميتاج من أن الولايات المتّحدة في صدد إعداد لائحة طويلة بالمطالب من باكستان من شأنها التسبب «بتفحّص الذات» في إسلام آباد[2].

ونوقشت في اليوم التالي شروط التزاوج بين الـ «سي. آي. إيه» ووكالة الاستخبارات الباكستانية. وأبلغ أرميتاج الجنرال أحمد أن الولايات المتّحدة تريد وصولاً حُرّاً إلى المجال الجوي الباكستاني والقدرة على القيام بعمليات عسكرية واستخبارية داخل باكستان. أرادت أميركا أيضاً وصولاً إلى المرافئ الباكستانية والمدارج والقواعد في

(١) مقابلة أجراها الكاتب مع بورتر غوس.

(٢) "Deputy Secretary Armitage's Meeting with Pakistan Intel Chief Mahmud", September 12, 2001.

الجبال على طول الحدود مع أفغانستان. وأصرّ أخيراً على أن تسلم الاستخبارات الباكستانية إلى الـ «سي. آي. إيه» كل ما لديها من معلومات استخبارية عن القاعدة[١].

أكد أحمد لأرميتاج أنه سيسلّم لائحة المطالب إلى مشرّف. لكنه قال إن باكستان تريد شيئاً في المقابل: ضمانات بأن يُسَدّد لها ثمن مساندتها الحملة على القاعدة. فباكستان تحتاج إلى أن تُكافأ إذا كانت ستنقلب على الطالبان وتوافق على الحرب على حدودها الغربية.

حُدّدت معالم العلاقة المختلّة بباكستان في حقبة ما بعد ٩/١١: أصرّت الولايات المتّحدة على الحق في خوض حرب سرّية داخل باكستان، وانتزعت باكستان المال في المقابل. ووافق الرئيس مشرّف على معظم المطالب الأميركية وليس كلها. فقد وضع على سبيل المثال حدوداً للأمكنة التي يمكن فيها الطائرات الأميركية أن تحلق في المجال الجوي الباكستاني خشية منه من أن تحاول الولايات المتّحدة القيام بطلعات استطلاعية فوق المواقع الذرية الباكستانية. كما حرم الولايات المتّحدة من حق الوصول إلى معظم القواعد العسكرية ولم يسمح للجيش الأميركي بوضع عناصر إلا في قاعدتين جويتين وحسب: «شمسي» في منطقة بالوشستان الجنوبية الغربية و«جاكوب آباد» في إقليم السّند الشمالي[٢]. وفي النهاية أدى تجديد العهود بين واشنطن وإسلام آباد إلى اعتقاد كل جانب بأنه نزل عن أكثر مما حصل عليه ما أدى إلى تبادل الاتهامات وإلى حالة من النّفور ستصل إلى حدّ الغليان على مر السنين اللاحقة.

تميّز الخطاب الصادر عن واشنطن بالوضوح، وعرف مشرّف ذلك. ونظر إلى خياراته، كونه أمضى حياته المهنية في الجيش، كما لو أن الأمر مناورة عسكرية. وكتب لاحقاً في مذكراته أنه لو اختار حماية الطالبان لاعتبرت الولايات المتّحدة باكستان دولة إرهابية ولعمدت، حسب علمه، إلى مهاجمة البلاد وإلى استئصال الجيش الباكستاني والاستيلاء على ترسانة البلاد النووية. وسبق للهند أن عرضت بالفعل استخدام قواعدها

---

(١) U.S. Secretary of State cable to U.S. embassy in Islamabad, "Deputy Secretary Armitage's Meeting with General Mahmud: Actions and Support Expected of Pakistan in Fight Against Terrorism", September 13, 2001.

(٢) Pervez Musharraf, *In the Line of Fire* (New York: Simon & Schuster, 2006): 206.

في الحرب الأفغانية وتصوّر مشرّف أنه سيمكن الولايات المتّحدة قريباً أن تطير في مهمّات قتالية من قاعدة في أمريستار في شمال غربي الهند. وستندفع القاذفات مسرعةً من فوق الأراضي الباكستانية في طريقها إلى أفغانستان وتعود من جديد بعد إفراغ حمولاتها القاتلة. بل الأسوأ من ذلك هو أن الهند قد تستغل الفرصة، بمباركةٍ أميركية، لشن هجوم على كشمير. وسيتغيّر في شكل دائم الميزان الاستراتيجي في جنوب آسيا، الذي شهد دوماً اصطفاف باكستان مع الولايات المتّحدة ضد الهند وحليفتها التاريخية روسيا. وستصبح باكستان منبوذة، مسحوقة وفقيرة[1].

أبلغ مشرّف مساء التاسع عشر من أيلول/سبتمبر شعب باكستان كيفية ردّه على المطالب الأميركية. ارتدى بزةً عسكرية زاهية، لكن بدا على وجهه الشّحوب والعياء نتيجة الاجتماعات الطويلة مع جنرالاته والسياسيين المدنيين والزعماء الدينيين والدبلوماسيين الأميركيين. ولم يحمل خطابه المتلفز تنديداً بالقاعدة أو بالطالبان، ولم يدن مشرّف في أي وقت الهجمات على مركز التجارة العالمية والبنتاغون. بل وضع بدلاً من ذلك قراره مساعدة أميركا في إطار من العبارات الضيّقة والقومية. قال إن الهند تعهدت بالفعل تقديم دعمها التام لواشنطن، ونيودلهي مصمّمة على ضمان أنه «يجب، إذا تغيرت الحكومة في أفغانستان وعندما تتغير، أن تصبح حكومة مناهضة لباكستان». وقال إن لباكستان أربع أولويات: أمن حدودها؛ قضيّة كشمير؛ النهوض باقتصادها؛ وأخيراً حماية «ركائزها الاستراتيجية»[2].

ولم يمثل ذلك البند الأخير في اللائحة إشارةً وحسب إلى الترسانة الذريّة التي بنتها أفغانستان لتدمير الهند. بل امتلك الجيش الباكستاني «ركائز استراتيجية» أخرى يجب أخذها في الاعتبار. فحتى ٢٠٠١ اعتُبرت مجموعات مثل الطالبان الأفغان وشبكة الميليشيا، التي يديرها زعيم المجاهدين جلال الدين حقّاني عناصر حاسمة في الدفاعات الباكستانية، وأوضح مشرّف في خطابه في تلك الليلة، أنه لا يزال يعتبر الطالبان حصناً مهماً في وجه الهند. وأبلغ البلاد، حتى وهو يطلب من المُلّا عمر التخلي

(١) Pervez Musharraf، مصدر سابق، ص ٢٠٢.

(٢) النص المترجم لخطاب برويز مشرف، ١٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

عن بن لادن، أن هذا التكتيك يمثّل طريقة للخروج من الأزمة «من دون أي إضرار بأفغانستان وبالطالبان».

غير أن الأمور ليست، في واقعها، سوداء وبيضاء. وبقي مشرّف يأمل إمكان استمرار الطالبان في السّلطة بعد أسبوع على هجمات ١١ أيلول/سبتمبر وقبل ليلة من الاتهام الذي وجهه الرئيس بوش إلى الطالبان في الجلسة المشتركة لمجلسي الكونغرس بأنهم «ساعدوا على جريمة القتل وحرضوا عليها». وقد استراحت واشنطن بالاعتقاد أن مشرّف قد دفع كل فيشاته في لعبة البوكر إلى وسط الطاولة في الرهان على إدارة بوش، مع أنه تبنّى في الواقع استراتيجية ذات فروق أكثر دقة – استراتيجية لا يزال الكثيرون من المسؤولين الأميركيين يواجهون صعوبةً في إدراكها حتى بعد مرور أكثر من عقد على حرب أفغانستان.

بقيت وكالة الاستخبارات الباكستانية تأمل تفادي حرب أفغانية أخرى، وخصوصاً تلك التي قد تستبدل الطالبان بالطاجيك والأوزبك في تحالف الشمال. وتوسل الجنرال أحمد، بعد عودته إلى إسلام آباد، إلى السفيرة الأميركية وندي تشامبرلاين بعدم الشروع في حرب بغية الانتقام. وقال إن النصر الحقيقي في أفغانستان لن يتحقّق إلا من خلال التفاوض. وأضاف، «إذا تم القضاء على الطالبان فستعود أفغانستان إلى زمن أسياد الحرب»(١).

طار الجنرال أحمد إلى قندهار بطائرة أعارته إياها الـ «سي. آي. إيه» لمحاولة إقناع زعيم الطالبان المُلّا محمد عمر بتسليم بن لادن. هزأ عمر، قائد المجاهدين السابق الذي فقد إحدى عينيه في خلال الحرب السّوفياتية، من الجنرال الباكستاني بوصفه فتى الخدمات لدى إدارة بوش ورفض المطالب. وأصدر تأنيباً حاداً لولي نعمته القديم العهد في الاستخبارات الباكستانية. وقال: «أنت تريد إرضاء الأميركيّين، وأنا أريد إرضاء الله»(٢).

أحدثت استراتيجية أفغانستان منذ البداية انقسامات في الـ «سي. آي. إيه»، وظهرت

(١) "Mahmud Plans 2nd Mission to Afghanistan", State Department cable, September 24, 2001

(٢) John F. Burns, "Adding Demands, Afghan Leaders Show Little Willingness to Give Up Bin Laden", *The New York Times* (September 19, 2001).

التصدّعات بين الضباط في لانغلي وأولئك المتمركزين في محطة الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد. ضغط رئيس مركز مكافحة الإرهاب كوفر بلاك من أجل التسليح الفوري لتحالف الشّمال والشروع في الاندفاع جنوباً صوب كابول. لكن رئيس محطة إسلام آباد ، روبرت غرونييه، حارب هذا المخطط. وحذّر من أن أي خطوة لتسليح الميليشيا التي تدعمها الهند وروسيا قد تؤدّي إلى تدمير فوري للعلاقات مع باكستان في الوقت الذي يجري إصلاحها بعد أعوام من الارتياب[1]. وحظيت هذه النزاعات الداخلية على نسبة أكبر من المشاركين بعد ثلاثة أسابيع على هجمات ١١ أيلول/سبتمبر عندما توجه ضباط من الـ «سي. آي. إيه» إلى البنتاغون لعقد مؤتمر عبر الهاتف بين واشنطن وإسلام آباد والقيادة المركزية الأميركية في تامبا.

قال غرونييه في خلال الاتصال إنه يجب تعليق أي هجوم بري يُستخدم فيه تحالف الشمال وإعطاء وكالة الاستخبارات الباكستانية المزيد من الوقت للضغط على الطالبان لتسليم بن لادن. وقال إن دعم تحالف الشّمال قد يؤدي إلى حرب أهلية أفغانية دامية أخرى، مضيفاً أن الحملة الجوية قد تكفي في الوقت الراهن لجلب الطالبان إلى طاولة التفاوض. إلا أن هانك كرامبتون، وهو ضابط في مركز مكافحة الإرهاب عيّنه كوفر بلاك لإدارة حرب الـ «سي. آي. إيه» في أفغانستان، اعتقد أن غرونييه يتصرّف بسذاجةٍ ويعكس موقف الاستخبارات الباكستانية وحسب ويبرهن على مثال سيئ من «الزبائنية». وقال كرامبتون لرامسفلد بعد الاجتماع إنه يعتقد أن غرونييه مخطئ تماماً[2].

وربما نقل غرونييه مخاوف وكالة الاستخبارات الباكستانية، لكنه يصعب أن تكون مخاوف غير عقلانية. فقد دأب مسؤولو الاستخبارات الباكستانية، على مدى أسابيع، في الهمس في آذان أقرانهم في الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد أنه يمكن الحرب في أفغانستان أن تخرج في شكل واسع على السيطرة. وقالوا إن ذلك سيقلب الميزان الهش في المنطقة، بل ربما يؤدّي بالهند وبباكستان إلى خوض حرب كاملة بالواسطة داخل أفغانستان.

(١) George J. Tenet, *At the Center of the Storm* (New York: HarperCollins, 2007): 140–141.

(٢) Henry A. Crumpton, *The Art of Intelligence: Lessons from a Life in the CIA's Clandestine Service* (New York: Penguin Press, 2012): 194.

وفيما أخذت المفاوضات تمتد، وتحَوَّل أيلول/سبتمبر إلى تشرين الأول/أكتوبر، شرعت الـ «سي. آي. إيه» تُدخل بالسر فرقاً شبه عسكرية إلى أفغانستان للاتصال بأسياد الحرب من القادة الذين حاربوا تحت لواء تحالف الشمال. واستمر في غضون ذلك سيل من المعلومات المتعلقة بالتهديدات في التدفق على مركز مكافحة الإرهاب من محطات الـ «سي. آي. إيه» في الشَّرق الأوسط وجنوب آسيا. وفي الخامس من تشرين الأول/أكتوبر، قبل يومين على إلقاء الولايات المتّحدة أولى القنابل على أفغانستان، بعث أرميتاج ببرقية سرّية للغاية إلى السّفيرة تشامبرلاين يطلب منها أن تلتقي على الفور الجنرال أحمد. أراد توجيه رسالة بسيطة يوصلها أحمد إلى الملا عمر. إذا تبيّن أن هجوماً آخر مصدره أفغانستان فسيأتي الرد الأميركي مدمَّراً:

«سيتم تدمير كل ركيزة من ركائز نظام الطالبان»[1].

في اليوم التالي لبدء الحرب الأميركية على أفغانستان، عيّن مشرّف بديلاً من الجنرال أحمد في وكالة الاستخبارات. فقد ضغط قادة الـ «سي. آي. إيه» في واشنطن مطالبين بصرف الجنرال أحمد، وجاء البديل منه خياراً غير مثير للجدل. فالجنرال إحسان الحق، القائد المديني الذي ترأس حينذاك فيلقاً من الجيش في بيشاور، جزء من عصبة القادة العسكريين الذين وضعوا مشرّف في السلطة في ١٩٩٩، وليس له، على عكس أحمد، أي ولاء للطالبان. وها هو، في غضون أسابيع، يجلس إلى جانب مشرّف في الأمم المتّحدة حيث التقى الأخير وبوش للمرة الأولى منذ هجمات ١١ أيلول/سبتمبر لمناقشة الخطط الأميركية في أفغانستان.

مهد وزير الخارجية كولن باول بوش للاجتماع وكتب له مذكّرة تشيد بمشرّف وتعلن بما لا لبس فيه أن حكومة باكستان قد «تخلت عن الطالبان». وجاء في بداية المذكرة أن «قرار الرئيس مشرّف التعاون التام مع الولايات المتّحدة في أعقاب ١١ أيلول/سبتمبر، بما يحمله ذلك من مخاطر سياسة ضخمة، قلب مسار علاقتنا المتهاوية»[2]. ويمكن القول، في إدراك متأخر، إن تحليل باول ساذج - وهو ما أراد المسؤولون الأميركيون

(١) "Message to Taliban", State Department cable, October 5, 2001.

(٢) Colin L. Powell to President George W. Bush, "Memorandum to the President: Your Meeting with Pakistan President Musharraf", November 5, 2001.

اعتقاده وما اختاروا سماعه. فمشرّف لم يجر تبديلاً جوهرياً في سياسة باكستان بقدر ما استأنف اتفاقاً عقده الرئيس الباكستاني السابق الجنرال محمد ضياء الحق مع الأميركيين في الثمانينيات. وسيساعد مشرّف الولايات المتّحدة على الحصول على ما تبتغيه من أفغانستان، وستتلقى باكستان في المقابل ثمناً سخياً.

لم ينجح مشرّف في تفادي الحرب، لكنه أراد لها أن تكون قصيرةً وللولايات المتّحدة أن تغادر جيرته بأسرع ما يمكن. وهذه هي الرسالة التي نقلها إلى بوش في الأمم المتّحدة: قوموا بما يجب عليكم القيام به لطرد أسامة بن لادن وأتباعه، إلا أن آخر ما يجب على الولايات المتّحدة القيام به هو البقاء سنوات في أفغانستان[1].

وتبيّن أن الباكستانيين أخطأوا في قراءة الأميركيين بالسّوء نفسه الذي أخطأ الأميركيون في قراءة الباكستانيين. وأُرسلت في الأشهر التي تلت هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر سلسلة من البرقيات من مقر وكالة الاستخبارات الباكستانية إلى سفارات باكستان في واشنطن وفي غيرها[2]. وخلص محللو وكالة التجسس إلى أنه ليست للولايات المتّحدة خطة للالتزام الطويل الأمد في أفغانستان بما هو أبعد من هزم القاعدة فيها، وهو استنتاج استقي من معرفة أن واشنطن فقدت الاهتمام بأفغانستان بعد الحرب الأخيرة بمجرد أن قام السّوفيات بالانسحاب. وهذا ما بدا لأسد درّاني، الفريق الباكستاني المتقاعد الذي ترأس وكالة الاستخبارات في خلال التسعينيات. تولى درّاني في ٢٠٠١ منصب سفير بلاده في المملكة العربية السّعودية عندما شرعت برقيات وكالة الاستخبارات في الوصول إلى السّفارات في الخارج. وقال درّاني بعد ذلك بسنوات إنه بدا أن الحرب الأميركية الجديدة في أفغانستان «ستكون مسألة تتم على المدى القصير جداً»[3].

واستمر الجواسيس الباكستانيون في محاولة ضمان أنها ستكون كذلك، وعقدوا في تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ سلسلةً من الاجتماعات السّرية مع زعماء القبائل الأفغان لمعرفة كم من طبقات أتباع الطالبان الخارجية يمكن نزعها عن

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع الجنرال إحسان الحق.

(٢) يأتي وصف برقيات وكالة الاستخبارات الباكستانية من مسؤول باكستاني سابق قرأ التحليل الاستخباري.

(٣) مقابلة أجراها المؤلف مع أسد درّاني.

اللب المتعصب للحركة. وجلس الجنرال إحسان الحق، رئيس الاستخبارات الباكستانية الجديد، في واحد من هذه الاجتماعات مع جلال الدين حقّاني في إسلام آباد. وقد استدعى الجنرال الحق حقّاني لسبر أغوار ولاءات زعيم الميليشيا الضعيف. وسبق لحقّاني أن كان الحليف الأكبر لـ «سي. آي. إيه» في أفغانستان في خلال الحرب ضد السّوفيات، إلا أنه تعهد في السنوات التي أعقبت ذلك، الولاء للقاعدة وبنى إمبراطورية إجرامية متوسعة انطلاقاً من قاعدته في ميران شاه، شمال وزيرستان.

أخذ يتضح في خلال الاجتماع أن حقّاني لن ينقلب. وقال للجنرال الحق إن الغزو الأميركي لأفغانستان لا يختلف عن الغزو السّوفياتي قبل ذلك بأعوام. وتنبأ، ببصيرة تقشعر لها الأبدان، أن الحرب الجديدة ستسير كما سارت الحرب الأخيرة. وقال حقّاني إنه لا يستطيع وقف القاذفات الأميركية، لكن الولايات المتّحدة ستضطر في النهاية إلى إرسال أعداد كبيرة من القُوّات البرية. وأضاف أنه عندما يتحقق ذلك سيصبح على مستوى متكافئ مع الأميركيين[١].

واستذكر الجنرال الحق أن زعيم المليشيا قال في الاجتماع إن في وسعهم احتلال المدن لكنهم لا يستطيعون احتلال كل الجبال. «وسنذهب بالتالي إلى الجبال ونقاوم، تماماً كما فعلنا ضد الاتحاد السّوفياتي».

سرعان ما بلغ خبر مجيء القائد الشهير إلى إسلام آباد مسامع السّفارة الأميركية وقام رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» روبرت غرونييه بزيارة الجنرال الحق للحصول على المزيد من المعلومات. وكشف الحق أن حقّاني لم يأت إلى العاصمة وحسب بل إنه قد اجتمع به أيضاً. وقال إنه لم يُتعب نفسه بإخبار رئيس الـ «سي. آي. إيه» لأن الاجتماع لم يخرج بأي نتيجة[٢].

وقال الحق: «لا أعتقد أنه سيساعد».

وبالرغم من أن مشرّف وضع جنرالاً جديداً على رأس وكالة الاستخبارات، فإنه لم يذهب في تطهير الجيش من الإسلاميين إلى ما هو أبعد من ذلك. وعيّن مشرّف، في

(١) رواية الحديث مصدرها المقابلة التي أجراها المؤلف مع إحسان الحق.

(٢) المصدر نفسه.

الوقت نفسه الذي تولى الجنرال الحق جهاز الاستخبارات العسكري، الفريق علي خان أوركزاي، الصديق المقرّب والمتعاطف القديم مع الطالبان، لتولي فيلق الجيش في بيشاور، وهو المنصب نفسه الذي أخلاه الحق على الفور.

وبيشاور، المدينة التجارية الناشطة، هي عاصمة مقاطعة الحدود الشمالية الغربية، المنطقة التي أعطاها الإنكليز هذا الاسم بسبب موقعها عند الحد الخارجي للأراضي «المُستَوطَنة». (وستغير الحكومة الباكستانية الاسم لاحقاً إلى خيبر باختونخوا). كما منحت الوظيفة في بيشاور الجنرال أوركزاي الإشراف على المناطق القبلية الخاضعة للإدارة الاتحادية، وهي الأراضي الجبلية الوعرة التي يحكمها رجال همجيون من قبيلتي وزير ومحسود ولا تعني فيها الأوامر الحكومية الكثير.

لم ينجح البريطانيون في ترويض الأراضي القبلية، التي شكلت جزءاً من الراج (الحكم) البريطاني وتخلوا عن الأمر في النهاية. وأمضى ونستون تشرشل، وهو صحافي في الثالثة والعشرين من العمر زار الهند في ١٨٩٧، ستة أسابيع مع قوة ملقند الميدانية البريطانية وبعث ببرقيات إلى «الديلي تلغراف» يصف فيها الجبال المكللة بالثلوج حيث «يشاهد المرء سلسلة وراء سلسلة وكأنها اندفاعات طويلة من أمواج الأطلسي، ويوحي في البعيد بعض القمم المغطاة بالثلج المتوهج بموجة يغطي الزبد الأبيض قمتها وهي أكثر ارتفاعاً من الباقي»[1].

«الأمطار الغزيرة التي تهطل في كل سنة»، تابع تشرشل، «جرفت التربة من جوانب التلال إلى أن حُفرت فيها الأخاديد بطريقة غريبة من جراء العدد الذي لا يُحصى من مجاري المياه، وقد تعرّى الصخر الأساس الأسود في كل مكان». وكما أن الأراضي لم تشهد إلا تغييراً بسيطاً منذ زمن تشرشل، استمر الناس في المناطق القبلية يرتابون بضراوة بالدخلاء. وهي مكان، لاحظ رئيس الوزراء المستقبلي، «يقف فيه كل رجل ضد الآخر، وجميعهم ضد الغريب».

سبق للجنرال أوركزاي أن برهن عن ولائه لمشرّف بوصفه واحداً من المتآمرين العسكريين الآخرين الذين وقفوا وراء انقلاب ١٩٩٩. والجنرال أوركزاي هو الذي،

(١) جُمعت برقيات تشرشل لاحقاً في كتابه الأول: Winston Churchill, *The Story of the Malakand Field Force: An Episode of Frontier War* (New York: W. W. Norton, 1989).

بحسب بعض الروايات، دخل منزل الرئيس نوّاز شريف وشهر المسدس في وجهه وأبلغه بأن الجيش يتولى أمر باكستان. وهو شخصية تفرض نفسها وقد ترعرع في المناطق القبلية وأمضى ما يكفي من الوقت في الجبال ليعرف أن الجنود الباكستانيين العاديين ليسوا مدرّبين على المهمّة التي يوشكون أن يقوموا بها. وأبلغ مشرّف بأنه يشكك في وجود الكثيرين من عملاء القاعدة الأجانب الذين يفرّون عبر الحدود إلى باكستان.

لكن ضباط الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد اعتقدوا العكس. وشرعوا، بعد أشهر على تحرّك الجنود الباكستانيين إلى المناطق القبلية، في إرسال التقارير الدائمة إلى الاستخبارات الباكستانية حول وصول المقاتلين العرب إلى الجبال، لكن دوريات الجنرال أوركزاي لم تكشف شيئاً. وقال رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد، غرونييه، إن أوركزاي وغيره من المسؤولين الباكستانيين الذين التقاهم قالوا إن هدير تحرك الجنود عبر القرى الجبلية قد يفجّر انتفاضة قبلية. لم يشأ المسؤولون أن يصدقوا أن القاعدة أقامت قاعدة جديدة في باكستان على بعد أقل من مئة ميل من القواعد في باكستان، التي خططت الجماعات فيها لهجمات ١١ أيلول/سبتمبر. «إنها حقيقة مزعجة»، قال غرونييه[١].

استمر أوركزاي قائداً لبيشاور حتى تقاعده في ٢٠٠٤، واستمر على مدى سنوات في نفي وجود مقاتلين عرب في المناطق القبلية. وأبلغ، في ٢٠٠٥، أحد المراسلين بأن فكرة إمكان اختباء أسامة بن لادن في باكستان هي مجرد تخمين، وأنه لم يشهد قط على أي دليل على إقامة المقاتلين العرب قاعدة عمليات لهم في المناطق القبلية. وقال أن لا جدوى من مطاردة بن لادن والقاعدة في باكستان[٢].

لكن هناك من عرف أكثر. وعندما وقعت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر كان الفريق أسد منير قد تولى في الحال منصبه رئيساً لمحطة الاستخبارات الباكستانية في بيشاور. ولمّا

(١) Mark Mazzetti and David Rohde, "Amid U.S. Policy Disputes, Qaeda Grows in Pakistan", *The New York Times* (June 30, 2008).

(٢) Christina Lamb, "Bin Laden Hunt in Pakistan Is 'Pointless'", *London Sunday Times* (January 23, 2005).

يمض وقت طويل حتى شرع الأميركيون في الوصول إلى هناك. بتنا في أواخر ٢٠٠١ وقد أتوا للعمل مع نظرائهم الباكستانيين في مطاردة عملاء القاعدة الهاربين من القتال في أفغانستان. جاؤوا للعمل مع أسد منير.

«لم يسبق لي قط أن التقيت أحد رجال الـ«سي. آي. إيه»»، قال منير مستذكراً وهو يأخذ سحبات طويلة من سيجارة «بنسون أند هدجز» بحيث أخفى الدخان في بعض الأحيان وجهه المخدّد الشبيه بوجه واحد من أبطال هوليوود المتقدّمين في السن. وعادت به الأفكار بتوق إلى السنوات الأولى، التي أعقبت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر عندما بدا أن جواسيس أميركا وباكستان يحاربون العدو نفسه.

«كنا أشبه بالأصدقاء».

في البداية ارتاب الأميركيون، بقيادة ضابط في الـ«سي. آي. إيه» يدعى كيث، بمنير وبمعظم الآخرين في جهاز الاستخبارات الباكستانية. لكن، يقول منير، تلاشى الارتياب بعد انقضاء أسبوعين(١). وبيشاور هي المدينة الأبعد غرباً التي أمكن الـ«سي. آي. إيه» إقامة قاعدة كبرى فيها، وعمدت الوكالة بحلول ٢٠٠٢ إلى تحويل القنصلية الأميركية هناك إلى محور لعمليات التجسس. نُصبت الهوائيات على السطح، ورُكبت حواسيب جديدة، وجاء ضباط الجهاز الخفي مستخدمين غطاء واهياً. وبات المكان في الواقع محطة تجسس تدعي أنها مركز دبلوماسي ناء.

وتذكّر منير أيضاً من وصل غيرهم من الرجال: «التقنيون». ولم يسعه أن يعرف بأن الفرق التقنية جزء من وحدة سرّية تابعة للبنتاغون تدعى «غراي فوكس» (الثعلب الرمادي) - وهي رسمياً «فرقة مساندة النشاط الاستخباري» ومركزها في فورت بلفوار، فرجينيا - تُرسل ضباطاً سرّيين حول العالم ومعهم تجهيزات خاصة لاعتراض الاتصالات. وبوصولهم توسعت إلى حد كبير قاعدة بيانات أرقام الهواتف الخلوية المشتبه فيها التي يستخدمها الفريق الأميركي - الباكستاني لتعقّب القاعدة حول بيشاور وفي المناطق القبلية. وتحول الرقم من اثني عشر إلى مئة فإلى ألفين ومئتين. وأضيفت إلى القائمة أسماء لم يسبق لـ«سي. آي. إيه» أو الاستخبارات الباكستانية أن سمعت بها لجزائريين وليبيين وسعوديين وسواهم، وقال منير إن «اللائحة كبرت في شكل جنوني». ومعظم

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع أسد منير.

الأجانب الذين أخذ منير والأميركيون في مطاردتهم انتقلوا إلى باكستان ما بين كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ ونيسان/أبريل ٢٠٠٢، وقد نجوا من حملة القصف الأميركية على تورا بورا ووادي شاه - إي - كوت في شرق أفغانستان. وهم من العرب والأوزبك والشّيشان ومن مواليد بلدان أخرى في آسيا الوسطى. فتّش بعضهم عن طريق للعودة إلى دول الخليج العربية. وبحث بعضهم عن موطن جديد وحسب وشرعوا في تثبيت جذورهم بزواجهم بنساء بشتونيات محليات.

وانكب في كل يوم عملاء الاستخبارات الباكستانية والـ «سي. آي. إيه» على كومة سميكة من نصوص المكالمات التي تم اعتراضها ليستخدموا من بعدها المعلومات، ويخططوا لغارات لأسر الناشطين في بيشاور ومن حولها. ولم تتجاوز استخبارات الإشارة أكثر من هذا الحد. ولأن الجواسيس في بيشاور لم ينظروا إلى الحرب إلا من خلال ثقب ضيق، نفّذوا أحياناً عمليات اعتقال ما كانوا ليقوموا بها لو أن لهم وصولاً إلى المزيد من المعلومات. وتتبعوا مرةً، في حزيران/يونيو ٢٠٠٣، أثر هاتف لناشط جزائري، هو عبد الهادي الجزائري، فأوصلهم إلى حوض سباحة عام على مقربة من بيشاور. وبوصولهم إلى المكان وجدوا أكثر من مئة رجل في الحوض. ولم يمتلكوا، في غياب أي صورة للجزائري، أي وسيلة تمكّنهم من توقيفه. واتصل أحد عملاء الاستخبارات الباكستانية برقم الهاتف الذي يُشتبه في أنه يخص الجزائري وراقبوا فيما سبح رجل ملتح إلى طرف الحوض لالتقاط هاتفه الذي يرن. هرع فريق من شرطة بيشاور إلى الرجل المبتل بالماء وهو في لباس السباحة[١].

لكنهم أوقفوا عن طريق الخطأ عميلاً مزدوجاً. لم يعرفوا أن الجزائري يخبر جهاز الاستخبارات البريطانية «أم آي ٦» عن القاعدة[٢]. وشُحن الجزائري إلى خليج غوانتنامو وخسرت الاستخبارات البريطانية أحد مخبريها.

يحتفظ منير، بعد ذلك بسنوات، بالكثير من قصص التجسس لنفسه ملتزماً ميثاقاً

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع أسد منير.

(٢) تأتي معلومة أن الجزائري عميل بريطاني من ملف المعلومات الذي جمع حول خلفيته في الاستجوابات في خليج غوانتنامو. وهذا الملف جزء من الوثائق التي نشرتها مجموعة ويكيليكس وهي متوافرة على www.guardian.co.uk/world/guantanamo-files/PK9AG-001452DP.

يتوقَع أيضاً من زملائه الأميركيين احترامه. ويفكِّر في الاحترام المتبادل بين جهازي التجسس، وهو احترام ربما شكل أمراً يقارب الثقة أيضاً. ووصفه بأنه زمن «ممتع تماماً»، ولحظة يعرف أنه لا يمكن بعثها من جديد بسبب سنوات الريبة التي ستلي.

دفع نجاح العمليات التي قادها أسد منير وضباط الـ«سي. آي. إيه» من حول بيشاور، إلى جانب اعتقال كبار مساعدي بن لادن من أمثال خالد الشَيخ محمد ورمزي ابن الشيبة، الكثيرين من كبار مسؤولي بوش إلى الاعتقاد بجدوى الشَراكة. وبدأت عملية خطف شخصيات القاعدة في باكستان ونقلهم إلى خارج البلاد إلى أفغانستان وتايلندا ورومانيا وبلدان أخرى سمحت للـ «سي. آي. إيه» ببناء سجون سرّية على أراضيها. وأخذت الـ«سي. آي. إيه» ترسل ملايين الدولارات إلى وكالة الاستخبارات الباكستانية كلما استحقت فواتير إسلام آباد. وبات هذا التدبير رابحاً إلى حد أن هناك نكتة راجت في إسلام آباد مفادها أنه يجب، في مقابل كل إرهابي تساعد الاستخبارات الباكستانية على اعتقاله، خلق اثنين آخرين جديدين لإبقاء الابتزاز قائماً.

ويرى أسد منير أن الطموحات الغامضة لجهاز الاستخبارات الباكستاني في ٢٠٠١ والمتمثلة بالحفاظ على الروابط مع الطالبان الأفغان ومع شبكة حقّاني، تحولت بحلول ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ إلى استراتيجية اعتُني بوضعها لاستخدام هذه الجماعات لمصلحة باكستان في أفغانستان ما بعد الحرب. وثبت أن التحليل الباكستاني خاطئ: تبين أن الحرب في أفغانستان ليست مسألةً قصيرة. أضف إلى ذلك أن قرار إدارة بوش في ٢٠٠٣ غزو العراق شكل إثباتاً للكثيرين في الجيش والاستخبارات في باكستان أن واشنطن فقدت الاهتمام بأفغانستان وستعمد مرةً أخرى إلى انسحاب عشوائي من البلاد. وتحتاج باكستان إلى حماية نفسها.

وقال منير: «جاء الأميركيون إلى أفغانستان وهم لا يمتلكون مخططاً كاملاً: كيف ندخل وكيف ننسحب؟ وفكرنا بأنهم سيغادرون وسيجب علينا التعايش مع الأفغان».

توقف، وأخذ سحبةً أخرى من سيجارته.

«لدينا مصالحنا ومشاغلنا الأمنية الخاصة».

٣: رجال الخفاء والتآمر

«لا نحتاج بالتأكيد إلى فوج من رجال الخفاء والتآمر ممن يكسبون أوشحة حملتهم - وترقياتهم طبعاً - من خلال التخطيط لمآثر جديدة في العالم. فمغامرتهم تشكل عملية تولّد نفسها بنفسها».

- السيناتور فرانك تشيرتش، ١٩٧٦

حلّ زمن، ليس بعيداً جداً، انسحبت فيه الـ «سي. آي. إيه» من عمل القتل.

عندما انضم روس نيولاند إلى وكالة التجسس في أواخر السبعينيات لم تكن الـ «سي. آي. إيه» تبحث عن افتعال أي قتال في الخارج. فنيولاند قد تخرج حديثاً في الجامعة والـ «سي. آي. إيه» تترنّح تحت وقع ما تلقّته من ضرباتٍ من لجان الكونغرس، التي حقّقت في ما قامت به الوكالة من أعمال خفية منذ تأسيسها في ١٩٤٧. وأخذ الكونغرس يشدّد من سيطرته على النشاطات السّرية، وشرع قادة الـ «سي. آي. إيه» المعاقبون في إعادة تركيز نشاطات الوكالة على سرقة أسرار الأنظمة الأجنبية - التجسس التقليدي - بدلاً من قلبها أو محاولة قتل زعمائها.

قاد الرئيس جيمي كارتر حملةً لوضع حد لمغامرات الـ «سي. آي. إيه» في ما وراء البحار وتمثّل جزء من تعيينه الأميرال ستانسفيلد تورنر في لانغلي بكبح جماح وكالة التجسس، التي اعتقد أنها تعيث في الأرض فساداً. وأبلغ نيولاند وجيل ضباط الحالة الذين انضموا إلى الوكالة في تلك الحقبة أن الـ «سي. آي. إيه» لن تجلب سوى المشاكل إذا عادت إلى ممارسة عمل القتل. وسيشهد نيولاند، في نهاية سيرته المهنية، عودة الوكالة إلى نقطة البداية في مسألة العمل القاتل، وسيشكك في الحكمة من اعتناق الـ «سي. آي. إيه» لدورها كجلّاد طوعي لأعداء أميركا.

أنشئت الـ «سي. آي. إيه» وقد أنيطت بها مهمّة بسيطة نسبياً: جمع الاستخبارات وتحليلها ليتمكن الرؤساء الأميركيون في كل يوم من الاطلاع على مختلف التهديدات التي تواجه الولايات المتّحدة. لم يرد الرئيس ترومان للوكالة أن تصبح جيش أميركا السّري، لكن وبما أن بنداً غامضاً في قانون الأمن القومي الصادر في ١٩٤٧ يجيز للـ «سي. آي. إيه» أن «تمارس وظائف ومهمّات معينة متعلقة بالاستخبارات التي تؤثّر في الأمن القومي»، استخدم رؤساء أميركيون سلطة «العمل الخفي» هذه لإرسال الـ «سي. آي. إيه» في عمليات تخريب، وحملات دعاية، وتزوير انتخابات، ومحاولات اغتيال[1].

شكك المنتقدون، منذ البداية، في حاجة الولايات المتّحدة إلى جهاز تجسس مستقل عن وزارة الدفاع. وأشار مدراء الـ «سي. آي. إيه»، في دفاعهم عن استقلالية الوكالة، إلى أنهم يمتلكون ما لا يمتلكه البنتاغون. فلديهم كادر من الضباط السّريين يمكنهم من تنفيذ مهمّات خفية في ما وراء البحار تبقى فيها يد الولايات المتّحدة محجوبة. وتمضي الحجة في القول إن الـ «سي. آي. إيه» مسؤولة مباشرة تجاه الرئيس ويمكنها تنفيذ أوامره بسرعة أكثر من الجيش وبصورة أكثر هدوءاً. ولجأ سكان المكتب البيضوي مئات المرات إلى العمل الخفي وانتهى بهم الأمر في الغالب إلى الندم على فعلهم. لكنّ الذاكرة قصيرة ويبلغ رؤساء جدد البيت الأبيض كل أربع أو ثماني سنوات وقد استُهلك نمط مألوف في النصف الثاني من القرن العشرين: الموافقة الرئاسية على عمليات عدائية تنفّذها الـ «سي. آي. إيه»، تحقيقات للكونغرس تتسم بالقذارة عندما يتم فضح تفاصيل تلك العمليات، انكفاء في لانغلي وبحث عن الذات، انتقادات للـ «سي. آي. إيه» بأنها تتهرب من المخاطر، ومن ثم حقبة جديدة من العمل الخفي العدائي. وتبدأ هذه الدورة في بعض الأحيان مع بدء الفترة الرئاسية بالذات. وقد أبلغ الرئيس جون ف. كنيدي مستشاريه، في أسبوعه الأول في السّلطة، أنه لا يعتقد أن

(١) "National Security Act of 1947", United States Congress, July 26, 1947. NSA 1947 was codified in 50 U.S.C, Chapter 15, Subchapter I § 403-4a. تجد وجهات نظر الرئيس ترومان من الـ «سي. آي. إيه» وصفاً لها في كتاب: Tim Weiner, *Legacy of Ashes: The History of the CIA* (Maine: Anchor, 2008): 3.

الـ «سي. آي. إيه» تتمتّع بما يكفي من العدائية في فيتنام، وشرع في حرب سرية على هانوي ستصبح في مآل الأمر أكبر العمليات السّرية في زمانها وأكثرها تعقيداً[١].

تعود ازدواجية الـ «سي. آي. إيه» في شأن تنفيذ الاغتيالات إلى جهاز التجسس السابق لها، مكتب الخدمات الاستراتيجية («أو. أس. أس».). وتميّزت الـ «أو .أس. أس». التي أنشئت في ١٩٤٢ بزعامة قائدها الشّرس وليام ج. دونوفان، بأنها منظمة شبه عسكرية أولاً، وجهاز تجسس ثانياً. وأمضى «الهواة العظماء» التابعون لدونوفان معظم الحرب العالمية الثانية وهم يخرّبون خطوط سكة الحديد وينسفون الجسور ويسلّحون مقاومي النازية في أنحاء المسرح الأوروبي كافة. ويبقى أنه حتى دونوفان نفسه جبن عند نهاية الحرب حيال برنامج تدريب قتلة لاغتيال الزعماء النازيّين. وكانت الـ «أو. أس. أس».، بحلول ١٩٤٥، قد درّبت نحو مئة فار من «الفيرماخت» (الجيش الألماني) على مطاردة القادة الألمان - من أدولف هتلر وهرمان غورينغ نزولاً إلى كل ضابط في الـ «أس. أس». (الاستخبارات العسكرية) من رتبة نقيب وما فوق. وستُدفع لقاء عمليات القتل المنظمة تلك مئتا دولار في الشهر للعملاء العاملين في «كروس بروجكت». لكن لم يتم قط إرسال الفرق إلى ألمانيا؛ وكتب دونوفان لفريقه أن مثل هذا البرنامج «للاغتيالات بالجملة» لن يؤدّي «إلا إلى جلب المشاكل لـ (أو. أس. أس.)». وقال إنه يجب، عوضاً عن قتل النازيّين، اختطافهم واستجوابهم لانتزاع المعلومات منهم. وانتهت الحرب قبل أن تقع عمليات الخطف[٢].

بعد ذلك بعقود، نوت لجنة من الكونغرس برئاسة فرانك تشيرتش، من أيداهو، أن تبحث عن الأساس في الانتهاكات المحلية التي ارتكبتها الوكالة مثل عمليات التنصت غير القانونية. لكن الرئيس جيرالد فورد ألقى في مطلع ١٩٧٥ بملاحظة مرتجلة للمراسلين الصّحافيين قال فيها إنه إذا تعمّق المحققون أكثر فقد يكشفون عن عدد من المحاولات التي قامت بها الـ «سي. آي. إيه» لاغتيال زعماء أجانب. وعندما نُشرت ملاحظاته علناً حولت لجنة تشيرتش تركيزها الأساسي في التحقيق إلى عمليات الاغتيال[٣].

---

(١) Richard H. Schultz Jr., *The Secret War Against Hanoi* (New York: HarperCollins, 1999): 337.

(٢) Douglas Waller, *Wild Bill Donovan: The Spymaster Who Created the OSS and Modern American Espionage* (New York: Free Press, 2011): 316.

(٣) L. Britt Snider, *The Agency and the Hill: CIA's Relationship with Congress 1946–2004* (CreateSpace, 2008): 275.

عرف السيناتورات طوال ستة أشهر بمؤامرات لاغتيال باتريس لومومبا في الكونغو، وبوضع صدفة بحرية متفجّرة على مقربة من المكان الذي يغطس فيه فيدل كاسترو في كوبا. وجاءت الصّورة الرمزية عندما تناقل أعضاء اللجنة مسدساً صنعته الـ «سي. آي. إيه» لإطلاق السّهام المسمومة، ووجه السيناتور باري غولدووتر المسدس إلى الهواء وهو ينظر عبر جهاز التصويب. وحاول مدير الـ «سي. آي. إيه» وليام كولبي أن يوضح أن المسدس لم يُستخدم البتة، لكن الصورة بقيت عالقةً في الأذهان. وقبل حتى أن تنجز اللجنة عملها وقع الرئيس فورد أمراً تنفيذياً يحظر فيه على الحكومة اغتيال رؤساء دول أجنبية أو غيرهم من السياسيين الأجانب.

وعلى أي حال، فإن الحظر الذي فرضه الرئيس فورد على الاغتيال شكل محاولة منه لوضع حدود لمن سيخلفونه في المكتب البيضوي، ومنع الرؤساء المقبلين من الانجرار بسهولة إلى العمليات السّوداء. وأشارت لجنة تشيرتش إلى أن البيت الأبيض، في كل النشاطات المشكوك فيها لل «سي. آي. إيه»، هو الذي شجع دوماً على العمليات المتهورة مثل محاولات الانقلاب وقتل القادة الأجانب. فالـ «سي. آي. إيه» قدّمت السّرية، ولطالما استهوت السّرية الرؤساء الأميركيين.

وكتب السيناتور تشيرتش في التقرير النهائي للجنته أنه «ما إن توجد القدرة على العمل الخفي حتى تصبح الضغوط التي تُمارس على الرئيس لاستخدامه هائلة»[1]. وشكك تشيرتش حتى في حاجة أميركا إلى الـ «سي. آي. إيه» على الإطلاق. واعتقد، بدلاً من إبقاء «فوج من رجال الخفاء والتآمر» في تصرف الرئيس، أن وزارة الخارجية أكثر من قادرة على القيام بعمليات خفية متى اقتضت الضّرورة ذلك لكن يجب أن تقوم بها في حالة الطوارئ الوخيمة، ربما «لتفادي محرقة نووية أو لإنقاذ الحضارة»[2].

لم تتحقّق رغبة تشيرتش، لكن تعرّضت الـ «سي. آي. إيه» للعقاب المناسب في الوقت، الذي تخرج نيولاند في معهد ترينيتي في كونيتيكت في أواخر السبعينيات. وهو ابن

(١) United States Senate, "Final Report of the Select Committee to Study Governmental Operations with Respect to Intelligence Activities", April 26, 1976.

(٢) المصدر نفسه.

رجل أعمال عالمي أمضى معظم حياته في أميركا اللاتينية وإسبانيا ويتحدث الإسبانية بطلاقة. وتصوّر نيولاند، نظراً إلى نشأته واهتمامه بالقضايا الدولية، أنه ربما قُدّر له أن يمتهن الدبلوماسية، لكنه اختار أن يحصَل أولاً درجة الماجستير في كلية الاقتصاد في لندن[١].

جُنّد نيولاند ليصبح جاسوساً في حفلة فاخرة لمناسبة أحد الأعياد في منزل السّفير الأميركي في مدريد. فقد طار من لندن إلى مدريد لرؤية والديه اللذين يقيمان في إسبانيا، واقترب منه في الحفلة رجل في بداية خمسيناته وقال له إنه يعمل في السّفارة. وبعد ١٥ دقيقة من الدردشة في كل من اللغتين الإنكليزية والإسبانية سأله الرجل أن يسيرا في حدائق المنزل للتحدث على انفراد.

الرجل هو نستور سانشيز رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» في مدريد وضابط مخضرم في الجهاز الخفي وقد بلغت حياته المهنية المذكورة في الجهاز الخفي غسقها. وسانشيز معاد قويّ للشّيوعية انضم إلى الـ «سي. آي. إيه» بعد فترة ليست بالطويلة على إنشائها وكان في قلب الكثير من العمليات الخفية التي حقّقت فيها لجنة تشيرتش. وساهم في إعداد الانقلاب الناجح على جاكوبو أربنز غوزمان في غواتيمالا وسلّم حقنةً ملأى بالسّم على شكل قلم كتابة إلى عميل كوبي في محاولة لقتل كاسترو[٢].

وقال سانشيز لنيولاند إنه قد يصبح ضابط حالة جيّداً وأعطى اسمه لمحطة الوكالة في لندن. وبعد ذلك بثلاثة أشهر جلس نيولاند في غرفة خاوية في مقر قيادة الـ «سي. آي. إيه» في انتظار تقويمه النفسي. دخل رجل، جلس، وطرح على نيولاند سؤالين وحسب.

«إذاً، ترعرعت في المكسيك؟»

«نعم».

«ما الفرق بين «الإنكيلادا» و«والتوستادا»[٣].

---

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع روس نيولاند.

(٢) T. Rees Shapiro, "Nestor D. Sanchez, 83; CIA Official Led Latin American Division", *Washington Post* (January 26, 2011).

(٣) طبقان مكسيكيان. (المترجم)

تحيّر نيولاند من السؤال لكنه شرح مع ذلك الفرق بين الطبقين. وبعد دردشة وجيزة عن الطعام المكسيكي أبلغ نيولاند بتهذيب من يجري معه المقابلة بأنه من الأفضل الشّروع في التقويم النفسي لأنه يحتاج إلى المضي إلى مقابلته التالية.

واستذكر نيولاند أنه «قال، لا لقد انتهينا». وأصبح روس نيولاند في الـ «سي. آي. إيه».

أكمل دراسته في كلية الاقتصاد في لندن وانضم رسمياً إلى وكالة التجسس في الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩. وذلك بعد يوم فقط على اقتحام الطلاب الإيرانيين السّفارة الأميركية وقبل ستة أسابيع على هبوط المظليين السوفيات في كابول في طليعة مئات الآلاف من الجنود، الذين سيغزون أفغانستان على امتداد الأشهر التالية. هزّ الحدثان مقر قيادة الـ «سي. آي. إيه»، وخصوصاً العناصر الثلاثة والخمسين في صف روس نيولاند. أمر كبار مسؤولي الوكالة بأن يتم توجيه جميع المتدرّبين إلى مهمّات في الشّرق الأوسط أو آسيا الوسطى باستثناء أولئك المتمكنين من لغات لا تُحكى في العالم الإسلامي.

وبات نيولاند، لأنه يتحدّث الإسبانية، واحداً من دزينة من المتدرّبين الذين استُثنوا من «التطويع». ومع إنجاز تدريبه ليصبح ضابط حالة كان ريغان قد أصبح رئيساً وبات للـ «سي. آي. إيه» اهتمام جديد بأميركا اللاتينية. أخذ الكوكايين ينساب عبر الحدود إلى داخل الولايات المتّحدة وقلقت إدارة ريغن جداً حيال السلطة المتنامية لرجال حرب العصابات اليساريين في أميركا الوسطى. ووجد نيولاند مرشداً في شخص نستور سانشيز الذي غادر عندئذٍ مدريد وتولى قسم أميركا اللاتينية في الـ «سي. آي. إيه». وتمكن سانشيز من مقعده في مقر القيادة من توجيه نيولاند في بداية حياته المهنية ووضعه في قلب الحركة.

أُرسل أولاً إلى بوليفيا، وهي يومئذٍ عاصمة الكوكايين العالمية، حيث أُعطي التوجيهات بتوسيع المصادر في كارتيلات المخدّرات. وقضى معظم وقته في الوهاد البوليفية مدعياً أنه رجل أعمال أميركي ومحاولاً كسب الأصدقاء في أوساط مهرّبي المخدّرات في مدينة سانتا كروز. فعاقر الخمرة معهم وراهن على صراع الديكة وقابل زوجاتهم وعشيقاتهم وذهب معهم بالسيارة إلى خارج المدينة لتناول البط مع المانغا والأناناس في أكواخ متداعية على امتداد الطريق المؤدي إلى الأدغال.

ويصبح، عندما لا يكون في سانتا كروز، في العاصمة البوليفية لا باز في انتظار الانقلاب التالي. وافتخرت محطة الـ «سي. آي. إيه» في بوليفيا بتوقع كل انقلاب قبل وقوعه، ولم يشأ ضبّاط الوكالة هناك نسف سجلهم المثالي. لكن نيولاند تلقى جرعة مقوّية من واقع هذا المكان من العالم عندما لم يحظ أحد الانقلابات العسكرية الناجحة في خلال خدمته في بوليفيا إلا بإشارة صغيرة في الصّفحات الداخلية من الـ «نيويورك تايمز». ولم تشر الصحيفة بأي خبر إلى المحاولات الأربع السابقة.

حدّدت إدارة ريغان الحكومة البوليفية بوصفها شريكاً في الحرب على المخدرات. غير أن نيولاند أخذ، وهو يشرع في اختراق شبكات المخدّرات البوليفية، في كتابة تقارير استخبارية عن الفساد المتفشّي بين كبار المسؤولين في لاباز، والكثيرون منهم على جداول معاشات الكارتيلات. وقد حمى وزير الداخلية الشخصيات الهامة في عالم المخدرات من الملاحقة القانونية ودفعوا له بدل ذلك المزارع والجواهر والأموال النقدية. وبالكاد شكّلت هذه التقارير المادة التي يريد السّفير الأميركي في لا باز قراءتها.

شكّلت التجربة في بوليفيا، بالنسبة إلى نيولاند، النظرة الأولى إلى كيفية تمكن سياسة واشنطن من دعم الحكومات الفاسدة خدمةً لهدف فردي - في هذه الحالة الحرب على المخدّرات - أن تقوض المصالح الأميركية البعيدة الأمد. وشرع أيضاً في التساؤل هل على الـ «سي. آي. إيه» أن تتولى فعلاً حرب المخدرات، أو هل إدارة ريغان اعتمدت على الوكالة وحسب لأنه من الأفضل خوض الحروب القذرة بالسر. وسيطرح بعد ذلك بعقدين أسئلةً مماثلة عن دور الـ «سي. آي. إيه» في الحرب ضد الإرهابيّين.

عندما أُرسل نيولاند إلى بوليفيا شكّل قسم أميركا اللاتينية في الـ «سي. آي. إيه» زاوية نائمة نسبياً في مديرية العمليات في وكالة التجسس. لكنه سرعان ما سيصبح مركز عالم الـ «سي. آي. إيه» ويعود ذلك في قسم كبير منه إلى ديناميات الكثيرين في سلسلة الرواتب الأرفع من نيولاند. فقد غادر نستور سانشيز الوكالة في ١٩٨١ إلى البنتاغون. وحل محله دوان ر. كلاريدج، وهو جاسوس يعاقر الجن قويّ الاندفاع من المدرسة القديمة يناسب تماماً القالب الذي سعى إليه وليام ج. كايسي المدير الجديد الذي عينه ريغان على رأس الـ «سي. آي. إيه». ترعرع كلاريدج، الذي عرفه الجميع باسم

«ديوي»، في عائلة من الجمهوريّين الراسخين في نيوهمشاير (لقبه تقدير لحاكم نيويورك توماس إي. ديوي) وحاز درجات علمية من براون وكولومبيا قبل أن ينضم إلى الـ «سي. آي. إيه» في ١٩٥٥. وتاق إلى محاربة السّوفيات في كل زاوية معتمة من زوايا الحرب الباردة[١]. وعمل، بحلول ١٩٨١، متخفّياً في النيبال والهند وتركيا وإيطاليا بعدما انتحل صفة رجل أعمال واستخدم أسماء وهمية مثل ديوي ماروني وداكس برستون لوبارون[٢]. واجتذب كلاريدج، بشخصيته الفائقة النشاط وتفضيله البزات البيضاء ومنديل الجيب، الأتباع في صفوف الضباط السّريين الأصغر سناً. وأولع بالقول إن الجهاز الخفي في الـ «سي. آي. إيه» «يقوم بالزحف العسكري من أجل الرئيس». لكن دفعه في اتجاه العمليات الخفية العدائية أثار أحياناً حنق دبلوماسيي وزارة الخارجية[٣]. وقد وصفه رئيس كلاريدج في روما، السّفير ريتشارد غاردنر، بالـ «سطحي والمخادع»[٤].

سارع كلاريدج، بعودته في ١٩٨١ إلى واشنطن، إلى تطوير علاقته بكايسي. وفي اليوم الأول على عودته إلى مقر قيادة الـ «سي. آي. إيه» استدعاه كايسي إلى مكتبه وأبلغه أن إدارة ريغان قلقة حيال قيام كوبا وحكومة الساندينيّين في نيكاراغوا «بتصدير الثورة» إلى أنحاء أميركا الوسطى، وإلى السّلفادور بصفة خاصة. وعاد كلاريدج في غضون أسبوع بخطة:

نقل الحرب إلى نيكاراغوا.

الشّروع في قتل الكوبيين.

احتضن كايسي، العضو السابق في «أو. أس. أس»، الخطة على الفور. وطلب من كلاريدج وضع مسودة أمر تنفيذي سري يوقّعه الرئيس ويجيز بموجبه الحرب الخفية في أميركا الوسطى[٥]. جرى ذلك في فترة مبكرة جداً من رئاسة رونالد ريغان، لكن

(١) Duane R. Clarridge with Digby Diehl, *A Spy for All Seasons* (New York: Scribner, 1997): 23-39.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٣) مقابلة أجرتها «سي. أن. أن.» مع كلاريدج ومحفوظة في أرشيف الأمن القومي، ١٩٩٩.

(٤) Richard N. Gardner, *Mission Italy: On the Front Lines of the Cold War* (Maryland: Rowman & Littlefield, 2005): 291.

(٥) Clarridge with Diehl، مصدر سابق، ص ١٩٧.

الأخير شرع يسرّع بالفعل النشاطات الخفية في كل من أميركا اللاتينية وأفغانستان حيث ضاعف من دعم المجاهدين الذين يقاتلون القوات السّوفياتية. وباشر ريغان شوطاً جديداً في الدورة: وها إن الـ «سي. آي. إيه» التي تنفر من المخاطر تدير من جديد الحروب السّرية في الخارج.

وكلاريدج هو تماماً الرجل الذي يجب أن يتولى جبهة أميركا الوسطى، وقد استخدم مال الرشوة في الـ «سي. آي. إيه» لشراء البنادق والذّخائر والبغال والأسلحة الثقيلة للكونترا النيكاراغويين، وهم المتمرّدون الذين يقاومون الحكومة. وعمل من كثب مع قوات العمليات الخاصة التابعة للبنتاغون ومع أحد المساعدين في مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض، المقدم أوليفر نورث، لتحويل الكونترا إلى قوة ميليشيا أُمل أن تُشغل الحكومة السّاندينية وتمنعها من بسط نفوذها حول الحديقة الخلفية لأميركا. خصصت الـ «سي. آي. إيه» ميزانيةً محدودة لنيكاراغوا؛ واعتاد كلاريدج ومعاونوه في قسم أميركا اللاتينية في الوكالة المزاح بأن البحرية الأميركية تزيل في صباح واحد نفايات من حاملات طائراتها ذات قيمة أكبر مما تنفقه الـ «سي. آي. إيه» في نيكاراغوا في عام كامل[1].

رأى روس نيولاند والكثيرون من أقرانه أنّ حروب الـ «سي. آي. إيه» في أميركا الوسطى هي ما يجب على وكالة التجسس أن تتفاداه بالتحديد. لكن عمل نيولاند في قسم أميركا اللاتينية في الـ «سي. آي. إيه» وضعه بحلول ١٩٨٥ في قلب حروب حقبة ريغان السّرية. ووصل إلى كوستاريكا بعد أشهر فقط على العملية السّرية التي شرعت فيها الـ «سي. آي. إيه» في تلغيم موانئ نيكاراغوا، الأمر الذي أثار غيظ الكونغرس وأدى في مآل الأمر بالمشرّعين إلى وضع قواعد جديدة حول متى يجب على الـ «سي. آي. إيه» إبلاغ اللجان ببرامج أعمالها الخفية[2].

(١) Clarridge with Diehl، مصدر سابق، ص ٢٣٤.

(٢) Richard A. Best Jr., "Covert Action: Legislative Background and Possible Policy Questions", *Congressional Research Service* (December 27, 2011). وُقعت هذه القيود، التي أصبحت تُعرف بـ «اتفاقات كايسي» في ١٩٨٦. لكن الحصان كان قد خرج بالفعل من الحظيرة وجاءت الاتفاقات بعد عدة أشهر على توقيع الرئيس ريغان، الأمر التنفيذي السّري الذي يجيز نقل الصواريخ سرّاً إلى إيران.

قال ديوي كلاريدج إنه حلم بعملية التلغيم على كأس من الجن وسيجار، وقد كلفته وظيفته كرئيس لقسم أميركا اللاتينية. وانتقل جانبياً في داخل الجهاز السّري وتولى عمليات الـ «سي. آي. إيه» في أوروبا.

شهد نيولاند في شكل مباشر في كوستاريكا الحرب التي جيّش لها ديوي كلاريدج. وأدار ضباط في الـ «سي. آي. إيه» الجبهة الجنوبية لحرب الكونترا من كوستاريكا؛ وأديرت العمليات في الشّمال من هندوراس. وحظر الكونغرس، عند ذلك الحد، على إدارة ريغان دعم المتمرّدين النيكاراغويّين، لكن رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» في كوستاريكا، جو فرنانديز، أخذ يعمل مع أوليفر نورث لتسليم الإمدادات إلى المتمردين.

قضت مهمّة نيولاند باختراق الحكومة في العاصمة ماناغوا بغية تحديد خطط ونيات كبار المسؤولين السياسيين والعسكريين النيكاراغويين - في عمل تجسسي تقليدي. التقى العملاء وكتب التقارير الاستخبارية عن استراتيجية الحكومة السّاندينية وأرسلها مع دفق البرقيات السّرية الموجهة إلى لانغلي.

بيد أن الأمر المستغرب تمثّل في أن ضباطاً آخرين في الـ «سي. آي. إيه» مكلفين إدارة الكونترا أخذوا يقومون بالأمر نفسه تماماً. وسيتّخذ الضبّاط الأميركيون الخفيون القرارات في شأن الأهداف السّاندينية، التي على الكونترا أن تضربها ثم يكتبون التقارير التي تتوقّع الأهداف التي توشك أن تُضرب. وتُرسل البرقيّات إلى واشنطن، ومن غير المثير للدهشة أن هذه التوقعات تمتّعت في العادة بالصحة. وبعباراتٍ أخرى أخذت الـ «سي. آي. إيه» في توليد معلوماتها الاستخبارية الخاصة.

واستذكر نيولاند بالقول، «فكّرت في أن الأمر كناية عن حماقة. ليست تلك الطريقة التي تعلّمناها. لكنها الطريقة التي تتبعها في وضع شبه عسكري».

وتكشّف الجهد الأميركي في نيكاراغوا في شكل مستمر وسط إفشاءات عن تحويل الأموال إلى الكونترا من مبيعات صواريخ «هوك» إلى إيران، وهي عملية البيع التي توسط فيها أوليفر نورث في محاولة لضمان إطلاق الرهائن المحتجزين في بيروت. وراقب نيولاند فيما أخذ التحقيق في إيران - الكونترا يوقع في شباكه رؤساءه السّابقين والحاليين في الـ «سي. آي. إيه». فرئيس محطته في بوليفيا، جيم أدكينز الذي انتقل

إلى هندوراس لقيادة عمليات الكونترا من الشمال، طرد من الوكالة بعدما تبين أنه سمح برحلات هليكوبتر تنقل المؤن إلى نيكاراغوا. واتُهم جو فرنانديز في ٢٠ حزيران/يونيو ١٩٨٨ بعرقلة العدالة والإدلاء بشهادات كاذبة بالرغم من أنه تم في النهاية إسقاط التهم. واشتُبه بتورّط نستور سانشيز، مرشد نيولاند الأول في الـ «سي. آي. إيه»، في عمليات غير مشروعة في أثناء عمله في البنتاغون لكنه لم يُتّهم قط بأي جريمة.

شكّلت نكبة الكونترا تجربةً حارقةً لنيولاند. فهو اختلف مع معظم ما شهده في أميركا الوسطى، لكنه شعر بمرارة لرؤية ضباط في الوكالة وقد استُنزفوا حتى آخر نقطة من دمائهم وهم يدافعون عن أنفسهم فيما أفلت مسؤولون كبار في البيت الأبيض من العقاب. لكن ذلك علّمه درساً سيطبقه بعد ذلك بسنوات عندما سمح الرئيس جورج و. بوش للـ «سي. آي. إيه»، بعد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، بتنفيذ أوسع حملة من العمليات الخفية في تاريخها. وما هي الأمثولة؟ الحصول على كل شيء كتابة.

واستذكر، «عندما وصلنا إلى أمور مثل السّلطات القاتلة وسياسات الاحتجاز وكل هذه الأمور، أيقنت أنها موقعة من شمال وجنوب جادة بنسلفانيا. لماذا؟ لأنه سبق لي أن عشت ذلك من قبل».

وستمر خمس سنوات أخرى قبل لحاق محقّقي إيران - الكونترا بديوي كلاريدج واتهامه بشهادة الزور. غير أنه أقنع كايسي، قبل ذلك، بتحويل بيروقراطية الوكالة للتعامل مع تهديد لم تمض الوكالة أو البنتاغون الكثير من الوقت في التفكير فيه: وهو الإرهاب الإسلامي.

شرعت مجموعات إرهابية ذات أسماء لم يألفها معظم الأميركيين، وعلى امتداد سنتين بدءاً من ١٩٨٣، في فورة مذهلة من القتل. فيض الهجمات هذا بدأ بالقنبلة التي مزّقت السّفارة الأميركية في بيروت وقتلت ٦٣ موظفاً بمن فيهم ثمانية ضباط في الـ «سي. آي. إيه». وفي وقت لاحق من تلك السّنة، قتلت شاحنة محملة بالمتفجّرات ٢٤١ من المارينز النائمين في ثكنتهم في بيروت وهو هجوم أمرت به مجموعة إرهابية سرّية تدعى منظمة الجهاد الإسلامي (اسم تلطى به يومئذٍ حزب الله) احتجاجاً على الانتشار العسكري غير الحكيم في لبنان. وفي حزيران/يونيو ١٩٨٥ قتل خاطفون لبنانيون غطاساً في البحرية الأميركية في عملية خطف الرحلة ٨٤٧ التابعة لشركة «تي. دبليو.

إيه». الأميركية، وفي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٥ خطف إرهابي فلسطيني يدعى أبو العباس سفينة الرحلات «أكيلي لاورو» وأمر بقتل سائح أميركي في التاسعة والسّتين يدعى ليون كلينغهوفر. وقد رُميت جثته في البحر.

كافح مسؤولو ريغان للرد وفكروا في منح الـ «سي. آي. إيه» سلطة مطاردة وقتل الإرهابيّين اللبنانيين مستخدمين فريقاً من القتلة المحليين. وكتب أوليفر نورث مسودة أمر تنفيذي رئاسي تتضمّن لغة تمنح الـ «سي. آي. إيه» سلطة «شل حركة» المناضلين باستخدام القوة القاتلة[1]. واستهوت كايسي فكرة استخدام قتلة لبنانيين، لكن نائبه ارتاع منها. واستبد الغضب بجون مكماهون لدى سماعه بالخطة، وهو الذي لا يزال يحمل ندوب التحقيقات التي أجراها الكونغرس في السبعينيات وضجر من مآثر كايسي. وقد أيقن أن إنشاء فرق للقتل ينتهك الحظر الذي فرضه الرئيس فورد على الاغتيال. وسأل كايسي وهو يشير إلى مسؤولي البيت الأبيض، «أتعرف ما تعنيه الاستخبارات لهؤلاء الناس؟ إنها تعني رمي القنابل ونسف الناس». وأضاف أن البيت الأبيض لن يشعر بارتدادات قرار الشّروع في قتل الإرهابيّين، بل إن الـ «سي. آي. إيه» هي التي ستشعر به. وحذّر كايسي من «أنها لن تكون سياسة الإدارة، ولا فكرة مجلس الأمن القومي - بل أولئك الحقيرين المجانين في الـ (سي. آي. إيه)»[2].

لكن اعتراضات مكماهون لم تقنع كايسي الذي دعم اقتراح أوليفر نورث. ووقّع الرئيس ريغان في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٤ أمراً تنفيذياً سرّياً يجيز فيه للـ «سي. آي. إيه» وللقيادة المشتركة للعمليات الخاصة في البنتاغون بالمضي قُدُماً في تدريب قتلة لبنانيين[3]. لكنّ المخطط لم ينفذ قط، وألغى ريغان في النهاية الأمر التنفيذي وسط اعتراضات من وزارة الخارجية والحرس القديم في الـ «سي. آي. إيه». وقلّب المدير

(١) Robert Chesney, "Military-Intelligence Convergence and the Law of the Title 10/Title 50 Debate", *Journal of National Security Law and Policy* (2012). هذه دراسة ممتازة عن القوانين التي تدعم عمل الـ «سي. آي. إيه» والبنتاغون وكيف أن عمل الجنود والجواسيس قد تشوّش في السنوات التي أعقبت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر.

(٢) Joseph Persico, *Casey: From the OSS to the CIA* (New York: Penguin, 1995): 429.

(٣) Timothy Naftali, *Blind Spot: The Secret History of American Counterterrorism* (New York: Basic Books, 2005): 152.

المتقاعد السّابق للـ «سي. آي. إيه» رأيه في المسألة وأبلغ أحد مساعدي نائب الرئيس جورج هـ. و. بوش أنه يجب على الولايات المتّحدة ألّا تتبنّى النموذج الإسرائيلي المتمثل «بمحاربة الإرهاب بالإرهاب»(1).

أمل كايسي أن تنتهي الاندفاعة الإرهابية بالسّرعة التي بدأت بها. غير أن بعض ضباط الـ «سي. آي. إيه» اعتقدوا في الوقت نفسه أن كايسي لم يفهم التهديد الجديد وحسب(2)، وأدى الهجوم الدامي في فترة عيد الميلاد في ١٩٨٥ على منصتي بيع التذاكر العائدتين إلى شركة «العال» في مطاري فيينا وروما إلى القضاء على أي أمل في تلاشي الإرهاب(3). وقتل مسلحون فلسطينيون مخدّرون بالمنشّطات ١٩ شخصاً في خلال فورة القتل في المطار. وبلغت رهبة الهجومين ديار الأميركيين بقتل أميركية في الحادية عشرة من العمر اسمها نتاشا سيمبسون بعدما قتل أحد الإرهابيّين الفتاة من مسافة قريبة وهي مستلقية بين ذراعي والدها.

بعد وقتٍ قصير على هجومي فيينا وروما، طرح كلاريدج على كايسي حجّته المتمثلة بحملة جديدة على الإرهاب الإسلامي. واعتقد كلاريدج أن الوكالة في وضع دفاعي وفاز بمباركة المدير على البدء بحرب جديدة واسعة(4).

---

(١) Timothy Naftali، مصدر سابق، ص ١٥٠.

(٢) قال ضابط العمليات فينسنت كانيستريرو إن «كايسي جاء إلى الـ «سي. آي. إيه» وهو يعتقد أن الاتحاد السّوفياتي الشّرير يقف وراء كل الإرهاب في العالم». وقال كانيستريرو إنه يمكن الاتحاد السوفياتي، بموجب هذا المنطق، أن يأمر بعمليات إرهابية كلما اختار ذلك أو يأمر بوقفها.

(٣) Naftali، مصدر سابق، ص١٨٠، يستشهد نفتالي بنائب رئيس مركز مكافحة الإرهاب المقبل، فريد توركو، الذي يشرح وجهات نظر كايسي في شأن العنف الإرهابي.

(٤) تعرض كايسي للضغط من البيت الأبيض «للقيام بأمر ما» حيال الإرهاب، وطلب من كلاريدج الخروج باستراتيجية خفية جديدة للـ «سي. آي. إيه». وأراد كلاريدج، كالعادة، ما أمكنه الحصول عليه من فسحة. ودفع للحصول على سلطات قانونية جديدة تسمح له بإنشاء فريقين يمكنهما مطاردة الإرهابيّين عالمياً وقتلهم إذا حال القيام بذلك دون هجوم وشيك. وسيُشكل أحد الفريقين من أجانب يمكنهم التحرك بسهولة في البازارات والشّوارع المكتظة في الشّرق الاوسط، على أن يتألف الثاني من أميركيين. واختير عناصر الفريقين على أساس إتقانهم اللغات الأجنبية وسهولة استخدامهم السلاح وغير ذلك من المهارات المتخصّصة. وكان أحدهم مرتزقاً قاتل في الحروب الأهلية الإفريقية. والآخر عضو سابق في مغاوير البحر الأميركيين. راجع: Steve Coll, *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001* (New York: Penguin Press, 2005): 139–140; Clarridge with Diehl, *A Spy for All Seasons* (New York: Scribner, 1997): 325 and 327.

قضى اقتراح كلاريدج بإنشاء مجموعة متخصّصة داخل الـ«سي. آي. إيه» متكرسة فقط للإرهاب الدولي. وستصبح «مركز انصهار» يعمل فيه الضبّاط الخفيون إلى جانب المحللين لجمع الخيوط والمعلومات في شأن التهديدات المحتملة بغية أسر قادة الإرهابيّين أو قتلهم. وبدا ذلك يومئذٍ أشبه بتنظيم بيروقراطي نموذجي أصبح مثيراً جداً للجدل. فالـ«سي. آي. إيه» هي في الواقع ثقافة مفتتة ومنتمية إلى زمر تشبه الثانوية الرسمية بأكثر مما يريد الكثيرون في الوكالة الاعتراف به. ويميل الضباط شبه العسكريّين الأقوياء البنية إلى تجنّب المحللين الكادحين الذين ينظرون إلى العملاء شبه العسكريين بوصفهم أغبياء. ويحتل ضباط الحالة - الجواسيس الذين يخرجون إلى العالم - رأس الهرم ويعتقدون أنهم يقومون بعمل الـ«سي. آي. إيه» الحقيقي ويحبون التفاخر بأنهم لا يتبعون أوامر فرسان المكاتب في مقر القيادة.

جوبهت فكرة كلاريدج على الفور بمقاومة من الضبّاط الخفيين ذوي الخبرة في الشّرق الأوسط، الذين اعتقدوا أن المركز سيُشغل بضباط لا يدركون الفروق الدقيقة للعالم الإسلامي، وسيخلقون فوضى يُضطر الضبّاط المتمركزين في الخارج إلى تنظيفها. وقالوا إن مطاردة الإرهابيّين هي من عمل الشرطة، وهذا العمل مناسب للـ«أف. بي. آي» أكثر من الـ«سي. آي. إيه». وفي النهاية لم يثق الكثيرون من الضباط بكلاريدج وحسب ورأوا في المركز محاولةً لبناء إمبراطورية. ومن ثم وُلد مركز مكافحة الإرهاب وسط توتّرات مماثلة لتلك التي ستشهدها الـ«سي. آي. إيه» بعد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر - بين ضباط الحالة في أفغانستان وعملاء مركز مكافحة الإرهاب في لانغلي، بين أولئك الذين يدفعون في اتجاه عمليات أحادية وأولئك الذين يحذّرون من إمكان مثل هذه العمليات تخريب العلاقات الدقيقة مع أجهزة الاستخبارات الأجنبية.

تجاهل كايسي الاعتراضات الداخلية ووافق على اقتراح كلاريدج. وشرع مركز مكافحة الإرهاب في عملياته في الأول من شباط/فبراير ١٩٨٦. وجاءت رواية نشوء مركز مكافحة الإرهاب مألوفة: فقد كافح البيت الأبيض مع مشكلة لم يجد لها جواباً، وطلب بالتالي الحل من الـ«سي. آي. إيه». وسُرّت الـ«سي. آي. إيه» بتقديم المعروف.

كان إنشاء مركز مكافحة الإرهاب ذا مغزى أيضاً لأن ضباطه عملوا منذ البداية من كثب مع جنود العمليات الخاصة في الجيش، وسمحوا للجيش بأن يصبح شريكاً في

المهمّات الخفية. وقد أنشئت قيادة العمليات الخاصة التابعة للبنتاغون بعد سنة من مركز مكافحة الإرهاب، ونظر عملاء التنظيمين بعضهم إلى بعض بوصفهم رفاق روح متشبّعين بنَفَس «أو. أس. أس» بيل دونوفان. وعلى عكس الأقسام الأخرى في الـ «سي. آي. إيه» لم يشمخ مركز مكافحة الإرهاب بأنفه على الجيش. وبات كوماندوس البنتاغون شريكاً مع مطاردي الإرهابيّين في مركز مكافحة الإرهاب.

انتفت، عندما شرع مركز مكافحة الإرهاب في عملياته، أي عمليات خفية جارية ضد المجموعات الإرهابية الدولية، وشرع المركز في العمل مع الوحدات شبه العسكرية في الجيش، مثل قوة دلتا، لاختراق تنظيم أبي نضال وحزب الله[1]. ووضع المحامون العاملون لدى الرئيس ريغان مذكرات قانونية سريّة تخلص إلى أن مطاردة الإرهابيّين وقتلهم لا تنتهك الحظر الموضوع في ١٩٧٦ على الاغتيال، تماماً كما سيفعل بعد ذلك بعقود المحامون العاملون لدى الرئيسين جورج و. بوش وباراك أوباما. وحاجَّ المحامون بأن هذه الجماعات الإرهابية تخطّط لهجمات على الأميركيين، ومن ثم فإن قتلها ليس اغتيالاً بل دفاعاً عن النفس.

غير أن الحصول على السّلطات القانونية ليس إلا خطوةً واحدةً لا تضمن بأن يبارك السياسيون عمليات قاتلة محدّدة. ولم يمتلك البيت الأبيض، في السنوات الأولى لمركز مكافحة الإرهاب، سوى القليل من الرأسمال السياسي ينفقه على إقناع الكونغرس بالحاجة إلى قتل الإرهابيّين سرّاً. فالتحقيقات في إيران - الكونترا قد استنزفت طاقات فريق الأمن القومي التابع لريغان وأعطت المزيد من النفوذ لمستشارين أمثال مستشار الأمن القومي كولن باول ووزير الخارجية جورج شولتز اللذين حثّا على عدم القيام بالمزيد من الإنجازات في الخارج. ويستذكر فريد توركو، الذي شغل منصب نائب كلاريدج في مركز مكافحة الإرهاب ليتولّى من ثم ذلك المركز، أنه لم يعد هناك صبر على القتال، و«فشل الأمر بالنسبة إلى ريغان»[2].

غادر روس نيولاند أدغال أميركا الوسطى معيّباً كيف أن فضيحة إيران - الكونترا

(١) Naftali، مصدر سابق، ص ١٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٩-٢٠٠.

حطّمت الجهاز الخفي في الوكالة. غير أنه، وعلى عكس رؤسائه في الـ «سي. آي. إيه»، لم يعلق في شباك الفضيحة المتكشّفة؛ بل حاز في الواقع الترقية. ورُفّع مع عدد من معاصريه ليصبحوا رؤساء محطات في أوروبا الشّرقية، وهي وظائف حمّلتهم مسؤولية العمليات في مختلف الدول، التي تدور في فلك الاتحاد السّوفياتي. وأصبح نيولاند، وهو لا يزال في مطلع الثلاثينات، أصغر رئيس محطة في تاريخ القسم الذي يتولى أوروبا الشّرقية والاتحاد السوفياتي في الـ «سي. آي. إيه». ولم تنظر الوكالة في ١٩٨٨ إلى الأمر بوصفه مخاطرة كبيرة.

«وضعونا هناك لثقتهم الكبرى بأن ما من شيء سيحدث»، قال نيولاند: «ويا للهول، كم أخفقوا»!.

في غضون سنة تهاوى جدار برلين وانتشرت الثورة في أنحاء أوروبا الشرقية. وتولى نيولاند، بوصفه كبير ضباط الـ «سي. آي. إيه» في رومانيا، مسؤولية اطلاع إدارة بوش على انهيار نظام نيكولاي تشاوشيسكو الذي هرب مع زوجته من بوخارست فيما ملأت الحشود الشوارع قبل عيد الميلاد في ١٩٨٩. اعتقلت القُوّات الخاصة الرومانية نيكولاي وإيلينا تشاوشيسكو في يوم عيد الميلاد ووجد نيولاند نفسه يحاول إقناع ضباط الوحدة الممسكة بالزوجين بعدم إعدامهما أقله ليس من دون إجراء نوع من المحاكمة. وهذا أقله ما طلب رؤساء نيولاند في لانغلي منه أن يبلغه إلى القوات الرومانية. وقال: «وهكذا أجبرناهم على الشّروع في المحاكمة التي استمرت ما يقارب العشرين دقيقة. ولما تم الانتهاء من ذلك الإجراء الشكلي طلب قائد المفرزة ثلاثة متطوعين ليشكلوا فرقة الإعدام بالنار. لكن عندما وُضع الديكتاتور الروماني وزوجته إلى الجدار وأيديهما موثقة من وراء ظهريهما أطلقت المفرزة بأسرها النار».

بلغت مهمّة الـ «سي. آي. إيه» المحدّدة نهايتها مع خاتمة الحرب الباردة. فجبه تقدّم الشيوعية شكّل منار الوكالة، مبرّراً عقوداً من العمليات المنتشرة على نطاق واسع في أميركا اللاتينية والشّرق الأوسط وأوروبا. ووجّه الخفض في ميزانيات البنتاغون والـ «سي. آي. إيه» في التسعينيات ضربةً قويةً بنوع خاص للجهاز الخفي التابع للوكالة، إذ أقفلت المحطات في الخارج وخفض عدد ضباط الحالة في الـ «سي. آي. إيه». وخفض الإنفاق العام على جمع الاستخبارات البشرية بنسبة ٢٢ بالمئة على مرّ

العقد[1]. والرئيس كلينتون، وهو أول رئيس من حقبة طفرة المواليد في أميركا وأحد المعارضين السّابقين لحرب فيتنام، من المشككين الطبيعيين في الـ «سي. آي. إيه» ولم يكرّس في ولايته الأولى الكثير من الوقت لكبار جواسيسه. وقال ر. جايمس وولسي جونيور، أول مدير لـ «سي. آي. إيه» في عهد كلينتون، إن الرئيس لم يعط الكثير من الانتباه للمسائل الاستخبارية ولم يعقد لقاءات خاصة مع رئيس جواسيسه إلا مرة واحدة في السنة. وأضاف، «لم يُتح، بصراحة، سوى القليل من الوصول إليه». ومزح، بعد مغادرته الـ «سي. آي. إيه»، بأنه الرجل الذي أسقط طائرة الـ «سيسنا» المسروقة في حديقة العشب الجنوبية للبيت الأبيض في أيلول/سبتمبر ١٩٩٤، وذلك، في الحقيقة، في محاولة منه الحصول على لقاء مع الرئيس[2].

بقيت الوكالة تواجه تصفية الحساب على العمليات العدوانية التي أشرف عليها ديوي كلاريدج في الثمانينيات في أميركا اللاتينية. وأصدر مجلس الإشراف على الاستخبارات تقريراً في ١٩٩٦ يفصل انتهاكات حقوق الإنسان التي ارتكبها ركائز الـ «سي. آي. إيه» على مدى أكثر من عقد في غواتيمالا. وادعى أن عدة مخبرين لـ «سي. آي. إيه» قاموا ما بين ١٩٨٤ و١٩٨٦ « وهم لا يزالون من الركائز، بإصدار الأوامر والتخطيط أو المشاركة في انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان مثل الاغتيال والإعدام بلا محاكمة والتعذيب أو الخطف – وأن الـ «سي. آي. إيه» درت بالكثير من هذه المزاعم عند حدوثها»[3]. وسبق للإفشاءات في شأن غواتيمالا أن أخذت تتسرّب منذ سنين ما حمل مدير الـ «سي. آي. إيه» جون م. دوتش على فرض قيود جديدة على تعامل ضباط الحالة في الوكالة مع شخصيات مقيتة. وبات أسياد المخدّرات الذين رافقهم روس نيولاند سابقاً إلى صراع الديوك في بوليفيا خارج الحدود المسموحة لضباط الـ «سي. آي. إيه» وينطبق ذلك أيضاً على الإرهابيّين الذين قد يحاولون قتل أميركيين.

نال دوتش الدكتوراه في الكيمياء من معهد التكنولوجيا في ماساتشوستس، وجاء

---

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول كبير في الاستخبارات الأميركية.

(٢) ملاحظات عامة أدلى بها ر. جايمس وولسي في جامعة جورج مايسون في ١٣ أيلول/سبتمبر ٢٠١٢.

(٣) Intelligence Oversight Board, "Report on the Guatemala Review", June 28, 1996.

إلى لانغلي من البنتاغون بعدما أقال كلينتون في ١٩٩٥ جايمس وولسي من منصبه في الـ «سي. آي. إيه». أراد بناء أقمار صناعية للتجسس ومراكز تنصت في ما وراء البحار وليس إرسال ضباط خفيين في مهمّات سرّية متهوّرة. لم يثق بالجهاز الخفي في الوكالة، وعامله الجهاز وكأنه فيروس اجتاح الجسم المضيف.

قضت إحدى مبادراته بحمل الـ «سي. آي. إيه» على العمل من كثب أكثر مع الجيش في مسائل غير مكافحة الإرهاب، التي عادت لتصبح مع منتصف التسعينيات مسألةً لا تحظى بالاهتمام الكبير في الـ «سي. آي. إيه». واشتكى جنرالات البنتاغون، منذ نهاية حرب الخليج في ١٩٩١، من أن الـ «سي. آي. إيه» كانت عديمة الفائدة في اختراق نظام صدّام حسين قبل اندلاع الحرب وعلى القدر نفسه من السّوء في مساعدة الجيش على مطاردة القوات العراقية في الصحراء. وأمر دوتش ضباط الـ «سي. آي. إيه» بالخدمة في مراكز قيادة الجيش حول العالم للتحقق أن الوكالة تقدّم أفضل استخباراتها في شأن التهديدات العالمية.

اعتقد دوتش أن دور الـ «سي. آي. إيه» في دعم الجيش أساسي جداً إذ خلق في ١٩٩٥ وظيفةً رفيعة المستوى توفر صلة اتصال مع البنتاغون، وهو مركز سيتولاه ضابط عسكري رفيع المستوى. ومزح بعضهم داخل الوكالة بأن إلحاق عملاء الـ «سي. آي. إيه» بقيادة الجيش وأميرالات الجيش بالوكالة أشبه بالنظير البيروقراطي لتبادل الرهائن.

كان نائب الأميرال دنيس سي. بلير أول ضابط عسكري يُربط بالـ «سي. آي. إيه»، وهو «يانكي» نحيل وقويّ من كيتيري، ماين، تخرج في ١٩٦٨ في الأكاديميّة البحرية ومضى إلى جامعة أوكسفورد بمنحة «رودس» حيث تصادق مع الشاب بيل كلينتون. واجه بلير في شكل شبه فوري مقاومة من ضباط الـ «سي. آي. إيه» الذين ارتابوا بالأميرال ذي النجوم الثلاث الذي له نظرة قاتمة إلى سجل الوكالة في العمل الخفي.

ورأى بلير أن على الوكالة أن تركز على جمع الاستخبارات وتحليلها وليس على العمليات السّوداء، التي لا تصلح لتوريط الولايات المتّحدة في المشاكل. وسيقول بلير بعد سنوات على ذلك: «أعتقد، بالعودة إلى تاريخ عمليات الـ «سي. آي. إيه» الخفية،

أن في وسع المرء أن يحاجَّ بأننا لو لم نفعل أياً من ذلك لكنا ربما أفضل حالاً، وبالتأكيد ليس في حال أسوأ مما نحن عليه اليوم»[1].

نظر بعضهم في لانغلي إلى بلير على أنه جاسوس للبنتاغون. لكن وجوده أثار أيضاً مخاوف أكبر من أن البنتاغون سيستهلك الوكالة وتخسر الـ «سي. آي. إيه» موقعها بوصفها جهاز الاستخبارات المخلص للرئيس. فالرجال، على ما قاله ديوي كلاريدج، يقومون بالزحف العسكري من أجل الرئيس.

سرعان ما وجد بلير نفسه يخوض المعارك مع مديرية العمليات في الـ «سي. آي. إيه» حول أكبر قضايا ذلك الوقت وهي الحرب في البلقان. ودار واحد من النزاعات حول أداة مراقبة جديدة استعارتها الـ «سي. آي. إيه» من سلاح الجو للتجسس على البوسنة، وهي طائرة طويلة أشبه بالحشرة تدعى «آركيو-١ بريداتور». وأخذت الـ «سي. آي. إيه» تطير البريداتور للتجسس على مواقع القوات الصَربية، واقترح ضباط كبار في الوكالة وضع شاشات فيديو داخل البيت الأبيض للسَماح للرئيس كلينتون ومساعديه بمشاهدة البث الحي من الطائرة التي تطير بلا طيار. وأُعجب بلير بمبادرة الـ «سي. آي. إيه» في تطوير البريداتور لكنه اعتقد أن الرئيس سيضيع وقته الثمين في مشاهدة بث الطائرة. واشتبه بأن الجهاز الخفي في الـ «سي. آي. إيه» يحاول التباهي وحسب بلعبته الجديدة أمام الرئيس كلينتون.

وتذكَر بلير أنه سأل، «ما الذي سيفعله الرئيس بذلك؟ وقالوا: «يحتاج ذلك إلى أن يذهب إلى البيت الأبيض في حال أراد الرئيس معرفة ما يجري في البوسنة».

وقلت: «ذلك سخيف! فالرئيس لن ينظر من خلال قشّة الصودا الصغيرة هذه!»[2]

اصطف دوتش في النهاية مع بلير ولم تبث الـ «سي. آي. إيه» قط فيديو البريداتور إلى البيت الأبيض. وذلك نزاع سخيف، لكن بالنسبة إلى بلير فإن تلك الحادثة وغيرها من المعارك التي خاضها مع الجهاز الخفي في الوكالة، هي بمنزلة تذكير مهم بأن مديرية العمليات ستحاول عض اليد التي تحاول سدّ سبيلها المباشر إلى المكتب البيضوي.

---

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع دنيس بلير.

(٢) المصدر نفسه.

وبعد أكثر من عقد لاحق، وقد تولى رئيس ديمقراطي آخر السّلطة، سيحاول بلير من جديد الحؤول بين الـ «سي. آي. إيه» والبيت الأبيض. وسيقضي ذلك على حياته المهنية.

٤ : جواسيس رامسفلد

«يبدو أننا أنشأنا الـ «سي. آي. إيه» الخاصة بنا، لكنها، على غرار «توبسي»، غير مُنسَّقة وغير منضبطة»[١].

- نائب وزير الدفاع فرانك كارلوتشي، ١٩٨٢

«ألا يمكن، بالنظر إلى طبيعة عالمنا، تصوّر أنه ليس على الوزارة أن تكون، في أوضاع كهذه، في موقع الاعتماد شبه التام على الـ «سي. آي. إيه»؟»[٢].

- وزير الدفاع دونالد رامسفلد، ٢٠٠١

في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١، وفيما أخذ عملاء الـ «سي. آي. إيه» وأسياد الحرب الأفغان، بوصفهم أعضاء في فرق القُبّعات الخضر الأميركيين، في طرد قوات الطالبان من كابول وقندهار، طار دونالد رامسفلد إلى «فورت براغ»، في كارولينا الشّمالية،

(١) Frank C. Carlucci, "Memorandum to the Deputy Under Secretary for Policy Richard Stillwell", Washington, D.C., May 26, 1982, declassified in 2001 via Freedom of Information Act Request by the National Security Archive. جمع جيفري ت. ريتشلسون وباربرا إلياس غير ذلك من الوثائق المحفوظة والمستخدمة في هذا الفصل. كذلك أعطى المقال التالي لهذا الفصل قيمة كبيرة Robert Chesney, "Military-Intelligence Convergence and the Law of the Title 10/Title 50 Debate", *Journal of National Security Law and Policy* (2012).

(٢) Donald H. Rumsfeld, "SECRET Memo to Joint Chiefs Chairman General Richard Meyers", October 17, 2001.

وهي قاعدة مترامية الأطراف في فاييتفيل أَوَتْ على مدى سنوات عدداً كبيراً من قوات المهمّات الخاصة في الجيش. وافتُرض بذاك النهار أن يشكِّل أساساً يوم استقبال حار يلتقي فيه رامسفلد قادة القوات الخاصة لشكرهم على ما بدا حتى الآن أنه غزو سهل نسبياً لأفغانستان.

وبعد صباح من التهاني وعروض «الباور بوينت»، نُقل رامسفلد بآلية إلى مجمّع مسوّر جيّداً يجثم فوق «فورت براغ» ومجاور لقاعدة «بوب» الجوية. وهو مقرّ القيادة المشتركة للعمليات الخاصة، وهي تنظيم سرّي للغاية يتألف معظمه من عناصر قوة دلتا العسكرية وعناصر من «المجموعة الخاصة البحرية للإعداد الحربي»، ويُطلق عليها عموماً اسم «سيل الفريق ٦» (القوات الخاصة البحرية). وليست القيادة المشتركة للعمليات الخاصة إلا ذراعاً عملانية صغيرة من القيادة الأميركية الأكبر للعمليات الخاصة. وقد رفض البنتاغون في حينها الاعتراف حتى بوجود هذه المجموعة.

وقدمت القيادة المشتركة للعمليات الخاصة استعراضاً لوزير الدفاع الزائر. وبرهن جنودها على قدرتها على إدخال الكوماندوس إلى البلدان من دون أن يلاحظ أحد ذلك، فنزلوا بالمظلات من إحدى الطائرات وهبطوا أمام رامسفلد مباشرة. وارتدى أحدهم بزّةً رسمية وحمل حقيبة وانتزع مظلته وسار مبتعداً عن منطقة الهبوط وهو ينتعل حذاءً جلدياً. وأُخذ رامسفلد أيضاً إلى «منزل يتم فيه التدريب على إطلاق النار» حيث شاهد تمريناً على عملية لإنقاذ الرهائن - والقيادة المشتركة للعمليات الخاصة تدعي قتل خاطفي الرهائن من دون إصابة الأسرى بأي ضرر[1]. واقتنع رامسفلد على الفور.

أصبحت مجموعة العمليات الخاصة، عند ذلك الحد، خبيرة جداً في استعراض نفسها أمام المسؤولين الزائرين. فقبل ذلك بأعوام، في ١٩٨٦، ذهب النائب ديك تشيني إلى «فورت براغ» ليوم من الاجتماعات مع قادة قوة دلتا وسمع عن استخدام القوة قاعدة بيانات تستخرج منها المعلومات حول التهديدات المحتملة. وفي وسط الموجز حول «لكسيس نكسيس» (LexisNexis) – قاعدة بيانات الأخبار والوثائق التي باتت واسعة الانتشار اليوم وكانت يومئذٍ شيئاً جديداً - طلب تشيني من العسكري مقدّم

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع روبرت أندروز. أنظر كذلك: Rowan Scarborough, *Rumsfeld's War: The Untold Story of America's Anti-Terrorist Commander* (District of Columbia: Regnery, 2004): 8–10.

الموجز أن يبحث عن اسمه في قاعدة البيانات. وإذا بأهم الأخبار مقالة صحافية عن مشروع قانون في مجلس النواب رعاه تشيني وقول نائب آخر في اليوم السابق إنه سيصوّت ضده.

امتقع لون تشيني. وأمر ضابط المناوبة بالعثور على عضو الكونغرس، وصرخ بالرجل عبر الهاتف من داخل مركز العمليات. واستذكر توماس أوكونيل، أحد كبار ضباط القيادة المشتركة للعمليات الخاصة، بالقول: «اضطررنا إلى إخلاء المكان». وقال إن تشيني بدا عند ذلك «رجلاً مختلفاً» بعدما شاهد قوة استخدام قاعدة البيانات لجمع المعلومات عن أفراد محدَّدين. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، قال أوكونيل، أصبح تشيني يرتاح في التعامل مع رجال العمليات الخاصة[1].

بعد ذلك بسبع عشرة سنة، وفي زيارة حج مشابهة إلى «فورت براغ»، اعتقد أيضاً مرشد تشيني القديم، دونالد رامسفلد، أنه يحصل على نظرة إلى المستقبل. ورافق رامسفلد في السَفرة روبرت أندروز الذي كاد لا يفارقه في الأسابيع التي تلت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. وأندروز هو أرفع مسؤول مدني في البنتاغون ومسؤول عن العمليات الخاصة وشرع، على غرار فرجيل في جحيم دانتي، يُرشد رامسفلد عبر عالم الظلام الذي توسع في شكل كبير جداً منذ تولى الأخير منصب وزير الدفاع للمرة الأولى في عهد إدارة فورد.

ما أمكن رامسفلد العثور على مرشد أكثر خبرة. فأندروز، الريفي المولود في سبارتنبرغ، في كارولينا الجنوبية، تخرّج في ١٩٦٠ وحاز إجازة في الهندسة الكيميائية من جامعة فلوريدا، والتحق بالجيش كجزء من التزام في فيلق تدريب ضباط الاحتياط اعتقد أنه سيبقيه في الخدمة سنتين اثنتين وحسب. لكنه التحق، عوضاً عن ذلك، بالقُبّعات الخضر في ١٩٦٣ وشرع في ما سيصبح خمسة عقود من الانغماس في عالم العمليات الخاصة والاستخبارات. وغادر في السنة التالية إلى فيتنام بوصفه نقيباً شاباً في القوات الخاصة في الأولى من دورتَيْ واجبٍ كجزء من وحدة شبه عسكرية خفية تدير حرباً سرّية ضد فيتنام الشمالية معتمدة التخريب والاغتيال والدعاية المعادية. وعُرفت المجموعة بالاسم البيروقراطي الملطّف «قيادة المساندة العسكرية، فيتنام - مجموعة

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع توماس أوكونيل.

المراقبة»، وأدارت أوسع العمليات الخفية التي نفَّذتها الولايات المتَّحدة منذ أيام الـ «أو. أس. أس» وأكثرها تعقيداً[1].

عاد أندروز من فيتنام وألف كتاباً عنوانه «الحرب القروية» (*The Village War*)، تناول فيه شبكات الاستخبارات الواسعة التي أقامها الشيوعيون في القرى الفيتنامية الجنوبية للتغلب على القوات الفيتنامية الجنوبية والأميركية في خلال الحرب. واستند الكتاب في شكل شبه حصري إلى تقارير التحقيقات مع جنود الجيش الفيتنامي الشّمالي والفيتكونغ الأسرى، وإلى روايات الفيتناميين الشماليين الفارين. وحظي كتاب أندروز بقراءة واسعة في الـ «سي. آي. إيه» وطُلب منه في ١٩٧٥، تماماً بعد سقوط سايغون في أيدي قوات الشمال، أن يعمل في لانغلي رئيساً لفريق التدقيق في التحليل المحفوظ الذي قامت به الوكالة لفيتنام.

«نظرتُ في الأساس إلى الإخفاقات الاستخبارية»، استذكر أندروز الذي أدرك أن للمشاكل الأميركية في فيتنام علاقة بالجهل العميق لثقافة الفيتناميين ونفسيتهم بقدر ما لها علاقة بأي أخطاء عسكرية محدّدة. وبقي خمس سنوات في الـ «سي. آي. إيه» قبل أن يغادر للعمل في الصناعات الدفاعية ويشرع في كتابة سلسلة من روايات التجسس المثيرة والألغاز، بما فيها واحدة تدعى «البُرْجَيْن» (*The Towers*). ويتعلّق الكتاب بعميل سابق في الـ «سي. آي. إيه» يحاول في شكل محموم إحباط مؤامرة إرهابية داخل الولايات المتّحدة. وحمل الغلاف صورة مركز التجارة العالمية.

كان أندروز في الرابعة والستين عندما عاد في ٢٠٠١ إلى البنتاغون، وقد جلس في ٢٥ أيلول/سبتمبر إلى جانب رامسفلد عندما قدّم الجنرال تشارلز هولاند، رئيس قيادة العمليات الخاصة، الموجز الأول حول كيفية خوض الجيش الحرب ضد القاعدة[2]. وسبق لرامسفلد أن وجه أمراً إلى هولاند بالخروج بخطة لحملة عالمية تتجاوز حصن القاعدة في أفغانستان. وتوقّع رامسفلد، عندما جمع مساعديه حول طاولة الاجتماع، أن يُخبر بأن ذلك قد يكون ممكناً.

---

(١) Richard H. Shultz Jr., *The Secret War Against Hanoi: Kennedy's and Johnson's Use of Spies, Saboteurs, and Covert Warriors in North Vietnam* (New York: Harper Collins, 1999): ix.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع روبرت أندروز.

انطلق الموجز انطلاقة واعدة عندما أظهر هولاند خريطة ووضع علامات على لائحة من البلدان - أفغانستان، باكستان، الصومال، اليمن، موريتانيا، وحتى أجزاء من أميركا اللاتينية - التي يعتقد الجيش أن معاوني أسامة بن لادن يختبئون فيها. ودب النشاط في رامسفلد وقاطع الجنرال.

وسأله، «متى سنبدأ العمليات في هذه البلدان؟».

تمعّن هولاند في السؤال. وقال تماماً لرامسفلد، بعد برهة توقف، ما لا يريد وزير الدفاع الحاد الطباع أن يسمعه.

وأجاب هولاند، «الحقيقة، سيكون ذلك صعباً، لأننا لا نمتلك أي استخبارات نتحرّك استناداً إليها».

وهناك مشكلة أخرى: ليست قيادة العمليات الخاصة جاهزة حتى لخوض هذا النوع من الحرب – أو أي حرب في الواقع. فوظيفة القيادة تتمثل فقط بتدريب جنود العمليات الخاصة وتهيئتهم للقتال وإرسالهم إلى مقار القيادة الإقليمية الأخرى التابعة للبنتاغون في الشّرق الأوسط والمحيط الهادئ وأي مكان. وغار القادة الإقليميون على بقعهم الخاصة في العالم ونظروا بعبوس إلى احتمال قيام قيادة العمليات الخاصة بتنفيذ مهمّاتها في مضمارهم.

وانتقلت الأمور من سيّئ إلى أسوأ عندما طرح رامسفلد سؤالاً آخر على هولاند تصوّر أنه سيفضي إلى جواب مقبول: متى يدخل جنود العمليات الخاصة أفغانستان ويشرعون في الحرب فيها؟

أجاب هولاند، «ما إن نحصل على تصريح من الـ (سي. آي. إيه)».

نظر روبرت أندروز إلى رامسفلد الذي، حسبما يذكر أندروز، «أخذ يستبد به الغضب». فلم يُبلغ، في مسألة دقائق، أن قوات العمليات الخاصة الفائقة الكلفة تفتقر إلى الاستخبارات عن القاعدة وحسب، بل إنها أيضاً لا تستطيع المضي إلى ساحة القتال من دون الحصول على تصريح من جورج تينيت والـ «سي. آي. إيه».

وهذا أمر قد أصاب رامسفلد تكراراً بالإحباط في الأشهر التي ستلي هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، وقد بلغ هذا الإحباطُ حدّاً اشتكى منه إلى الجنرال تومي فرانكس، قائد القيادة المركزية والجنرال المسؤول عن حرب أفغانستان، من أنه بالرغم من أن حجم

وزارة الدفاع يبلغ أضعافاً مضاعفة من حجم الـ «سي. آي. إيه»، فإن الجيش أشبه «بزغاليل في العش تنتظر من يلقي بالقوت في مناقيرها».[1] ودفع، بعد أيام على بدء حرب أفغانستان، مذكرةً لاذعة إلى رئيس الأركان المشتركة الجنرال ريتشارد مايرز كتب فيها، «ألا يمكن، بالنظر إلى طبيعة عالمنا، تصوّر أنه ليس على الوزارة أن تكون، في أوضاع كهذه، في موقع الاعتماد شبه التام على الـ «سي. آي. إيه»؟».

اتخذ رامسفلد منذ زمن بعيد موقفاً منتقداً من وكالة الاستخبارات. وكتب رسالة إلى تينيت، وهو يرأس في ١٩٩٨ لجنة مستقلة لتقويم التهديدات التي تواجهها الولايات المتّحدة من الصواريخ البالستية، شكّلت إدانة مهلكة لآراء الـ «سي. آي. إيه» في شأن القدرات الصاروخية لإيران وكوريا الشّمالية. لكنه أدرك الآن، في خضم الحرب الجديدة، أنه يحسد الوكالة على تمكنّها من إرسال العملاء إلى أي مكان، في أي وقت، من دون أن تُضطر إلى طلب الإذن بذلك. وقال أندروز في شأن القرارات التي اتخذها رئيسه في السنة التي تلت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، «يمكن المرء أن يتتبع في شكل مشروع التغيير في إدارة الحرب إلى حد الإدراك بأننا نفتقر إلى الاستخبارات لخوض الحرب التي نريد خوضها».

واستنتج رامسفلد بأن الجواب الوحيد يتمثل بجعل البنتاغون أكثر شبهاً بالـ «سي. آي. إيه».

ليست مخاوف رامسفلد بالجديدة تماماً. فقد قرّر البنتاغون في ١٩٨٠، بعد الإخفاق الحارق في «دشت - إي كبير»، الصحراء المالحة الكبرى في إيران، أنه يحتاج إلى المزيد من جواسيسه.

أصيبت، في شهر نيسان/أبريل ذلك، المهمة الخفية لإنقاذ اثنين وخمسين رهينة مسجونين في مجمّع السَفارة الأميركية في طهران بلسعة أفعى منذ البداية: عانت ثلاث من طائرات الهليكوبتر الثماني في مهمّة الإنقاذ أعطالاً ميكانيكية وهي في الطريق إلى المهبط البعيد؛ وتحطّمت أخرى في هبوط اضطراري في نقطة اللقاء؛ وبعد وقت قليل

(١) Donald H. Rumsfeld, *Known and Unknown: A Memoir* (New York: Sentinel, 2011): 392.

على أوامر القادة بإلغاء المهمة اصطدمت هليكوبتر عالقة في عاصفة رملية بطائرة شحن عسكرية فقُتل ثمانية عسكريين في انفجار أضاء سماء الصحراء.

ومع ذلك لم تشكّل المهمة الفاشلة، من وجهة نظر الجيش، مجرّد تضافر مأسوي من التوقعات الساذجة والتخطيط السيّئ، والتنفيذ الفاشل. ويعود السبب الجزئي لإلغاء «عملية مخلب النسر»، في أذهان بعض من الكوماندوس الذين شاهدوا أصدقاءهم يموتون في الانفجارات في الصحراء، إلى إخفاق وكالة الاستخبارات المركزية في توفير المعلومات التكتيكية عمّا يجب توقعه في خلال المهمة.

وقد تنغّصت العملية، حتى قبل أن تصل إلى خاتمتها المأسوية، بالنزاعات بين الـ «سي. آي. إيه» والجيش حول كيفية جمع الاستخبارات المتعلّقة بها. وسبق لوكالة التجسس أن أظهرت بالفعل أنها عاجزة عن فهم ديناميات الثورة الإيرانية مع شكوى مديرها ستانسفيلد تورنر في اجتماعات مجلس الأمن القومي، من أن الوكالة لا تمتلك إلا مصادر قليلة في البلاد، وتعتمد في معلوماتها في شكل كبير على الصحف الأميركية وعلى الـ «بي. بي. سي»[1].. ولم يثق قائد المهمة التابع لقوة دلتا بضباط الـ «سي. آي. إيه» المكلفين جمع الاستخبارات في إيران قبل العملية، فأرسل عنصر القُبّعات الخضر ريتشارد ميدوز إلى البلاد لمراقبة مجمع السّفارة حيث يُحتجز الرهائن. وسافر ميدوز بجواز سفر إيرلندي مزوّر، وغطى لكنة غرب فرجينيا بعجمة واجتاز الجمارك مدعياً أنه «ريتشارد كيث» المدير التنفيذي في شركة سيارات أوروبية.

والأكيد هو أن القوات الأميركية لم تصل قط إلى طهران لتنفيذ عملية الإنقاذ. لكن جنرالات البنتاغون اشتكوا من عدم قدرة وزارة الدفاع على إرسال جماعتها في عمليات تجسس خفية لتعبيد الطريق أمام عمليات الكوماندوس. وكتب أحد جنرالات الأركان المشتركة في البنتاغون في مذكرة رفعها في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٠ إلى رئيس

(١) Mark Bowden, *Guests of the Ayatollah: The Iran Hostage Crisis: The First Battle in America's War with Militant Islam* (New York: Grove Press, 2006): 122. وجاء نجاح الـ «سي. آي. إيه» الوحيد قبل العملية بمنزلة ضربة حظ، عندما صدف أن جلس ضابط في الـ «سي. إي. إيه» في الطائرة المنطلقة من طهران بجانب طباخ باكستاني عمل أخيراً داخل مجمع السّفارة الأميركية. وقدم الطباخ للأميركيين المعلومة الحاسمة وفحواها أن جميع الرهائن موضوعون في المكان نفسه داخل مبنى المستشارية.

وكالة استخبارات الدفاع عن «قصور خطير ومستمر في المعلومات»، وعن الحاجة إلى مجموعة «من المراقبين البشريين الذين يُركن إليهم»[1]. وعجّلت الهيئة المشتركة لرؤساء الأركان في إيجاد مجموعة من مثل هؤلاء المراقبين مع قيام البنتاغون بوضع المخططات لمحاولة إنقاذ ثانية في إيران. وأصبحت تُعرف باسم «مجموعة العمليات الميدانية».

حملت المجموعة اسم الاختصار المنكود «فوغ» (الضباب)، ولم تقم بالكثير. وقد أطلق الرهائن في يوم تولي ريغان السّلطة، في كانون الثاني/يناير ١٩٨١، وانتفت بالتالي ضرورة القيام بمحاولة إنقاذ أخرى في إيران. ولكن، حتى بعد حلّ «فوغ»، وجد رئيس الأركان إدوارد ماير حاجة إلى كادر دائم من جواسيس البنتاغون وصاح، في أحد اجتماعات وزارة الدفاع، «سأكون ملعوناً لو علقت مرة ثانية في وضع آخر من أوضاع الرهائن الإيرانية لا نعرف فيه بما يجري أو متى لا يمكننا الدخول إلى البلاد»[2]. ووُلد «دعم النشاط الاستخباري» التابع للجيش.

لم تشكل هذه البرامج في خلال مطلع الثمانينيات أول دخول للبنتاغون في لعبة الاستخبارات البشرية. لكن جهود التجسس السابقة أخذت في التوقف، وذلك جزئياً بسبب المقاومة التي أبداها كبار الجنرالات والأميرالات الذين اعتقدوا أنه يجب على الجنود ألّا يكونوا جواسيس أيضاً[3]. إلا أن إخفاق «عملية مخلب النسر» أعطى تأثيراً

---

(١) Lt. Gen. Philip C. Gast, "Memorandum for Director, Defense Intelligence Agency", Washington, D.C., December 10, 1980.

(٢) Steven Emerson, *Secret Warriors: Inside the Covert Military Operations of the Reagan Era* (New York: Putnam, 1988): 39.

(٣) كان أهم هذه العمليات وحدة بحرية سرّية تُدعى «قوة المهمات الخاصة ١٥٧». واستخدمت هذه القوة أسطولاً من سفن المراقبة الإلكترونية التي أخذت شكل اليخوت الفاخرة، وتمركز جواسيسها عند مدخل قناة بنما وفي مضيق جبل طارق وغيرهما من «نقاط الاختناق» البحرية لتقفّي آثار السفن السوفياتية. ولم يناقش البنتاغون في العلن قط عمل المجموعة، وعندما أدلى نائب رئيس العمليات البحرية بشهادته، في ١٩٧٣، أمام الكونغرس لم يقدم سوى إشارة غير مباشرة إلى كيفية «توسيع عمليات جمع الاستخبارات البشرية في مناطق حساسة». وعمل ديوي كلاريدج، وهو رئيس لمحطة الـ «سي. آي. إيه» في إسطنبول، مع جواسيس «قوة المهمات الخاصة ١٥٧» الذين راقبوا حركة النقل البحري في البوسفور. راجع لأفضل معالجة لموضوع «قوة المهمات الخاصة ١٥٧»، Jeffrey T. Richelson, "Truth Conquers All Chains: The U.S. Army Intelligence Support Activity, 1981-1989", *International Journal of Intelligence and Counterintelligence* 12, no. 2 (1999).

أكبر لأولئك الذين أرادوا توسيع صفوف البشر الجواسيس في البنتاغون، وأبرزهم الجنرال في الجيش ماير. وافتتح «دعم النشاط الاستخباري» مكتباً له داخل البنتاغون ضم نحو خمسين شخصاً لكنه طمح إلى زيادة عدده إلى خمسة أضعاف ذلك الحجم. وحملت شارة الوحدة الرسمية رموزاً مختلفة تمثل مهمة الإنقاذ الإيرانية الفاشلة، إضافةً إلى عبارة «أرسلني»، التي أُخذت من آية من سفر إشعيا: « ثم سمعت صوت السيّد قائلاً من أُرسِل ومن يذهب من أجلنا. فقلت ها أنا ذا أرسلني»[1].

أنشئ «دعم النشاط الاستخباري» في ١٩٨١ مع ميزانية سرّية كبيرة بقيادة عقيد في الجيش مندفع وشديد التصميم، ومع تصريح بالقيام بعمليات تجسس سرّية من دون الحاجة حتى إلى تبليغ هيئة الأركان المشتركة. وشكّل ذلك كله المكونات المثالية لوصفة سامة. فعالم العمليات السرّية متخم بالشّخصيات من الطراز الأول، كما أن وحدة سرّية ذات تمويل غير محدود ومهمة غامضة تتجه إلى خرق الحدود القانونية. ولم يشكل «نشاط الدعم الاستراتيجي» بقيادة العقيد جيري كينغ استثناء.

شن كينغ، منذ البداية تقريباً، عدداً من العمليات في العالم تتجاوز الأطر المتبعة. ولا شك في أن أكثرها تنوّعاً هي عملية دفق الأموال والمعدات لعنصر متقاعد من القُبّعات الخضر يخطط لمهمة خاصة لإنقاذ أسرى حرب أميركيين يُعتقد أنهم معتقلون في لاوس. فعلى مدى سنين سافر جايمس «بو» غريتز إلى جنوب شرقي آسيا لجمع المعلومات عن أسرى حرب محتملين، وهي الرحلات التي مولها الثري التكساسي هـ. روس بيروت. وبحلول ١٩٨١، أي بعد فترة قصيرة على إنشاء «دعم النشاط الاستخباري، اعتقد غريتز أنه عثر على دليل قوي على وجود عشرات أسرى الحرب في أحد المعسكرات في وسط لاوس. وجاءت المعلومة من صورة التقطتها الأقمار الصناعية قبل ذلك بأعوام، بدا فيها وكأنه تم رسم حرف «ب» والرقم «٥٢» - وربما كانا إشارة من أسرى الحرب إلى من قد يراقب من السماء»[2].

وأخذ في التخطيط لمهمة إنقاذ، أعطاها حتى اسماً رمزياً: «المطرقة المخملية». وجمع غريتز فريقاً من خمسة وعشرين جنديّاً من جنود القوات الخاصة المتقاعدين،

(١) Jeffrey T. Richelson، مصدر سابق، ص ١٧١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٢.

ودرّبهم في أحد معسكرات فلوريدا وأوفد مجموعة منفصلة إلى تايلندا لإعداد الأرضية للمهمة في لاوس[1]. وفيما أعدّ غريتز للمهمة اتصل به الكثيرون من أعضاء «دعم النشاط الاستخباري» وعرضوا مساندتهم: أجهزة تصوير بقيمة عشرات الآلاف من الدولارات، أجهزة اتصالات، بطاقات سفر إلى بانكوك، وجهاز لكشف الكذب لتحديد صدقية المصادر المحلية التي تقدّم معلومات عن معسكر أسرى الحرب[2]. كذلك زود «دعم النشاط الاستخباري» فريق غريتز صوراً جوية وغيرها من المعلومات الاستخبارية.

شرع العقيد كينغ في دعم غريتز من دون إبلاغ كبار رؤسائه في البنتاغون. وتبين أن ذلك يطرح مشكلة لأن رؤساء الأركان المشتركة أكبّوا في غضون ذلك سرّاً على وضع مخططاتهم الخاصة لمهمة الإنقاذ في المعسكر نفسه تماماً في لاوس. وطلب رؤساء الأركان المشتركة إرسال فريق استطلاع من المرتزقة اللاوسيين عبر الحدود من تايلندا إلى لاوس ليتحققوا من احتجاز أسرى الحرب هناك. وفي حال وجد المرتزقة برهاناً على وجود أسرى الحرب في المخيم، سيطلق البنتاغون مهمة إنقاذ على غرار مهمة إنقاذ الرهائن في إيران بإرسال فريق من قوة دلتا إلى المخيم.

ولمّا عرف كبار مسؤولي البنتاغون والـ «سي. آي. إيه» بمهمّة الإنقاذ الموازية التي يقوم بها غريتز، ويساندها «دعم النشاط الاستخباري» سرّاً، هدّدوا بحل المجموعة. واعتقدوا أن عمل غريتز المستقل عرّض عملية الإنقاذ الرسمية للخطر وأن العقيد كينغ قد تجاوز صلاحياته. وكما اتضح، لم تُنفَّذ أي مهمة إنقاذ في المعسكر في لاوس، ولم يتم العثور قط على برهان قاطع باحتجاز أسرى الحرب هناك. وأمر وزير الدفاع كاسبار واينبرغر المفتش العام في البنتاغون بالتحقيق في كل عمليات «دعم النشاط الاستخباري». وأخذ «دعم النشاط الاستخباري»، إلى جانب واقعة غريتز، يدير سرّاً عمليات خفية في مدينة بنما لمراقبة الجنرال مانويل نورييغا، كما أنه تورّط عند هوامش شبكة واسعة من الشّركات الوهمية التي تُستخدم لنشاطات عسكرية سرّية حول العالم[3]. وساهمت شبكة الشركات هذه، وهي جزء من برنامج يسمّى «الفاكهة الصفراء»، في

(١) Emerson، مصدر سابق، ص ٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٣) Seymour H. Hersh, "Who's In Charge Here?" *The New York Times* (November 22, 1987).

إنجاز بعض من الصّفقات السّرية لفضيحة إيران - الكونترا التي تكشّفت بعد ذلك بسنوات عديدة.

جاء تقرير المفتش العام حول «دعم النشاط الاستخباري» فتّاكاً. وصوّر المجموعة بأنها وحدة مارقة لا تتمتّع بالكثير من الإشراف الراشد، ووثّق الإسراف الإنفاقي في وحدة الاستخبارات بما في ذلك سلسلة من المشتريات الغريبة: رولز رويس، منطاد جوي، وسيارة «باغي» مخصّصة للكثبان الرملية[1]. صعق التقرير كلاً من واينبرغر ونائب وزير الدفاع فرانك كارلوتشي. وكتب الأخير في أيار/مايو ١٩٨٢ مذكّرة يصف فيها التقرير بأنه «مقلق جداً». وقد جاء كارلوتشي إلى البنتاغون من الـ «سي. آي. إيه» حيث تولى منصب نائب الأميرال ستانسفيلد تورنر وشهد على الثمن الذي دفعته الـ «سي. آي. إيه» عن سنوات من العمليات المعيبة التي غاب عنها كل إشراف.

«وجب علينا تعلّم أمثولة السبعينيات»، كتب كارلوتشي في مذكرته المتعلقة بتقرير المفتش العام، «لكننا قمنا بدلاً من ذلك بخلق تنظيم لا يخضع للمحاسبة». وأجرى مقارنةً مع شخصية «توبسي»، من كتاب هارييت بيتشر «كوخ العم توم»، وهي أمَة شابة لا يمكن أحد في الكتاب شرح أصلها وفصلها. وكتب: «يبدو أننا أنشأنا الـ «سي. آي. إيه» الخاصة بنا، لكنها، على غرار «توبسي»، غير مُنسَّقة وغير منضبطة»[2].

وفي السنة التالية، عندما شرعت القوات الأميركية في التخطيط لاجتياح غرينادا لإنقاذ مجموعة من طلاب الطب الذين أُخذوا رهائن، رفض قائد المهمة ضمّ «دعم النشاط الاستخباري» إلى العملية، لأنه لا يثق بالمجموعة أو بقائدها العقيد كينغ. وانتهى الأمر بالكوماندوس الأميركيين، في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣، وهم يتلمّسون طريقهم من حول الجزيرة الكاريبية ولا يمتلكون فكرة واضحة عن مكان احتجاز طلاب الطب. واستذكر ديوي كلاريدج، وهو يومئذٍ رئيس قسم أميركا اللاتينية في الـ «سي. آي. إي».، بالقول، «كانت استخباراتنا في شأن غرينادا سيئة. كنا، في الواقع، نعمل في الظلام»[3].

(١) Emerson، مصدر سابق، ص ٨١.

(٢) Frank C. Carlucci, "Memorandum to the Deputy Under Secretary for Policy Richard Stillwell".

(٣) كما تم الاستشهاد به في: Tim Weiner, *Legacy of Ashes: The History of the CIA* (New York: Doubleday, 2007): 454.

وكأن الأمور ليست على هذا القدر من السُّوء بالنسبة إلى «دعم النشاط الاستخباري» لتضاف إليها محاولة الـ «سي. آي. إيه» قطع أوصال عملياته. فقد ارتابت وكالة التجسس في بناء الجيش إمبراطورية استخبارية ونبذت فكرة أنه يمكن الضباط العسكريين إجادة عمل الاستخبارات. وعكس هذا جزئياً قلقاً أوسع في لانغلي في شأن البنتاغون. فالـ «سي. آي. إيه» هي منذ تأسيسها في ١٩٧٤ الشَّقيقة الصغرى للبنتاغون، وقد قزَّمتها قوة البنتاغون البشرية وعضلاته في حروب الميزانيات في واشنطن. ولم يسيطر مدير الـ «سي. آي. إيه» حتى على معظم برامج الاستخبارات الأميركية ذات المصاريف الكبرى؛ فكوكبة أقمار التجسس الصناعية ومراكز التنصت العالمية التي شكَّلت ٨٠ بالمئة من مجموع ما تنفقه الولايات المتَّحدة على التجسس تُموَّل من ميزانية البنتاغون. وخاض رامسفلد، في منصبه الأول كوزير للدفاع في عهد الرئيس فورد، معارك متكررة مع الـ «سي. آي. إيه» والبيت الأبيض على مناطق النفوذ محاجّاً بأنه سيسيطر على هذه البرامج إذا كان هو من يدفع ثمنها.

وإذا وُجد مجال واحد تصوّرت الـ «سي. أي. إيه». أنها تمتلك فيه أفضلية على البنتاغون، فهو حقل الاستخبارات البشرية. وهكذا، عندما أنشأ البنتاغون برنامجاً مثل «دعم النشاط الاستخباري»، وجد فيه الكثيرون في الـ «سي. آي. إيه» تهديداً مباشراً لوجود الوكالة. وهمس قادة الـ «سي. آي. إيه» في آذان أعضاء لجان الاستخبارات في الكونغرس أن جواسيس البنتاغون هواة يتعثرون بضباط الحالة التابعين للـ «سي. آي. إيه» في الخارج. وقال إن ذلك قد يؤدّي إلى نسف العمليات الخفية وقد يموت الضباط الذين يعملون في الخفاء.

وأدت، طبعاً، محاولة الـ «سي. آي. إيه» تقويض جهود البنتاغون التجسسية بالجيش إلى المزيد من تراجع ثقته بالوكالة، وإلى أن يرغب في توسيع أكبر حتى لعملياته التجسسية. وفي خلال أحد الاجتماعات في ١٩٨٣، عندما التقى مدير الـ «سي. آي. إيه» وليام كايسي رؤساء الأركان المشتركة داخل غرفة اجتماعات البنتاغون المأمونة، التي تُعرف بـ «الدبابة»، أخذ الجنرال ماير يشتكي، كالعادة، من أن الـ «سي. آي. إيه» لم تقم قط بأي ما من شأنه مساعدة الجيش. وحاول كايسي تهدئة الجنرال بالإشارة إلى أن سلفه، الأميرال ستانسفيلد تورنر، كان عسكرياً. لكن الجنرال ماير رفض قبول أي من

ذلك. وقال: «ما تقوله يا سيّد كايسي صحيح. لكن ابن الزنى ذلك لم يقم بأي شيء لعين من أجل الجيش طوال فترة مكوثه في الـ «سي. آي. إيه»[١].

لكن الوحدة لم تنتفِ من الوجود حتى بعد تقرير المفتش العام، أو بعدما حاول كارلوتشي التخلص من مجموعة العقيد كينغ. والواقع هو أن الوحدة ستصبح في مآل الأمر حجر الأساس لجهود رامسفلد الهادفة إلى توسيع كبير في عمليات تجسس البنتاغون. وتطور «دعم النشاط الاستخباري» ليصبح مع أواخر ٢٠٠١ وحدة سرّية أعطيت اسماً رمزياً هو «الثعلب الرمادي» وشرعت في العمل مع أسد منير والجواسيس الباكستانيين في غرب باكستان. ويقع مقر «الثعلب الرمادي» تماماً خارج الطريق الدائري لواشنطن، في «فورت بلفوار»، فرجينيا، ويضم عدة مئات من العملاء الذين يعملون متخفّين في مهمّات خارجية. وقد تخصّصوا في زرع أجهزة تنصت في أماكن يصعب الوصول إليها - ويمكن عندئذٍ أن ترتبط الآلات بمحطات التنصت الكبرى التي أقامتها وكالة الأمن القومي حول العالم.

لكن المجموعة بقيت في ٢٠٠١ تنظيماً لا يتطرّق إليه النقاش إلا قليلاً وهامشياً بحيث لُقب بـ «الجيش السّري لشمال فرجينيا». وعندما التقى رامسفلد قادة «الثعلب الرمادي» للمرة الأولى واطلع على تفاصيل مهمّات المجموعة قال: «لو عرفت قبل ٩/١١ أنكم تقومون أيها الفتية بكل هذا لربما ألقيت بكم جميعكم في السّجن»[٢]. لكن بما أن رامسفلد منصرف الآن بكلّيته إلى تحسين قدرات البنتاغون التجسسية البشرية الضئيلة بعض الشيء وتنسيقها في شكل أفضل، فقد أمر بزيادة ميزانية «الثعلب الرمادي» وبتنسيق أوثق بين وحدة التجسس والقيادة المشتركة للعمليات الخاصة، الوحدة السرّية التي أثارت إلى حد كبير إعجاب وزير الدفاع في خلال زيارته الأولى في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١ إلى «فورت براغ». وبات رامسفلد ينظر في شكل مطرد إلى القيادة المشتركة للعمليات الخاصة بوصفها الجيش السرّي الذي يحتاج إليه تماماً لخوض حرب عالمية.

---

(١) Duane R. Clarridge with Digby Diehl, *A Spy for All Seasons: My Life in the CIA* (New York: Scribner, 2002): 229.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع روبرت أندروز.

لكن القيادة المشتركة للعمليات الخاصة لم تكن في ٢٠٠١ في أي موقع تصبح معه حرس رامسفلد الإمبراطوري في النزاع العالمي. وشكلت قوة دلتا والفريق السادس في القوات الخاصة البحرية قوى متخصّصة تضم أكثر من بضع مئات من العناصر العاملة غير القادرة على تحمّل عمليات تدوم أكثر من يومين. وتدرّبت قوة دلتا في شكل شبه حصري على مهمّات تحرير الرهائن، وأمضى الفريق السادس في القوات الخاصة البحرية سنواتٍ في التدريب على مهمة ضمان التّرسانة النووية الأميركية داخل البلاد في حال دعت الضّرورة إلى ذلك. ولم يمتلك أي من الفريقين التدريب أو التجهيز اللازمين لعمليات واسعة تدوم أسابيع أو أشهراً.

وقال روبرت أندروز إنه «تكوّنت لدى رامسفلد وحسب فكرة أن [القيادة المشتركة للعمليات الخاصة] تمتلك قدرة الوصول إلى أي مكان وقتل الأناس الذين يجب قتلهم وإنقاذ من يجب إنقاذهم - ولماذا لا نستخدم هذا الشيء؟ لكن ما لم يدركه هو أنها ليست مهيّأة لعمليات قتالية دائمة».

غير أن رامسفلد وجد جاذباً في استقلالية القيادة المشتركة للعمليات الخاصة التي يمكنها أن تصبح قوةً ضاربةً تتلقى أوامرها المباشرة من وزير الدفاع والرئيس، وليست تحت سيطرة أي جنرال ذي أربع نجوم يغار على مضماره. ويمكنها أن تصبح شبيه مديرية العمليات في الـ «سي. آي. إيه» – لا تثقل كاهلها البيروقراطية العسكرية القليلة الذكاء. وتصوّر رامسفلد أن في وسعه إرسال قوة دلتا والفريق السادس في القوات الخاصة البحرية إلى أي مكان تقريباً إذا أمكنه مد قيادتيهما بالمال بما يسمح لهما بتوسيع صفوفهما وشراء ما يكفي من العتاد لانتشارات طويلة في ما وراء البحار.

لكن هل يحق له قانونياً القيام بذلك؟ فنشاطات البنتاغون خاضعة للمادة العاشرة من قانون الولايات المتّحدة، وقد حاول الكونغرس تاريخياً الحد من طريقة عمل الجيش خارج مناطق الحرب المعلنة. ونشأ هذا جزئياً عن القلق من أنه يمكن الجنود الأميركيين العاملين في ما هو أبعد من ميادين القتال أن يُعتقلوا ويُحاكموا كجواسيس بدلاً من منحهم الحمايات المعتادة التي ينص عليها ميثاق جنيف. ويمكن الرئيس، في المقابل، أن يأمر الـ «سي. آي. إيه» (التي تعمل بموجب المادة ٥٠) بإرسال ضباطها

إلى أي مكان في العالم[1]. وإذا أُمسك بضابط في الـ «سي. آي. إيه» وهو يتجسس في بلد معاد، تستطيع الحكومة الأميركية، بموجب هذه القوانين، نفي أي علم لها بنشاطاته وتتركه يتعفّن في السّجن.

حاول الكونغرس، بعد فضيحة إيران - الكونترا في الثمانينيات، أن يفرض المزيد من القيود على العمليات السّرية. ونصّ قانون تفويض الاستخبارات للعام ١٩٩١ على أنه يجب على كل الأعمال الخفية أن تتم بأمر رئاسي تنفيذي مكتوب يشرح الحاجة إلى النشاط السّري، على أن يبلغ البيت الأبيض لجان الاستخبارات في مجلسي النواب والشّيوخ بعد وقت قصير على إصدار الأمر التنفيذي للـ «سي. آي. إيه». بيد أن قانون ١٩٩١ احتوى على ثغرة كبرى: فقد أعفى البنتاغون من هذه المطالب الشّاقة في حال قام الجيش بعمليات سرّية يعتبرها من «النشاطات العسكرية التقليدية».

ولم يعط القانون الكثير من التوجيه حيال ما يعتبره «نشاطات عسكرية تقليدية»، ويعود جزء من ذلك إلى أن البيت الأبيض في عهد جورج هـ. و. بوش والبنتاغون نجح في الضغط على الكونغرس لإبقاء اللغة غامضة. وحُدّدت هذه النشاطات في مآل الأمر بأنها أي عمليات ينفذها الجيش مرتبطة بأعمال عدائية «جارية» أو «متوقعة»[2]. ويمكن الكونغرس، بعبارات أخرى، تبرير إرسال قوات إلى أي بلد في العالم إذا أمكنه الادعاء بأن الولايات المتّحدة في حالة حرب داخل ذلك البلد - أو يمكن أن تصبح في حالة حرب عند حد ما في المستقبل.

ومرّ عقد لم تشهد فيه هذه البنود الغامضة أي نقاش يذكر واستمر ذلك حتى بضعة أيام على هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، عندما منح الكونغرس الرئيس بوش تفويضاً ساحقاً بخوض حرب في كل أنحاء العالم. وبحسب بنود «التفويض باستخدام القوة العسكرية» فإن الولايات المتّحدة ليست في حالة حرب مع أي دولة بالتحديد، بل في حرب في أي

(١) بالرغم من أنه يمكن عملياً لأي وكالة حكومية القيام بعمل خفي، فإنه تم القبول في شكل عام بأن هذه النشاطات محصورة بالـ «سي. آي. إيه» لأنه يُنظر إلى الوكالة على أنها الأكثر قدرةً على تنفيذ مهمّات تنفيها الحكومة الأميركية رسمياً.

(٢) Jennifer D. Kibbe, "The Rise of the Shadow Warriors", *Foreign Affairs* (March/April 2004).

دولة تعمل فيها القاعدة. وأعطى هذا الإجراء بالفعل رامسفلد الترخيص الذي يبحث عنه لتنفيذ الحرب العالمية.

يبقى أن وزير الدفاع تطلّب وقتاً لاستغلال هذه السّلطات الجديدة. ولم يمض وقت طويل على سقوط كابول حتى حوّل كبار قادة البنتاغون طاقاتهم في شكل شبه فوري للتخطيط لغزو العراق. ووجد البنتاغون صعوبةً، في ما هو أبعد من الملاذات الآمنة للقاعدة مثل باكستان، في تصور المكان الآخر الذي يمكن الولايات المتّحدة مطاردة القاعدة فيه. والمطلوب في اصطلاح مكافحة الإرهاب هو «العثور» على الإرهابيّين «ومعالجتهم والقضاء عليهم». لكن، وكما سيعترف رامسفلد بعد ذلك بسنين، «امتلكنا القدرة على القضاء عليهم. لكننا لم نتمكن وحسب من العثور عليهم ومعالجتهم»[1].

شعر رامسفلد وفريقه بالثقة الكبيرة بأنفسهم في خلال النصف الأول من ٢٠٠٣. بدا، في الأول، أن غزو العراق يؤكد الكثير من رؤية رامسفلد للطريقة الجديدة للحرب. فالزحف على بغداد الذي استغرق بالكاد شهراً تم بجيش غزو صغير نسبياً – مختبِراً فلسفة وزير الدفاع بأن في وسع التقدم التكنولوجي مصحوباً بخطة حربية تشدّد على السرعة أكثر من القوة الانتصار في حروب القرن الحادي والعشرين. ودفعه أيضاً ارتيابه باستخبارات الـ «سي. آي. إيه»، قبل سنة على الغزو، إلى إقامة ورشة صغيرة في البنتاغون – بإشراف نائب وزير الدفاع للشؤون السياسية دوغلاس ج. فيث، للتدقيق في الاستخبارات الخام بغية إثبات تحالف صدّام حسين مع الإرهابيّين المسلمين. وما إن بلغ الجنود الأميركيون بغداد حتى أقنع الكثيرون من مساعدي رامسفلد أنفسهم بأن الأمر لم يعد إلا مسألة وقت قبل أن يعثروا على الإثبات القاطع بالرابط بين حسين وأسامة بن لادن وعلى تبرير رجعي للغزو. ولم تجد القوات الأميركية في مآل الأمر مثل هذا الدليل وفقدت استنتاجات ورشة الاستخبارات التابعة لرامسفلد الكثير من صدقيتها.

لكن برحيل صدّام حسين وانقسام الإدارة في شأن هل يجب على سوريا أن تصبح الهدف التالي لاستراتيجية «تغيير النظام» التي اعتمدتها إدارة بوش، ضاعف رامسفلد

(١) Bradley Graham, *By His Own Rules: The Ambitions, Successes, and Ultimate Failures of Donald Rumsfeld* (New York: Public Affairs, 2009): 584.

من تخطيطه للعمليات الخاصة العالمية. وترك روبرت أندروز البنتاغون فاستبدله رامسفلد بتوماس أوكونيل، وهو شخص آخر ذو باع طويل في الحروب شبه العسكرية في فيتنام، والقائد السّابق لـ «الثعلب الرمادي». نُقل أوكونيل في ١٩٧٠ إلى فيتنام بوصفه مستشاراً لـ «برنامج فينيكس»، الحملة المثيرة للجدل، التي قادتها الـ «سي. آي. إيه» لتحويل دفّة الحرب من خلال أسر واغتيال زعماء الفيتكونغ. وقد أمضى معظم حياته الراشدة في عالم العمليات الخاصة والاستخبارات، وكان ضابط الاستخبارات الأرفع رتبةً في القيادة المشتركة للعمليات الخاصة عندما زارها ديك تشيني في ١٩٨٦.

سارت المقابلة لتولي الوظيفة على ما يرام مع رامسفلد، وعلى الخصوص لأن وجهات نظر أوكونيل حول سلطات البنتاغون ودور جنود العمليات الخاصة هي بالتمام ما أراد رامسفلد سماعه. وسأله رامسفلد في وقت مبكر من الاجتماع، «لماذا يجب علي، في حالة الحرب، أن أضع رجالي تحت سلطة الـ «سي. آي. إيه»؟»[1].

«ليس عليك ذلك»، أجاب أوكونيل سريعاً. «فلديك سلطة إرسال القوات الأميركية إلى أي مكان تريده في العالم».

فالكونغرس، في ذهن أوكونيل، قد منح البنتاغون سلطات واسعة لخوض حرب عالمية وجمع الاستخبارات أو شن عمليات قتل، وبأن على رامسفلد استخدامها. ورأى تشابهات مع حرب فيتنام عندما شرع الرئيس في حملة قصف سرّية في كامبوديا ولاوس، لاعتقاده أن هذين البلدين أصبحا ملاذاً آمناً للمقاتلين الأعداء. لكن الفرق، برأي أوكونيل، هو في أن رامسفلد يمتلك حتى سلطة أكبر من تلك التي امتلكها نيكسون، لأن الكونغرس منح البنتاغون في الأساس مباركته لإرسال الجنود إلى حيث يعتقد أن مقاتلي القاعدة يختبئون.

أخذ رامسفلد يبحث في ذلك الوقت أيضاً عن رافعة في نزاعاته مع الـ «سي. آي. إيه» وقرر إدماج عمليات جمع الاستخبارات المتفاوتة والاعتباطية في الغالب التي يقوم بها الجيش في مكتب واحد. وعيّن مساعده المخلص ستيفن كامبون أول وكيل لوزير الدفاع لشؤون الاستخبارات مانحاً كامبون الذكي واللاذع سلطةً استثنائية بالإشراف على كل جهود البنتاغون التجسسية. بل إن رامسفلد سيعمد حتى إلى تعديل سلسلة

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع توماس أوكونيل.

الخلافة المدنية في تراتبية البنتاغون في حال توفي هو ونائبه أو أصيبا بالعجز. واحتل اسم كامبون، رئيس الاستخبارات، المركز التالي في اللائحة وأعطي مكتباً ملاصقاً لمكتب رامسفلد.

عيّن رامسفلد العميد وليام «جيري» بويكن نائباً لكامبون، وهو من قدامى قوة دلتا، وكان في ١٩٨٠ في الصحراء الإيرانية في خلال المهمة المجهضة لإنقاذ الرهائن الأميركيين. وبويكن مسيحي متجدّد يجاهر بدينه ويتحدّث من وقت إلى آخر عن الحرب ضد المتطرفين المسلمين بتعابير الكتاب المقدّس. وغالباً ما وصفها بالحرب على «الشيطان». وقال مرة، في مطلع التسعينيات، لرعية إحدى الكنائس إنه يعرف بأن مطاردته أسياد الحرب الصوماليين ستتكلل بالنجاح لأنه «يعرف أن ربّه إله حقيقي وأن إله [الصّوماليين] وثن».

وكان بويكن تبشيريّاً أيضاً في شأن دفع الجيش إلى حدود صلاحياته القانونية. فهو محبط منذ أزمة الرهائن في الثمانينيات في بيروت، لأن بيروقراطيي البنتاغون أحجموا كثيراً عن وضع مجموعات مثل قوة دلتا قيد الاستخدام.[1] وانهال رامسفلد، على غرار ما فعل مع أوكونيل، بالأسئلة على بويكن، في خلال المقابلة للحصول على الوظيفة، عن حدود سلطات وزير الدفاع في إرسال قوات إلى خارج مناطق الحرب. وأعطى بويكن جواباً مشابهاً لذلك الذي أعطاه أوكونيل: لديك السلطة وعليك باستخدامها. ولا تحتاج لوضع جنودك تحت سيطرة الـ«سي. آي. إيه»[2].

حصل رامسفلد، صيف ٢٠٠٤، على دفعة قوية في جهوده لبناء إمبراطورية الحرب غير التقليدية عندما أوصت لجنة ٩/١١ في تقريرها النهائي بتجريد الـ«سي. آي. إيه» من كل وظائفها شبه العسكرية، وبأن يصبح البنتاغون الوكالة الوحيدة التي تقوم بالحرب الخفية. ووجهت اللجنة انتقاداً لاذعاً إلى الـ«سي. آي. إيه» لعجزها عن قتل أسامة بن لادن، واعتقدت أن عمليات الوكالة الخفية هي في حالة من الفوضى. وأوصت اللجنة الـ«سي. آي. إيه» بتحسين جمعها الاستخبارات من خلال اعتماد أقل على أجهزة التجسس الخارجية، وبأن تعيد النظر في طريقة قيامها بالتحليل وبأن تمارس

---

(١) Graham، مصدر سابق، ص ٥٨٥.

(٢) المصدر نفسه.

أعمالاً خفية «غير عسكرية» مثل حملات الدعاية. واعتقدت اللجنة أن الحروب السّرية وغارات الطائرات التي تطير من دون طيار هي من وظائف البنتاغون.

وأوصت اللجنة في تقريرها النهائي المنشور في تموز/يوليو ٢٠٠٤ بأنه «لا يمكن الولايات المتّحدة، سواء قيس الثمن بالمال أو بالناس، أن تتحمّل كلفة بناء قدرتين منفصلتين للقيام بعمليات عسكرية سرية، وبالتشغيل السّري للصواريخ الموجهة التي تطلق من بعيد، وبالقيام بتدريب سري لقوى خارجية عسكرية أو شبه عسكرية».

وذلك، بالتأكيد، ما فكر فيه رامسفلد تماماً، وطلب من توم أوكونيل، بعد أيام على نشر التقرير، الحصول على المزيد من المعلومات عن السبب الذي أوصل إلى تلك التوصيات. وأفاد أوكونيل، بعد تحدثه إلى جون ليمان وزير البحرية السابق وعضو لجنة ٩/١١، أن اللجنة وجدت أن مقاربة الـ «سي. آي. إيه» للعمليات شبه العسكرية «مختلطة». وكتب أوكونيل في مذكرة رفعها إلى رامسفلد أن ليمان أبلغه أن لجنة ٩/١١ صُعقت «لإحجام الـ «سي. آي. إيه» عن المخاطرة» ولخوف الوكالة من «الضغط على الزّناد عندما سنحت الفرص بذلك». وقال ليمان لأوكونيل إن المشكلة الكبرى تمثلت بامتلاك البنتاغون القدرات على القيام بعمليات المطاردة والقتل لكن الـ «سي. آي. إيه» امتلكت السّلطات[١].

كلّف رامسفلد كامبون التحقّق من إمكان إقرار هذه التوصية. وسرعان ما شرع كامبون في طرح أسئلة أكثر عمقاً تتعلق بهل يجب القيام بمزيد من التقليص في عمليات الـ «سي. آي. إيه». وكتب كامبون لرامسفلد في أواخر أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤ أنه ليس متيقناً هل من المنطقي أن تقوم الـ «سي. آي. إيه» بأي عمل خفي – قال إنه يمكن اعتباره «نشاطاً عملانياً لا يختلف عن النشاط العملاني لقائد مقاتل». وبعبارات أخرى، فإنه ربما على البنتاغون أن يتولّى أيضاً العمل الخفي. وكتب كامبون أن المشكلة تتمثل في أن الـ «سي. آي. إيه» مسؤولة عن كلا العمل الخفي والتحليل ما يخلق إمكان «الانحياز» لدى تقويم فاعلية عمل خفي محدّد. وبعباراتٍ أخرى، فإن الـ «سي. آي. إيه» رتّبت أن تضع بنفسها العلامات على عملها[٢].

(١) Thomas W. O'Connell, "9/11 Commission Recommendation for Consolidated Paramilitary Activities", August 30, 2004.

(٢) Stephen A. Cambone, "Memorandum for Secretary of Defense", September 30, 2004.

وربما كان الهدف من الفكرة هو خدمة الذات، لكنها تدخل في صميم سؤال أكثر عمقاً: هل يمكن وكالة تتولى حملة استهداف بالقتل ضد القاعدة أن توفر تقويمات نزيهة عن تأثير تلك الحملة بالذات في قوة القاعدة؟ وهذا سؤال سيواجه مسؤولي أوباما بعد سنوات على تصعيد وكالة التجسس الحرب، التي تشنّها في باكستان بالطائرات التي تطير من دون طيار.

وفي النهاية، أشار كل من رامسفلد ومدير الـ «سي. آي. إيه» بورتر غوس على الرئيس أوباما بأن البنتاغون لا يحتاج إلى انتزاع العمليات العسكرية السرّية من الـ «سي. آي. إيه». وبات رامسفلد على اقتناع بأن في وسعه القيام بما يريد – وحتى ولو قامت به الـ «سي. آي. إيه» في شكل موازٍ – تحت لواء «النشاطات العسكرية التقليدية». وشن غوس أيضاً حملة لوبي هادئة لحماية مضمار الـ «سي. آي. إيه»، وحثّ مسؤولي البيت الأبيض على عدم النظر في توصيات لجنة ٩/١١. وشكلت تلك لحظة اتفاق موقتة بين البنتاغون والـ «سي. آي. إيه» لكنها بالكاد شكلت نهاية للمعارك بين الوكالتين.

شرع عملاء القيادة المشتركة للعمليات الخاصة، في ٢٠٠٤، في الانتشار بالفعل في عمليات تجسس عبر العالم، في أميركا الجنوبية وإفريقيا والشرق الأوسط. ومضوا إلى فرنسا في محاولة لجمع الاستخبارات عن المجموعات الإسلامية المناضلة الموجودة فيها، واضطرت إحدى الفرق إلى الانسحاب على عجل من باراغواي بعدما شهر أحد جواسيس رامسفلد مسدسه وسط عراك في إحدى الحانات. ووصف مسؤول سابق في البنتاغون ساهم في الإشراف على البرنامج الوضع بالقول: «لدينا كل هؤلاء الفتيان يدورون في المكان ويحاولون تأدية دور جايمس بوند، ولم تسر الأمور كما يجب».

تمركزت بعض الفرق، التي أعطيت اسم «عناصر الارتباط العسكري» البريء في ظاهره، في داخل السّفارات الأميركية. ودخلت فرق أخرى خلسةً إلى دول أجنبية وشرعت في مهمّاتها التجسسية من دون إبلاغ السّفير الأميركي أو رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» في البلاد. وتصوّر مسؤولو البنتاغون، كون العالم كلّه بات الآن منطقة حرب، أن فرق العمليات الخاصة مسؤولة تجاه القادة العسكريين وليس تجاه السّفير المدني.

جلس السّفير الأميركي في الأردن إدوارد و. غْنِهم في مكتبه بعد ظهر أحد الأيام عندما دخل عليه الملحق العسكري في السّفارة ووضع ملاحظة على طاولة مكتبه. وهي

كناية عن رسالة من البنتاغون أُرسلت مباشرة إلى الملحق على ألا يطلع عليها أحد غيره[1]. وجاء في الملاحظة أن فريقاً من الاستخبارات العسكرية سيصل قريباً إلى الأردن ليجمع المعلومات المتعلقة باستقرار النظام الأردني. وذكرت الرسالة أنه يجب في أي حال من الأحوال ألا يُبلغ السفير أو رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» بنشاطات البنتاغون في الأردن.

لكن الملحق العسكري الجالس في مكتب السفير تجاهل التحذير بالطبع. وسارع غنهم، بعد الاجتماع، إلى إبلاغ رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» الذي، بحسبما يتذكر، «طار من الغضب».

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع إدوارد غنهم.

٥ : الطير الغضوب

«هذه حرب سِياسية تدعو إلى التفريق في القتل. والسلاح الأفضل للقتل هو السكّين، لكنني أخشى أنه لا يمكننا القيام به بهذه الطريقة. أما السلاح الأسوأ فهو الطائرة».

- المقدّم جان بول فان،
ضابط أميركي في فيتنام

شاهد الضباط داخل غرفة العمليات في مركز مكافحة الإرهاب في الـ «سي. آي. إيه» فيديو التويوتا لاند كروزر وهي تنطنط على الطريق الصحراوي في محافظة مأرب، مكان الولادة الأسطوري لملكة سبأ. وهي رحلة غير مريحة للرجال الستة المحشورين داخل الآلية المغبرة ذات الدفع الرباعي، لكن الشاحنة لم تنقل، في ذلك اليوم من تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢، ما من شأنه أن يثير نموذجياً ريبة الشرطة اليمنية أو الجيش. ومن المقعد الخلفي للشاحنة فضح الهاتف الخلوي، الذي يخص قائد سالم سنان الحارثي موقع أكثر رجل مطلوب في اليمن. وقد حلّقت «بريداتور» مسلّحة فوقه.

دلّت الولايات المتّحدة على الحارثي بوصفه العقل المدبر لتفجير المدمّرة الأميركية «كول» في العام ٢٠٠٠، وهو الهجوم الذي أدى إلى قتل سبعة عشر بحاراً فيما السّفينة تتزوّد بالوقود في خليج عدن. ووضع الهجوم الحارثي على مقربة من رأس لائحة إدارة بوش، التي تحتوي على أسماء عملاء القاعدة المطلوب قتلهم. وعندما هبط فريق من جنود القوات الخاصة الأميركية في ربيع ٢٠٠٢ في اليمن أعطوا الأولوية لمطاردة الحارثي. لكن الحارثي من قدامى مجاهدي الحرب في أفغانستان في الثمانينيات وقد

شحذ ما لم يتعلّمه من مهارات التبقّي وهو يحارب السّوفيات، من عقد من الاختباء من الشّرطة السّرية في الإمارات العربية المتّحدة ومن قوات الصدم الموالية للرئيس اليمني علي عبدالله صالح. وسبق لأسامة بن لادن أن أوفد الحارثي إلى اليمن في العام ٢٠٠٠ للتخطيط لتفجير «كول» وإقامة معسكرات تدريب للقاعدة. وقد أحرج الحارثي الرئيس صالح غير مرة بنجاته من الأسر فيما القوات اليمنية تطبق عليه.

رأى الرئيس المتقلّب صالح على الفور الفوائد المالية للاصطفاف مع الولايات المتّحدة في حربها الجديدة، لكنه أصر على أن تخوضها إدارة بوش بحسب شروطه. وقد تمكن منذ السبعينيات من البقاء في السّلطة في اليمن من خلال إبحاره في المياه الضحلة لعمليات الثأر القبلية والانفصاليين الشّيعة، ولن يسمح للأميركيين في الشّروع في حرب خفية من دون الحصول على شيء في المقابل. وتمكن، في رحلة إلى أميركا بعد شهرين على هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، من انتزاع مساعدة قيمتها ٤٠٠ مليون دولار في اجتماعات مع الرئيس بوش ورامسفلد ومدير الـ «سي. آي. إيه» جورج تينيت. وأعطى مباركته لمجموعة صغيرة من جنود العمليات الخاصة الأميركيين بالمجيء إلى اليمن، لكنه أصرَ على ألا يطلقوا النيران من أسلحتهم إلا في حالة الدفاع عن النفس[1]. كما إن البنتاغون أرسل مع الكوماندوس، من دون أن يخبر صالح، عملاء من «الثعلب الرمادي»، وهي وحدة التجسس في الجيش المتخصّصة في اعتراض الاتصالات.

كما أنه سهل إقناع صالح عندما تعلّق الأمر بالـ «بريداتور».

طلب السفير إدموند هول، في ربيع ٢٠٠٢، اجتماعاً للحصول على موافقة الرئيس اليمني على تحليق الطائرات التي تطير من دون طيار في البلاد. وعرف هول، عند ذلك الوقت، صالح تمام المعرفة ليدرك تقلباته المزاجية الجامحة وما هي نقاط البحث التي يمكنها أن تلبي بأفضل شكل قضية وكالة التجسس. وجلبت مجموعة من ضباط الـ «سي. آي. إيه»، وصلت قبل ذلك بأيام من لانغلي، حاسوباً محمولاً مع فيديو صور متحرّكة يظهر كيفية عمل الطائرة التي تطير من دون طيار. وتضمّن الفيديو رسوماً

(١) سُمح بنشر الجنود الأميركيين في اليمن بموجب «أمر تنفيذي» وقعه دونالد رامسفلد ورئيس الأركان المشتركة الجنرال ريتشارد مايرز. وقد نوقش «الأمر التنفيذي» في التقويم الزمني المصنف للعمليات ما بين ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ و١٠ تموز/يوليو ٢٠٠٢ للقيادة المركزية حصل عليه المؤلف.

لصواريخ «هلفاير» وهي تقصف السّيارات والمجمعات المبنية من الطين. ابتسم صالح وهو يتفرّج وبدا فخوراً في أن تصبح اليمن المكان الأول خارج أفغانستان، الذي تستعد فيه الـ «سي. آي. إيه» لاستخدام الـ «بريداتور»[١].

غير أنه بقي على الأميركيين أن يعثروا على الحارثي، الذي تملّص من المراقبة باستخدامه خمسة أرقام هاتف خلوي مختلفة. وحدّد فريق «الثعلب الرمادي» عدداً منها، لكن الحارثي حرص جداً على التقليل من استخدام الهاتف[٢]. لكن شبكة المراقبة التقطت في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر صيدها الثمين الأول[٣].

أخذ الهاتف الخلوي الموجود في المقعد الخلفي من اللاند كروزر في بث إشارته إلى الفضاء، وبعث عملاء «الثعلب الرمادي» برسالة عاجلة إلى المحللين في مقر القيادة المترامي الأطراف لوكالة الأمن القومي في «فورت ميد»، ميريلاند. وبعثت الـ «سي. آي. إيه»، في شكل منفصل، «بريداتور» مسلحة من قاعدة الطائرات التي تطير من دون طيار في جيبوتي، حلّقت فوق البحر الأحمر قبالة اليمن تماماً. وما إن انتقلت الـ «بريداتور» إلى موقعها فوق اللاند كروزر، حتى سمع محلل في «فورت ميد» صوت الحارثي عبر الهاتف الخلوي وهو يصدر التوجيهات إلى قائد الآلية ذات الدفع الرباعي. ومع التأكّد من وجود الحارثي في الشّاحنة أعطيت الـ «سي. آي. إيه» الإذن بإطلاق صاروخ على الآلية[٤]. وانطلق الصاروخ من الـ «بريداتور» ودمّر الآلية وقتل جميع من فيها. وأمكن في النهاية تحديد هوية قائد سنان الحارثي في الحطام من خلال علامة فارقة على إحدى ساقيه، التي وجدت مبتورة في مسرح العملية[٥].

وسارعت حكومة الرئيس صالح إلى إصدار رواية تغطية: حملت الشاحنة عبوة غاز أدت إلى الانفجار. لكن لم تُفقَد أهمّية اللحظة داخل مركز مكافحة الإرهاب. وهي

(١) رواية الاجتماع مع صالح مصدرها مسؤول أميركي كبير سابق.

(٢) James Bamford, "He's in the Backseat!" *The Atlantic* (April 2006).

(٣) Rowan Scarborough, *Rumsfeld's War: The Untold Story of America's Anti-Terrorist Commander* (Washington, D.C.: Regnery, 2004): 25 and Michael Smith, *Killer Elite* (Great Britain: Weidenfeld and Nicolson, 2006): 237.

(٤) Bamford, "He's in the Backseat!"، مصدر سابق.

(٥) "U.S. Missile Strike Kills al Qaeda Chief", *CNN World* (November 5, 2002).

المرة الأولى منذ هجمات ١١ أيلول/سبتمبر التي تنفذ فيها الـ «سي. آي. إيه» مثل هذا الاستهداف بالقتل خارج منطقة الحرب المعلنة. واستخدم ضباط الخفاء السلطة الكاسحة التي أعطاها الرئيس بوش للـ «سي. آي. إيه» في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ليجمعوا في شكل منهجي المعلومات عن تحركات الحارثي وليشعلوا من ثم ببرودة آليته بصاروخ مضاد للدبابات.

عند ذاك الحد، نسي الكثيرون داخل وكالة التجسس أن الـ «سي. آي. إيه» لم تُرِد فعلاً الطائرة المسلحة التي تطير من دون طيار، لأنها اعتُبرت آلة قتل فظّة وسهلة، وقد سُرّ الكثيرون داخل الوكالة لانسحابها منذ وقت طويل من أعمال القتل. وثار جدال قبل أكثر من سنة بقليل على غارة اليمن إذ تصارع الجواسيس مع الجواسيس حول أخلاقية استخدام الطائرات التي تطير من دون طيار لقتل الإرهابيّين. ولاحقاً، سيصف تشارلز إ. ألن، المحلل القديم العهد في الـ «سي. آي. إيه» والمدافع الشرس عن الـ «بريداتور»، الحقبة كلها بأنها «نزاع دموي»[١].

بحلول أواخر التسعينيات، ترقّى جيل روس نيولاند من ضباط الـ «سي. أي. إيه»، ممن التحقوا بالوكالة بعدما كشفت عنه لجنة تشيرتش والحظر الذي وضعه الرئيس فورد على الاغتيالات، واحتلوا مراكز قيادية في لانغلي. وكان لارتقاء جيل ما بعد تشيرتش إلى مواقع السّلطة وقعه المباشر على نوع العمليات الخفية التي اختارت الـ «سي. آي. إيه» القيام بها في العالم. وسُمح للفرع شبه العسكري في الوكالة بالضّمور في انعكاس لنفور الـ «سي. آي. إيه» من العودة إلى حروب الماضي. بل إن الـ «سي. آي. إيه» انقسمت أيضاً في شأن إمكان إيجاد تبرير لقتل أسامة بن لادن. وسيبلغ لاحقاً أحد رؤساء مركز مكافحة الإرهاب لجنة ٩/١١ أنه كان ليرفض أمراً مباشراً بقتل بن لادن في السنوات التي سبقت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر[٢].

(١) "Intelligence Policy", National Commission on Terrorism Attacks Upon the United States, 9/11 Commission Staff Statement No. 7 (2004).

(٢) المصدر نفسه. أعلن بيان فريق اللجنة فقط أن «رئيساً سابقاً لمركز مكافحة الإرهاب» أبلغ اللجنة أنه كان ليرفض أمراً بقتل بن لادن. وكشف عضو في فريق اللجنة أن رئيس المركز السابق هو جيوف أوكونيل.

«تمثلت وجهة النظر المشتركة داخل الـ «سي. آي. إيه» في أننا لا نريد القيام بعمل خفي. وإذا قمنا بعمل خفي فنريده أن يتم بطريقة صحيحة ونظيفة. ولا نريد التورّط في قتل الناس. لأننا لسنا كذلك. فنحن لسنا الموساد»، قال ريتشارد كلارك الذي خدم في كلتا إدارتي كلينتون وبوش بوصفه كبير مسؤولي البيت الأبيض لشؤون مكافحة الإرهاب.

بحلول العام ٢٠٠٠، وهي السنة التي غادر فيها نيولاند العمليات السّرية في الميدان ليتولى منصباً إدارياً رفيعاً في لانغلي بوصفه ضابط ارتباط الـ «سي. آي. إيه» مع البنتاغون، أظهر بن لادن تكراراً أنه يستطيع الضّرب في المكان والزمان اللذين يختارهما، من تفجير السّفارتين الأميركيتين في كينيا وتنزانيا في ١٩٩٨، إلى الهجوم على «كول» في اليمن بعد ذلك بسنتين. وافتقرت إدارة ريغان إلى الكثير من الأفكار الجيدة عندما تعلّق الأمر بتصوّر مكان زعيم القاعدة في أي وقت محدّد ومن ثم قتله قبل أن ينتقل إلى مكان آخر.

تحولت النقاشات المتعلقة بين لادن في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض إلى مناظرات تجريدية حول هل البيت الأبيض قد ينتهك الحظر الموضوع في ١٩٧٦ على الاغتيالات في حال اختار أسلوباً للقتل بدلاً من الآخر. واستذكر كلارك أحد الاجتماعات، الذي استبد فيه الغضب بمستشار الأمن القومي ساندي برغر من المناظرات بحيث صاح في وجه كل من في الغرفة. قال: «إذاً لا بأس إطلاقاً بالنسبة إليكم أيها الرفاق إذا قتل بيل كلينتون بن لادن بصاروخ توماهوك، لكن الأمر يصبح سيئاً لو أن بيل كلينتون قتله برصاصة ٧,٦٢ ملم في وسط عينه؟ أيمكنكم أن تخبروني عن الفرق بين قتله بالتوماهوك أو بالـ أم-١٦؟».

«كاد برغر يصاب بنوبة قلبية»، قال كلارك. «تعرّق كلّه واحمرّ وجهه وهو يصرخ بهم».

لم يسعد الرئيس كلينتون بالنقص في الخيارات. «تعرف»، قال كلينتون إلى رئيس الأركان المشتركة الجنرال هيو شلتون، «ستهلع القاعدة إذا نزلت فجأة زمرة من النينجا السّود على الحبال من الهليكوبتر وسط معسكرهم»[١].

(١) "The 9-11 Commission Report: National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States", (2004).

وافق البنتاغون، الذي ليس في تصرّفه أي نينجا، على وضع غواصتين في بحر العرب يمكنهما، بمهلة قصيرة، إطلاق صواريخ توماهوك على أفغانستان. لكن الغواصتين عديمتا الفائدة في غياب الاستخبارات الحديثة عن مكان وجود بن لادن، وشرع كبار الأميرالات في الحراك لنقلهما إلى مكان آخر.

امتلكت الـ «سي. آي. إيه» مصدراً في الطالبان يزوّد الأميركيين المعلومات، لكنها في العادة إخباريات متأخّرة ٢٤ ساعة ولا تكفي ليعطي البيت الأبيض موافقته على ضربات صاروخية في أفغانستان[١]. التقى الضباط الخفيون، وهم يفتشون عن الأفكار، مع متعاقدي الدفاع الأميركيين في شأن بناء مناطيد مراقبة صغيرة أو بالونات لالتقاط صور لأفغانستان عن ارتفاع ثلاثين ألف قدم، لكنهم نبذوا الفكرة عندما نظروا في الكارثة الدبلوماسية، التي ستقع إذا دفعت هبّات الريح من جبال هندو كوش المنطاد مئات الأميال عن مساره إلى الصين - وربما إلى فوق أحد المفاعلات النووية.

شابت البرودة علاقة كلارك بجورج تينيت وجايمس بافيت رئيس مديرية العمليات في الـ «سي. آي. إيه»، وقرر الالتفاف من حولهما بحثاً عن أفكار جديدة. واستدعى كبير محللي الـ «سي. آي. إيه» تشارلز إ. ألن، الذي مرت عليه في الوكالة أربعة عقود وهو الآن في منتصف ستيناته. وحمل ألن، اللامع ومهاجم المعتقدات والعنيد، ندوب المعارك السّابقة للوكالة؛ ووجهت فضيحة إيران - الكونترا ضربة خاطفة إلى حياته المهنية. لكنه برز أيضاً كنوع من الأسطورة بين محللي الـ «سي. آي. إيه» لأنه الصوت الوحيد الذي تنبأ في ١٩٩٠ بأن صدّام حسين سيجتاح الكويت. وطلب كلارك من ألن أن يقوم بمراجعة مستقلة لمختلف الخيارات المتاحة للتجسس في أفغانستان[٢].

توجه ألن إلى وزارة الدفاع بحثاً عن الأفكار واجتمع مع ضباط عاملين في هيئة الأركان المشتركة التابعة للبنتاغون. ناقشوا أفكاراً بعيدة المنال مثل وضع تلسكوب عملاق على قمة أحد الجبال وتوجيهه صوب معسكر التدريب التابع لبن لادن في دارونتا، على مقربة من جلال آباد، حيث قامت القاعدة بتجارب على الأسلحة الكيماوية. لكنه وُجد خيار آخر أكثر واقعية. وأُخبر ألن بسلسلة من التجارب السّرية يجريها سلاح الجو

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع ريتشارد كلارك.

(٢) المصدر نفسه. ومقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول كبير سابق في الـ «سي. آي. إيه».

في الصحراء. وقال مسؤولون في البنتاغون إنه توجد فرصة في أن تتمكن الـ «سي. آي. إيه» من العثور على بن لادن باستخدام طائرة من دون طيار.

اشتُهرت، بحلول العام ٢٠٠٠، طائرة «أم كيو-١ بريداتور» في أوساط أخوية المهندسين العسكريين الخبيرة الصغيرة ومحللي الاستخبارات العاملين عند الحواشي الاختبارية للتجسس الإلكتروني. وسبق للـ «بريداتور» أن حقّقت بعض النجاح بوصفها أداة تجسس في حروب البلقان حيث استكشفت تجمعات الجنود الصّرب وطاردت زعماء صرب البوسنة. وشغّل القادة الطيارة التي تطير بلا طيار من عنبر في ألبانيا استأجرته الـ «سي. أي. إيه» لقاء حمولة شاحنتين من البطانيات الصوف. وأُرسلت إشارة فيديو الطائرة التي تطير بلا طيار مباشرة إلى مكتب مدير الـ «سي. آي. إيه» ر. جايمس وسلي جونيور، الذي تواصل مع قادة الطائرة عبر رابط بسيط للبريد الإلكتروني[١]. وتدبّر وولسي الحصول على ذخيرة صغيرة من المال لتمويل المشروع من النائب تشارلي ويلسون، عضو الكونغرس الأميركي، الذي يفرط في شرب الخمرة، والذي استخدم خدع ميزانية مماثلة لتمويل حرب الـ «سي. آي. إيه» في الثمانينيات في أفغانستان[٢].

حالت طبيعة الأرض الجبلية في البلقان دون التحليق بالطائرات، التي تطير من دون طيار باستخدام تكنولوجيا «التوجيه المباشر» - عندما يوجّه المشغل الطائرة التي تطير بلا طيار من خلال إشارة مباشرة إلى الطائرة - وهكذا قام الجيش بخطوات لتحليق الـ «بريداتور» من خلال ارتداد الإشارة من قمر صناعي يندفع بسرعة عبر الفضاء. لكن لم يمكن «بريداتور» أن تحمل سلاحاً. كما إنها بدت أشبه بحشرة طويلة وهزيلة يصدر محركها صوتاً صاخباً أشبه بجزازة عشب طائرة. وعلى عكس معظم الطائرات اتجهت ميزانيتها إلى الأسفل بدلاً من اندفاعها صوب السماء، وعندما نشرت مجلة تجارية كبرى موضوعها الأول عن الـ «بريداتور» جاءت الصورة رأساً على عقب[٣]. سوى أن قلة من ضباط سلاح الجو من داخل ثقافة الطيارين الشبان في الجهاز رأت الإمكانية الموجودة في الأنظمة، التي يتم التحكم فيها من بعد وشرعوا في الانتصار للـ «بريداتور».

(١) ملاحظات معلنة لجايمس وولسي في جامعة جورج مايسون في ١٣ أيلول/سبتمبر ٢٠١٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مقابلة أجراها المؤلف مع كيرت هاوز.

عاد ألن بفكرة الـ «بريداتور» إلى ريتشارد كلارك في البيت الأبيض. وتصوّرا أن تينيت وبافيت سيعارضان الفكرة، فانتظرا لإخبارهما بخيار الـ «بريداتور» إلى حين الانتهاء من وضع خطة إرسال الطائرة إلى أفغانستان. ودعا كلارك، من دون أن يبلغ تينيت بالأمر، إلى اجتماع في البيت الأبيض دعا إليه كبار المناصرين لـ «بريداتور» وهم تشارلي ألن، ورئيس مركز مكافحة الإرهاب كوفر بلاك، وريتشارد بْلي رئيس وحدة مطاردة بن لادن في مركز مكافحة الإرهاب التي أعطيت اسماً رمزياً هو «محطة ألك».

وبْلي ضابط حالة محترف خدم في عدة محطات لـ «سي. آي. إيه» في إفريقيا وقاد، بعد فترة وجيزة على توليه «محطة ألك» في ١٩٩٩، فريقاً إلى وادي بنجشير في أفغانستان لإعادة الاتصال بأحمد شاه مسعود قائد التحالف الشّمالي الذي ستتوصل القاعدة إلى قتله قبل يومين فقط على هجمات ١١ أيلول/سبتمبر[١]. وبْلي ذكي وحاد لكنه يتجهّم أحياناً ما دفع بعض زملائه إلى الاعتقاد بأنه متحفّظ. ترعرع في حضن الـ «سي. آي. إيه» وهو ابن رئيس القسم السّوفياتي في الوكالة الذي تعارك مع رئيس مكافحة الإرهاب الأسطوري جايمس أنغلتون على إدارة العمليات الخفية ضد الاتحاد السّوفياتي[٢]. وربح ديفيد بْلي المعركة ونجح في خلال السبعينيات في اختراق الـ «كا. جي. بي» بعشرات الجواسيس ذوي المراكز الرفيعة. وها هو ابنه الآن في واجهة حرب مختلفة جداً تخوضها الـ «سي. آي. إيه».

وبحلول عطلة نهاية أسبوع عيد الشهداء في العام ٢٠٠٠، اعتقد مستشار الأمن القومي لكلينتون أن الـ «سي. آي. إيه» ماحكت طويلاً جداً في شأن الـ «بريداتور» وطالبها باتخاذ قرار في شأن تحليق الطائرات التي تطير بلا طيار. ومهّد الجنرال جون غوردون، نائب مدير الـ «سي. آي. إيه»، لاجتماع مستعجل سرعان ما تحول إلى مباراة في الصياح. وأوضح بافيت، الذي اطلع على خيار الـ «بريداتور»، أنه يعارض عمليات طيران لـ «سي. آي. إيه» فوق أفغانستان. وسأل، «أين ستتمركز الطائرات التي تطير من

---

(١) لرواية أكمل عن رحلة بْلي في ١٩٩٩ إلى أفغانستان، راجع: Henry Crumpton, *The Art of Intelligence*, and Steve Coll, *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001* وقد تم التعريف به في الكتابين باسم «ريتش».

(٢) James Risen, "David H. Blee, 83, CIA Spy Who Revised Defector Policy", *The New York Times* (August 17, 2000).

دون طيار؟» و«ماذا لو تم إسقاطها؟» وقال بافيت إنه ليس على الـ«سي. آي. إيه» أن تشغّل قوتها الجوية الخاصة. وقال أحد المشاركين إن الاجتماع تحوّل «إلى مشهد بشع فعلاً».

اتصل ألن بكلارك بعد الجلسة ليبلغه بمعارضة بافيت. واعتقد كلارك أن مخاوف بافيت سخيفة وأن الخطة تكاد لا تحمل أي مخاطر. «تعرف»، قال لألن، «إذا أسقطت الـ«بريداتور» يذهب الطيار إلى المنزل ويضاجع زوجته. ولا بأس. فلن نواجه قضية أسير حرب»[1].

شكّ تينيت كذلك عندما سمع عن الـ«بريداتور» بعد ذلك بأيام ولم يستطب احتمال الطلب من رجل أوزبكستان القوي إسلام كريموف السّماح للـ«سي. آي. إيه» بوضع الـ«بريداتور» في قاعدة جوية سوفياتية قديمة على مقربة من الحدود الأفغانية. بدت يومئذٍ فكرة إقامة الـ«سي. آي. إيه» قواعد على الطّراز العسكري في أي مكان في العالم فكرة مجنونة – واستنفاداً لميزانية الوكالة المحدودة للعمل الخفي.

لكن كلارك فاز بحلول حزيران/يونيو بالجدال ووافق البيت الأبيض على نقل الـ«بريداتور» إلى قاعدة كارشي-خان آباد الجوية في أوزبكستان. لكنّ ضباط الـ«سي. آي. إيه» واجهوا مشكلةً أخرى: كيفية الحصول على سعة موجة قمر صناعي كافية لرحلات الطائرة التي تطير بلا طيار. وابتكر مهندسو سلاح الجو عند ذلك الحد طريقة للتحليق بالـ«بريداتور» عن بعد آلاف الأميال من خلال ارتداد الإشارة عن القمر الصناعي ونقل البث من خلال محطة أرضية في ألمانيا. وهو ما يسمح للـ«سي. آي. إيه» بإبقاء مشغّلي الـ«بريداتور» على مقربة كبيرة من الديار في مقطورة سباق سيارات جُهّزت في موقف للسّيارات في لانغلي. إلا أنه بقي على الوكالة أن تستأجر سعة موجة من شركات الأقمار الصناعية، الأمر الذي تبين أنه أصعب من المتوقّع. فقد امتصت شبكات الأخبار كل سعة موجات الأقمار الصناعية تمهيداً لتغطية الألعاب الأولمبية في سيدني، ما كاد يؤدّي إلى وقف كل رحلات الـ«بريداتور» فيما شرعت الـ«سي. آي. إيه» تبحث في شكل محموم عن شركة أقمار صناعية لديها مساحة للإيجار على الجهاز المرسل المستجيب[2].

---

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع ريتشارد كلارك.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول في البيت الأبيض في عهد إدارة كلينتون.

بدأت الرحلات الجوية التجسسية في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠، وحلّقت الـ «سي. آي. إيه» بالطائرة التي تطير بلا طيار في أكثر من دزينة من المهمّات في أفغانستان في الخريف قبل أن تبدأ رياح الشّتاء في الجبال بضرب هيكل الـ «بريداتور» السّريع العطب ما يجعل عمليات التحليق كثيرة المخاطر. وقاد كلارك مرات عديدة سيارته إلى لانغلي لمشاهدة الفيديو الذي يُبث إلى المقطورة في موقف السيارات. وأضاف «أنه علم خيالي وحسب؛ أمر لا يُصدّق». واكتشفت الـ «بريداتور» في أثناء تحليقها من فوق معسكر التدريب التابع لبن لادن في مزارع تارناك قافلة من الشّاحنات تدخل المعسكر. وخرج منها رجل طويل القامة ذو ثوب طويل أبيض. صورة الفيديو مبرغلة، لكن تولّد اقتناع لدى كل شخص واقف من حول الشاشة في الـ «سي. آي. إيه» أن الكاميرا موجّهة على بن لادن.

اندفع محللو الـ «سي. آي. إيه» لإنذار البنتاغون والبيت الأبيض للحصول على الإذن بإطلاق الصّواريخ من الغوّاصتين. لكن مسؤولين في مجلس الأمن القومي طلبوا معرفة هل سيبقى بن لادن أقلّه على مدى ست ساعات في مزارع تارناك وهو الوقت الذي يستغرقه بروتوكول إطلاق الصواريخ وفترة طيرانها من الغواصة في بحر العرب إلى جنوب أفغانستان. ولم تمتلك الـ «سي. آي. إيه» أي فكرة وهكذا امتنع ساندي برغر وفريقه عن الموافقة على الضربة[1]. ولم تمتلك الـ «سي. آي. إيه» سوى خيارين: توقع مكان وجود بن لادن قبل ذلك بست ساعات، أو العثور على سلاح يمكنه مطاردة زعيم القاعدة وقتله على الفور.

كان المطار الاحتياطي التابع لسلاح الجو في إنديان سبرينغز في ذلك الوقت قاعدة صغيرة على طريق الخراب في صحراء نيفادا على بعد نحو خمسة وثلاثين ميلاً شمال غربي لاس فيغاس. وهي واحد من عدد كبير من المراكز العسكرية التي أدركها الليل وقد بنيت في خلال الحرب العالمية الثانية ثم نسي البنتاغون أمرها. وشكلت القاعدة في الخمسينيات والستينيات مركز إمدادات للموقع المجاور للتجارب النووية تحت الأرض، وتطير الهليكوبتر المتمركزة في إنديان سبرينغز من وقت إلى آخر فوق مواقع

(١) Crumpton, *The Art of Intelligence*، مصدر سابق، ص ١٥٤.

التجارب في سهول مركوري ويوكا لمراقبة تسرّب الإشعاعات النووية. وإذا استثنينا التدريبات الظرفية للـ«الثاندربيردز»، وهو سرب الاستعراض التابع لسلاح الجو، فإن إنديان سبرينغز ليست سوى منطقة خلفية قاحلة.

واجهت القاعدة الجوية أيضاً مشكلةً مع الطيور التي امتلأت بها السّماء فوق إنديان سبرينغز، وقيّد سلاح الجو المرات التي يمكن فيها للمقاتلات النفّاثة أن تقلع من القاعدة خوفاً من أن تبتلع المحركات الطيور وتتسبّب بحالات تحطم قاتلة. لكن أثبتت إنديان سبرينغز أنها مثالية كموقع لاختبار الطائرات التي تطير بلا طيار: فهذه الطائرات لا تطير بأسرع كثيراً من الطيور. وقد حاولت مجموعة صغيرة من طياري التجارب في إنديان سبرينغز تحويل الـ «بريداتور» من مطارِدة إلى قاتِلة.

وُضع برنامج لتهديم مساكن القاعدة لأن جدران المنازل ملأى بالأسبستوس، وهكذا سافر أعضاء فريق الـ «بريداتور» في كل صباح من بيوتهم المستأجرة في ضواحي لاس فيغاس إلى مركز القيادة المقام في إنديان سبرينغز داخل مبنى كنيسة مهجورة[1]. ويستذكر كيرت هاوز، أحد طياري الـ «بريداتور» في القاعدة في ٢٠٠٠ و٢٠٠١، أن مجموعته امتلكت فكرةً غامضةً بأنه تم تسريع التجارب على الطائرة التي تطير بلا طيار لأن الـ «سي. آي. إيه» أرادت في شكل ملحّ استخدام الـ «بريداتور» لقتل بن لادن، لكن تم إخفاء معظم التفاصيل المتعلقة بالجدل في واشنطن عن المجموعة الموجودة في القاعدة.

تم تحويل أموال البرنامج عبر مكتب «بيغ سفاري» التابع لسلاح الجو، وهو قسم سرّي موجود في قاعدة رايت - باترسون الجوية في دايتون، أوهايو، يتولّى تطوير برامج استخبارات سرّية للجيش. وقضى انتداب «بيغ سفاري» في اختصار بيروقراطية البنتاغون لنقل بعض الأسلحة من نطاق التصميم إلى الميدان بأسرع من المعتاد، ما يعني أحياناً أنها تُشرك في المعركة قبل أن تكتمل جهوزيتها. وتلك هي الحال في العام ٢٠٠٠ مع النّموذج الأول من الـ «بريداتور» وهو كناية عن طائرة ذات لوحة تحكّم من بعد وُضعت كيفما اتفق ربطها بعض الطيارين بالملامح المبعثرة لدمية «السيّد بطاطس». وتمثّل واحد من العيوب المهمّة في التصميم في ان الزر الذي يطفئ محرّك

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع كيرت هاوز.

الطائرة يقع فقط على مسافة ربع إنش من الزر، الذي يطلق صاروخ «هلفاير» – ما يخلق إمكان ارتكاب خطأ بشري ذي عواقب قاتلة.

بيد أن المشكلة الكبرى تمثلت في أن ما من أحد متيقن تماماً مما قد يفعله إطلاق الصاروخ بالطائرة نفسها. هل تؤدّي قوة الصاروخ إلى تصديع هيكل الـ «بريداتور» أو تمزيق جناحيها وهي تحلّق؟ وأجري في كانون الثاني/يناير ٢٠٠١ اختبار في صحراء تشاينا ليك العالية في كاليفورنيا لمعرفة الجواب. وبعد ثلاثة أيام على تأدية الرئيس بوش قسم تولي السّلطة، ربط مهندسو سلاح الجو الـ «بريداتور» بالسلاسل إلى منصّة إسمنتية على قمة جبل صغير وأطلقوا منها صاروخ «هلفاير». وأصاب الصاروخ الدبابة المستهدفة ولم تصب الـ «بريداتور» بأي ضرر[١]. وأمكنت بالتالي المباشرة بالاختبارات الجوية الحيّة.

قبل ساعات على فجر السادس عشر من شباط/فبراير ٢٠٠١، غادر كيرت هاوز مركز القيادة في كنيسة إنديان سبرينغز المهجورة وقاد السيارة نحو عشرين ميلاً في الصحراء. فقد راجع في ذهنه في الليلة الماضية قائمة التدقيق السابق للطيران وهو جالس في غرفة نومه في لاس فيغاس. مارس، وعيناه مغمضتان، الحركات التي ستقوم بها يداه وهو يتحكّم في عصا قيادة الـ «بريداتور» ويطلق الصاروخ[٢].

وربما هي المرة الأولى في تاريخ الطيران الأميركي التي لا تكون فيها للدراما المحيطة باختبار يشكّل نقطة تحول أي علاقة بمخاوف في شأن بقاء الطيار حيّاً. ولم يفق كيرت هاوز من نومه في صباح السادس عشر من شباط/فبراير كما أفاق تشاك ياغر قبل أن يحشر نفسه في مقصورة الـ «بل إكس-١» وهو يأمل ألا يكون آخر طيّار تجريبي يموت وهو يحاول اختراق جدار الصوت. لم يواجه هاوز أي مخاطرة من أي نوع، وهو بالتحديد ما يجعل الأمر لحظة تحوّل: فالولايات المتّحدة تطور سلاحاً حربياً جديداً لا يتطلّب في الواقع من أحد الذهاب إلى الحرب.

خُطط لإجراء الاختبار في الصباح الباكر ورياح الصحراء في فترتها الأكثر هدوءاً.

---

(١) Richard Whittle, "Predator's Big Safari", Mitchell Institute for Airpower Studies, Paper 7 (August 2011).

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع كيرت هاوز.

وقبيل شروق الشمس تولى هاوز التحكّم في الـ «بريداتور» من الفريق الذي أطلق الطائرة من على مدرج إنديان سبرينغز. وأنزلها ببطء إلى علو ألفي قدم، وهو أقصى ارتفاع يُطلق منه صاروخ «هلفاير». حدّد الطلقة بمساعدة من شعاع ليزر مصوّب إلى دبابة مستهدفة في الصّحراء، وهو شعاع وجهه من الأرض أحد المتعاقدين مع الجيش. وضغط على الزر وأطلق صاروخ «هلفاير».

ما يستذكره هاوز هو الصمت. فهو طيار، لكنه على بعد أميال من طائرته. لم يمكنه سماع صوت انطلاق محرّك الصاروخ أو الشعور باهتزاز الطائرة لدى إطلاقه. وتراقصت شاشة الفيديو خاصته من الأثر الحراري الذي خلفه الصاروخ وهو يشاهده يندفع صوب الدبابة المستهدفة في إصابة مباشرة.

قرر المهندسون عدم استخدام رأس حيّ في الاختبار، ولم يحدث بالتالي أي انفجار. أصاب الصاروخ الزائف برج الدبابة على بعد ستة إنشات يمين الوسط تماماً، باعجاً التصفيح ومديراً البرج ثلاثين درجة[1]. واعتُبرت التجربة ناجحة نجاحاً قاطعاً. تم الأمر بحلول السّابعة صباحاً والتقى فريق الـ «بريداتور» في الكازينو الصغير المحاذي لإنديان سبرينغز في فطور احتفالي.

انبهر قادة سلاح الجو، ودبّروا في الاختبار الثاني الذي جرى بعد ذلك بخمسة أيام اجتماعاً لخمسة جنرالات في البنتاغون لمشاهدة إطلاق الـ «هلفاير» من خلال فيديو يُبث من نيفادا. وطار كيرت هاوز هذه المرة بالـ «بريداتور» مستخدماً قمراً صناعياً ما خلق تأخراً من ثانيتين بين تحريكه لعصا القيادة وبين التحركات الفعلية للطائرة. وهو ما جعل التحكم في الـ «بريداتور» أكثر صعوبة، غير أن الـ «هلفاير» أصاب مرّة أخرى الهدف إصابةً مباشرة. وحمل الصاروخ في هذه المرة رأساً حياً ما إن بلغ الهدف حتى ارتفعت كرة صغيرة من النار في سماء الصباح.

بدأ عصر النزاع المسلح الذي يتم التحكم فيه من بعد بالقليل من الصخب. وأصدر سلاح الجو بياناً صحافياً وجيزاً نتج منه موضوع صغير في صحيفة محلية في لاس فيغاس. واتصل عضو في الكونغرس من نيفادا بفريق الـ «بريداتور» للتهنئة، لكن

(١) بيان صحافي لسلاح الجو في ٢٧ شباط/فبراير ٢٠٠١ متوافر على: www.fas.org/irp/program/collect/docs/man-ipc-predator-010228.htm.

المهندسين والطيارين أصيبوا بخيبة عندما تناهى إليهم أن فريقاً من الـ «سي. أن. أن». سيصوّر الاختبار ولم يأت. فقد حاول مسؤولو الـ «سي. آي. إيه» الحفاظ على سرّية العملية كلها وغضبوا حتى من قيام سلاح الجو بنشر البيان الصحافي. ولم يُسمح قط لفريق الـ «سي. أن. أن» بالمجيء إلى القاعدة.

لم يعرف كيرت هاوز بأي من هذه التفاصيل. وجل ما سمعه هو أن «أطرافاً أخرى» تدخلت للحفاظ على سرّية عمله.

بيد أن هذه «الأطراف الأخرى» لم تستطع أن تقرر ما تفعله بالطائرة المسلحة التي تطير بلا طيار. وبقيت الـ «سي. آي. إيه» حتى بعد الاختبارات الصاروخية الناجحة منقسمة على مستوى القمة في شأن إرسال طائرات الـ «بريداتور» إلى أفغانستان لمطاردة أسامة بن لادن. وبات بافيت، رئيس الجهاز الخفي في الـ «سي. آي. إيه»، أشبه بالكورس الإغريقي المؤلف من رجل واحد وهو يحاجّ بقوة ضد تشغيل الوكالة لبرنامج الـ «بريداتور». أراد إنفاق موازنته السرّية على تجنيد المزيد من ضباط الحالة وليس شراء الطائرات التي تطير بلا طيار. وسيكرّر في خلال تلك الاجتماعات طرح السؤال الذي بدا الآن غريباً بعد مليارات الدولارات التي تدفقت على برامج مكافحة الإرهاب منذ هجمات ١١ أيلول/سبتمبر: هل سيأتي المليونا دولار ثمن كل «بريداتور» من ميزانية الـ «سي. آي. إيه» أو من ميزانية البنتاغون؟

لكنه أعرب أيضاً عن قلق أعمق بكثير، وهو قلق شاركه فيه أعضاء آخرون في فريق تينيت. ما هي بالضّبط تداعيات عودة الـ «سي. آي. إيه» إلى الاغتيالات؟ وقال جون مكالافلن، وهو يومئذٍ نائب مدير الـ «سي. آي. إيه»، «لا يسعك التقليل من قدر التغيير الثقافي الذي يترافق مع السّلطة القاتلة... وعندما يقول لي الناس «هذا ليس بذي شأن»، أجيبهم «أسبق لكم أن قتلتم أحداً؟» وقال: «إنه أمر ذو شأن، لأنك تشرع في التفكير في الأمور بطريقة مختلفة».

والأكثر من ذلك أن الولايات المتّحدة توبّخ بلداناً أخرى على الأمر نفسه الذي تجادل في هل يجب عليها القيام به أم لا. وقال مارتن إنديك السّفير الأميركي في إسرائيل عندما شرعت حكومة الأخيرة في قتل قادة حماس في خلال الانتفاضة

الفلسطينية الثانية في ٢٠٠٠ و٢٠٠١ إن «الولايات المتّحدة أعلنت في شكل رسمي واضح أنها ضد الاغتيال... فهي عمليات قتل غير قانونية ولا نؤيدها»[١].

انتابت تينيت مشاعر متناقضة وقال تكراراً إنه يعتقد أن على الجيش وليس الـ «سي. آي. إيه» أن يضغط على زناد سلاح الحرب. وفي خلال أحد النقاشات المتعلقة بهل يجب أن يُسمح لضابط في الـ «سي. آي. إيه» أن يجيز ضربات الـ «بريداتور»، تطوّع كل من تشارلز ألن وألفن «بيزي» كرونغارد، أعلى ثالث مسؤول في الوكالة، لأن يضغطا على الزناد بنفسيهما. وهو ما أغاظ تينيت الذي أبلغ لاحقاً لجنة ٩/١١ أنه أنّب ألن وكرونغارد وأبلغهما أنهما لا يملكان، كما أنه أيضاً لا يملك، سلطة إطلاق صاروخ «هلفاير»[٢].

جلس الفريق جون كامبل في كل هذه النقاشات إلى جانب تينيت وبدا أشبه بعض الشيء بعالم أنثروبولوجيا يشاهد طقوس القتال التي تمارسها أجناس غريبة. وقد أمضى حياته المهنية في سلاح الجو وانتقل في السنة السابقة إلى لانغلي لتولي منصب مدير الدعم العسكري في الوكالة. واعتقد كامبل بقوة أن على الـ «سي. آي. إيه» أن تتبنّى الـ «بريداتور»، لكنه عندما يفكّر الآن في النزاعات الداخلية في صيف ٢٠٠١ في شأن الطائرة المسلحة التي تطير بلا طيار، يدرك أن الوكالة تصارعت مع السؤال الأكثر بديهية المتعلق بما تريد أن تكونه.

قال: «إنك، في الثقافة العسكرية، إذا نفذت أمراً قانونياً مباشراً – ويتحتّم عليك وأنت ضابط أن تتبع أمراً قانونياً – تصبح محمياً إلى حد كبير من أي مسؤولية شخصية عن الأمور التي تقوم بها. لكن الـ «سي. آي. إيه» تختلف. فهم يتمتّعون بحماية أقل بكثير. ويمكن أن يتصرّفوا بموجب بنود أمر رئاسي تنفيذي حيث يحصل المرء على قصاصة ورق تحمل توقيع الرئيس وتقول، «أجيز لكم القيام بهذه الأمور». ثم يمكن أن تأتي الإدارة التالية ويقرر القضاء أن الأمر التنفيذي مشكوك فيه وربما أيضاً غير قانوني – وخمّن ماذا؟ - يصبح هؤلاء الأشخاص مسؤولين شخصياً عن الأمور التي فعلوها».

---

(١) Jane Mayer, "The Predator War", *The New Yorker*, October 26, 2009.

(٢) National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States, "9-11 Commission Report", (2004).

وتابع، «ينبش أمر مثل الـ «بريداتور»، حيث يتم استفراد أشخاص محدّدين، لائحة كاملة من المخاوف المتعلقة بالعواقب المستقبلية».

شغل روس نيولاند في ذلك الوقت منصب نائب كامبل، وشغل مقعداً في الصفوف الأمامية في رحلات الـ «بريداتور». وعرف نيولاند وهو يجلس في الاجتماعات أنه يشاهد انعطافة أخرى في دورة مألوفة: ها إن الـ «سي. آي. إيه»، التي تنفر من المخاطر، توشك مرةً أخرى على العودة إلى خوض الحرب السّرية. ساند برنامج الـ «بريداتور» واعتقد أن على إدارة بوش استخدامها لقتل بن لادن في أقرب فرصة ممكنة، لكنه لم يستطع أيضاً الامتناع عن العودة بالفكر إلى أيامه كضابط مكافح للمخدرات في بوليفيا. فقد كُلفت الـ «سي. آي. إيه»، وهي غير مستعدّة لذلك، مطاردة مهرّبي المخدرات لأن ما من أحد آخر أراد القيام بالأمر. وأمكن نيولاند، بعد ذلك بعقدين، أن يرى الأمر نفسه يحدث مع الإرهاب.

وعندما قتلت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، بعد ذلك بأسابيع، ما يقارب الثلاثة آلاف أميركي، نُحيت جانباً كل الأسئلة الشائكة المتعلقة بالاغتيالات والعمل الخفي والاستخدام الملائم للـ «سي. آي. إيه» في مطاردة أعداء أميركا. وشرعت الوكالة، في غضون أسابيع، في شن الغارات في أفغانستان مستخدمةً الطائرات التي تطير بلا طيار.

وجدت أميركا في الـ «بريداتور» المسلحة السلاح المطلق للحرب السّرية. فهي أداة تقتل بهدوء، وسلاح غير مقيّد بقواعد المحاسبة العادية في المعركة. وستسمح الطائرات المسلحة التي تطير بلا طيار للرؤساء الأميركيّين بالأمر بشن غارات على قرى نائية ومعسكرات صحراوية لا يمكن الصحافيين ومجموعات المراقبة المستقلة الذهاب إليها. ونادراً ما يناقش المتحدّثون الواقفون وراء المنصة الغارات، لكنها تلقى بالسر الترحيب من سياسيين من الحزبين ممن يأملون فتل العضلات الأميركية من دون تعريض حياة أميركيّين للخطر.

نادرة هي التكنولوجيا التي تستطيع تغيير وجه الحرب. ففي النصف الأول من القرن الماضي غيّرت الدبابات والطائرات كيفية خوض العالم معاركه. وسيطرت في السنوات الخمسين التي أعقبت ذلك الرؤوس النووية والصواريخ البالستية العابرة للقارات، وهي أسلحة ذات قدرة رهيبة إلى درجة أنها ولّدت مبادئ جديدة لمنع البلدان من استخدامها

أبداً. وقلب مجيء الطائرة المسلحة التي تطير بلا طيار هذا الحساب رأساً على عقب: أضحت الحرب ممكنةً تماماً لأنها تبدو خالية جدّاً من المخاطر. وخُفضت معايير الحرب، وبدأ عصر التحكم من بعد وأضحت الطائرة القاتلة التي تطير بلا طيار موضوعاً فاتناً داخل الـ «سي. آي. إيه».

زار نيولاند في صيف ٢٠٠٢ متجراً صغيراً لبيع التذكارات في مقر قيادة الـ «سي. آي. إيه». أراد أن ينتقي بعض الهدايا لأصدقائه فجال بين صفوف الرفوف الملأى بالأكواب والسترات الصوفية والتي - شيرتات المزخرفة بشعار الـ «سي. آي. إيه». إلى أن عثر على ما ليس متوقعاً: قميص غولف وقد طُرزت طائرة صغيرة تطير بلا طيار على جانبه الأيسر. وكانت الـ «بريداتور» لا تزال واحداً من أكثر البرامج سرّية في الـ «سي. آي. إيه»، لكن وكالة التجسس أخذت الآن تبيع صوراً على التذكارات للطائرات التي تطير بلا طيار[1].

أظهر قتل الحارثي في اليمن في وقت لاحق من تلك السنة أنه يمكن الـ «سي. آي. إيه»، بوجود حليف خارجي طيّع، أن تشن حرباً في مكان يبعد كثيراً عن منطقة الحرب. وأخذ الابتهاج حيال غارة اليمن بمجامع مسؤولي بوش بحيث تسرّبت سريعاً أخبار الهجوم ثاقبة الغشاء الرقيق لرواية التغطية، التي نشرها المسؤولون اليمنيون عن انفجار قارورة الغاز. وبلغ الأمر بنائب وزير الدفاع، بول وولفوفيتز، حد الإشادة بالغارة على الـ «سي. أن. أن».

استشاط الرئيس صالح غضباً بعدما تناهى إليه الخبر عن تعليقات وولفوفيتز، إذ جعل ذلك حكومته تبدو مؤلفة من الأغبياء والكذبة، واستدعى الجواسيس والدبلوماسيين الأميركيين في اليمن للحضور إلى مكتبه على الفور[2]. وأبلغهم أنه سيتم تقليص الحرب الأميركية السّرية في اليمن بما أنه لا يمكن واشنطن الحفاظ على السّر. وأمر بوقف فوري لتحليقات الـ «بريداتور».

وتوقّفت، نحو ثماني سنوات. وسيستمر الأمر حتى ٢٠١٠، عندما عم الاضطراب

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع روس نيولاند.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول أميركي كبير سابق.

اليمن وأخذ صالح يخسر قبضته على السّلطة إصبعاً بعد الأخرى، إلى أن أمر رئيس أميركي آخر بعودة الطائرات التي تطير بلا طيار إلى سماء اليمن. ولم يعد صالح بعدها في أي موقع يسمح له بالاعتراض.

٦ : بشتُونيّ حقيقيّ

«تسقط الأشياء كل الوقت من السّماء».

- برويز مشرّف

«لماذا يتبعني هذا الطير؟»

جلس نك محمد وزير داخل المبنى الطيني في جنوب وزيرستان محاطاً بأتباعه وهو يتحدّث عبر هاتفه، الذي يعمل بالأقمار الصناعية مع أحد مراسلي الـ «بي. بي. سي». لاحظ القائد الشاب ذو الشّعر الأسود الفاحم الطويل وهو ينظر عبر النافذة شيئاً يحوّم في الأعلى ويتلألأ في الشمس. وسأل أحد مساعديه عن الجسم المعدني المتألق في السماء[١].

وكان نك محمد قد ذلّ لتوّه القوات الباكستانية، وكانت الـ «سي. آي. إيه» تلاحقه. فقد خرج بوصفه نجم المناطق القبلية الباكستانية بلا منازع، وهو عضو متهوّر من قبيلة الوزير التي حشدت في ربيع ٢٠٠٤ جيشاً لمقاتلة القوات الحكومية وجلبت إسلام آباد إلى طاولة المفاوضات. وأخذ صعود نجمه الزعماء الباكستانيّين على حين غرّة، ويريدونه الآن ميتاً.

نك محمد، وقد بلغ التاسعة والعشرين من العمر، هو من الجيل الثاني من المجاهدين الباكستانيين الذين لا يجدون سبباً للولاء للاستخبارات الباكستانية التي قدمت العون لآبائهم في الحرب ضد السّوفيات. ونظر الكثيرون من باكستانيي المناطق القبلية بازدراء

(١) Zahid Hussain, *The Scorpion's Tail* (New York: Free Press, 2010): 73.

إلى تحالف الرئيس مشرّف مع واشنطن بعد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، واعتبروا أن الجيش الباكستاني لا يختلف عن الأميركيين – الذين يعتقدون أنهم شنوا حرباً عدوانية في أفغانستان تماماً كما فعل السّوفيات قبلهم بأعوام[١]. وأعطى نك محمد حكومة باكستان المذاق الأول لما سيصبح مشكلة متفاقمة في السنوات المقبلة: جهاد سيتوسع مجاله بأبعد من الجبال الغربية إلى المناطق الحضرية في البلاد على مقربة من أكثر مدن باكستان أهمّية. وهو جهاد لن تتمكن إسلام آباد في النتيجة من السّيطرة عليه.

ولد نك محمد على مقربة من «وانا»، مركز التسوق الناشط لجنوب وزيرستان، وأُرسل في سن صغيرة إلى واحدة من المدارس الدينية، التي انتشرت في المنطقة في خلال الثمانينيات لتثقيف الشّبان الأميّين في المناطق القبلية الخاضعة للإدارة الاتحادية[٢]. لكنه ترك المدرسة بعد خمس سنوات وأمضى مطلع التسعينيات يعيش كسارق سيارات صغير وصاحب متجر في بازار «وانا». ووجد دعوته في ١٩٩٣ عندما جُنّد للقتال إلى جانب الطالبان الأفغان ضد تحالف الشّمال التابع لأحمد شاه مسعود في الحرب الأهلية المستعرة يومئذٍ في أفغانستان.

ارتقى سريعاً في صفوف الطالبان العسكرية وحاز شهرة بأنه لا يتراجع أبداً في المعركة حتى ولو أمره رؤساؤه بالانسحاب[٣]. وبرز في شكل مؤثّر في ساحة القتال بوجهه الطويل والضعيف ولحيته المتشعثة التي تلامس قمة ترقوته وشعره الأسود المنساب من عمامته البيضاء. ولا يبدو كالمجاهد النّموذجي الرثّ بل يشبه أكثر النسخة البشتونية لتشي غيفارا.

استغل نك محمد الفرصة لاستضافة مقاتلي القاعدة من العرب والشّيشان الذين انتقلوا في ٢٠٠١ و٢٠٠٢ إلى باكستان هرباً من سيل القنابل الأميركية في أفغانستان. ويعتبر رجال القبائل المحليون أن من واجبهم الديني توفير الملجأ للمقاتلين، لكن بعضهم رأى في الأمر أيضاً فرصة للكسب، ففرضوا على الأجانب إيجارات مضخّمة للبقاء في

(١) Shaukat Qadir, "Understanding the Insurgency in FATA". Available at http://shaukatqadir.info/pdfs/FATA.pdf.

(٢) Muhammad I. Khan, "Nek Muhammad Wazir", *The Herald* (September 16, 2005).

(٣) Syed Saleem Shahzad, "The Legacy of Nek Mohammed", *Asia Times Online* (July 20, 2004).

المساكن المحمية في «وانا» و«شاكاي»، وهما في منطقة زراعية ذات أشجار ظليلة كبيرة ووديان نهرية شديدة الانحدار. وتعلّق جانب من الأمر بمخطط للإثراء بالنسبة إلى نك محمد لكنه وجد أيضاً استخداماً آخر للمقاتلين الوافدين. وشن بمساعدة منهم على مدى السنتين التاليتين سلسلةً من الهجمات على منشآت فيلق حرس الحدود الباكستاني وقواعد إطلاق النار الأميركية عبر الحدود في أفغانستان[1].

حث ضباط الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد الجواسيس الباكستانيّين على الضغط على رجال القبائل الوزيريين لتسليم المقاتلين العرب والشيشان، سوى أن العادات القبلية البشتونية تحظر مثل هذه الخيانة. وأمر مشرّف، على مضض، جنوده بالتوجه إلى الجبال المنيعة لمطاردة الأجانب وإنزال العدالة القاسية برجال نك محمد. وهذه ليست بالغارة الأولى للجيش على وزيرستان، إلا أن الأمر ارتدى طابعاً ملحاً جديداً بالنسبة إلى مشرّف: فقد أصدر أيمن الظواهري، الرجل الثاني في قيادة القاعدة، في أواخر ٢٠٠٣ فتوى تأمر بقتل الرئيس الباكستاني بسبب مساعدته الأميركيين. وأصبح القتلة، في مناسبتين في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣، قاب قوسين أو أدنى من تنفيذ الأمر وفكّر مشرّف بأن حملة عسكرية عقابية في الجبال قد تؤدّي إلى وقف الهجمات على الأراضي الباكستانية.

لكن تلك ليست سوى البداية. ففي آذار/مارس ٢٠٠٤ دكّت طائرات الهليكوبتر الباكستانية المسلحة والمدفعية «وانا» والقرى المجاورة. وقصف الجنود الحكوميون شاحنات البيك - أب التي تنقل المدنيين الهاربين من القتال ودمّروا مجمعات رجال القبائل التي شكّوا في أنها تؤوي الأجانب. وقال أحد القبليين لأحد المراسلين إنه عندما نهب الجنود الباكستانيون منزله لم يكتفوا بأخذ ملابسه بل أخذوا أيضاً أغطية وسائده ودهان حذائه[2]. وأعلن الفريق صفدار حسين الذي قاد المعركة أن العملية حقّقت نجاحاً تاماً. وقال إنها دمرت قاعدة المقاتلين وشبكة من الأنفاق التي تحتوي على أجهزة اتصال متطوّرة.

لكن اللعبة لم تستحق كل هذا العناء بالنسبة إلى الحكومة الباكستانية. فالإصابات

---

(١) Christine C. Fair and Seth Jones, "Pakistan's War Within", *Survival* 51, no. 6 (December 2009-January 2010): 168.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

العسكرية جاءت أكبر من المتوقّع. وفي إحدى المعارك، في ١٦ آذار/مارس، عندما حاصر الجنود حصناً يعود إلى نك محمد واثنين آخرين من كبار المقاتلين، قُتل ١٥ جندياً من فيلق حرس الحدود إضافةً إلى جندي باكستاني نظامي واحد. وأُخذ ١٤ جندياً آخر رهائن ودُمرت عشرات الشّاحنات العسكرية وقطع المدفعية وناقلات الجند المصفّحة. وأصدر رجال الدين في جامع «لال المسجد» النافذ في إسلام آباد رسالة تدعو شعب جنوب وزيرستان إلى التصدي لهجوم الجيش وحرمان الجنود الباكستانيين من دفنهم على الطريقة الإسلامية. وانصاع بعض الأهل للأمر ورفضوا تسلّم جثامين أبنائهم القتلى[1]. واستشاط رجال القبائل في وزيرستان الذين سبق أن عارضوا الانتشار العسكري في الجبال غضباً حيال الهجوم العشوائي على «وانا». وازدادت الهجمات على مراكز فيلق حرس الحدود وبدأت إسلام آباد البحث عن مخرج.

رقص رجال القبائل البشتون في حلقة في ٢٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٤ وقرعوا الطبول مع وصول المبعوثين العسكريين للرئيس مشرّف إلى مبنى المدرسة في «شاكاي»، على مقربة من «وانا»، حيث انتظرهم رجال نك محمد. جاء الجنرال حسين شخصياً في مؤشر على مدى سعي مشرّف اليائس إلى السلام. وقدّم رجال القبائل رشاشات «إي كي-٤٧» (كلاشينكوف) إلى العسكريين، في إشارة تقليدية إلى السلام، وعانق الجنرال حسين نك محمد وعلق إكليلاً من الأزهار المشرقة حول عنقه. وجلس الرجلان متجاورين وارتشفا الشاي فيما مصوّرو الصحافة والتلفزيون يسجلون الحدث.

بانتهاء الرسميات توجه الجنرال إلى مئات الرجال الجالسين معقودي الأرجل على التراب يرتدون «الشلوار قميز» الفضفاضة وقُبّعات «الباكول» الصوف المسطحة. وأبلغ الجنرال الحشد أن الولايات المتّحدة كانت مغفلة في شنها الحربَ في أفغانستان. «كم كان عدد الطيارين الأفغان المتورّطين عندما صدمت الطائرة مركز التجارة العالمي الأميركي؟» سأل الجنرال. «ولماذا هذا الوضع في أفغانستان بما أنه لم يوجد طيارون أفغان؟»

وأوحى بأن حكومة باكستان، برعايتها صفقة السلام، تحمي شعب جنوب وزيرستان من القنابل الأميركية.

(١) Hussain, *The Scorpion's Tail*، مصدر سابق، ص١٧.

وقال: «لو أن الحكومة الباكستانية لم تقم بخيار حكيم لأقدمت أميركا أيضاً على اجتياح المناطق القبلية تماماً كما اجتاحت العراق واجتاحت أفغانستان». وهتف الحشد بقوة(١).

وتحدث نك محمد كذلك عن السلام. «ما جرى قد جرى»، قال أمام كومة من الميكروفونات. «سواء كان الخطأ خطأنا أو خطأ الجيش فنحن لن نتحارب من جديد»(٢).

لم يُثر الكثير من الشك في الطرف الذي يفاوض من موقع قوة. وسيتباهى نك محمد لاحقاً بأن الحكومة وافقت على اللقاء داخل مدرسة دينية حيث تُعقد الاجتماعات القبلية تقليدياً بدلاً من موقع رسمي. وقال: «لم أذهب إليهم؛ بل جاؤوا إليّ. ويوضح ذلك من استسلم لمن»(٣).

وهو، بالحكم على شروط الهدنة، على حق. فقد وافقت الحكومة على دفع التعويضات عن المذبحة في جنوب وزيرستان وعلى إطلاق جميع السّجناء الذين أُسروا في خلال الهجوم. ومُنح المقاتلون الأجانب في الجبال عفواً ماداموا يتعهدون الكف عن مهاجمة الجنود الباكستانيّين وعن الغارات داخل أفغانستان – وهو بند غير قابل في الأساس للتطبيق. كذلك وعد نك محمد وأتباعه بعدم مهاجمة القُوات الباكستانية لكنهم لم يتخلوا عن الهجمات في أفغانستان. وقال نك محمد لاحقاً إنه لن يتخلى عن الجهاد في أفغانستان إلى أن تتحرر البلاد من الاحتلال الأجنبي.

لم يعتقد جميع من في الحكومة الأفغانية أن صفقة السلام خطوة حكيمة. فبحلول ٢٠٠٤ تقاعد أسد منير من الاستخبارات الباكستانية وتولى وظيفة المدير المدني في بيشاور حيث أشرف على الأمن والتنمية في المناطق القبلية. وراقب رئيس المحطة السابق الذي عمل من كثب مع الـ«سي. آي. إيه» في ٢٠٠٢ و٢٠٠٣، فيما يناقش الجنرالات الباكستانيون هل يجب التفاوض أو لا مع نك محمد. وحذّر من أن تهدئة

(١) "Making Deals with the Militants", part 4 of *Return of the Taliban*, PBS *Frontline*, October 3, 2006.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) Iqbal Khattak, "I Did Not Surrender to the Military", *Friday Times* (April 30–May 6, 2004).

المقاتلين القبليين لن تؤدّي إلا إلى توسيع وصولهم إلى مناطق باكستان الحضرية. ويعتقد منير الآن أن اتفاقات السّلام التي تمت رعايتها في المناطق القبلية منذ ٢٠٠٤ أدت إلى بروز مجموعة قوية وقاتلة في البلاد، وهي مجموعة باتت تعرف باسم طالبان باكستان.

وقال: «لو أن [القوات الباكستانية] واصلت العملية في ٢٠٠٤ في كل من جنوب وشمال وزيرستان وحسب لما انتشر الطالبان» إلى مناطق أكثر قرباً من إسلام آباد. «حصلوا، مع كل اتفاق سلام، على المزيد من القوة وسيطروا على المزيد من المناطق، وأخذ الناس يعتبرونهم الحكّام لأن الدولة لا تقوم بالتدخل»[١].

ومع ذلك تبجّح مسؤولون حكوميون في إسلام آباد بأن صفقة السلام قد دقت إسفيناً بين المجاهدين الباكستانيّين ومقاتلي القاعدة. واستمر نك محمد في نفيه المعلن لوجود عملاء للقاعدة في المناطق القبلية. «لا وجود للقاعدة هنا»، قال. «ولو أنه يوجد مقاتل واحد من القاعدة هنا لأمسكت الحكومة بواحد حتى الآن»[٢].

دفع ترتيب السلام في «شاكاي» نك محمد إلى المزيد من الشّهرة. فهو الرجل الذي ركّع الحكومة، وشرع في مقارنة نفسه برجال القبائل الوزيريين المشهورين الذين دحروا القوات البريطانية من الجبال. وفي غضون أسابيع كُشف أن الهدنة زائفة واستأنف نك محمد هجماته على الجنود الباكستانيّين. وأمر مشرّف جيشه مرة أخرى بالعودة إلى الهجوم في جنوب وزيرستان.

دأب مسؤولو الـ«سي. آي. إيه» في إسلام آباد منذ أشهر في الضغط على الباكستانيّين للسماح بتحليق الـ«بريداتور» في المناطق القبلية، ووفر الإذلال المتكرر الذي ألحقه نك محمد بالجنود الباكستانيين الفرصة. زار رئيس محطة الـ«سي. آي. إيه» في إسلام آباد رئيس الاستخبارات الجنرال إحسان الحق وقدّم عرضاً: هل تسمح الاستخبارات الباكستانية بتحليق منتظم للطائرات التي تطير بلا طيار فوق المناطق القبلية إذا قتلت الـ«سي. آي. إيه» نك محمد؟ واستذكر رئيس المحطة السّابق أن نك محمد أثار فعلاً حنق الباكستانيين. وقالوا: «إذا أمكنكم أيها الفتية العثور عليه فامضوا ونالوا منه»[٣].

---

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع أسد منير.

(٢) Dilawar K. Wazir, "Top Militant Vows to Continue Jihad", *Dawn* (April 26, 2004).

(٣) مقابلة أجراها المؤلف مع رئيس سابق لمحطة الـ«سي. آي. إيه» في إسلام آباد.

لكن هذا الوصول جاء مع قيود، إذ أصرّ مسؤولو الاستخبارات الباكستانية على أن يوافقوا على كل غارة للطائرة التي تطير بلا طيار قبل وقوعها، ما يسمح لهم بالتحكم بشدة في لائحة القتل. وأصرّ الجواسيس الباكستانيون، بعد نقاشات حادة حول المكان المحدد الذي يمكن الطائرات التي تطير بلا طيار التحليق فوقه، على حصر هذه الطائرات في «مربعات طيران» ضيّقة في المناطقة القبلية وهم يعلمون أن وصولاً أكثر اتساعاً سيسمح للـ «سي. آي. إيه» بالتجسس في أماكن لا تريد إسلام آباد للأميركيين الذهاب إليها: وهي المنشآت النووية الباكستانية والمعسكرات الجبلية التي يتم فيها تدريب المناضلين الكشميريّين لشن هجمات على الهند[1].

كذلك أصرّت الاستخبارات الباكستانية بأن تتم كل طلعات الطائرات التي تطير بلا طيار في باكستان تحت سلطة العمل الخفي التابع للـ «سي. آي. إيه» – ما يعني أن الولايات المتّحدة لن تعترف أبداً بالقصف الصاروخي على أن تقرر باكستان هل تنسب الفضل إلى نفسها بعمليات القتل الفردية أم تلتزم الصمت حيالها. ولم يعتقد الرئيس مشرّف أنه سيصعب الاستمرار في الحيلة. وقال لأحد عملاء الـ «سي. آي. إيه» في خلال المفاوضات: «في باكستان تسقط الأشياء كل الوقت من السّماء».

وحتى لو لم تُقيّد الـ «سي. آي. إيه» لما تمكنت الوكالة في ذلك الوقت من المزيد من التوسع في حملة القتل في المناطق القبلية. إذ كاد الأميركيون لا يمتلكون أي مصادر استخبارية في المنطقة أو أي معلومات ثمينة ولو قليلة عن المكان، الذي يمكن بن لادن وغيره من زعماء القاعدة الاختباء فيه. واشتبه محللو الـ «سي. آي. إيه» في وجود بن لادن وأيمن الظواهري في مكان ما في المناطق القبلية، إلا أنّ الظنون الغامضة والتقارير التي تمر عبر مصدرَين قبل وصولها بالكاد تكفي للاستخدام الفاعل للـ «بريداتور». ولم تمتلك الاستخبارات الباكستانية مصادر أفضل بكثير. وقد امتلك جهاز التجسس الباكستاني شبكة مصادر واسعة في المدن للمساعدة على تقفّي آثار زعماء القاعدة أمثال خالد شيخ محمد، لكنها لم تحظ في جنوب وزيرستان وغيرها من المناطق القبلية بمصادر موثوق بها.

ومن حسن حظ الجواسيس الأميركيين والباكستانيين أن نك محمد لم يكن

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول أميركي كبير في الاستخبارات.

بالضبط مختبئاً تماماً. فقد أعطى مقابلات منتظمة للقنوات الناطقة بلغة البشتون في وسائل الإعلام الغربية تبجّح فيها بإذلال الجيش الباكستاني العظيم. وهذه المقابلات التي جرت بهاتف الأقمار الصناعية جعلته هدفاً سهلاً للمتنصّتين الأميركيّين. وشرع الأميركيون، بحلول منتصف حزيران/يونيو ٢٠٠٤، في تقصّي تحركاته بانتظام. وفي ١٨ حزيران/يونيو، بعد يوم على تحدث نك محمد إلى الـ «بي. بي. سي.» وتساءل بصوت مرتفع عن الطير الغريب الذي يتبعه، صوّبت الـ «بريداتور» على موقعه وأطلقت صاروخ «هلفاير» على المجمع الذي يستريح فيه. بتر الانفجار ساق نك محمد اليسرى وذراعه اليسرى ومات في شكل شبه فوري. وزار الصّحافي الباكستاني زاهد حسين القرية بعد ذلك بأيام ورأى قبر الطين في «شاكاي» الذي أصبح محجّة بالفعل. وكُتب شاهد على القبر جاء فيه، عاش ومات بشتونياً حقيقياً[1].

ناقش مسؤولو الـ «سي. آي. إيه» والاستخبارات الباكستانية كيفية التعامل مع أخبار الغارة، وقرروا أن تنسب باكستان الفضل إلى نفسها في قتل الرجل الذي أذل الجيش. وبدأت، بعد يوم على قتل نك محمد، عملية ادعاء عبثية ستستمر سنين. وأبلغ كبير المتحدثين باسم الجيش الباكستاني، اللواء شوكت سلطان، صوت أميركا أن «المتعاون مع القاعدة» نك محمد وأربعة مجاهدين آخرين قتلوا في هجوم صاروخي شنه الجنود الباكستانيون.

بعد أربعة أشهر على غارة الطائرة التي تطير بلا طيار، أمسك جنرال ذو عينين حزينتين وغائرتين وكتفين منحنيتين بمقاليد جهاز الاستخبارات الباكستاني. ولم يعرف الجواسيس الأميركيون، ما عدا الأمور الأساسية في سيرته، الكثير عن أشفق برويز كياني الهادئ والكثير التدخين. وُلد في عائلة عسكرية وترعرع في جيلوم وهي منطقة قاحلة في البنجاب. حصل على شهادته كضابط في ١٩٧١ وهي السنة التي هُزمت فيها القُوّات الباكستانية في الحرب، التي استغرقت ثلاثة عشر يوماً مع الهند وأدت إلى خسارة باكستان الإقليم الذي سيصبح في النهاية بنغلادش. واعتقد كياني، على غرار معظم الضبّاط الباكستانيين، أن بلاده تخوض صراعاً يومياً من أجل البقاء وأنه لا يسع باكستان

(١) Hussain, *The Scorpion's Tail*، مصدر سابق، ص٧٣.

اتخاذ أية قرارات عسكرية من دون أن تحدّد أوّلاً كيف ستؤثّر تلك القرارات في قدرتها على الدفاع عن نفسها ضد الهند.

بيد أن كياني تميّز بالسّيطرة على نفسه فيما تميّز الآخرون بحدّة الطباع. وعندما شن مناضلون متمركزون في باكستان في أواخر ٢٠٠١ هجوماً قاتلاً على البرلمان الهندي في نيودلهي وبدا كما لو أن الخصمين النوويين قد ينزلقان إلى الحرب، كان كياني قائداً في الجيش مسؤولاً عن تنظيم القوات الباكستانية على امتداد الحدود مع الهند. وحاز الثناء داخل باكستان على إدارته الهادئة للوضع المتوتّر وبقائه على اتصال مع نظرائه الهنود ومنعه تصعيد النزاع الجياش إلى حرب نووية[١]. وفاز بعد ذلك بسنتين بولاء الجنرال مشرّف عندما تولى التحقيقات في محاولتي الاغتيال ضد الرئيس في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣.

ولم يمض وقت طويل على تولي كياني الاستخبارات الباكستانية حتى استحق الاحترام ولو على مضض في مقر قيادة الـ «سي. آي. إيه» لكونه معلّماً في التلاعب – وهذا ثناء – ورجلاً يحافظ دوماً على سرّية روزنامته الأكثر أهمّية. ويمكنه أن يمضي فترات طويلة في الاجتماعات من دون أن يتلفظ بكلمة، ويبدو وكأنه نائم. ثم عندما يُطرح موضوع يحرّكه يتحدّث بشغف عدة دقائق قبل أن يعود إلى حالته الناعسة. لديه هوس بلعبة الغولف، وحيثما ذهب يجر خلفه غيمةً من دخان السجائر.

نادراً ما يتحدّث عن نفسه، وعندما يفعل يصعب فهم ما يقوله لأن لديه ميلاً إلى التمتمة. وفيما كان سلفه في رئاسة الاستخبارات، الجنرال الحق، متأنقاً ودمثاً، كان الجنرال كياني غير أنيق وغير لافت للنظر. وأصرّ في خلال سفراته إلى واشنطن العاصمة على أن يأخذه سائق الليموزين إلى «مارشالز»، السلسلة التي تعرض التنزيلات على الملابس، حيث يشتري البزات وربطات العنق[٢]. والأكثر من ذلك كله أن في وسعه انتظار ما يريده بطول أناة. ويذكر جاسوس أميركي رفيع المستوى اجتماعاً طويلاً مع كياني أمضى فيه الجنرال الباكستاني نصف ساعة وهو يلف بدقة شديدة سيجارة بين أصابعه. ثم أطفأها بلطف بعدما أخذ منها مجّة واحدة.

---

(١) Syed Shoaib Hasan, "Rise of Pakistan's Quiet Man", *BBC News* (June 17, 2009).

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول سابق في الـ «سي. آي. إيه».

تولى الجنرال كياني جهاز الاستخبارات في زمن ازداد فيه اقتناع الزعماء الباكستانيين بأن الأميركيين فقدوا شهية القتال في أفغانستان. فقد حوّلت حرب العراق انتباه واشنطن عن أفغانستان واعتقد الجنود والجواسيس والسياسيون في إسلام آباد أنها مسألة وقت وحسب قبل أن يهدّد العنف المتصاعد في جارة باكستان الغربية الحكومة في إسلام آباد. وبحسب عدة مسؤولين باكستانيّين في مركز السّلطة في ذلك الوقت، فإن الاستخبارات الباكستانية قررت في تلك الفترة أداء دور أكثر نشاطاً مع الطالبان الأفغان أملاً منها في توجيه أفغانستان صوب مستقبل سياسي مقبول من إسلام آباد.

استهوى الماضي الجنرال كياني وأدرك أن تاريخ أفغانستان الدموي مقدّمة لحرب أميركا في تلك البلاد. وانكب طوال عقود على دراسة أفغانستان وأصبح خبيراً في الديناميات التي ساعدت المتمرّدين الأفغان على هزم واحدة من القوى العظمى في الثمانينيات. وكتب في ١٩٨٨، وهو لا يزال رائداً صغيراً في الجيش الباكستاني يدرس في «فورت ليفنوورث» في كنساس، أطروحة لنيل الماجستير عن الحرب السّوفياتية في أفغانستان عنوانها «نقاط القوة والضّعف في حركة المقاومة الأفغانية». واحتمل الاتحاد السّوفياتي عند ذلك الحد ما يقارب العقد من الحرب في أفغانستان، وقد شرع رئيس الوزراء السّوفياتي ميخائيل غورباتشيف في سحب جنوده. وتفحّص كياني على امتداد ثمانٍ وتسعين صفحة من النثر الصّريح كيف أن حركة المقاومة الأفغانية استنزفت الجيش السّوفياتي الصلف وضاعفت في «ثمن الوجود السوفياتي في أفغانستان»(١).

وضع كياني، في الجوهر، كتيب التعليمات المتعلّق بكيفية تمكن باكستان من الإمساك بالخيوط في أفغانستان في خلال الاحتلال الذي يقوم به جيش أجنبي. وكتب أنه يمكن باكستان استخدام ميليشيا وكيلة لتعيث فساداً في البلاد، ولكن أيضاً السّيطرة بفاعلية على هذه المجموعات، بحيث تتفادى إسلام آباد المواجهة المباشرة مع قوة الاحتلال.

وحاجّ كياني بأنه من الضّروري، في بلد من دون هوّية قومية، أن تبني المقاومة

(١) Major Ashfaq Parvez Kayani, "Strengths and Weaknesses of the Afghan Resistance Movement". Thesis paper for Kayani's Masters of Military Art and Science at the Command and General Staff, Fort Leavenworth, 1988.

الأفغانية الدعم لها في المنظومة القبلية، وأن تعمل تدريجاً على إضعاف الحكومة المركزية الأفغانية. أما بالنسبة إلى باكستان فيعتقد كياني أنه من المرجّح أن إسلام آباد لم ترد أن تصبح على «مسار تصادمي» مع الاتحاد السّوفياتي، أو أقلّه لم ترد للمقاومة الأفغانية أن تضعها على هذا المسار. ومن الضّروري تالياً الاستمرار في «ترويض» قوة المقاومة الأفغانية من أجل أمن باكستان.

عرف كياني، في الوقت الذي تولى الاستخبارات، أن الحرب الأفغانية لن يقرّرها الجنود في المعاقل الجبلية، بل السياسيون في واشنطن الذين لديهم حساسية حادة حيال قدرة الاحتمال الأميركية المحدودة سنوات أخرى من النزاع الدامي.[1] وهو يعرف ذلك لأنه درس ما قد جرى للسّوفيات. وكتب في أطروحته أن الملمح الأكثر لفتاً للنظر في الجهد العسكري السّوفياتي الراهن هو الدليل المتزايد على أنه ليس مُصمِّماً لضمان حل عسكري محض من خلال هزيمة حاسمة لحركة المقاومة الأفغانية.

«بل من المرجح أن يعود ذلك إلى الإدراك بأنه لا يمكن الحصول على مثل هذا الحل العسكري من دون أن يستتبع خسائر ضخمة، وربما مفرطة، في العناصر وفي الكلفة الاقتصادية والسياسية».

قبعت أطروحة كياني، في ٢٠٠٤، في مكتبة «فورت ليفنوورث»، بين أكوام الأبحاث المهملة الأخرى التي وضعها ضباط أجانب جاؤوا إلى كنساس ليدرسوا كيفية خوض جيش الولايات المتّحدة معاركه. وهذا كان كتيّباً لمعركة من نوع مختلف، حملة حرب عصابات سرّية. وبعد عقدين على قيام الضابط الباكستاني الصغير بكتابتها أصبح سيد جواسيس البلاد وفي الموقع المثالي لوضعها موضع التنفيذ.

(١) المقطع الأخير من أطروحة كياني، وهو قسم عنوانه «التسوية السياسية»، منير بنوع خاص إذا فكر المرء في استبدال «السوفيات» بـ«الأميركيين» و«موسكو» بـ«واشنطن»: «من غير المرجح أن يرغب السوفيات في التفاوض في شأن أفغانستان نفسها، لكن يمكن لوجودهم فيها أن يشكل ورقة مساومة أو نقطة رفع للمساومة على تنازلات في مجالات أخرى ما كجزء من صفقة كاملة. وفي حال حدوث ذلك تبقى المشكلة المركزية بالنسبة إلى موسكو هي عدم قدرة النظام الأفغاني على البقاء في غياب الجنود السوفيات. ومن المنطق أن يساوم السوفيات على تنازلات تضمن استمرار نفوذهم في الحكومة الأفغانية. وأكثر ما يمكن توقع أن يستوعبوه هو أن تتشارك حركة المقاومة الأفغانية في السلطة مع حكومة كابول لكن بوصفها الشريك الأضعف».

٧: التقاطع

«إمكان الإنكار متأصل فيها ويجب أن يشكّل علاوة كبرى».

- إنريكي برادو

بعد ظهر يوم بارد من مطلع ٢٠٠٥، حضر مدير الـ«سي. آي. إيه» بورتر غوس حفلة تخريج دورة من ضباط الحالة في «المزرعة»، قاعدة التدريب التابعة للوكالة في «كامب بيري»، في جنوب فرجينيا. وبات قيام مدراء الـ«سي. آي. إيه» بالرحلة جنوباً إلى القاعدة لحضور حفلات التخرج من الشّعائر النموذجية، وتشكل الاحتفالات فترةً وجيزةً من الوضع الطبيعي للمتخرّجين قبل أن يبدأوا حياة من الهويّات السرّية والخداع وأحياناً أقصى الخطر. لكن الاحتفال اختُصر بعدما جاء أحد مساعدي غوس برسالة عاجلة. وفي غضون دقائق عاود مدير الـ«سي. آي. إيه» وحراسه الشخصيون الصّعود إلى طائرة الهليكوبتر الـ«بلاك هوك»، والطيران شمالاً. لكن غوس لم يعد إلى لانغلي بل طار مباشرةً إلى البنتاغون للاجتماع بدونالد رامسفلد. فهناك هجوم عسكري وشيك على باكستان[١].

سلّم عميل باكستاني يعمل للـ«سي. آي. إيه» معلومة نادرة إلى الجواسيس الأميركيين: يُعقد اجتماع رفيع المستوى لمسؤولي القاعدة في «بوجور»، وهي واحدة من المناطق القبلية البائسة في شمال غربي باكستان. فالعميل تعقّب أبا الفرج الليبي، المسؤول الثالث الأعلى رتبة في القاعدة، الذي شوهد من وقت إلى آخر يجول راكباً

(١) وصَفَ أربعة ضباط سابقين في الـ«سي. آي. إيه» الأحداث المحيطة باجتماع القاعدة وبالتخطيط لعملية عسكرية في باكستان.

درّاجة حمراء حول قرى باكستان الجبلية[1]. وأبلغ العميل مشغليه في الـ «سي. آي. إيه» أن اللقاء لن يقتصر على الليبي وحده وإنما قد يحضره أيمن الظواهري، نائب أسامة بن لادن.

وُضعت على عجل خطة للهجوم، وتمعّن غوس ورامسفلد في المخاطر. فستقفز ثلاث دزينات من القوات البحرية الخاصة بالمظلات من طائرة شحن «سي-١٣٠» في منطقة هبوط غير بعيدة عن المكان المفترض للاجتماع. وسيهاجم رجال القوات الخاصة المجمع ويمسكون بمن أمكن من الناس ويأخذونهم إلى منطقة انطلاق العملية حيث يُسحبون بالهليكوبتر من فوق الحدود الأفغانية. وألحّ غوس على أن يقوم الجيش بالمهمّة وسانده في ذلك الفريق في الجيش ستانلي ماك كريستال وهو متقشّف رفيع العود وحاد تولى في ٢٠٠٣ القيادة المشتركة للعمليات الخاصة.

لكن رامسفلد وكبير مساعديه لشؤون الاستخبارات، ستيفن كامبون، قاوما الخطة، واعتبراها كثيرة المخاطر. وطالب رامسفلد بإضافة دزينات أخرى من جوّالي الجيش إلى المهمّة ليتمكنوا من ضمان نجاة القوات الخاصة البحرية في حال وقوع أي مكروه. وتضخّمت القوة الغازية إلى ما يزيد على ١٥٠ جندياً، وقرّر رامسفلد أنه لا مجال لأن تبقى عملية بذلك الحجم خفيةً على الرئيس برويز مشرّف. وجاء اعتراض آخر من رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد الذي أوقظ في منتصف الليل وأُبلغ أنّ مجموعةً كبيرةً من الأميركيّين المدجّجين بالسلاح على وشك الدخول إلى البلاد. وقال رئيس المحطة لماك كريستال الذي تولى الاتصال به «إنها حقاً لفكرة سيئة. قد تقتلون زوجاً من عناصر القاعدة، لكن الأمر لا يستحق ذلك. فأنتم تغزون أفغانستان»[2].

في غضون ذلك، جلس رجال القوات الخاصة البحرية داخل الـ «سي - ١٣٠» في قاعدة باغرام الجوية في انتظار الأوامر الأخيرة للانطلاق في المهمة. وانتظروا ساعاتٍ قبل أن تُلغى المهمّة في النهاية.

تعلّقت مخاوف رامسفلد في شأن الهجوم إلى حد كبير بالاستخبارات. فالمعلومة

(١) Peter L. Bergen, *Manhunt: The Ten-Year Search for Bin Laden—from 9/11 to Abbottabad* (New York: Crown, 2012): 160.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع رئيس سابق لمحطة الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد.

جاءت من مصدر واحد للـ «سي. آي. إيه»، واعتقد وزير الدفاع أن خيطاً واحداً من المعلومات يشكّل أساساً مهتزّاً لمهمّة عالية المخاطر في جبال باكستان المثلجة. كما أنه لم يثق بسجل الـ «سي. آي. إيه» الحافل. ووجدت أيضاً وكالة التجسس في مطلع ٢٠٠٥ صعوبةً في إقناع أي كان – وخصوصاً رامسفلد – بصدقية تحليلها الاستخباري. فلا تزال وكالات التجسس الأميركية تترنّح تحت وقع الفشل في حرب العراق عندما قدّرت أن صدّام حسين يحتفظ بمخزون من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، وخيّمت، بعد ذلك بسنوات، سحابة من الشّك في كل تقويمات الـ «سي. آي. إيه». وبلغ غوس درجة كبيرة من الإحباط من الطريقة التي انتهت فيها النقاشات المتعلقة بعملية باجور، لكن لم تعد بيده حيلة. فرامسفلد لم يثق حتى بتقدير الـ «سي. آي. إيه» بأن هناك احتمالاً بنسبة ٨٠ بالمئة بوجود الظواهري في الاجتماع، ورامسفلد هو المسؤول عن الجنود. وقد وصف أحد مساعدي غوس الأمر بأنه «أشبه بوالدك يبلغك بأنك لا تستطيع الحصول على السّيارة في عطلة نهاية الأسبوع».

لكن الواقعة شكّلت، بما هو أبعد من التساؤلات عن صدقية الاستخبارات، تذكيراً كئيباً بأن الحرب على الإرهاب الدولي بقيت، بعد سنوات على هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، اتفاقية وفوضوية. ولم يمتلك أي من الـ «سي. آي. إيه» أو البنتاغون خطة متماسكة للحروب السّرية خارج العراق وأفغانستان. فلا تزال الوكالتان غارقتين في معارك على النفوذ، وتعمل كل منهما على إقناع البيت الأبيض بأنها من يجب أن يتولى مسؤولية المطاردة العالمية. وشرعتا في تقليد إحداهما الأخرى في شكل مطرد: فأخذت الـ «سي. آي. إيه» تصبح بعد قتل نك محمد في باكستان تنظيماً شبه عسكري أكثر فتكاً، وشرع البنتاغون في تكثيف عملياته التجسسية دعماً لحرب العمليات الخاصة. وغابت أي قواعد أساسية. كما انتفت أي خطة للتحرّك في حال حدوث طارئ على غرار اجتماع القاعدة في باجور.

وإذا وُجد ما حفّز الـ «سي. آي. إيه» على تصعيد عملياتها الفتّاكة، فهو إنجاز التقرير الداخلي المدمّر للمفتّش العام لوكالة التجسس في أيار/مايو ٢٠٠٤. فقد نسف التقرير المؤلف من ١٠٦ صفحات ووضعه جون هلغرسون الأساس الذي قام عليه برنامج الوكالة القاضي بالاحتجاز والتحقيق، وأثار الأسئلة المتعلقة باحتمال أن يُلاحق ضباط في

الـ «سي. آي. إيه» قضائياً على التحقيقات الوحشية، التي مورست داخل شبكة السّجون السّرية التابعة للوكالة. وأوحى أن أساليب التحقيق مثل محاكاة الغرق والحرمان من النوم واستغلال رهاب السّجناء – مثل احتجازهم في صندوق صغير مع حشرات حيّة – تنتهك ميثاق الأمم المتّحدة المناهض للتعذيب الذي يحظر «المعاملة أو العقاب القاسي وغير الإنساني أو المُذِل». وقد أخضعت الـ «سي. آي. إيه» عدة سجناء إلى محاكاة الغرق – حيث يُقنّع السجين ويُثبّت على لوح خشبي فيما يُسكب الماء على وجهه بما يخلق شعوراً بالغرق – وقد استخدمت هذه التقنية ١٨٣ مرة في شهر واحد على خالد شيخ محمد المخطط الرئيس لهجمات ١١ أيلول/سبتمبر[١].

شكّلت محاكاة الغرق واحدة من عدد من تقنيات التّحقيق التي أجازتها وزارة العدل، لكن تقرير هلغرسون فصّل أيضاً نمطاً من الأعمال الحُرّة في المواقع المخزية في ما وصفه المفتش العام بتقنيات الاحتجاز والتحقيق «المحرّمة والمرتجلة وغير الإنسانية وغير الموثّقة»[٢]. وهناك حالات لمحقّقين يقومون بعمليات إعدام وهميّة لإخافة المعتقلين ودفعهم إلى الكلام؛ وصوّب أحد محقّقي الـ «سي. آي. إيه» مثقباً كهربائياً يعمل إلى رأس أحد السّجناء.

وتطوّر برنامج السّجون السّرية التابعة للـ «سي. آي. إيه» من منشأة متقشّفة وحيدة في بانكوك، تايلاندا، إلى أرخبيل من السّجون حول العالم. أراد رئيس مركز مكافحة الإرهاب، خوسيه رودريغيز، للسجون أن تصبح بديلاً أكثر ديمومة لموقع تايلاندا الذي أُعطي في الأساس الاسم الرمزي «عين الهرّ» وأعيدت تسميته لاحقاً عندما اعتقد ضباط في الـ «سي. آي. إيه» أن التسمية بدت عديمة الحس عرقيّاً. وتايلاندا هي المكان الذي احتجزت فيه الـ «سي. آي. إيه» سجينيها الأولين، أبا زبيدة وعبد الرحيم الناشري، لكن مع شروع الـ «سي. آي. إيه» وأجهزة الاستخبارات الشريكة لها في سوق عشرات السّجناء في أفغانستان وباكستان وغيرهما من البلدان، قرر رودريغيز وضباط مركز مكافحة الإرهاب أن وكالة التجسس تحتاج إلى مساحة سجن أكبر.

(١) مذكّرة إلى جون ريزّو من ستيفن برادبوري، ٣٠ أيار/مايو، ٢٠٠٥.

(٢) CIA Inspector General, "Special Review: Counterterrorism Detention and Interrogation Activities (September 2001–October 2003)", May 7, 2004, 102.

وسيصبح برنامج الـ «سي. آي. إيه» القاضي بالاحتجاز والتحقيق المظهر الأشهر والأكثر إثارةً للانقسام لاستراتيجية إدارة بوش ضد القاعدة، لكنّ الطريقة التي أقامت فيها الـ «سي. آي. إيه» السّجون السرّية تميّزت إلى حد ما بالرتابة. أمر رودريغيز فريقاً من مركز مكافحة الإرهاب بالعمل مع مهندسين ومتعهدين من الخارج، وعندما شارفت السّجون الانتهاء استخدمت الـ «سي. آي. إيه» شركة تجهيز صغيرة لتوفير المراحيض وتجهيزات السّمكرة وسدادات الأذن وأغطية الأسرّة وغير ذلك من تجهيزات السّجن. واشترى المتعهدون بعضاً من المعدات من «تراغت» و«ولمارت» وأرسلوها جواً إلى السّجون: ويقع أحدها في مبنى عادي في شارع مزدحم في بوخارست، رومانيا، وآخر في ليتوانيا. واشتُريت ألواح محاكاة الغرق محليّاً وصُنعت من الخشب، الذي تم شراؤه على مقربة من بعض المواقع السرّية[1].

كانت السّجون صغيرة – مخصصة لإيواء نحو نصف دزينة من المعتقلين – واحتوت الزنزانات على بعض المزايا المصمّمة خصوصاً لتتناسب مع الوسائل الوحشية لمحقّقي الـ «سي. آي. إيه» مثل الجدران المغطاة بالخشب المضغوط المرن للتخفيف من وقع صدم أحدهم بالجدار. وحُرم المعتقلون من الاتصال بعضهم ببعض ووُضعوا في الزنزانات الإفرادية على مدى ثلاث وعشرين ساعة في اليوم. أما الساعة المتبقيّة فمخصَّصة للتمرين عندما يُخرج ضباط الأمن في الـ «سي. آي. إيه» الذين يضعون أقنعة تزلج على وجوههم السّجناء من زنزاناتهم. وفرض آمرو سجون الـ «سي. آي. إيه» بحلول ٢٠٠٤ نظام الثواب والعقاب. ويحصل السّجناء الذين يُعتبر سلوكهم جيداً على الكتب والأسطوانات المدمجة. وتُسحب وسيلة التسلية من السجين الذي يسيء التصرف[2]. وهكذا تحوّلت الـ «سي. آي. إيه»، التي أنشئت بعد الحرب العالمية الثانية لإخبار الرؤساء الأميركيين عن العالم من حولهم، إلى وزارة الإصلاحيات السرّية.

أخذت المخاوف في شأن برنامج الـ «سي. آي. إيه» للاستجواب ترشح من بعض أجزاء إدارة بوش قبل حتى تقرير هلغرسون، بيد أن حلقةً صغيرةً من المسؤولين علمت

(١) David Johnston and Mark Mazzetti, "A Window into CIA's Embrace of Secret Jails", *The New York Times* (August 12, 2009).

(٢) المصدر نفسه.

في شأن السّجون السّرية. وأدى ذلك في بعض الأحيان إلى نقاشات غريبة بين البيت الأبيض والـ «سي. آي. إيه». ففي حزيران/يونيو ٢٠٠٣، على سبيل المثال، استعد البيت الأبيض للاحتفال باليوم الذي كرسته الأمم المتّحدة لمساندة ضحايا التعذيب. وأعد المكتب الصّحافي في البيت الأبيض بياناً تافهاً يشرح كيف أن الولايات المتّحدة «ملتزمة إلغاء التعذيب على مستوى العالم» وكيف أنها «تقود هذا القتال بالقدوة».

لكن الواقع هو أن الولايات المتّحدة لم تقد بالقدوة، وأثارت مسوّدة البيان أعصاب بعض كبار ضباط الـ «سي. آي. إيه». وأبلغ كبير محامي الوكالة، سكوت مولر، البيت الأبيض أنه قلق في شأن البيان الصّحافي نظراً إلى أن نوع وسائل التحقيق التي أجازها الرئيس بوش للـ «سي. آي. إيه» تُعتبر على نطاق واسع تعذيباً. وقال مولر إن ما يقلق لانغلي هو أن الـ «سي. آي. إيه» قد تتحول إلى كبش محرقة مع تغيّر الرياح السّياسية[1]. ولم يُنشر البيان الصحافي البتة.

ألمح تقرير هلغرسون إلى بعض الارتياع داخل الـ «سي. آي. إيه». وأعلن أن عدة ضباط منخرطين في برنامج الاعتقال قلقوا من أنهم «عرضة للملاحقة القانونية في الولايات المتّحدة أو في الخارج ومن أن الحكومة الأميركية لن تقف وراءهم»[2]. وسبق للبيت الأبيض ووزارة العدل أن باركا البرنامج، ومارس جورج تينيت اللوبي لتتولى الـ «سي. آي. إيه» السّجناء، لكن تأكد لبعض قدامى المعاونين في لانغلي الشّعور بأنهم شاهدوا هذا الفيلم من قبل: في خلال تحقيقات لجنة تشيرتش وفي فضيحة إيران - الكونترا. واعتقدوا أن يوم الحساب سيأتي ويستخدم البيت الأبيض تقرير المفتّش العام أنشوطة لشنق الـ «سي. آي. إيه». وستبقى السّجون مفتوحةً لبضع سنوات أخرى، وقد تم من وقت إلى آخر اعتقال موقوفين جدد أخذوا إلى المواقع السّرية لكن الوكالة ستتوقف في النهاية عن استخدام محاكاة الغرق وبعض من تقنيات التحقيق الأقسى الأخرى. وشرع كبار المسؤولين في لانغلي في البحث عن سبل لنقل المساجين إلى البنتاغون. أما الذين تعذّر نقلهم فسيتعفنون في السّجون السرّية فيما تبحث إدارة بوش في شكل محموم عن نهاية لبرنامج السّجون.

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول كبير في إدارة بوش.

(٢) CIA Inspector General, "Special Review: Counterterrorism Detention and Interrogation Activities (September 2001-October 2003)", 101.

قد تجلى الشّعور بالوقع الأكبر لتقرير هلغرسون داخل مركز مكافحة الإرهاب التابع للـ «سي. آي. إيه» الذي سار في طليعة المطاردة العالمية للإرهاب التي شنّتها وكالة التجسس. وركّز مركز مكافحة الإرهاب على أسر ناشطي القاعدة والتحقيق معهم إما في سجون الـ «سي. آي. إيه» وإما بتلزيم التحقيقات لأجهزة الاستخبارات في باكستان ومصر والأردن وغيرها على أن تستخدم من ثم ثمار التحقيق لمطاردة المزيد من المتّهمين بالإرهاب. ويمضي نمط التفكير هذا في اعتبار أن هذه الاستراتيجية ستقود الوكالة يوماً ما إلى أسامة بن لادن.

وها إن الأمور قد تغيّرت واضطر المسؤولون عن مكافحة الإرهاب إلى إعادة النظر في استراتيجية الحرب السّرية. وقدّمت الطائرات المسلحة التي تطير بلا طيّار، وهدفها القتل في شكل عام، توجهاً جديداً لوكالة التجسس التي أخذت تشعر بأنها تحترق بنار سنوات من أعمال الاحتجاز والتحقيق. وشكّل القتل بجهاز التحكّم من بعد نقيض عمل التحقيق الوسخ والحميم. وبدا نوعاً ما أكثر نظافةً وأقل حميمية. وهلل الجمهوريون والديمقراطيون على السواء للقتل المقصود، كما إن تشغيل الطائرات التي تطير بلا طيار من طيارين متمركزين على بعد آلاف الأميال من الحرب جعلت الاستراتيجية كلها تبدو وكأنها خالية من المخاطر. وشرعت الـ «سي. آي. إيه» في رؤية مستقبلها بعد قتل نك محمد في باكستان – الذي نُفذ بعد شهر واحد تماماً على إنجاز تقرير جون هلغرسون –: ليس بوصفها السّجان الطويل الأمد لأعداء أميركا بل كتنظيم عسكري يمكنه محوهم من الوجود.

بل إن خوسيه رودريغيز حاول، في ٢٠٠٤، إحياء برنامج قتلٍ سبق أن اقتُرح، ثم تم التخلي عنه، في خلال السّنة الأولى على هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. وهو كناية عن خطة قضت بجمع فرق إعدام لقتل المشتبه بأنهم إرهابيون في أنحاء الأرض، من أوروبا إلى الشّرق الأوسط إلى جنوب آسيا. وسبق لنائب الرئيس ديك تشيني أن أعطى موافقته على البرنامج عندما طرح رودريغيز وزميله الضابط في مركز مكافحة الإرهاب إنريكي برادو الخطة على البيت الأبيض في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١. وليس لدى الـ «سي. آي. إيه»، بعكس ما يشاهده الناس في الأفلام، كادر داخلي من القتلة، وكان من شأن

البرنامج أن يقرّب الوكالة أكثر من نسختها الهوليوودية السّاحرة. إلا أن جورج تينيت لم يأذن قط بأي مهمّات ووُضعت الخطط موقتاً على الرف[1].

وبرادو، على غرار رودريغيز، من قدامى قسم أميركا اللاتينية في الـ «سي. آي. إيه» وقد أدى في الثمانينيات دوراً رائداً في حرب الكونترا في نيكاراغوا[2]. وانتقل في ١٩٩٦ إلى مركز مكافحة الإرهاب، وأصبح في الأشهر التي تلت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر نوعاً من المرشد لرودريغيز في ما يتعلّق بطرائق عمل القاعدة. وكُلِّف برادو، بعد اجتماع كانون الأول/ديسمبر مع تشيني، تجنيد ضباط في الـ «سي. آي. إيه» للتدرب على مهمّات القتل.

عندما قرر رودريغيز في ٢٠٠٤ استئناف البرنامج، كان برادو قد غادر الـ «سي. آي. إيه» إلى «بلاكووتر يو. أس. إي»، وهي الشّركة العسكرية الخاصة التي باتت في عزّ توسعها الكبير بمساعدة عقود بملايين الدولارات من وزارة الخارجية والبنتاغون والـ «سي. آي. إيه». وتوصّل رودريغيز تالياً إلى حلّ مذهل: قرر تلزيم برنامج القتل لموظفي «بلاكووتر».

بات مؤسس الشّركة، إريك برانس، بالفعل الابن المفضّل لإدارة بوش وسعى إلى الحفر عميقاً في المؤسسة السّرية الأميركية. ووصل برانس إلى الساحة في التوقيت الممتاز. لم تستطع الـ «سي. آي. إيه» العثور على ما يكفي من عناصرها لتلبية حاجات محطاتها الخفية الكبرى في كابول وبغداد، ولجأت وكالة التجسس إلى حراس «بلاكووتر» الخاصين للقيام بمهمّات سرّية – من حماية ضباط الـ «سي. آي. إيه» إلى جمع المعلومات وإلى عمليات الخطف والاستيلاء – خُصّصت في السابق لموظفي الـ «سي. آي. إيه» ممن تلقوا تدريباً كاملاً. بل إن الـ «سي. آي. إيه» استخدمت في مآل الأمر «بلاكووتر» لتلقيم القنابل والصواريخ على طائرات الـ «بريداتور» و «ريبر» التي تطير بلا طيار في باكستان.

ودعا برانس، في صورة منتظمة، كبار ضباط الـ «سي. آي. إيه» إلى سباق الخيل

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع ضابطين متقاعدين من الـ «سي. آي. إيه».

(٢) Henry A. Crumpton, *The Art of Intelligence: Lessons from a Life in the CIA's Clandestine Service* (New York: Penguin, 2012): 173.

في كنتاكي أو جنوباً إلى مقر «بلاكووتر» في «غريت ديسمال سوامب» شرق كارولينا الشمالية ليوم من إطلاق النار في قاعة التدريب الفسيحة التابعة للشركة. ونجح في اصطياد كبار مسؤولي الـ «سي. آي. إيه»، بمن فيهم برادو وكوفر بلاك الرئيس السابق لمركز مكافحة الإرهاب، بعدما عرض عليهم رواتب كبيرة. وسنحت الفرصة لبرادو، الذي بات يعمل في «بلاكووتر»، لإعادة بيع برامج للحكومة طوّرها في الأساس وهو في الـ «سي. آي. إيه»[1].

لم يعتبر برانس تلزيم الحرب بالشيء الجديد، بل مجرد تطوّر لظاهرة عمرها قرون. وأخبر، في إحدى زياراته إلى لانغلي، كبار ضباط الـ «سي. آي. إيه» عن «قوة الردّ السريع» التابعة لـ «بلاكووتر»، وهي كادر من العملاء يمكن الـ «سي. آي. إيه» استخدامه لتنفيذ مهمّات شبه عسكرية في أقاصي الأرض. وبدأ عرضه بإعلان كاسح. قال: «من أول أيام الجمهورية الأميركية، اعتمدت الأمة في دفاعها على المرتزقة»[2]. ورفض مسؤولو الـ «سي. آي. إيه» الخطة في النهاية.

أما شهرة «بلاكووتر» بالسّلوك المتهور وقد ترسخت في الحادثة التي وقعت في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧ وقتل فيها عناصر «بلاكووتر» ١٧ عراقياً عند إحدى شارات التوقف في بغداد، فستحوّل في مآل الأمر برانس وشركته إلى رمزين لمصائب أميركا في العراق. وقد تحسّر برانس على تصوير الديمقراطيين في الكونغرس له بالإثراء من الحرب بالرغم من قوله: «إنني أدفع من جيبي الخاص لقاء كل أنواع النشاطات الاستخبارية لدعم الأمن القومي الأميركي»[3]. وهذا صحيح، لكن المال الذي أنفقته «بلاكووتر» على مشاريع سرّية أشبه بتمويل البحث والتطوير المستخدم لطرح منتجات وخدمات يمكن بيعها للحكومة بملايين الدولارات. وأسرّ إلى ضباط حالة في الـ «سي. آي. إيه» في باكستان بأفكار عن طائرات شبح، وإلى العاملين في آسيا بخطة عن تهريب مخبرين للـ «سي. آي. إيه» من الصين بجعلهم يسبحون تحت الماء مستخدمين أجهزة إعادة

(١) تأتي تفاصيل دور «بلاكووتر» في برنامج الاغتيالات من ثلاثة مسؤولين سابقين في الـ «سي. آي. إيه». راجع أيضاً: Adam Ciralsky, "Tycoon, Contractor, Soldier, Spy", *Vanity Fair* (January 2010).

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤولين كبيرين سابقين في الـ «سي. آي. إيه».

(٣) Ciralsky، مصدر سابق.

تدوير التنفس، التي تستخدمها القوات البحرية الخاصة إلى حين وصولهم إلى المركبة الغاطسة تحت الماء. إلا أن هذه الخطة احتوت على مشكلة: فمعظم مخبري الـ «سي. آي. إيه» في الصّين جنرالات في الثمانين من العمر ما أمكنهم قط النجاة من السباحة تحت الماء مستخدمين أجهزة إعادة تدوير التنفس.

استشرس الضباط السابقون في الـ «سي. آي. إيه» الذين التحقوا بـ «بلاكووتر» في محاولاتهم توسيع أعمال الشّركة مع وكالة التجسس. واضطر، أقله في مناسبة واحدة، كبير محامي الـ «سي. آي. إيه» إلى الاتصال بالشّركة لتحذيرها من أن الجواسيس السابقين على وشك انتهاك قوانين «الأبواب الدوّارة» التي تمنع الموظفين الحكوميين المتعاقدين من ممارسة اللوبي على وكالاتهم السابقة[1]. وفكّر برادو، بما هو أبعد من عمل «بلاكووتر» للـ «سي. آي. إيه»، في إقناع إدارة مكافحة المخدرات بخطة تقضي باستخدام شبكة من الجواسيس الأجانب أقامتها «بلاكووتر» ويمكنها، بحسب بريد إلكتروني داخلي في «بلاكووتر»، «القيام بأي شيء، من المراقبة إلى تقصّي حقيقة الواقع على الأرض إلى أعمال الشّغب». وكتب أن «إمكان الإنكار متأصل فيها ويجب أن يشكّل علاوة كبرى»[2].

وقادت الرغبة في «إمكان الإنكار» خوسيه رودريغيز إلى اتخاذ الخطوة الاستثنائية المتمثلة بتلزيم برنامج الـ «سي. آي. إيه» الفتاك إلى شركة أميركية. ووقّعت الـ «سي. آي. إيه» عقداً بخدمات شخصية مع برانس وبرادو، وشرع الرجلان في وضع الخطط للقيام بعمليات مراقبة أهداف محتملة، بمن فيها بعض من الأشخاص أنفسهم – مثل العالم الذرّي الباكستاني أ. ك. خان – الذين اقترحت الـ «سي. آي. إيه» أولاً قتلهم في خلال الاجتماع مع تشيني في ٢٠٠١[3]. وسيشرف برانس وبرادو على البرنامج الذي ستكون فيه يد الولايات المتّحدة خفية نظرياً. وتصوروا أن الـ «سي. آي. إيه» هي التي ستسيطر في مآل الأمر على فرق القتل التابعة لـ «بلاكووتر» لكن ما إن تعطى هذه

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤولين كبيرين سابقين في الـ «سي. آي. إيه».

(٢) رسالة إلكترونية من إنريكي برادو مؤرّخة في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧ ونُشرت في خلال التحقيق الذي أجرته لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ.

(٣) Ciralsky، مصدر سابق.

الفرق مهمّاتها حتى تمتلك درجة كبرى من الاستقلالية. وقال برانس لاحقاً في مقابلة مع «فانيتي فير»: «أخذنا نبني قدرة أحادية لا يمكن نسبها إلى أحد. ولا نتوقّع في حال ساءت الأمور أن ينقذنا رئيس المحطة أو السّفير أو أي أحد آخر»[1].

وتبيّن أنهم لم يحتاجوا قط إلى من ينقذهم. فعلى غرار حلقة برنامج الاغتيال الأول لم يتم تنفيذ أي عمليات اغتيال في هذه المرحلة من برنامج فريق القتلة. وأشرف برانس وبرادو على تدريب فرق بلاكووتر، لكن برانس يلقي باللوم على «ترقق العظام المؤسسية» في عدم إرسال سفّاحي «بلاكووتر» مطلقاً لقتل الإرهابيّين.

ولم لا، إذا اعتبرنا الدعم الذي حازه البرنامج من كبار الإداريين أمثال رودريغيز؟ والمدهش أن السبب لا يعود إلى المخاوف القانونية إن في الـ «سي. آي. إيه» أو في البيت الأبيض. فقد أعطى محامو الـ «سي. آي. إيه» موافقتهم على إشراك برانس وبرادو في عملية القتل، إلا أن مسؤولين كباراً في الـ «سي. آي. إيه» لم يقتنعوا في النهاية بأن في وسع الوكالة إبقاء دورها في البرنامج خفياً. فقد طوّرت «بلاكووتر» شبكةً من الشّركات الرديفة لإخفاء عملها للـ «سي. آي. إيه»، لكن من المرجّح أنه لن يصعب على الحكومات الأجنبية فك عقدة الشّبكة وتقفّي آثار العمليات المؤديّة إلى برانس، وفي مآل الأمر إلى الـ «سي. آي. إيه».

«كلما لزِمتَ عملية ما، أصبحت أكثر قابليةً للإنكار»، صرّح ضابط كبير في الـ «سي. آي. إيه» على علاقة بقرار إنهاء دور «بلاكووتر» في برنامج الاغتيال. «لكنك تتخلى أيضاً عن سيطرتك على العملية. وإذا أخفق الفتيان سيبقى الخطأ خطأك».

تبقى مرحلة «بلاكووتر» السيئة التصوّر في برنامج القتل – على غرار الحلقة الأولى من البرنامج – سرّاً حكومياً أميركياً خاضعاً للحراسة المشدّدة. وقد حُظر على الضابط السّابق في مركز مكافحة الإرهاب هانك كرامبتون، حتى في تقاعده، الإدلاء بتفاصيل عن الزمن الذي عمل فيه في المرحلة الأولى من البرنامج. لكنه قال في مقابلة إنه متحيّر لأنه يبدو أن الولايات المتّحدة لا تزال تميّز بين قتل الناس من مسافة بعيدة باستخدام طائرة مسلحة تطير بلا طيار وبين تدريب أشخاص على تنفيذ القتل بأنفسهم.

---

(١) Ciralsky، مصدر سابق.

وقال، إذا كانت البلاد ستسمح للـ «سي. آي. إيه» بالقيام بالواحد فهل يجب أن تتقزّز فعلاً من السّماح بالآخر؟ وأضاف، «كيف نمارس القوة القاتلة وأين نمارس القوة القاتلة – ذلك نقاش ضخم لم نجره فعلاً. يبدو أنه لا توجد مشكلة في إطلاق «هلفاير» على عدو محدّد في مكان مثل أفغانستان أو المناطق القبلية في باكستان أو الصّومال أو اليمن». وقال إن الأمر يبدو في هذه الأماكن وكأنه مجرد جزء آخر من الحرب.

وسأل، لكن ماذا لو أن من يُشتبه في أنه إرهابي موجود في مكان مثل باريس أو هامبورغ أو في مكان آخر لا يمكن فيه تحليق الطائرات التي تطير بلا طيار، وتستخدم عميلاً للـ «سي. آي. إيه» أو للجيش على الأرض لإطلاق النار على مؤخّرة رأسه؟

«عندئذٍ»، قال، «يُنظر إلى الأمر بوصفه اغتيالاً».

يبقى أن كل ضربة تلقّتها الـ «سي. آي. إيه» على برنامجها المتعلق بالاحتجاز والتحقيق دفعت قادتها أكثر إلى طرف واحد من عملية حساب سقيمة هي: أن الوكالة ستصبح في حال أفضل جداً بقتل المشتبه في ضلوعهم في الإرهاب بدلاً من سجنهم. وأصدر الكونغرس في أواخر ٢٠٠٥ قانون معاملة المعتقلين الذي تضمّن بنداً يحظر المعاملة «الوحشية وغير الإنسانية والمهينة» لأي سجين في العهدة الأميركية بما في ذلك سجون الـ «سي. آي. إيه» السرّية. وبات هناك الآن احتمال في مقاضاة ضباط الخفاء العاملين في سجون الـ «سي. آي. إيه» على عملهم، وخيّم على لانغلي شبح التحقيقات الجنائية وجلسات الاستماع في الكونغرس.

دفعت هذه المخاوف بالفعل خوسيه رودريغيز إلى إصدار الأمر بإتلاف عشرات تسجيلات الفيديو التي توفّر تأريخاً بالدقيقة لمحنة عنصري القاعدة أبي زبيدة وعبد الرحيم الناشري في خلال التحقيقات التي أجرتها الـ «سي. آي. إيه» معهما. وخشي رودريغيز، الذي حصل على ترقية أخرى وتولّى الآن وظيفة رئاسة مديرية العمليات ذات الشأن – إدارة كل عمليات الـ «سي. آي. إيه» الخفية والتجسسية في العالم – من أن وجوه الضباط السرّيين تظهر بوضوح في الأشرطة. واعتقد، مع تسرّب التفاصيل السّامة لبرنامج السّجون، أن الضباط قد يواجهون خطراً قضائياً وجسدياً. وبعث في مطلع تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥ ببرقية سرّية إلى محطة الـ «سي. آي. إيه» في بانكوك حيث احتُفظ بالتسجيلات في إحدى الخزنات، وأمر بإطعامها لآلة إتلاف الورق ذات القدرة

الصّناعية. وشرعت سبع شفرات فولاذية في طحن الأشرطة وتحويلها إلى فتات دقيق شُفط من الآلة ورمي في الأكياس البلاستيكية للنفايات[١].

بيد أن الـ «سي. آي. إيه» واجهت، حتى بعد تدمير آثار الأيام الأولى لبرنامج السّجون، المزيد من عدم اليقين مع إمرار الكونغرس قانوناً جديداً. فبعد أيام على إصدار الكونغرس قانون معاملة السّجناء، كتب مدير الـ «سي. آي. إيه» بورتر غوس رسالة إلى البيت الأبيض، جاء فيها أن الوكالة ستوقف كل التحقيقات، إلى أن تتمكن وزارة العدل من إصدار حكم بشأن انتهاك تقنيات الـ «سي. آي. إيه» القانون الجديد.

ثارت ثائرة مسؤولي البيت الأبيض لدى تسلمهم الرسالة. واعتقد مستشار الأمن القومي ستيفن هادلي أن مذكرة غوس تظاهر محض – فالـ «سي. آي. إيه» تحاول حماية ظهرها في حالة التحقيقات المستقبلية[٢]. واتصل هادلي بمدير الـ «سي. آي. إيه» في منزله يوم عيد الميلاد واتهمه بأنه ليس «لاعباً في الفريق». لكن غوس لم يتزحزح، واتضح لمسؤولي البيت الأبيض أن كل هذا الإفراط في القلق لدى الـ «سي. آي. إيه»، المؤسسة الأكثر ارتياباً في واشنطن، لن يهدأ ما لم يُفعل شيء لطمأنة الجواسيس.

أنيطت المهمّة بأندرو كارد، كبير موظفي الرئيس بوش. توجه كارد إلى لانغلي وهو ينوي تهدئة مخاوف مقر قيادة الـ «سي. آي. إيه»، لكن زيارته شكّلت كارثة. شكر كارد، داخل قاعة اجتماعات مكتظة، ضباط الـ «سي. آي. إيه» المجتمعين على خدماتهم وعملهم الشّاق لكن رفض إعطاء أي تصريحات حازمة بأن ضباط الوكالة لن يصبحوا عُرْضةً للمحاكمة الجنائية على مشاركتهم في برنامج الاحتجاز والاستجواب[٣].

تململت القاعة. وقاطع بورتر غوس كارد بتحفيز من رئيس أركانه باتريك موراي.

وسأله، «أيمكنك التأكيد لهؤلاء الناس أن السياسيين لن يديروا ظهورهم إلى من نفّذوا هذا البرنامج؟» لم يجب كارد عن السؤال مباشرة، بل حاول بدلاً من ذلك إطلاق نكتة.

---

(١) Jose A. Rodriguez Jr., *Hard Measures: How Aggressive CIA Actions After 9/11 Saved Lives* (New York: Threshold Editions, 2012): 194.

(٢) تأتي تفاصيل الكلام بين هادلي وغوس من مسؤولَين سابقين في الـ «سي. آي. إيه» ومسؤول في البيت الأبيض في عهد إدارة بوش.

(٣) ثلاثة ضباط في الـ «سي. آي. إيه» حضروا اللقاء مع أندرو كارد وصفوا المشهد في قاعة الاجتماعات.

«دعوني أضع الأمر بهذه الطريقة»، قال. «فأنا أقرع في كل صباح باب المكتب البيضوي وأدخل وأقول، «عفوك سيدي الرئيس». والأكيد أن الشّخص الوحيد الذي لا يستطيع الرئيس العفو عنه هو نفسه».

قهقه كارد بعدما قال هذا، لكن نكتته وقعت في أذن صمّاء. فقد أوحى كبير موظفي البيت الابيض، عندما سُئل هل سيحمي الرئيس بوش ضباط الـ «سي. آي. إيه» من التحقيق القانوني، بأن أكثر ما يمكنهم الاعتماد عليه هو عفو رئاسي بعد صدور الاتهامات والأحكام.

والنكات المتعلّقة بالعفو لا تُهضم جيّداً في الـ «سي. آي. إيه».

شرع بعض مساعدي الرئيس بوش في النظر إلى الـ «سي. آي. إيه» باعتبارها مشكلة. فمدير الوكالة يخوض معركة مع البيت الأبيض في شأن برنامج الاحتجاز، وبات نائب الرئيس تشيني على اقتناع بأن محللي الـ «سي. آي. إيه» يعارضون في السّر حرب العراق ويسرّبون التقويمات السلبية عن الحرب إلى أعضاء في الكونغرس وفي الجسم الصّحافي. وبقدر ما حاول بوش وتشيني في الأساس مقاومة ضغط لجنة ٩/١١ لإنشاء منصب مدير الاستخبارات القومي للتحكم في أجهزة التجسس الأميركية الستة عشر، رأى بعضهم في البيت الأبيض منفعة إضافية في المنصب الجديد: وهو في أنه يعيد الـ «سي. آي. إيه» إلى حجمها الصحيح.

قدمت الـ «سي. آي. إيه» الضعيفة فرصة لدونالد رامسفلد. فالوضع المتفاقم في العراق أخمد بعضاً من الزهو بالانتصار لدى رامسفلد وفريقه، لكن وزير الدفاع واصل جهوده في خوض الحرب بعيداً من مناطق القتال المعلنة – في بلدان شكّلت تاريخياً مضمار الـ «سي. آي. إيه». وأصدر رامسفلد في ٢٠٠٤ توجيهاً سرّياً – عُرف داخلياً في البنتاغون باسم «أمر شبكة القاعدة التنفيذي» – وسع سلطات قوات العمليات الخاصة للقتل والأسر والتجسس في أكثر من دزينة من البلدان. ومنح الأمر القيادة المشتركة للعمليات الخاصة، الوحدة المتمركزة في «فورت براغ» التي اعتبرها رامسفلد الجيش النّموذجي الجديد لحقبة ما بعد ١١ أيلول/سبتمبر، سلطة واسعة لشن عمليات عبر قوس من الأراضي الممتدة من شمال إفريقيا وصولاً إلى الفليبين. وسمح لهم بالذهاب إلى سوريا والصّومال وباكستان. وأحيطت المهمة، بموجب السّلطات الجديدة، بالسّرية

الفائقة، وقلما تم الاعتراف بها في العلن، كما أنه لم يتم إطلاع أعضاء من الكونغرس عليها إلا في شكل غير منتظم.

أضحت القيادة المشتركة للقوات الخاصة الآن واحدة من أكثر النجوم سطوعاً في سماء وزارة الدفاع، وزادت ميزانية العمليات الخاصة أكثر من الضّعفين على مدى ست سنوات لتبلغ نحو ثمانية مليارات دولار في ٢٠٠٧ [١]. إلا أنها تبقى كسراً من ميزانيات البنتاغون المخصّصة لشراء السّفن والطائرات؛ غير أن منح الأموال للقيادة المشتركة للعمليات الخاصة لم يسمح بإنشاء المزيد من فصائل الجنود السريّين وحسب، بل أيضاً بصرف المال على الإمدادات واللوجستيات التي ستسمح لعناصر القوات الخاصة البحرية وقوة دلتا باحتمال عمليات خفية لأيام أو أسابيع على التوالي. ولم تعد القيادة المشتركة للقوات الخاصة قط قادرةً على عمليات لإنقاذ الرهائن بالكاد تستغرق ٢٤ ساعة، بل أصبحت كذلك قادرةً على شن حروب وحدها.

وأثبتت القيادة المشتركة للعمليات الخاصة هذا القدر في العراق. فقد عُهدت إلى قوة المهمّات الخاصة التابعة للجنرال ستانلي ماك كريستال بمهاجمة فرع القاعدة في البلاد وهو بقيادة الإرهابي الأردني أبي مصعب الزرقاوي. وأخذت الموجة تلو الموجة من العنف القاتل تجتاح البلاد وأعلن تنظيم القاعدة في بلاد ما بين النهرين التابع للزرقاوي المسؤولية عن الهجمات السّاحقة على قوافل الجنود الأميركيين والمواقع الشّيعية المقدسة. واتضح للقادة في الميدان، في غضون أشهر على بداية التمرد، أن الحرب ستستجلب طوال سنوات جنوداً أميركيين إلى البلاد، وأطلق رامسفلد وكبير مستشاريه لشؤون الاستخبارات ستيفن كامبون يد القيادة المشتركة للقوات الخاصة لمحاولة تعطيل ما أضحى الذراع الأشد فتكاً للتمرّد العراقي.

أصبح شعار قوة المهام الخاصة، المتمركزة في حظيرة قديمة تابعة لسلاح الجو العراقي في قاعدة البلد الجوية، «القتال من أجل الاستخبارات». بقيت في البداية

(١) Dana Priest and Ann Scott Tyson, "Bin Laden Trail 'Stone Cold'", *The Washington Post* (September 10, 2006); Wayne Downing, "Special Operations Forces Assessment", (Memorandum for Secretary of Defense, Chairman Joint Chiefs of Staff, November 9, 2005).

ألواح الكتابة البيضاء التي يسهل محوها فارغةً وقد جهزها ماك كريستال وفريقه لرسم المخططات البيانية للمجموعة الإرهابية. وأدرك ماك كريستال أن المشكلة ناتجة في معظمها من سوء التواصل بين مختلف القيادات العسكرية الأميركية في العراق، إذ انتفت إلا قلّة من الإجراءات المتعلّقة بتبادل الاستخبارات فيما بينها. وسيكتب لاحقاً، «شرعنا في مراجعة للعدو ولأنفسنا. وكلاهما صعب على الفهم»[1]. وظهر المدى القليل الذي يعرفه الجميع في ٢٠٠٤ وسط تقارير تفيد بأن الجنود العراقيين اعتقلوا الزرقاوي على مقربة من الفلوجة. وأُطلق الإرهابي الأردني عن طريق الخطأ بما أنه لم يعلم أحد حقاً كيف هو شكله.

بيد أنه تم في النهاية تطوير خطة للحملة. وصُمّمت الغارات الليلية ضد شبكة الزرقاوي ليس لخلع باب وإطلاق النيران في كل الاتجاهات وحسب، بل إن ماك كريستال اعتقد أيضاً أن ما يهم ليس عدد الجثث، بل المعلومات التي يمكن جمعها من خلال الاستجوابات والتحليلات القضائية الحاسوبية في موقع الغارة. وعندئذٍ يمكن تقفّي أثر الاستخبارات إلى ما يُشتبه بأنه المنزل الآمن التالي الذي يختبئ فيه عناصر من القاعدة أرفع مرتبة. وتقول النظرية إنه يكفي وضع الحقنة في الوريد لتمكن معرفة المنظومة كلها.

حاول ماك كريستال أن يضمن ألا تتعثّر مهمّته بالمنافسات نفسها التي أضرت بمهمات العمليات الخاصة في أفغانستان. تودد إلى ضباط الـ «سي. آي. إيه» في العراق وأقنع ضابطاً كبيراً في الوكالة بالجلوس إلى جانبه في كل صباح في الاستعراض اليومي، الذي تجريه قوة المهمّات الخاصة إلى آخر تطورات ساحة المعركة. وعلى بعد آلاف الأميال، انكب المحللون العاملون في مبنى حكومي عادي في فيرفاكس، فرجينيا، على غربلة المعلومات التي تم تحصيلها في غارات الليلة السّابقة في العراق، والتي استُخرجت من فلاشات الـ «يو. أس. بي» والهواتف الخلوية والأقراص الصّلبة للحواسيب[2]. وامتلأت مع الوقت ألواح الكتابة التي يسهل محوها بأسماء عناصر الزرقاوي وبألقابهم الحركية.

(١) Stanley A. McChrystal, "It Takes a Network", *Foreign Policy* (March/April 2011).

(٢) Dana Priest and William M. Arkin, "'Top Secret America': A Look at the Military's Joint Special Operations Command", *The Washington Post* (September 2, 2011).

وربطت خطوط بالقلم الأسود بين مختلف الأسماء – بحسب أفضل ما يتكهن به الجميع حول مدى الطريقة غير المتبلورة التي تمارس بها الشّبكة الإرهابية عملها.

وساعدت على النمو السريع للقيادة المشتركة للعمليات الخاصة دراسة داخلية أعدّها البنتاغون بطلب من رامسفلد وأنجزت في ٢٠٠٥. وأوصى التقرير بأن على الجيش «أن يضاعف من إمكاناته وقدراته على تنفيذ عمليات دائمة في مناطق متعدّدة، حساسة، غير متساهلة ومحظورة»[١]. وتعني في ترجمة للتعابير العسكرية: أن تخوض حروباً سرّية متزامنة في أكبر عدد ممكن من الأماكن. وحاز التقرير موافقة رامسفلد الفورية، وقد كتبه القائد السّابق للقيادة المشتركة للعمليات الخاصة الجنرال واين داونينغ ومايكل ج. فيكرز – وهو ضابط خفي سابق في الـ «سي. آي. إيه» حاز قدراً من الشّهرة عندما تم تفصيل دوره في تهريب الأسلحة إلى أفغانستان في خلال الحرب السّوفياتية في كتاب «حرب تشارلي ويلسون» *(Charlie Wilson's War)*. وخلص في الأساس إلى أنه على قوات العمليات الخاصة أن تؤدي دوراً أكبر في حرب إدارة بوش على القاعدة وغيرها من الجماعات الإرهابية. وانتهى إلى أن جنود المهمّات الخاصة يحتلون مواقع جيدة في العراق وأفغانستان ولكن ليس في حروب المستقبل. وجاء فيه أن «قتال المستقبل سيجري في بلدان لسنا معها في حالة حرب»[٢].

وشرع البنتاغون حتى في تنفيذ مهمّات تجسس خطرة داخل إيران[٣]. فقد استغل جنود العمليات الخاصة الحركة التجارية التي تعبر الحدود الشّرقية للعراق إلى إيران، ودفعوا العملاء إلى عبور الحدود مستخدمين روايات تغطية مزيّفة لجمع المعلومات عن المنشآت العسكرية داخل غرب إيران. وكان العملاء الأجانب من المسلمين والأقباط المسيحيين الإيرانيين ممن يمكنهم بسهولة عبور الأمن الحدودي الإيراني وهم يخبرون بخططهم لشراء حمولات شاحنات من الفاكهة وغيرها من البضائع من داخل إيران. إلا أنه صعب على البنتاغون، مع مثل هذه الاختراقات المحدودة للحدود، أن يحصل من

(١) Downing، مصدر سابق.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤولين كبيرين سابقين في البنتاغون وضابط متقاعد في الـ «سي. آي. إيه».

هذه المهمّات على معلومات ذات قيمة فعلية، كما أنه لم يُسمح للبنتاغون بالقيام بأي عمليات تخريب أو بقتل جنود من الحرس الثوري الإيراني.

وقال مسؤول كبير في استخبارات البنتاغون في ذلك الوقت، إن الهدف الحقيقي تمثل ببناء ما أمكن من شبكة الاستخبارات داخل إيران – شبكة يمكن استغلالها إذا قرر الرئيس بوش أو أحد خلفائه اجتياح البلاد. وتم تبرير العمليات في إيران، على غرار الكثير من المهمّات العسكرية في مناطق حرب غير معلنة، بأنها «تمهيد لساحة القتال».

وأخذ عمل الجنود والجواسيس يزداد إبهاماً. وبقيت الـ«سي. آي. إيه» تمتلك سلطات أوسع من البنتاغون لتنفيذ مهمّات في أي مكان في العالم، لكنه بات من الأصعب، بعد الأمر الذي أصدره رامسفلد في ٢٠٠٤، رؤية الفروق الحقيقية بين مهمة الجيش ومهمة الـ«سي. آي. إيه». وأقام ماك كريستال علاقةً جيدةً مع الجواسيس الأميركيين داخل العراق، لكنه لم يتم تنسيق مهمّات الجيش داخل إيران مع الـ«سي. آي. إيه». ومع وجود جميع هؤلاء العملاء السرّيين الزاحفين في أحلك أماكن العالم خلق غياب التنسيق إمكان حدوث كارثة كبرى. أو فرصة ضائعة. فبعدما ألغى دونالد رامسفلد في ٢٠٠٥ مهمة باجور في باكستان اعتقاداً منه أن العملية، التي تم وضعها على عجل محفوفة بالكثير من الخطر، أجرى كل من البنتاغون والـ«سي. آي. إيه» تحقيقاً لتصور مكامن الخطأ والتحقق من عدم تكرار الفشل. وحدّدت المراجعة أنه لا توجد إجراءات قائمة للإذن بعملية طارئة في بلد أبعد من العراق وأفغانستان. وأخذ البنتاغون والـ«سي. آي. إيه» يقومان بعمليات سرّية متوازية عبر العالم، لكن لم يملك أي من وزير الدفاع أو مدير الـ«سي. آي. إيه» سلطة تولي الأمور عندما تسنح الفرصة لإطلاق عملية سرّية في بلد مثل باكستان. وحاول البنتاغون والـ«سي. آي. إيه» على امتداد السنة التي تلت توزيع العمل، مقسّمين العالم ومحدّدين من يتولى مسؤولية كل جبهة من جبهات الحرب السّرية[1].

---

(١) تأتي تفاصيل المفاوضات بين الـ«سي. آي. إيه» والبنتاغون من ضابطين سابقين في الـ«سي. آي. إيه» ومن مقابلة أجراها المؤلف مع روبرت أندروز.

قاد ستيفن كامبون المفاوضات عن البنتاغون فيما ترأس نائب مدير الـ «سي. آي. إيه» نائب الأميرال ألبرت كالاند فريق الـ «سي. آي. إيه». وتوقف تولي الـ «سي. آي. إيه» أو القيادة المشتركة للعمليات الخاصة العمليات السّرية في بلد محدّد على عوامل متنوعة: ما مدى استعداد تلك الدولة للسماح بوجود جنود العمليات الخاصة على أراضيها؟ ما مدى قوة العلاقة بين الـ «سي. آي. إيه» وجهاز تجسس تلك الدولة؟ إلى أي مدى سيكون رئيس محطة محدد في الـ «سي. آي. إيه» لاذعاً في شأن التخلي عن السّيطرة في بلده لمصلحة القيادة المشتركة للعمليات الخاصة؟

واحتلت باكستان، بسبب باجور، رأس اللائحة بالنسبة إلى المتفاوضين. فقد أعطى الرئيس مشرّف موافقته على غارات الطائرات التي تطير بلا طيار، لكنه لا يزال يعارض بحزم العمليات الحربية الأميركية في المناطق القبلية. ولا بأس «بسقوط الأشياء من السّماء»، لكن ليس أن تسير عبر الحدود من أفغانستان. واتفق معظم الناس في واشنطن على أن محاولة إقناع مشرّف بالحملات البرية للعمليات الخاصة في أماكن مثل شمال وزيرستان وباجور تشكل مسعى ميؤوساً منه.

اقترحت الـ «سي. آي. إيه» حلاً. يجب ببساطة، لإدخال جنود العمليات الخاصة إلى داخل باكستان، وضعهم تحت إمرة الـ «سي. آي. إيه» والعمل بموجب المادة ٥٠ من سلطة العمل السّري. وسيتقمّص جنود العمليات الخاصة شخصيات أخرى – ويصبح عناصر القوات الخاصة البحرية جواسيس. وسيتمكن عناصر القوات الخاصة من شن عمليات في باكستان ولن يُخبَر مشرّف أبداً بذلك. وقال ضابط سابق في الـ «سي. آي. إيه» إن الترتيب يتمثل في أن «تصبح قوات العمليات الخاصة في الأساس المفرزة المسلحة لمدير الـ «سي. آي. إيه». وستُستخدم الخدعة نفسها تماماً بعد ذلك بست سنوات عندما انطلقت طائرات الهليكوبتر التي تقل القوات الخاصة البحرية من جلال آباد في أفغانستان، وعبرت الحدود إلى باكستان في الغارة التي أدت إلى مصرع أسامة بن لادن. خضع جنود القوات الخاصة البحرية في تلك الليلة لسلطة الـ «سي. آي. إيه»، وتولى مدير الـ «سي. آي. إيه» ليون أ. بانيتا تقنياً مسؤولية المهمّة.

تولّت القيادة المشتركة للعمليات الخاصة السّيطرة في بلدان أخرى، وتصاعدت مهمّات الكوماندوس في بلدان مثل الفيليبين حيث سبق أن تمركزت قوات العمليات

الخاصة. وأطلقت في ٢٠٠٦ طائرة عسكرية أميركية تطير بلا طيار صواريخ على ما يُشتبه بأنه معسكر إرهابي في أدغال جنوب الفيليبين استناداً إلى معلومات استخبارية بأن عمر باتك، أحد قادة الهجوم الإرهابي في بالي، مختبئ في المعسكر. وأخطأت الغارة الصّاروخية، التي أعلنتها حكومة مانيلا بوصفها «عملية عسكرية فيليبينية»، باتك لكنها قتلت عدة أشخاص غيره[١]. ولم يستطع الجيش قط تحديد كم منهم من أتباع عمر باتك وكم منهم من النساء والأولاد.

سمحت الميزانية المنتفخة للعمليات الخاصة للقيادة المشتركة بشراء أجهزة تنصت جديدة منحت الكوماندوس القدرة على جمع المعلومات داخل باكستان من الجو. وستقلع طائرات «بيتشكرافت» بصورة منتظمة من مدارج في أفغانستان وتحلق فوق قمم الجبال الفاصلة بين أفغانستان وباكستان، وتتحول إلى أبراج هواتف خلوية طائرة. وآوت الطائرة في جهاز يدعى «تايفون بوكس» عشرات أرقام الهواتف التي يشك الجيش في استخدامها من قبل المقاتلين الباكستانيين. ويمكن الجهاز معرفة متى يُستخدم أحد الأرقام ويدل على موقعه. وتمتلك القيادة المشتركة للعمليات الخاصة القدرة على تشغيل الهاتف حتى وهو مطفأ؛ فيُعطي من بعدها الإحداثيات الدقيقة لمن يحمله[٢].

بعد إبرام الاتفاقات الجديدة مع الـ«سي. آي. إيه»، أصبح في إمكان عناصر القيادة المشتركة للعمليات الخاصة، الذين تقمّصوا أدوارهم الجديدة وتحولوا إلى ضباط في الوكالة، العمل على جمع المعلومات من خلال عمليات ميدانية في باكستان. وبعد سنة على وقف العملية في باجور، التقطت الـ«سي. آي. إيه» مرةً أخرى معلومة عن اجتماع للقادة العسكريين وهذه المرة أيضاً في منطقة باجور الإدارية في المناطق القبلية.

خضعت قرية دامادولا الصغيرة للمراقبة منذ بعض الوقت، منذ أبلغ عضو القاعدة الأسير أبو الفرج الليبي ضباط الاستخبارات الباكستانية أنه اجتمع مرةً بالظواهري في منزل باختبور خان، وهو قروي من دامادولا. وسبق أن نفّذت الـ«سي. آي. إيه» في

---

(١) تأتي المعلومات عن الغارة الصاروخية في الفيليبين من ضباط حاليين وسابقين في الـ«سي. آي. إيه».

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع ضابط عسكري كبير شارك في مهمّات المراقبة.

كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦ غارة بطائرة تطير بلا طيار على دامادولا وفوتت الظواهري بفترة قصيرة جداً. وعندما وصلت بعد أشهر إخبارية أخرى عن اجتماع آخر في دامادولا، أرسل فريق من القوات الخاصة البحرية إلى القرية.

لم يستغرق الأمر الـ «سي. آي. إيه» والمسؤولين العسكريين، مع اعتماد الإجراء الجديد، سوى ساعات لتحليل المعلومات والموافقة على العملية[1]. وكان الجنرال جون أبي زيد، قائد القيادة المركزية الأميركية، في واشنطن عندما حصلت الـ «سي. آي. إيه» على المعلومة، فقفز في سيارته السوداء ذات الدفع الرباعي وانطلق مسرعاً في موكب من السّيارات إلى لانغلي. وبعد وقتٍ قصير على موافقة أبي زيد وبورتر غوس على التفاصيل النهائية، انطلقت طائرات الهليكوبتر من أفغانستان وأنزلت القوات الخاصة البحرية على الحدود لينطلقوا إلى باجور.

اقتحم الجنود المجمع، ورموا بالقوة بعدة أشخاص على الأرض وقيدوهم بالأغلال البلاستيكية. وحمّلوا السّجناء في الهليكوبتر وعادوا بهم إلى أفغانستان.

تجمّع الضباط داخل مركز مكافحة الإرهاب في لانغلي حول شاشة التلفاز لمشاهدة الفيديو التي تبثه الـ «بريداتور» وهي تحوّم فوق المجمع في دامادولا – عين تحدّق ولا يرف لها جفن وتسمح لجواسيس أن يشاهدوا من على بعد آلاف الأميال مسار العملية. لم تأسر القوات الخاصة البحرية في عمليتها قادة رئيسيين في القاعدة. لكن عملية دامادولا أثبتت أن في وسعها الدخول إلى باكستان من دون أن يتم كشفها، والقيام بعملية اختطاف، والعودة إلى الجانب الآخر من الحدود من دون حتى أن تنتبه الحكومة الباكستانية إلى المهمّة.

(١) المعلومات عن عملية دامادولا في ٢٠٠٦ مصدرها ضابطان سابقان في الـ «سي. آي. إيه».

٨: الحرب بالواسطة

«أنا وأمتي ضد العالم. وأنا وعشيرتي ضد أمتي. وأنا وعائلتي ضد العشيرة. وأنا وأخي ضد العائلة. وأنا ضد أخي».

- مثل صومالي

أخذ عملاء الـ «سي. آي. إيه» في نيروبي وكينيا، بحلول ربيع ٢٠٠٦، يحمّلون طائرات شحن غير محدّدة الهوية بقاذفات القنابل والهواوين وبندقيات «إي كي-٤٧» وفي الطيران بالحمولات إلى مهابط يسيطر عليها أمراء الحرب الصّوماليون. وأرسلوا، إلى جانب الأسلحة، حقائب يد ملأى بالنقود، بما يقارب المئتي ألف دولار لكل سيّد حرب دفعةً مقابل خدماته في القتال ضد الإرهاب[١]. أما مجموعة رجال حاول بعضهم قتل بعض في مختلف الأوقات على مرّ السنين، لم يتورّع أمراء الحرب عن العمل معاً ما إن فتحت الـ «سي. آي. إيه» صناديق أموالها. بل إنهم تدبّروا الخروج لشراكتهم باسم يروق واشنطن: التحالف من أجل إحلال السلام ومكافحة الإرهاب. وفي الاسم سخرية غير مقصودة نظراً إلى التاريخ الوحشي لبعض أمراء الحرب أمثال عبدي حسن عوالي قيبديد ومحمد كنياري أفرح. وأصبحت المجموعة حتى في بعض أقسام الـ «سي. آي. إيه» مدعاة للنّكات السّاخرة. وقارن بعض الجواسيس الأميركيين التسمية المختصرة للتحالف من أجل إحلال السلام ومكافحة الإرهاب (ARPCT) بـ «سبكتر» (SPECTRE) وهي التنظيم الإرهابي العالمي في أفلام جايمس بوند.

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤولين في الـ «سي. آي. إيه» ووزارة الخارجية والكونغرس. راجع أيضاً:
Mark Mazzetti, "Efforts by CIA Fail in Somalia, Officials Charge", *The New York Times* (June 8, 2006).

وسبق أن وافق خوسيه رودريغيز على خطة وضعها الجواسيس في نيروبي لتصعيد برنامج إرسال الأسلحة والمال إلى أمراء الحرب الذين أقنعوا الأميركيين بأنهم سيساعدون على محاربة التهديد الراديكالي الآخذ في النمو في البلاد الفوضوية والفقيرة[1]. وباتت مجموعة أمراء الحرب، وهم بعض من الرجال أنفسهم الذين بعثوا عام ١٩٩٣ بمسلحين لقتل جوّالي الجيش وكوماندوس قوة دلتا، على جدول مرتّبات الـ «سي. آي. إيه» عام ٢٠٠٢. وساعدوا الـ «سي. آي. إيه» على مطاردة عناصر خلية القاعدة في شرق إفريقيا وقد تم تهريب بعضهم من الصومال إلى مواقع الـ «سي. آي. إيه» السّرية. لكن عملية ٢٠٠٦ الخفية اتخذت أكثر طابع الاتفاق الرسمي وتحوّلت إلى هدر للمال، أجازته واشنطن، على أمراء الحرب.

لم تكتف الفوضى المتصاعدة في العراق بسحب الجنود والجواسيس من أفغانستان وحسب، بل أوحت أيضاً إلى جيل جديد من الشبان المسلمين بحمل السّلاح ضد الولايات المتّحدة. وعرّت في ذلك الوقت مسودات تقرير استخباري سرّي انتشر عبر وكالات التجسس الأميركية مشكلة التحوّل إلى التطرف المتفشّية في العالم الإسلامي. وخلص التقرير النهائي إلى أن العراق أصبح قضيةً تستقطب الجهاديين، وتنمّي الاستياء العميق من التدخل الأميركي في العالم الإسلامي، وتولّد الدعم للحركة الجهادية العالمية[2].

وتوقع التقرير، وهو تقويم للاستخبارات القومية، أن حركة الجهاد العالمية التي تزداد لامركزية ستتعرّض حتى لمزيد من التجزئة مع كثرة مجموعات المجاهدين الإقليميين. وأخذ المنظر يتغيّر إلى حد كبير فيما تشهد بلدان في شمال وشرق إفريقيا وفي الأجزاء الفقيرة من شبه الجزيرة العربية المزيد من عدم الاستقرار.

وفي اليمن، هرب ثلاثة وعشرون مجاهداً مرتبطين بالقاعدة من أحد السّجون المحلية مستخدمين الملاعق وقوائم طاولات مكسورة لحفر نفق. ومن المرجح أنهم حصلوا على المساعدة من عناصر في أجهزة الأمن اليمنية متعاطفين مع قضية السجناء منذ أيام

(١) بدّلت الـ «سي. آي. إيه» في ٢٠٠٥ اسم مديرية العمليات إلى الجهاز الوطني الخفي. وترأس رودريغيز الجهاز الخفي.

(٢) Director of National Intelligence, "Trends in Global Terrorism: Implications for the United States", (declassified key judgments of the National Intelligence Estimate, April 2006).

حرب السّوفيات في أفغانستان. وشرح مسؤول يمني لصحيفة نيويورك تايمز المساعدة الداخلية كالآتي: «يجب أن تتذكّر أن هؤلاء الضباط تعوّدوا مواكبة الناس من صنعاء إلى باكستان في زمن الجهاد الأفغاني. ويقيم الناس علاقات لا تتغيّر بسهولة»[1]. وأصدر الإنتربول بلاغاً عالمياً عاجلاً يطلب توقيف الرجال الثلاثة والعشرين. لكن معظمهم لم يذهب بعيداً، إذ بقوا في اليمن مشكّلين نواة مجموعة ستطلق على نفسها في النهاية اسم القاعدة في شبه الجزيرة العربية[2].

ثم جاءت الصّومال حيث برز في الصّدارة رجل قصير مربوع القامة يضع نظارة لوزية الشكل وتبرز من ذقنه خصلة شعر صبغها بالحِنّاء الحمراء. وقاد حسن ضاهر عويس مجلس شورى اتحاد المحاكم الإسلامية في الصّومال، وهو كناية عن اتحاد فضفاض مؤلف من زعماء قبائل ورجال أعمال وأقطاب ثروة التقوا من أجل وضع حد للفوضى الصّومالية عبر فرض قانون الشّريعة الإسلامية. وحازت المحاكم، التي خضعت سنواتٍ لسيطرة المعتدلين، شعبية كبيرة في الصومال لأنها وفّرت تنفيساً من عقود من حكم أمراء الحرب. لكن ومع نهاية ٢٠٠٥، حوّل تأثير عويس في اتحاد المحاكم الإسلامية المنظمة إلى نسخة أكبر من محكمة الشريعة التابعة له في مدينة «مركا» المرفئية: منصة للدعوة إلى نوع متطرف من الإسلام أُنزل في شكل منتظم عقوبات مثل رجم الزناة بالحجارة وقطع أيدي اللصوص[3].

احتل عويس منذ أعوام اللائحة الأميركية لكبار المتهمين بالإرهاب، وربطته الـ«سي. آي. إيه» بخلية القاعدة في شرق إفريقيا التي نفذت تفجيري السّفارتين الأميركيتين في كينيا وتنزانيا في ١٩٩٨. لكنه بقي بالرغم من ذلك يعمل في العلن حيث قام بسفرات بارزة إلى دبي وتحرك على المكشوف بين المدن الصّومالية. وخضعت لإمرته زمرة من المسلحين الشّبان الملتزمين الذين أخذوا يطلقون على أنفسهم اسم «الشباب». وأخذت المجموعة تجوب شوارع مقديشو تطارد وتقتل كل من يُعتقد أنه

(١) Robert Worth, "Is Yemen the Next Afghanistan?" *The New York Times* (July 6, 2010).

(٢) تم الاستشهاد بمذكرة الإنتربول في: Bill Roggio, "Al Qaeda Jailbreak in Yemen", *Long War Journal* (February 8, 2006).

(٣) David H. Shinn, "Al Qaeda in East Africa and the Horn", *The Journal of Conflict Studies* 27, no. 1 (2007).

تعهد الولاء للحكومة الفدرالية الانتقالية، التي تضم مجموعة ضعيفة وفاسدة خلقتها الأمم المتّحدة ولا تمتلك الكثير من السّيطرة داخل البلاد[1]. أما المحليون الذين يُشتبه في تجسسهم لأميركا فتُطلق عليهم النار لدى مشاهدتهم.

لم تحتفظ الـ «سي. آي. إيه» طوال سنوات بمحطة دائمة داخل الصّومال، ومن ثم باتت مهمّة مراقبة الأحداث داخل البلاد تقع على كاهل الضباط الخفيين في كينيا المجاورة. وقد توسعت محطة الـ «سي. آي. إيه» في نيروبي في شكل ملحوظ بعد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، وحصلت على المزيد من المال والعناصر بعدما قرر المدير بورتر غوس أن الوكالة تحتاج إلى تعزيز وجودها في إفريقيا وإلى إعادة فتح بعض من محطاتها التي سبق إقفالها في القارة[2]. ووصلت إلى لانغلي في خلال الأشهر الأخيرة من ٢٠٠٥ وحتى ٢٠٠٦ برقيات من الجواسيس في نيروبي تنذر بالخطر وتحذّر من النّفوذ المتعاظم لصاحب اللحية الحمراء حسن ضاهر عويس ولمسلحي «الشباب». وخلصت بعض التقارير إلى أن الراديكاليين الشّبان داخل اتحاد المحاكم الإسلامية، بمن فيهم الطويل والهزيل عدن حاشي فرح عيرو، وهو من المحنّكين في حرب أفغانستان، قد يهيئون الوكر الذي يقيم فيه عناصر القاعدة ليصبح قاعدة جديدة لهم في الصّومال.

لكن وبقدر ما أراد أسامة بن لادن وأتباعه إقامة موطن في الصّومال، واجهت المجموعة على مر السنين بعضاً من المشاكل نفسها، التي واجهها الأميركيون في البلاد التي مزّقتها الحرب. وبتبسيط للأمر، فإن القاعدة لم تفهم الصّومال، وفشلت خطتها للهروب إليها بعد بدء الحرب في أفغانستان فشلاً ذريعاً. ووجد المقاتلون العرب الذين بلغوا البلاد مشكلةً في الإبحار في النسق المذهل للقبائل والعشائر التي حيكت منها قماشة الثقافة الصّومالية، ووجدوا أنفسهم عند كل انعطافة عرضةً للابتزاز من زعماء القبائل[3]. وقرر الصوماليون، بدلاً من أن يتوحدوا تحت راية واحدة لطرد الغربيين من بلادهم، القيام بالأحرى بمحاربة بعضهم بعضاً. ولم يستطع مقاتلو القاعدة، الذين

(١) Bronwyn Bruton, "Somalia: A New Approach", *Council on Foreign Relations*, Council Special Report no. 52 (March 2010): 7.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع ثلاثة مسؤولين سابقين في الـ «سي. آي. إيه».

(٣) Clint Watts, Jacob Shapiro, and Vahid Brown, "Al-Qa'ida's (Mis)Adventures in the Horn of Africa", Harmony Project Combating Terrorism Center at West Point, July 2, 2007, 19–21.

ينتمون إلى النهج الوهّابي الراديكالي من الإسلام، أن ينتسبوا إلى الصّوفية الأكثر اعتدالاً بكثير والتي تمارسها الغالبية الكبرى من الصّوماليين. واشتهر الصّوماليون بأنهم يثرثرون كثيراً وغضب الزائرون الأجانب من أنهم لا يستطيعون الحفاظ على الأسرار. وفي المجمل، بدا البلد الإفريقي الفوضوي الواقع عند البحر مختلفاً جداً عن جبال باكستان وأفغانستان.

بالكاد اتضح ذلك حينذاك لأي أحد في الدوائر العسكرية أو الاستخبارية في واشنطن، وأخذت تقارير الـ «سي. آي. إيه» المنذرة بالخطر الصادرة من نيروبي تحظى بالاهتمام في البيت الأبيض. لكن ما الذي يجب فعله بالضبط في حال نهجت الصّومال طريقة أفغانستان؟ إلا أن أشباح واقعة سقوط الـ «بلاك هوك» - معركة ١٩٩٣ في مقديشو - بقيت تسكن أروقة البنتاغون، وقد أوضح جنرالات الجيش بالفعل أنهم قد يتقدمون باستقالاتهم قبل محاولة القيام بأي تدخل عسكري ذي شأن في الصّومال. ثم إن الحروب الدائرة في أمكنة أخرى أخذت تستنزف عديد الجنود والمارينز، وبالكاد أمكن البنتاغون توفير جنود للقرن الإفريقي بما هو أكثر من الذين كرّسهم لقوة المهمّات الخاصة القليلة العدد في جيبوتي، حيث تعمل انطلاقاً من معسكر سابق للفيلق الأجنبي الفرنسي. وبما أنه تولّد لدى إدارة بوش اقتناع بأن الصّومال مشكلة تحتاج إلى حل، لجأ البيت الأبيض إلى الـ «سي. آي. إيه» للعثور على جيش رديف لخوض الحرب الجديدة في مقديشو. وهكذا وُلد التحالف من أجل إحلال السلام ومكافحة الإرهاب.

وبالكاد حافظ أمراء حرب التحالف على سرّ روابطهم بواشنطن وتبجّحوا في العلن بمقدار ما تدفعه لهم الـ «سي. آي. إيه» من مال. غير أن تقنية الحرفة التي استخدمها الأميركيون تميزت هي الأخرى بالرداءة، ما جعل التحالف يظهر بسهولة على أنه واجهة للـ «سي. آي. إيه». ونُشرت أخبار شحنات الأسلحة وعمليات تسليم المال في الصّحافة المحلية. وزوّد ضباط الوكالة أمراء الحرب معلومات عن صلة الاتصال لاستخدامها عندما يحتاجون إلى المزيد من الإمدادات، وانتشرت إشاعات في العاصمة فحواها أن رجال الـ «سي. آي. إيه» وزعوا على أمراء الحرب عنوان بريد إلكتروني يستخدمونه عندما يحتاجون إلى المزيد من الأسلحة والمال.

أدت حماقة الـ «سي. آي. إيه» إلى انقسام في صفوف مسؤولي السّفارة الأميركية

في نيروبي، وهي كناية عن قلعة بُنيت بعدما أدى تفجير ١٩٩٨ إلى تدمير المبنى القديم. وأدار رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» في كينيا العملية برمّتها، لكن أخذ الدبلوماسيون في المجمّع في كتابة البرقيات وإرسالها إلى مقر وزارة الخارجية محذّرين من ارتدادات الدعم الخفي لأمراء الحرب. ووصف الرجل الثاني في السّفارة، لسلي رو، في إحدى البرقيات ما يشعر به المسؤولون الإفريقيون من غضب حيال جهد الـ «سي. آي. إيه». وبعث المسؤول السياسي عن الصومال في وزارة الخارجية مايكل زوريك ببرقية إلى واشنطن ينتقد فيها السياسة المتعلقة بأمراء الحرب، ويشتكي من أن الـ «سي. آي. إيه» تمر السلاح إلى بعض من أكبر السفّاحين في الصومال[١]. وأعيد بعد ذلك بقليل تكليف زوريك بالتشاد.

وتماماً كما حذّر بعض من أولئك الضباط، انفجرت العملية الخفية في وجه الـ «سي. آي. إيه». فهي بدلاً من إضعاف الإسلاميين رجحت كفة الميزان في الصومال في الاتجاه الآخر. وشرع الصّوماليون في احتضان اتحاد المحاكم الإسلامية كوسيلة للتخلص من النفوذ الأجنبي في البلاد، ووضع حد في النهاية لحكم أمراء الحرب الذي بلقن البلاد. وأمكن بالفعل المسؤولين الأميركيين في اجتماع السّفراء الأميركيين في شرق إفريقيا واليمن من رؤية الأمور وهي تتكشف داخل مقديشو. وفي غياب إمكان الاتفاق على ماهية الخطوات التالية، وافق السّفراء على أهمّية «تغيير الحديث» من القتال في العاصمة الصّومالية إلى «الخطوات الأميركية الإيجابية» للمساعدة على إعادة ترميم المؤسسات الصومالية[٢].

وتحوّلت المواجهة السابقة إلى هزيمة منكرة بعدما دحر الإسلاميون أمراء الحرب الذين تدعمهم الـ «سي. آي. إيه» من مقديشو. ووطد اتحاد المحاكم الإسلامية سلطته في العاصمة. بل إن الكارثة الكبرى بالنسبة إلى واشنطن تمثلت بإعطاء معركة مقديشو المزيد من النفوذ داخل الاتحاد لحسن ضاهر عويس وزمرة مسلحي «الشباب» الراديكاليين.

---

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤولين في وزارة الخارجية وفي الكونغرس يتحدثون فيها عن برقيات نيروبي.

(٢) "CT in Horn of Africa: Results and Recommendations from May 23–24 RSI", July 3, 2006.

راقب هانك كرامبتون، الجاسوس الأميركي السابق في مركز مكافحة الإرهاب، الكارثة وهي تتكشف من مكتبه في وزارة الخارجية حيث تولى وظيفة منسّق مكافحة الإرهاب. وأعطته الوظيفة لقب سفير جوال، لكنها تعوّقت من جراء موقعها داخل آلة دبلوماسية تعاني نقصاً في التمويل وأحياناً اختلالاً وظيفياً. وشكلت مغامرة أمراء حرب الـ «سي. آي. إيه» في الصّومال، بالنسبة إلى كرامبتون، مثالاً كلاسيكياً على لجوء واشنطن إلى العمل الخفي عندما تبدو المشكلة صعبة جداً على الحل بطريقةٍ أخرى. فما الذي تفعله عندما لا يمكنك تصوّر ما العمل في الصّومال؟ وقال: «إليكم بعض المال. إليكم بعض الأسلحة. والآن هيّا».

وأضاف، «لن ينجح العمل الخفي في غياب السّياسة الخارجية. وإذا أمكنك أن تصف لي سياسة الحكومة الأميركية الخارجية في الصومال في ٢٠٠٦، أو حتى اليوم، فسأعطيك ورقةً من فئة العشرة دولارات».

تحمّل رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» في نيروبي وطأة الانتقاد الداخلي المهلك، وسحبه خوسيه رودريغيز من كينيا، وقررت الـ «سي. آي. إيه» أنها اكتفت من الصّومال في الوقت الراهن. ومع وجود المحاكم الإسلامية الآن في السلطة في مقديشو، شرع مسؤولو بوش يتحدّثون عن الصومال بوصفها دولة إرهابية جديدة. وألقت كبيرة مسؤولي وزارة الخارجية للسياسة الإفريقية جندايي فرايزر في خلال النصف الثاني من ٢٠٠٦ خطباً علنية عن الارتباط المباشر بين اتحاد المحاكم الإسلامية والقاعدة ووصفت المحاكم بفظاظة بالـ «إرهابية».

استهلك انهيار جهد الـ «سي. آي. إيه» في الصّومال، وقتذاك، خيارات إدارة بوش في التعامل مع بروز الإسلاميين فيها. لكن حيث خافت الحكومات من اتخاذ الخطوات أخذت فرص جديدة تبرز أمام الشّركات العسكرية الخاصة والمتعهدين المقبلين المتلهفين على الخوض في فوضى شرق إفريقيا.

باتت الظروف مثالية: أحجمت حكومة الولايات المتّحدة عن إرسال المزيد من رجالها إلى الصومال، لكنها حرصت على إنفاق المال ليتمكن الآخرون من ذلك. وأخذت الصومال تتحول، مع أواسط ٢٠٠٦، إلى حرب جرى تلزيمها.

بعد أسبوع فقط على هروب أمراء الحرب المدعومين من الـ «سي. آي. إيه» من مقديشو، هبطت طائرة في نيروبي تنقل امرأة متوسطة العمر من بلاد الأحصنة في شمال فرجينيا. تولت ميشال بالارين رئاسة «سِلِكْتْ أرمور» الشّركة الصغيرة التي تمتلك عقداً لبيع دروع واقية للجسم لفوج الإطفاء في لوس أنجلس، لكنها لم تنجح في الفوز بعقود كبيرة من البنتاغون. لكنها امتلكت طموحات أكبر بكثير من كونها متعاقداً دفاعياً من الدرجة الرابعة. وكان من المقرر بعد هبوطها في كينيا في حزيران/يونيو ٢٠٠٦، أن تعقد اجتماعاً خاصاً مع عبدالله يوسف أحمد الرجل الذي يقود من جناحه الفخم في أحد فنادق نيروبي، الحكومة الصّومالية في المنفى التي تدعمها الأمم المتّحدة.

وبدا أمراً غريباً أن تجتمع امرأة لها مظهر الوارثة الثرية مع زعيم الحكومة الصّومالية الانتقالية، العاجزة، في المنفى. لكن سبق لبالارين أن سافرت مرات عديدة من قبل إلى القرن الإفريقي ونمّت نوعاً من العقيدة المتبعة في بعض قطاعات الطبقة السياسية الصومالية. ادعت تدريب وتوليد فحول الـ «ليبيزانر» - الأحصنة الشهيرة البيضاء التي تُروّض للفروسية - وارتدت أثمن ما تملك أينما ذهبت. فسافرت بحقائب «لوي فويتون»، وجواهر غالية الثمن وألبسة «غوتشي». وإذا كانت الفكرة من وراء ذلك بهر سكان بلدان العالم الأكثر فقراً فقد حقّقت التأثير المرجو. وشرع الصوماليون في الإشارة إليها بلقب من كلمة عربية واحدة. ودعوها أميرة.

قطعت شوطاً كبيراً من غرب فرجينيا حيث حقّقت في الثمانينيات أول شهرة لنفسها بوصفها مرشّحةً جمهوريةً في ولاية راسخة في انتمائها الديمقراطي. حاولت أن تغرف من شعبية رونالد ريغان للفوز بمقعد في الكونغرس عن مورغانتاون مقر جامعة غرب فرجينيا. وكانت يومئذٍ في الواحدة والثلاثين، وموّلت معظم حملتها في ١٩٨٦ بأموال زوجها الأول، وهو رجل يكبرها بعدة عقود نزل إلى شواطئ النّورماندي في يوم النصر وكدّس ثروة صغيرة من عمله في التطوير العقاري[1]. لكنها نشطت أيضاً في جمع المال في سياق الحملة بتباهيها بمهاراتها كعازفة بيانو في الحفلات السياسية لجمع التبرعات. وحاولت تصوير الديمقراطي الذي يحتل المنصب بأنه لا يتناغم مع قيم عائلات غرب

(١) "Miscellaneous Monongalia County, West Virginia Obituaries: Edward Robert Golden,» Genealogybuff.com; Edgar Simpson, «Candidates Promise to Liven Last Days Before Election", *The Charleston Gazette* (October 26, 1986).

فرجينيا، وفي الأسابيع الأخيرة من الحملة انتقدت منافسها على تصويته على إنفاق مال جامعي الضرائب على طبع مجلة بلايبوي بنظام كتابة «البراي» للمكفوفين. بل إنها استغلت رفضه الحضور إلى إحدى المناظرات فقطعت لوح كرتون وألصقت صورة لوجهه عليه وناظرته على أي حال[1]. ومُنيت بهزيمة نكراء في الانتخابات.

بعد وفاة زوجها الأول، تزوجت جينو بالارين، السّاقي السابق في «نادي مانهاتن ٢١» الذي انطلق من ثم وحده وأدار «نادي جورجتاون» الخاص في واشنطن. أقام الزوجان الحفلات في منزلهما في فرجينيا واكتسبا في مآل الأمر مكانهما في لائحة «الكتاب الأخضر»، دليل «للواشنطنيين البارزين اجتماعياً»، وهو بمنزلة الكتاب المقدس لنخبة قدامى ورثة المال في المدينة. وتحدثت في ١٩٩٧ إلى إحدى المراسلات عن مدى سرورها لورود اسمها في الكتاب الأخضر مع جميع أصدقائها وجيرانها وغيرهم «من داعمي رياضات الفروسية».

وقالت إن «الكتاب يرمز إلى الطرائق القديمة في القيام بالأمور التي تحركت بسرعة ضد التغيير. وهو يرمز إلى الطريقة الألطف في التعامل مع الحياة»[2].

أقام آل بالارين حينذاك في عقار في ماركهام، فرجينيا، يحمل اسماً عظيماً هو «وولفز كارغ» (جرف الذئب). وسكنه في السابق تورنر آشبي، قائد الخيالة الكونفدرالي الذي حاز الشّهرة في خلال حملة ستونوال جاكسون في وادي شيناندواه، واستحق لقب «فارس الكونفدرالية الأسود». لكن بدا أن ميشال امتلكت مخططات أكبر من عيش حياة راقية تتمثل بمباريات البولو والحفلات التي تقام على العشب. وشرعت في التسعينيات ومطالع الألفين في عدد من المغامرات التجارية، من التطوير العقاري إلى التمويل الدولي إلى بيع الدروع الواقية للجسم.

والأمر، بحسب وصفها له، هو أن اجتماعاً غير رسمي مع مجموعة من الصّوماليين الأميركيين أعده صديق لها من محفل البنّائين الأحرار في واشنطن، هو الذي أثار

(١) United Press International, "Braille Playboy Criticized", September 27, 1986; "Debate with Stand-In Short in Fayetteville", *The Charleston Gazette* (August 19, 1986).

(٢) Ellen Gamerman, "To know if you're anybody, check the list: In Washington, the snobby old Green Book is relished as a throwback to less-tacky times", *The Baltimore Sun* (October 22, 1997).

اهتمامها بالبلاد التي دمّرتها الحرب، وهكذا بدأ التحول من ميشال إلى أميرة[1]. وشرعت في السّفر إلى إفريقيا وسرعان ما افتتنت المرأة المسيحية المتدينة التي تعزف على الأرغن في كنيستها يوم كل أحد بتعاليم المتصوفة، وهي الطائفة الإسلامية الصوفية التي سادت سابقاً في شبه القارة الهندية وشمال إفريقيا. وتراجعت الصّوفية بعدما أدى تفكك الإمبراطورية العثمانية إلى إنتاج أشكال من الإسلام أكثر قوة، لكنها لا تزال تُمارَس في شكل واسع في الصومال. وباتت بالارين على اقتناع بأن تعزيز المجموعات الصّوفية في البلاد يشكل الطريقة الفضلى للتخفيف مما اعتبرته التأثير السّام للوهابية المتشدّدة، التي اكتسبت موطئ قدم لها في القرن الإفريقي بمساعدة من الواهبين السّعوديين الأثرياء الذين يرسلون المال لبناء المدارس الراديكالية والجوامع.

جعلها عملها العام في الصومال تبدو أشبه بمحسن ثري آخر يدفع في اتجاه مشاريع تنموية وهمية، لكن مشاريعها احتوت على جانب أكثر سرّية وجسارة. رأت، عندما استولى اتحاد المحاكم الإسلامية على مقديشو، فرصة للاستفادة من المناطق الواسعة غير المحكومة في الصّومال لإقامة قواعد لحركة مقاومة تطرد الإسلاميين من السّلطة، إضافة إلى رعاية مشاريع تجارية في البلاد. وستقحم الفارسة ابنة فرجينيا نفسها في الفوضى.

ناقشت بالارين في اجتماعها مع الرئيس عبدالله يوسف أحمد خطتها القاضية بإقامة قاعدة في «بربرة»، المدينة الصّومالية الشمالية ذات المرفأ. وتحتوي المدينة على مطار سبق لوكالة الفضاء الأميركية (ناسا) أن صمّمته كمهبط اضطراري للمكوك الفضائي، وتصوّرت بالارين أنه يمكن تحويل الموقع إلى مركز للحركة التجارية وموقع لتدريب القوى المناهضة لـ «الشباب». وبالكاد كان الرئيس أحمد، الرمز السياسي طالب اللجوء في فندق فخم في نيروبي، في موقع يسمح له بالموافقة على خطة بالارين. لكن الأخيرة خرجت من الاجتماع وهي تكاد تطير فرحاً. وبعثت بعد ذلك بأيام برسالة إلكترونية إلى عدد من شركائها في الأعمال في الولايات المتّحدة بمن فيهم كريس فارينا، رئيس شركة الأمن الخاصة الموجودة في فلوريدا وتدعى «إي تي أس وورلدوايد».

«يا رفاق، اجتماع ناجح مع الرئيس عبدالاي يوسف [كذا] وكبير موظفيه»، كتبت

---

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع ميشال بالارين.

بالارين. «وقد عيّن رئيس البروتوكول الرئاسي ليتولى التعاطي معنا في خلال هذه المرحلة»[١]. وأوحت بالارين لاحقاً في رسالتها الإلكترونية أن الـ«سي. آي. إيه» على علم بخططها وأنها تخطط للقاء أحد معارفها في الـ«سي. آي. إيه» في نيويورك.

لكن فارينا حثها على الحذر، وأجاب منبّهاً إلى أنه يجب على المخطط ألّا ينطلق وهو غير مكتمل العدة. «من شأن عملية الدخول عنوة [إلى مقديشو] عند هذا الحد من دون إضافة قوات متابعة تستطيع الاستفادة من زخم/مبادرة العملية الأساسية ستؤدّي إلى تكرار«ديان بيان فو»، كتب مشيراً إلى الإخفاق الفرنسي في ١٩٥٤ في الهند الصينية[٢].

أبلغ فارينا بالارين أيضاً أن الـ«سي. آي. إيه» ربما ليست الشّريك الأفضل لجهودهما – وربما هي نصيحة حكيمة نظراً إلى ما جرى على الفور في البلاد. وقال إن البنتاغون يبقى الرهان الأفضل[٣].

وعملت في النهاية بنصيحته، لكن ستمر سنتان أخريان قبل أن تتمكن من إقناع البنتاغون بتمويل مغامراتها في الصّومال.

جلب في البداية استيلاء اتحاد المحاكم الإسلامية على مقديشو هدوءاً لم تعرفه العاصمة منذ سنين. فالمدينة التي قسّمها أمراء الحرب أصبحت الآن مفتوحة. وبات الأولاد أحراراً في تمضية نهارهم على الشاطئ وقد ترعرعوا على بعد ميل من البحر، ولم يروا في الواقع مياهه قط لأن ذلك يعني عبور منطقة أمير حرب معاد[٤].

غير أن سلسلة من البيانات التي أصدرها في ذلك الصيف جناح «الشباب» في اتحاد المحاكم الإسلامية، وقد سيطر بالفعل على الاتحاد، دفعت الكثيرين من

(١) أول من أفاد عن هذه الرسائل الإلكترونية هو باتريك سميث في عدد ٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٨ من نشرة «أفريقا كونفيدانشال» (*Africa Confidential*). وتضمّن موضوع نُشر في ١٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦ في «الأوبزرفر» (*Observer*) في المملكة المتّحدة المزيد من المقتطفات من الرسائل الإلكترونية.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) مقابلة أجراها المؤلف مع برونوين بروتون.

الصّوماليين إلى معاداة الزّعماء الجدد. فقد حُظرت الأفلام الأجنبية وكذلك مباريات كرة القدم. وأجبرت النساء على تغطية وجوههن. إلا أن الأقل شعبية بينها كان الحظر على القات، الورقة المخدرة الخضراء التي يكاد جميع رجال الصومال يمضغونها يومياً لتجلب لهم نشوة لطيفة وممتعة.

وأذكى مخاوف واشنطن في شأن فرض تطبيق الشّريعة في مقديشو سيل من برقيات الاستخبارات، التي تسلمتها إدارة بوش من مسؤولين أثيوبيين خافوا من بروز ملاذ آمن للقاعدة على حدودهم الشّرقية. وتتميز حالة العداء بين الأثيوبيين والصوماليين بالعمق. وخاض البلدان في السبعينيات حرباً إقليمية بشأن منطقة أوغادين الأثيوبية، التي تحولت إلى نزاع بالواسطة في الحرب الباردة – حيث ساندت الولايات المتّحدة الصومال وزوّد الاتحاد السوفياتي الأثيوبيين بالإمدادات العسكرية. سوى أن سقوط الاتحاد السّوفياتي أعاد خلط التحالفات في إفريقيا، كما في أماكن كثيرة أخرى من الأرض. وأخذت واشنطن في التسعينيات، وقد اعتراها القلق من انتشار الأصولية الإسلامية، تنظر إلى أثيوبيا بغالبيتها المسيحية بوصفها حليفة طبيعية للولايات المتّحدة.

وهكذا وجد بعض من في واشنطن في الأمر فرصةً عندما شرع المسؤولون الأثيوبيون في الحديث، على المكشوف، عن إمكان اجتياح الصّومال لتفكيك اتحاد المحاكم الإسلامية و«الشباب». فقد فشلت استراتيجية تسليح رعاع أمراء الحرب، لكن ربما أمكن أن يصبح الجيش الأثيوبي القوة الأميركية البديلة الجديدة في الصومال. وفي غضون أسابيع على استيلاء الإسلاميين على مقديشو، زار الجنرال جون أبي زيد، من القيادة المركزية الأميركية، العاصمة الأثيوبية أديس أبابا في خلال جولة له على شرق إفريقيا. وسأل، في اجتماعاته مع مسؤولي الـ«سي. آي. إيه» ووزارة الخارجية في السّفارة الأميركية، عما قد يحتاج إليه الجيش الأثيوبي إذا أراد السير بدباباته صوب مقديشو.

أوضح أبي زيد أن الولايات المتّحدة، بالرغم من أنها لن تدفع أثيوبيا للاجتياح، ستحاول ضمان أن يتكلل الغزو بالنجاح[1]. والتقى كذلك المسؤولين الأثيوبيين وعرض مشاركتهم في الاستخبارات الأميركية عن المواقع العسكرية لاتحاد المحاكم الإسلامية

(١) تأتي تفاصيل زيارة أبي زيد لأديس أبابا من مسؤول أميركي عمل في السّفارة في ذلك الوقت.

داخل الصومال. وفي واشنطن، سمح مدير الاستخبارات الوطنية جون د. نيغروبونتي بتوجيه أقمار التجسس على الصومال لتزويد القوات الأثيوبية صوراً مفصلة. وقال مسؤول أميركي عمل في ٢٠٠٦ في أديس أبابا، أثيوبيا، إن «الفكرة قضت بحمل الأثيوبيين على خوض حربنا».

كما أنه من شأن الاجتياح الأثيوبي توفير الغطاء لمهمّات الكوماندوس الأميركيين داخل الصومال انطلاقاً من إحدى القواعد في منطقة زراعة البن في شرق أثيوبيا. وعندما ازداد الاعتقاد في صيف وخريف ٢٠٠٦ أن القوات الأثيوبية قد تجتاح الصومال، وصل عناصر من كتيبة الإنشاءات التابعة للبحرية الأميركية إلى قاعدة «ديرة داوا» على بعد ثلاثمئة ميل شرق أديس أبابا. ومن الناحية الرسمية جاء جنود كتيبة الإنشاءات في مهمّة إنسانية: فقد أغرقت الأمطار الغادرة السهول المحيطة بـ«ديرة داوا» وأرسلت جداراً من الماء بارتفاع عشر أقدام تكسّر عبر المدينة، وساهم جنود كتيبة الإنشاءات في نصب الخيم وتوفير المساعدة الطبية العاجلة لعشرات الآلاف من الناس الذين هجّرتهم الفيضانات(١).

لكن، وإلى جانب الإمدادات الإنسانية، شرعت أيضاً طائرات النقل «سي - ١٣٠» الواصلة إلى «ديرة داوا» في شحن المعدات الحربية لمجموعة من القوات الخاصة البحرية وكوماندوس قوة دلتا الذين أخذوا يتقاطرون إلى أثيوبيا كجزء من وحدة سرّية تابعة للقيادة المشتركة للعمليات الخاصة تدعى «قوة المهمّات الخاصة ٨٨». وقضت خطتهم باستخدام الاجتياح الأثيوبي للصومال غطاءً للدخول إلى البلاد ومطاردة كبار عناصر اتحاد المحاكم الإسلامية(٢).

أجيزت المهمّة في الصومال بموجب الأمر الذي أصدره دونالد رامسفلد في ٢٠٠٤ ويسمح للكوماندوس العسكريين بالتغلغل في بلدان محظورة تقليدياً على الجنود الأميركيين. وفي مطلع كانون الثاني/يناير، بعد أيام وحسب على هدير أول طوابير

(١) United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs, "OCHA Situation Report No. 1: Dire Dawa Floods – Ethiopia occurred on August 06, 2006", August 7, 2006.

(٢) التفاصيل المتعلقة بالشحنات السّرية إلى «ديرة داوا» مصدرها مسؤولان عسكريان سابقان على علاقة بالعملية. ووصف المسؤولان نفسيهما بتركيبة «قوة المهام الخاصة ٨٨».

الدبابات الأثيوبية وهي تعبر الحدود، وعلى شروع بطاريات المدفعية في دك المنشآت العسكرية التابعة لاتحاد المحاكم الإسلامية في جنوب غربي الصومال، بدأت «قوة المهمّات الخاصة ٨٨» مهماتها داخل البلاد. وألحق بالمجموعة خبراء في المراقبة من «الثعلب الرمادي»، وحدة التجسس السّرية التابعة للبنتاغون التي ستغيّر في مآل الأمر اسمها الرمزي إلى «قوة المهمات الخاصة البرتقالية». ونقلت المجموعة أجهزة متخصّصة تسمح لها بتعيين مواقع قادة اتحاد المحاكم الإسلامية باعتراض مكالماتهم الهاتفية.

وبالإضافة إلى قوات المهمّات الخاصة، وصلت طائرتا «إي سي-١٣٠» مسلحتان بمدافع ١٠٥ ملم وبرشاشات «غاتلينغ» إلى المطار في شرق أثيوبيا وشنّتا في مطلع كانون الثاني/يناير هجوماً على قرية صغيرة للصيادين في مستنقعات جنوب الصومال[1]. وتحركتا استناداً إلى معلومات بأن عدن حاشي فرح عيرو مختبئ في قرية «راس كامبوني». فتش الجنود الأميركيون والأثيوبيون في الخراب، بعد ساعات على وابل من الصواريخ، فعثروا على جواز سفر عيرو ملطخاً بالدماء. وافترض الأميركيون أنه لن يستمر حياً وقتاً طويلاً لو أنه جرح في الغارة، لكن لم يثبت أحد من المكان الذي ذهب إليه. ونفذت طائرات «إي سي-١٣٠» المسلحة غارة ثانية بعد ذلك بأسبوعين مستهدفةً قائداً إسلامياً آخر، لكن الهجوم أدى إلى قتل مدنيين بدلاً من الهدف المرجو.

جاءت المهمّات الخفية في الصومال في مطالع ٢٠٠٧ بنتائج مختلطة. ساعد الجنود الأميركيون والاستخبارات الهجوم الأثيوبي عبر جنوب الصومال وأدى ذلك إلى الانسحاب السريع لقوات اتحاد المحاكم الإسلامية. لكن مهمّة القيادة المشتركة للقوات الخاصة فشلت في أسر أو قتل أي من كبار القاعدة الإسلاميين أو عناصر خلية القاعدة المسؤولين عن تفجيري السّفارتين في ١٩٩٨. وأمكن، تماماً، بما هو أبعد من المطاردة الضيقة، اعتبار الاحتلال الأثيوبي للصومال الأكبر كارثة.

ساندت إدارة بوش العملية سرّاً اعتقاداً منها أنه في وسع الجنود الأثيوبيين إخراج

(١) Michael R. Gordon and Mark Mazzetti, "U.S. Used Base in Ethiopia to Hunt Al Qaeda", *The New York Times* (February 23, 2007).

اتحاد المحاكم الإسلامية من مقديشو وتوفير الحماية العسكرية للحكومة الانتقالية التي تدعمها الأمم المتّحدة. حقّق الغزو ذلك الهدف الأول، لكن الحكومة الأثيوبية الفقيرة لم تمتلك مصلحة كبيرة في إنفاق المال لإبقاء جنودها في الصومال لحماية الحكومة الانتقالية الفاسدة. وفي غضون أسابيع على انتهاء القتال أعلن كبار المسؤولين الأثيوبيين أنهم حقّقوا أهدافهم العسكرية وشرعوا في الحديث علناً عن الانسحاب.

شن الجيش الأثيوبي حملة دامية وعشوائية ضد أبغض أعدائه. واستخدم الجنود الأثيوبيون تكتيكات مدينية غير ملائمة، ورموا بقذائف المدفعية في الأسواق المكتظة والأحياء الكثيفة وقتلوا آلاف المدنيين. وانهار الانضباط في الصفوف الأثيوبية وشرع الجنود في ثورة من النهب والاغتصابات الجماعية. وتحدّث شاب في مقابلة أجرتها معه منظمة «هيومان رايتس ووتش» التي لا تتوخى الربح أنه شاهد الأثيوبيين يقتلون والده ثم يغتصبون والدته وشقيقاته[1].

تحوّل احتلال الجنود الأثيوبيين المكروهين إلى ازدهار في عملية التجنيد التي يقوم بها «الشباب» الذين تعاظمت قوتهم. وزرع المتمرّدون عبوات ناسفة على الطرقات واستخدموا وسائل حرب العصابات، التي استخدمها بنجاح كبير المقاتلون في العراق وأفغانستان. واندفع المقاتلون الأجانب إلى الصومال. واستحضرت المواقع الجهادية على الأنترنت اسم «أبو رغال»، الخائن الشّهير في الدين الإسلامي الذي ساعد الجيش الأثيوبي في السير إلى مكة. وجاء المقاتلون من المغرب ومن الجزائر.

وجاؤوا أيضاً من مينيسوتا. ولم يمض وقت طويل على الغزو الأثيوبي حتى صعد عشرون طالباً أميركياً من حي مقديشو الصغيرة في مينيابوليس إلى الطائرات وتوجهوا إلى الصّومال للجهاد ضد المسيحيين الغزاة. ومن بينهم شروى أحمد، الذي ترك الدراسة في المعهد الحكومي وأحب كرة السلة وأمضى معظم أيامه يقوم بأعمال متفرقة ويحفظ كلمات أغاني الراب. وقد بلغ به الحنق أوجه من جراء وصول الأثيوبيين إلى الصومال فشق طريقه إلى القرن الإفريقي حيث التحق بـ «الشباب».

(١) Human Rights Watch, "So Much to Fear: War Crimes and the Devastation of Somalia", December 8, 2008; Bronwyn Bruton, "Somalia: A New Approach", 9.

وقاد، في تشرين الأول/أكتوبر من السنة التالية سيارة محملة بالمتفجّرات وصدم بها مبنى حكومياً في بونتلاند، وهي منطقة في شمال الصومال.

وبات أول مفجّر انتحاري أميركي على الإطلاق.

٩: القاعدة

«ماذا قد يفعل العنكبوت في قفر من المرايا، هل يعلّق مهامه، وهل تتعطّل الخنفساء؟».

- تي. أس. إيليوت، «جيرونشون» Gerontion

لم يتأخر أرت كيلر كثيراً ليتعلّم ما أصبح القاعدة الأولى لضباط الـ «سي. آي. إيه» الذين يخدمون في باكستان: كلّ يوم تمضيه في البلاد تعرف فيه أقل مما عرفته في اليوم السابق. وما إن تنتهي فترة مهمتك حتى لا تعرف شيئاً.

عندما هبطت هليكوبتر كيلر، بحلول منتصف ٢٠٠٦، في قاعدة الـ «سي. آي. إيه» على مقربة من «وانا»، في المنطقة القبلية في جنوب وزيرستان، كانت عمليات الاستخبارات في باكستان قد أصبحت نسخة القرن الواحد والعشرين لـ «قفر المرايا»، بحسب جايمس جيزوس أنغلتون. وقد أعاد أنغلتون، الرئيس الأسطوري والعديم الرحمة السابق لمكافحة التجسس في الـ «سي. آي. إيه»، صوغ نص محبوبه تي. أس. إيليوت لوصف الخداع والخيانة والولاءات المنقسمة لعالم تجسس الحرب الباردة. ولم تكن ألعاب التجسس في باكستان، بعد ذلك بعقود، أقل تسبّباً بالجنون في ممارستها.

شكّل كيلر الصبياني المظهر مرشحاً بعيد الاحتمال للإنزال في وسط الجبال الباكستانية في الوقت الذي أخذت القاعدة تحول المنطقة إلى قاعدة جديدة لعملياتها. لم يسبق لقدمه أن وطئت باكستان من قبل، وهو لا يتحدث أياً من اللغات المحلية، كما أن خبرته – في برنامج الصّواريخ الإيرانية – لن تنفعه كثيراً في «وانا». وقد أخذت حرب العراق ضباط الحالة في الـ «سي. آي. إيه» ممن لديهم خبرة في الشّرق الأوسط

من أفغانستان وباكستان، فأصبح الجهاز الخفي يسعى يائساً وراء العناصر. وهكذا تطوّع أرت كيلر للذهاب إلى أفغانستان. لكنه عُيّن في باكستان.

قال: «الشخص المثالي الذي تريد منه الجلوس في القاعدة هناك هو ذلك الذي يتحدث الداري أو الأوردو أو البشتو، ولديه سنوات من الخبرة، وعلى معرفة بالهدف».

«وها إنك بدلاً من ذلك تحصل عليّ»(١).

التحق كيلر بالـ «سي. آي. إيه» في ١٩٩٩ بعد عقد من التسكع بين الجيش والمعهد والصّحافة. تخرج في الثانوية يحدوه اهتمام بالشّؤون الدولية من دون أن يمتلك فكرةً واضحةً عما يريد فعله في الحياة والتحق بالجيش في مطلع التسعينيات وهو شبه مقتنع بأنها طريقة تخلو من المخاطر لكسب المال من أجل المعهد. وقال: «ها أنا، بعد ذلك بثمانية عشر شهراً أجلس في وسط الصحراء متسائلاً: كيف انتهى بي المطاف إلى هنا؟»(٢).

أدى دوراً بسيطاً في عملية عاصفة الصّحراء التي طردت سريعاً الجنود العراقيين من الكويت. وأُلحق بسرّية تجهيز المظلات، إلا أن الحاجة انتفت إلى عمل المجموعة بسبب عدم القيام بعمليات إنزال جوي في الحرب. ونُقلت وحدته، عشية القتال، إلى وسط الصحراء السّعودية وطلب منها حراسة قاعدة اللوجستيات، التي تُستخدم لإمداد الدبابات الأميركية في غزوها للعراق.

التحق، بعد تركه الجيش، بجامعة شمال أريزونا وقرر أن عليه أن يصبح مراسلاً صحافياً أو يلتحق بالـ «سي. آي. إيه». وتسلّم وظيفة في قسم الرياضة في ذي أريزونا ريبابليك؛ وفيما هو على وشك الانتقال إلى القسم السّياسي اتصلت به الـ «سي. آي. إيه» وأبلغته أنه تمت الموافقة على طلبه.

أُلحق بقسم مكافحة انتشار الأسلحة التابع للوكالة العامل على وقف انتشار أسلحة القتل الجماعي. وعُيّن للمرة الأولى في مركز في الخارج في فيينا المقر الرئيسي للوكالة الدولية للطاقة الذريّة. وافتُرض بضباط محطة فيينا في الـ «سي. آي. إيه» إيجاد مصادر

(١) تأتي معلومات هذا الفصل عن تجارب أرت كيلر في شمال وجنوب وزيرستان من مقابلة أجراها المؤلف معه.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع أرثر كيلر.

داخل الوكالة الدولية لتبيان مداولاتها السّرية. إلا أن الـ «سي. آي. إيه» أخذت بعد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر في تزويد الوكالة الدولية بعضاً من أكثر معلوماتها حساسية لحمل الجهاز الدولي على معاقبة أنظمة مثل تلك الموجودة في إيران والعراق وكوريا الشّمالية.

طوّر كيلر معرفة وثيقة بجهود طهران لتطوير الصواريخ البالستية، لكن إيران لم تحتل في ذلك الوقت رأس لائحة مشاغل الـ «سي. آي. إيه». وفي أواخر صيف ٢٠٠٢ عاد رئيس كيلر في فيينا من رحلة إلى لانغلي والتقى مجموعة من الضباط داخل محطة الوكالة.

واستذكره كيلر وهو يسأل، «أتعرفون عن الإشاعات التي تتعلق باحتمال حدوث غزو للعراق وحرب؟ ستسمعون بعض الأمور الغريبة الصادرة عن مقر القيادة لأنهم يخضعون لضغط لا يُعقل لإيجاد الدليل الذي يبرّر ذلك».

وسأل رئيس كيلر، «أتعرفون المشهد في فيلم «داس بوت» (*Das Boot*) وهم في قعر المحيط والبراشيم تتفلّت من الغواصة فيما يحدث إطلاق للنار داخلها؟ ذلك ما يجري في مقر القيادة الآن بالذات».

وسيقوم كيلر بمهمّتين وجيزتين في العراق في إثر الغزو المشؤوم، إحداهما كعضو في مجموعة التفتيش في العراق، وهو فريق الباحثين عن الأسلحة بقيادة الـ «سي. آي. إيه» الذي أمضى ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ في الدوريات على المواقع الصحراوية بحثاً عن برنامج الأسلحة الكيماوية والبيولوجية الوهمية لصدّام حسين. وأمكن كيلر القول منذ البداية إن الجهد بلا جدوى: فالعلماء العراقيون الذين امتلكوا كل سبب لإظهار مخازن الأسلحة للأميركيين – فتكافئهم الـ «سي. آي. إيه» بالأموال النقدية وربما بإعادة توطينهم – أسرّوا لمجموعة التفتيش على أنه لا وجود للأسلحة. لكن كيلر وغيره من الضباط سيستجوبون مرّتين وثلاثاً العلماء أنفسهم بما يسمح للانغلي بتضخيم أعداد المرات التي يجري فيها التفتيش مواجهاته. وهو ما سمح أيضاً للرئيس بوش ونائبه تشيني بالقول في العلن إن عملية البحث عن الأسلحة في العراق لا تزال مستمرة.

تقع قاعدة الـ «سي. آي. إيه» المغبرّة في جنوب وزيرستان التي بلغها كيلر في ٢٠٠٦، في البلدة نفسها التي قصفها الجنود الباكستانيون بالمدفعية وبالطائرات

المسلحة في معركتهم مع مقاتلي نك محمد في ٢٠٠٤، وعلى مقربة من المدرسة الدينية في «شاكاي» حيث وافقت قوات الحكومة على وقف النار مع رجال القبائل الوزيريين. ودخل، مع وصول كيلر إلى المكان، اتفاق سلام هشّ آخر حيّز التنفيذ. وتم التفاوض على الأخير بين الجنود الباكستانيين وبيت اللّه محسود، وهو زعيم حرب عصابات شاب آخر التقط الراية الدامية بعد مصرع نك محمد بغارة أميركية شنتها في ٢٠٠٤ طائرة لـ«سي. آي. إيه» تطير بلا طيار. لم يف محسود قط بشروط الاتفاق واكتفى باستغلال وقف النار لتوطيد سلطته في جنوب وزيرستان والتخطيط لهجمات كرّ وفرّ على الجنود الباكستانيين. لكن قيادة الجيش الباكستاني لم ترغب في ٢٠٠٦ في معركة أخرى في المناطق القبلية، وهكذا عندما وصل أرت كيلر إلى «وانا» لم يتمتّع الجنود الباكستانيون والجواسيس بالكثير من الشهية لتحريك وكر الدبابير.

وسادت نتيجة ذلك علاقات كئيبة بين ضباط الـ«سي. آي. إيه» والعملاء المحليين للاستخبارات الباكستانية في جنوب وزيرستان. واطلع كيلر لدى هبوطه في «وانا» على مدى سوئها عندما استمع إلى إيجاز من الرجل الذي سيحل محله، وهو ضابط سليط اللسان أكبر منه سناً اسمه جين. وأبلغ جين كيلر أن الجنود الباكستانيين يقومون بالقليل من الدوريات ويكادون يقضون معظم أيامهم داخل الثكن المحمية. وقال إن الجيش الباكستاني والجواسيس لم يريدوا، بغض النظر عن مدى إلحاحه، تحدي سلطة الدويلة التي يبنيها بيت اللّه محسود في جنوب وزيرستان.

ولم يكن محسود، على عكس نك محمد، يهوى وسائل الإعلام. وأعطى مقابلات قليلة ورفض، بحسب تقاليد الإسلام المتشدد، أن تُلتقط صورته. وبالكاد تمتع بأي تعليم، حتى أنه لم يمض وقتاً كبيراً في المدرسة الدينية، وقاد مع ذلك في ٢٠٠٦ فرقة من نحو خمسة آلاف مسلح قبلي شديدي الولاء. ولم يتسامح مع أي معارضة وأمر بمطاردة الفارين وقتلهم. بل سادت الشّكوك بأنه ساعد القوات الباكستانية على أسر معلّمه السابق عبداللّه محسود، المقاتل ذي الساق الواحدة الذي أطلقته الولايات المتّحدة في ٢٠٠٤ من خليج غوانتنامو، ليتمكن بيت اللّه من الاستيلاء على السلطة في جنوب وزيرستان. ووضع عبداللّه، عندما طوق الجنود الباكستانيون منزله في بالوشستان، قنبلة يدوية عند صدره وسحب عتلة الأمان[1].

(١) Amir Latif, "Pakistan's Most Wanted", *Islam Online* (January 29, 2008).

وتوسعت سلطة بيت اللّه محسود ونفوذه في شكل كبير بعدما توحدت مجموعة من جماعات عسكرية أصغر تزعمها محسود تحت اسم «تحريك-إي-طالبان باكستان» وعُرفت في شكل عام باسم طالبان باكستان. وعلى عكس طالبان أفغانستان، الذين يقودهم الملا عمر ويتمتّعون بالرعاية السرّية من الاستخبارات الباكستانية، هدفت الجماعة الجديدة إلى إخراج الجنود الباكستانيين والجواسيس من المناطق القبلية باستخدام المفجرين الانتحاريين في إسلام آباد وكراتشي وغيرهما من المدن بما يشبه إرسال بطاقات الزيارة الدامية. وأطلقوا على الأمر اسم «الجهاد الدفاعي»، أي إنه صراع لحماية طريقة الحياة القبلية من جنود الجيش الباكستاني الذين يعتبرونهم أجانب في أرضهم.

حازت الجماعة بعضاً من العلاقات أو المؤيدين خارج المناطق القبلية، إلا أنه اتضح في ٢٠٠٦ من الذي يتولى المسؤولية في «وانا». فقد طبّق مؤيدو بيت اللّه محسود عدالة قاسية في أنحاء جنوب وزيرستان كافة، وجابوا المكان يغتالون أي رئيس قبيلة يُشتبه في تعاونه مع الأميركيين أو مع الحكومة الباكستانية. وشُنق اللصوص في ساحات القرى، ورُجم الزّناة، وباع تجار «وانا» علناً أسطوانات مدمجة مروعة بالأوردو تصوّر عمليات قطع رؤوس كشافة الجيش الباكستاني. وشكلت أفلام القتل الحقيقي في جزء منها دعاية وفي جزء آخر تخويفاً، وجاءت بمنزلة رسالة فظة تفيد بأن على الجيش البقاء في ثكناته وترك السيطرة للقبائل. وأجبر بيت اللّه محسود الحلاقين في «وانا» على تعليق لافتات على محالهم تعلن أنه بما أن الشريعة تحرم الاعتناء بالوجه، فإن خدمات تشذيب اللحى لم تعد متوافرة. وشاهد الحلاقون الذين رفضوا ذلك حوانيتهم وهي تحترق. وجاء دليل آخر على سيطرة المقاتلين أكثر رتابة: تلقت قاعدة كيلر إمداداتها من النفط مرة وحسب كلّ أسبوعين، وسمح المحاربون في الأيام المحددة لشاحنات الجيش الباكستاني باستخدام الطرق.

كان مركز الـ «سي. آي. إيه» كنايةً عن مجمع من الأجرّ داخل القاعدة العسكرية الباكستانية الأكبر في «وانا». وحرست مفرزة صغيرة من قوات العمليات الخاصة الباكستانية المباني الأميركية، لكن سرعان ما أدرك كيلر أن الجنود سجّانون أكثر مما هم حماة لأنه لم يُسمح قط لضباط الـ «سي. أي. إيه» بالخروج من القاعدة. ووُجدت

داخل المجمع كتلة صغيرة من الغرف أكل فيها الأميركيون وناموا واتصلوا برؤسائهم مستخدمين أجهزة راديو وحواسيب مأمونة لمنع الاستخبارات الباكستانية من اعتراض بثهم. وفاحت في القاعدة الصغيرة رائحة الصرف الصحي من التسرّب في المجاري وغالباً ما غطت قطع الجص المتساقطة من السقف الأسرّة والصحون وأجهزة الاتصال. وحاول جين مرة إقناع محطة الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد بصرف المال لبناء ملعب للسكواش في القاعدة. وحاجّ بأنه نظراً إلى شعبية السكواش في صفوف الجيش الباكستاني، فإن الملعب قد يساعد ضباط الـ «سي. آي. إيه» على بناء علاقة مع نظرائهم. لكن الطلب جوبه بالرفض.

تدهورت علاقة كيلر منذ البداية مع نظيره الرئيسي في الاستخبارات الباكستانية، ومرد ذلك في جزء كبير منه إلى مقلب لعبه جين قبل أن يغادر جنوب وزيرستان. ففي يوم رحلة مغادرته «وانا» بالهليكوبتر سلم جين إلى كيلر ملاحظة كتبها بالأوردو وطلب منه تسليمها إلى ضابط الاستخبارات الباكستانية في لقائهما الأول. لم يمتلك كيلر أي فكرة عن فحوى الملاحظة، لكنه أطاع وسلمها في خلال الاجتماع. لم يُسر رجل الاستخبارات الباكستانية جداً، وهو من قبيلة ختّاك. وترجم الملاحظة لكيلر.

وجاء فيها، «لا يمكنك الوثوق بختّاك لعين».

«اعتقد جين أن الأمر مضحك»، قال كيلر. «شكراً جزيلاً يا جين».

تحقق معظم عملية جمع الاستخبارات التي أشرف عليها كيلر في الوقت الذي أمضاه في جنوب وزيرستان من دون موافقة جهاز الاستخبارات الباكستانية، نظراً إلى الارتياب المتراكم بين الأميركيين والباكستانيين في «وانا». وسبق لجين أن أمرّ له معلومات تتعلق بالاتصالات وبأسماء العملاء الباكستانيين، الذين زرعتهم الـ «سي. آي. إيه» في المنطقة – وهي شبكة باتت الآن في يد كيلر ليديرها. لكن بالنسبة إلى جاسوس أميركي أبيض في «وانا» فإن إدارة شبكة من العملاء الباكستانيين من دون اطلاع الاستخبارات الباكستانية أمر صعب. فلا يمكن العملاء المجيء إلى قاعدة الـ «سي. آي. إيه» لأن الاستخبارات الباكستانية ستكتشفهم وتوقفهم، كما إن أي محاولة من كيلر للاجتماع بهم خارج القاعدة ستمثل أيضاً خطراً عليهم.

وفي المقابل، تمتع ضباط الـ«سي. آي. إيه» العاملون في المقلب الآخر من الحدود بزمن أكثر سهولة بكثير. وبحلول ٢٠٠٦ كانت الوكالة قد أقامت سلسلةً من القواعد الصغيرة في شرق أفغانستان، في مدن مثل خوست وأسد آباد، يُرسل منها العملاء عبر الحدود لجمع المعلومات في المناطق القبلية. وتمكن الأميركيون من التقاء عملائهم في القاعدة أو في البلدات المجاورة. وشرعت الـ«سي. آي. إيه» في إرسال «محللي استهداف» من لانغلي إلى قواعد إطلاق النار في أفغانستان كلُفوا التدقيق في المعلومات، التي تجمعها المصادر البشرية في المناطق الداخلية وصهرها مع المعلومات التي تلتقطها الأقمار الصناعية، أو مراكز التنصت في محاولة لتحديد مواقع المسلحين في «باجور» ووزيرستان. وبعد ذلك بثلاث سنوات، تحوّل اجتماع مع رجل اعتقدت الـ«سي. آي. إيه» أنه عميل رفيع المستوى لكنه يعمل في الواقع للمسلحين إلى وضع مريع في كامب تشابمان، وهو إحدى القواعد في خوست. وقُتل سبعة موظفين في الـ«سي. آي. إيه» عندما فجّر العميل، وهو طبيب أردني، سترة انتحارية ناسفة. وشكّل ذلك اليوم الأشد فتكاً منذ الهجوم على سفارة الولايات المتّحدة في بيروت في ١٩٨٣.

واعتمد كيلر في شكل كامل، في غياب خيار الاجتماعات، في التواصل مع عميله الرئيسي على الاتصالات الحاسوبية، وحافظ على شبكة متقنة من الوسطاء من دون أي اتصال وجهاً لوجه مع مصادره طوال الأشهر التي أمضاها في جنوب وزيرستان. وشبّه تجربته بتلك التي خاضها المراسلون الغربيون في بغداد في خلال أحلك أيام حرب العراق: اعتمدوا، وهم غير قادرين على التحرك بحرية في الشوارع، على المراسلين المحليين العراقيين لجمع المعلومات والتصريحات.

وسيرسل كيلر، في حالته، رسالة إلى مهندسي الكمبيوتر في الـ«سي. آي. إيه» الذين سيُرمّزونها ويرسلونها من ثم إلى عميل الـ«سي. آي. إيه» الباكستاني الذي سُلّم جهاز اتصال خاصاً لتلقي بثه. ودُفعت عدة مئات من الدولارات شهرياً للرجل الباكستاني، لكن جزءاً من ذلك المال استُخدم لتوظيف عملاء آخرين (أو «عملاء فرعيين») لجمع المعلومات عن تحركات عناصر القاعدة في جنوب وزيرستان. ولم يعرف العملاء الفرعيون أي شيء عمن يعملون له، وربما اعتقدوا أن مالهم مصدره جهاز

الاستخبارات الباكستاني. وسيصبح كيلر أحياناً معزولاً بثلاث طبقات أو أربع عن العميل الفرعي الأقرب إلى هدف المراقبة.

استهدفت الـ «سي. آي. إيه» في شكل أساسي، في خلال وجود كيلر في جنوب وزيرستان، كيميائياً مصرياً يُلقّب بأبي خباب المصري. وهو عضو في الحلقة الداخلية لبن لادن، وأدار في السابق معسكر دارونتا التابع للقاعدة في أفغانستان، حيث قامت المجموعة باختبارات على الأسلحة الكيماوية وغيرها من السموم. واعتُقد أنه مختبئ في جنوب وزيرستان ووضعت الولايات المتّحدة جائزة على رأسه قيمتها خمسة ملايين دولار. لكن الـ «سي. أي. إيه». لم تعرف تقريباً أي شيء عن صفاته؛ واعترف مسؤولون أميركيون في مطلع ٢٠٠٦ أنهم استخدموا خطأ الصورة غير الصحيحة للمصري في ملصق طلب رأسه[١]. واستُبدلت الصورة على الملصق برسم ظلّي أسود.

اضطر ضباط الـ «سي. آي. إيه» في جنوب وزيرستان، وهم لم يمتلكوا الكثير للانطلاق منه، إلى الاعتماد بقوة في الغالب على معلومات غير مؤكّدة من مصادر غير مدقق فيها. وتمثلت إحدى الإخباريات التي تلقاها كيلر في أن المصري يزور من وقت إلى آخر متجراً معيّناً في بازار «وانا». وطلب من عميله الباكستاني استخدام عميل فرعي يعيش في الجوار ولديه سبب لزيارة المتجر. وجُهّزت عملية لمراقبة المتجر ولتحديد هل المصري يزوره فعلاً بانتظام ولالتقاط صورة له. ثم قضت الخطة بوضع جهاز مراقبة لتحديد من قد يحاول المصري الاتصال بهم.

لم يعرف كيلر قط هل أعطت العملية في مآل الأمر ثمارها، أم هي جزء من عملية أوسع لاصطياد المصري. ولا يتم عادة إطلاع الضباط في القواعد الفردية على العملية التي تدار في مدن لا تبعد حتى أكثر من عشرات الأميال عنهم وتوجد فيها قواعد أخرى لـ «سي. آي. إيه»، كما أنه لم يمتلك وصولاً إلى حركة البرقيات السرية في بقية البلاد. فمجال رؤية كيلر كان ضيقاً وقام بإخلاص بإرسال تقاريره الاستخبارية إلى المحللين في إسلام آباد لاستخدامها قطعة واحدة من مجموعة قطع الفسيفساء.

وتلك تركيبة جاهزة للإسناد الدائري. وفي إحدى المرات أمرّ مصدر فرعي لكيلر

(١) Lisa Myers, "U.S. Posts Wrong Photo of 'al-Qaida Operative'", *MSNBC* (January 26, 2006).

إخبارية بأنه تمت مشاهدة أسامة بن لادن في وادي «دير»، في المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية. أرسل كيلر برقية إلى إسلام آباد مقترحاً أن ترسل الـ «سي. آي. إيه» عميلاً إلى «دير» للتحقّق من الإخبارية.

حنق رئيس محطة إسلام آباد لدى تسلمه البرقية؛ فالإخباريات المتعلقة بين لادن أشبه برؤية إلفيس، وتثير الاهتمام صعوداً إلى لانغلي. ودُفع ضباط الـ «سي. آي. إيه» في باكستان إلى التحقيق حتى في أكثر الإشاعات ضبابية في شأن بن لادن، وسبق أن تم التحقق قبل أشهر من إخبارية وادي «دير» – وكشف زيفها. وها إنه يُطلب من محطة إسلام آباد أن تشرح لزعماء الـ «سي. آي. إيه» المتحمسين لماذا يجب تجاهل برقية كيلر. وطار رئيس المحطة شخصياً إلى «وانا» لتوبيخ كيلر متصوّراً أن ذلك يستحق الرحلة المتخبطة بالهليكوبتر.

واستذكر كيلر أنها «إشاعة عملوا طويلاً وبمشقة على دق إسفين فيها. وأنا أعدت إحياءها كمصّاص الدماء».

لم يعرف كيلر أنه مجرد جزء واحد من عملية كبيرة قامت بها الـ «سي. آي. إيه» في ٢٠٠٦ لإعادة التركيز على مطاردة بن لادن عبر زيادة كبرى في عدد ضباط الحالة في باكستان وأفغانستان. واتضح في شكل مؤلم لكبار الضباط في لانغلي أن حرب العراق نقلت الاهتمام بعيداً من مطاردة رجال القاعدة، كما أن مطاردة بن لادن تعرّضت أيضاً للإزعاج من جراء مشاكل داخل الـ «سي. آي. إيه». وأخذ الضباط الخفيون المتمركزون في إسلام آباد في الخصام مع ضباط من مركز مكافحة الإرهاب في لانغلي الذين تعرض تفضيلهم غارات الـ «بريداتور» للسخرية من ضباط في محطة إسلام آباد على أنه من عمل «صبية وألعابهم»[1]. واعتقد رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد أن غارات الطائرات التي تطير بلا طيار في ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ – ولو أنها غير متكررة في ذلك الوقت، لكنها استندت في الغالب إلى معلومات سيئة نتجت منها إصابات كثيرة في صفوف المدنيين – لم تفعل الكثير سوى تغذية الحقد على الولايات المتّحدة داخل

(١) أطلقت على مركز مكافحة الإرهابيين في الـ «سي. آي. إيه» تسمية مختلفة وهي مركز مكافحة الإرهاب، عام ٢٠٠٥.

باكستان ووضع المسؤولين الباكستانيين في وضع غير مريح يضطرون معه إلى الكذب في شأن الغارات[1].

كما أن مقر القيادة شهد هو الآخر حالةً من الاختلال الوظيفي. وانتقلت المعارك بين عناصر مديرية العمليات – التي تشرف على الجواسيس في الميدان – ومساعدي بورتر غوس إلى العلن من خلال التسريبات الصحافية، كما أن مديرية العمليات خاضت معارك على النفوذ مع أقسام أخرى في الوكالة. ودعا بورتر غوس في أواخر ٢٠٠٥ إلى خلوة إدارية لجميع كبار قادة الوكالة في خطوة تهدف إلى التخفيف من التوتّرات بين فريقه القيادي. وفي الاجتماع اشتكى نائب المدير لشؤون الاستخبارات – رئيس المحللين الذين يتولون تجميع التقارير من الميدان – صراحة من غطرسة الضباط الخفيين الذين قال إنه يمكنهم الحصول على كل ما يريدونه. وانفجر رئيس العمليات خوسيه رودريغيز. وصاح، «استيقظ واستنشق رائحة القهوة اللعينة!» مذكّراً جميع من في الغرفة أن ضباطه الخفيين يعملون «على رؤوس الأشهاد» بعكس المحللين الذين ينظرون إلى العالم من مكاتبهم.

(١) أخذت النزاعات تنشب أيضاً بين ضباط الـ «سي. آي. إيه» في أفغانستان وأولئك الموجودين في باكستان، وهي معارك شكلت انعكاساً للبغضاء بين البلدين على جانبي الحدود التي يسهل اختراقها. وأخذ رئيس المحطة في كابول، غريغ، يكتب، في معظم ٢٠٠٥، تقارير عن نوبات العنف في أفغانستان ويلوم في ذلك عجز باكستان عن السيطرة على المسلحين الذين يعبرون من المناطق القبلية إلى أفغانستان. وأخذ ضباط الـ «سي. آي. إيه» في كابول يتلقّون أيضاً تقارير مرعبة عن تواطؤ باكستان في الهجمات من أمر الله صالح، مدير الاستخبارات الأفغانية وهو مقاتل سابق في تحالف الشمال يحتقر باكستان وروابطها التاريخية بالطالبان. وارتبط غريغ بعلاقة وثيقة في شكل استثنائي بالرئيس حامد كرزاي، كما أن كرزاي يعتقد حتى أنه مدين بحياته لغريغ. ففي ٢٠٠١، عندما كان غريغ عضواً في فريق القوات الخاصة الذي زُرع في أفغانستان في بداية الغزو الأميركي أنقذ كرزاي من القتل بقنبلة وضعها الطالبان. واعتقد شون، رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد، أن العلاقة الوثيقة بين غريغ وكرزاي حرَفت تحليل الـ «سي. آي. إيه» في أفغانستان واتهم غريغ بأنه «يمضي في السلبية» بقبوله نظريات المؤامرة التي تحوكها الاستخبارات الأفغانية عن التدخل الباكستاني في أفغانستان. واعتقد شون أيضاً أن المهمات السرية التي تقوم بها القيادة المشتركة للعمليات الخاصة والميليشيا الأفغانية التي تدربها الـ «سي. آي. إيه» وأطلقت عليها الوكالة اسم فرق المطاردة المناهضة للإرهاب، تشكل مخاطرة غير ضرورية وتهدّد بطرد الـ «سي. آي. إيه» من باكستان. وبلغت الحالة القبلية حداً من السوء أوجب تدخل بورتر غوس الذي استدعى شون وغريغ معاً إلى اجتماع في تموز/يوليو في مقر القيادة المركزية في قطر كطريقة لوضع الرجلين في الغرفة نفسها وتخفيف التوترات بين المركزين المتبارزين.

وتسبب تقلّب رودريغيز أحياناً بالمشاكل داخل الفرع الخفي نفسه، وكاد، في مطلع ٢٠٠٦، لا يتحدث مع روبرت غرونييه الرجل الذي عينه لرئاسة مركز مكافحة الإرهاب. والأخير، وهو رئيس محطة سابق في إسلام آباد، رجل مثقّف ومفكّر - ونقيض رودريغيز في عدة أوجه. وقد حثّ على توسيع بؤرة جهاز مكافحة الإرهاب التابع للـ «سي. آي. إيه» إلى ما هو أبعد من أفغانستان وباكستان، مصدراً الأوامر إلى المزيد من الضباط للتركيز على التهديدات الآخذة في الظهور في أمكنة مثل جنوب شرقي آسيا وشمال إفريقيا. واعتقد غرونييه، بالنظر إلى توسع مركز مكافحة الإرهاب منذ ٢٠٠١، أنه يحتاج إلى إعادة الهيكلة للتخلص من الفائض عن الحاجة. وتمت إعادة تنظيم وتسمية وحدة مطاردة بن لادن في الـ «سي. آي. إيه» التي أنشئت في التسعينيات وأطلق عليها الاسم الرمزي «محطة ألك».

واعتقد رودريغيز أن ذلك كله يشكّل إلهاءً عن مطاردة بن لادن. واستبدل غرونييه بضابط آخر من داخل مركز مكافحة الإرهاب، وهو نحيل كثير التدخين ومسرف في العمل يدعى مايك[1]. وأمضى مايك بداية حياته المهنية ضابطاً خفياً في إفريقيا وتحوّل إلى الإسلام[2]. مالت خزانة ثيابه صوب ألوان الأسود والرمادي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى سلوكه العام. ودعاه بعضهم «أمير الظلام»، وهو سيترأس في مآل الأمر عملية القتل الأوسع التي تقوم بها الـ «سي. آي. إيه» منذ حرب فيتنام.

قضت مهمة مايك الفورية، لدى توليه العمل في ٢٠٠٦، بتنفيذ خطة لدعم صفوف الـ «سي. آي. إيه» في أفغانستان وباكستان، والتخلص من المشاحنات بين محطتي كابول وإسلام آباد، وإعادة تنظيم العاملين في مقر قيادة الـ «سي. آي. إيه». وشِيْدَت في خارج الكافتيريا الرئيسية في لانغلي، بعد «ستاربكس» تماماً، مبانٍ ضخمة أشبه بـ «أكواخ كوُنْسِت»[3] لإيواء العدد المتزايد من الموظفين المخصصين لمطاردة بن لادن. وكجزء من هذه الخطة الجديدة، التي سُميت «عملية قذيفة المدفع»، أرسل

(١) لأن مايك لا يزال ضابطاً خفياً فقد اكتفيت هنا باستخدام اسمه الأول.

(٢) Greg Miller, "At CIA, a Convert to Islam Leads the Terrorist Hunt", *The Washington Post* (March 24, 2012).

(٣) مبانٍ جاهزة نصف دائرية مدعمة بالفولاذ. (المترجم)

عشرات المحللين إلى كابول وإسلام آباد للعمل جنباً إلى جنب مع ضباط الحالة الساعين وراء نتف من الأدلة عن أمكنة وجود قادة القاعدة.

إلا أن الأكثر أهمية تمثل بإرسال الـ «سي. آي. إيه» المزيد من الضباط السرّيين إلى الميدان - وأرت كيلر واحد منهم - في محاولة لتطوير المصادر بالاستقلال عن الباكستانيين. وسهل إلى حد كبير، مع خوض الولايات المتّحدة حرباً معلنة في أفغانستان، إدخال المزيد من ضباط الـ «سي. آي. إيه» إلى كابول. غير أن باكستان شكّلت المشكلة الكبرى حيث راقب جهاز مخابراتها من كثب عدد طلبات التأشيرات للمسؤولين الأميركيين الذين يأملون دخول البلاد وراقبوا عن قرب ضباط الـ «سي. آي. إيه» المرسلين لتشغيل محطة إسلام آباد. واحتاجت لانغلي أكثر إلى استنباط طرائق غير مألوفة لتمويه هويات الجواسيس الذين تريد إدخالهم إلى باكستان.

سنحت إحدى الفرص في صباح الثامن من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥ عندما سوّى زلزال كبير في جبال كشمير مدينة مظفّر آباد بالأرض وتسبب بانزلاقات أرضية في أنحاء شمال باكستان. ووضعت التقديرات الأولى للحكومة الباكستانية عدد القتلى عند نحو تسعين ألف شخص من بينهم ١٩ ألف طفل ماتوا عندما انهارت المدارس عليهم[١]. وانهالت مليارات الدولارات من المساعدات على كشمير الباكستانية وعَبَرَ، في شكل شبه فوري، دفق من طائرات الهليكوبتر الأميركية الحدود من أفغانستان لتسليم المساعدة الإنسانية. وأصبحت طائرات الهليكوبتر «تشينوك» مظهراً اعتيادياً في كشمير وشرع الباكستانيون في الإشارة إليها باللهجة المحلية على أنها «ملائكة الرحمة»[٢].

غير أن الأميركيين لم يأتوا في مهمة رحمة وحسب. واستغلت الـ «سي. آي. إيه» في الأشهر التي أعقبت الزلزال جهد الغوث في كشمير لدس ضباط خفيين في البلاد من دون معرفة جهاز الاستخبارات الباكستاني. وتلطى الجواسيس الأميركيون بغطاء مختلف المهن المدنية. وارتابت الاستخبارات الباكستانية بتحول مهمّة المساعدة إلى حصان طروادة لإدخال المزيد من ضباط الـ «سي. آي. إيه» إلى باكستان، لكن ضباط الجيش والاستخبارات في باكستان لم يكونوا، وسط الخراب في كشمير والحاجة الملحة إلى

(١) Earthquake Engineering Research Institute, "EERI Special Earthquake Report", February 2006.

(٢) تقرير عن الرحلة وضعه رئيس الأركان المشتركة الجنرال بيتر بايس، ٣٠ آذار/مارس، ٢٠٠٦.

الإبقاء على إمدادات الإغاثة البشرية، في وضع التشكيك في أوراق اعتماد الأميركيين الواصلين إلى باكستان.

وستمر عدة سنوات قبل أن تبدأ الـ «سي. آي. إيه» بجني ثمار وجودها الموسع داخل باكستان، الذي يبقى على أي حال صغيراً نسبياً. وقدّر مسؤول كبير سابق في لانغلي أن العدد الإجمالي للضباط الخفيين داخل باكستان زاد بنسبة ١٠ إلى ٢٠ بالمئة فقط في خلال «عملية قذيفة المدفع». وخشي مسؤولو الـ «سي. آي. إيه» في تلك الفترة أن يشجّع إغراق البلاد بالكثير جداً من الجواسيس الاستخبارات الباكستانية على المزيد من المراقبة.

لكن الـ «سي. آي. إيه» واجهت مشكلة في إخفاء أحد مواطن ضعفها. فهناك عدد محدود من الضباط المتمرسين لإرسالهم إلى أفغانستان وباكستان، وبات الإداريون في لانغلي يسعون يائسين إلى العناصر بحيث أخذوا ضباط حالة حديثي العهد - متخرجون جدد في «المزرعة» في كامب بيري - وأرسلوهم إلى الميدان. «اضطررنا إلى وضع أناس في الميدان لديهم مستويات من الخبرة أقل من المثالية»، استذكر أحد المسؤولين عن العملية، «لكن لم يوجد الكثيرون للاختيار من بينهم».

تمثل أحد مظاهر المطاردة التي أعيد تنظيمها بمحاولة اختراق شبكة السُعاة التي استخدمها بن لادن لنقل الرسائل إلى أتباعه. وأخذت الـ «سي. آي. إيه» تجمع نتفاً من المعلومات عن سعاة بن لادن المفضلين ما سمح للوكالة بالشروع في تعقب عملاء القاعدة في باكستان لتظهير صورة أغنى عن طريقة عمل الصف الثاني والثالث في المجموعة الإرهابية. وعندما تولى الجنرال مايكل هايدن الـ «سي. آي. إيه» من بورتر غوس في ربيع ٢٠٠٦، كانت الوكالة قد «طورت في ٢٠٠٦ المزيد الأكبر من الاختراقات، والمزيد الأكبر من معرفة القاعدة أكثر مما فعلت في ٢٠٠١ أو ٢٠٠٢»، حسبما قال هايدن. «شرعنا في الواقع في تطوير مصادر جيدة للمعلومات»[1].

وأعدت الـ «سي. آي. إيه» والاستخبارات الباكستانية، بعد فترة قصيرة على زيارة هايدن باكستان في آب/أغسطس ٢٠٠٦، عملية مشتركة لتوقيف رشيد رؤوف الرأس المدبّر لمؤامرة إرهابية لتفجير حفنة من الطائرات العابرة للأطلسي من لندن باستخدام

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع مايكل هايدن.

مزيج قاتل من المسحوق الكيماوي ومشروب الفطور «تانغ». أدار رؤوف المؤامرة من المناطق القبلية متصلاً بالفرق التي ستنفذ المهمة والموجودة داخل المملكة المتحدة. جرى العمل على المؤامرة منذ سنوات وأصبح المتآمرون متهاونين. وتمكنت «أم آي ٥» البريطانية من وضع شبكات لمراقبة المجموعات، واستخدم الجواسيس البريطانيون أجهزة التنصت للاستماع بصبر فيما المؤامرة تتكشف.

عندما التقطت الاستخبارات الباكستانية المعلومة بأن المخططين على وشك تنفيذ الهجوم، أبلغ رئيس الاستخبارات الباكستانية، الجنرال أشرف برويز كياني، خوسيه رودريغيز أنهم على وشك القبض على رؤوف وهو يركب الباص من المناطق القبلية إلى مدينة «بهاوالبور» في البنجاب. وأمر رودريغيز، وهو حينئذٍ في زيارة لإسلام آباد، ضباط الـ «سي. آي. إيه» بإقامة مركز للمراقبة على مقربة من «بهاوالبور» حيث يمكنهم التنصت على الاتصالات التي يجريها رؤوف من هاتفه الخلوي وإرسال المعلومات إلى الجنود الباكستانيين الذين نفذوا عملية توقيف من دون مشاكل[1].

ثارت ثائرة «أم آي ٥» لمعرفتها أن توقيف رؤوف سينذر المتآمرين في بريطانيا. ولم يثق الجواسيس البريطانيون بالاستخبارات الباكستانية كما أنهم لم يعتمدوا عليها، وهي كراهية تعود في جذورها إلى زمن الحكم البريطاني في الهند قبل تقسيمها مع باكستان، وشك البريطانيون في وجود دافع خفي وراء خطوة الجنرال كياني لتوقيف رؤوف. وهرعت الشرطة البريطانية لتوقيف المتآمرين الخمسة والعشرين قبل أن يتفرقوا وتساءلوا عن كلفة القيام بعمليات التوقيف قبل أن يتمكنوا من جمع المزيد من الأدلة لدين المتهمين.

يبقى، مع ذلك، أن إحباط مؤامرة آب/أغسطس ٢٠٠٦، شكل نجاحاً ذا مغزى بالرغم من أنه لم يقرّب الـ «سي. آي. إيه» من العثور على بن لادن. ووصف هايدن تقفّي شبكة السُّعاة بأنه «تسديدة غير مباشرة» للعثور على بن لادن وبدت في الغالب أشبه بمطاردة الظلال - مهمة أفسدتها المعلومات المضللة والنقص في العناصر البشرية[2].

---

(١) Jose A. Rodriguez Jr., *Hard Measures: How Aggressive CIA Actions After 9/11 Saved American Lives* (New York: Threshold Editions, 2012): 8.

(٢) وصف هايدن لمطاردة شبكة السّعاة بأنها «تسديدة غير مباشرة» موجود في: Peter L. Bergen, *Manhunt: The Ten-Year Search for Bin Laden_from 9/11 to Abbottabad* (New York: Crown, 2012): 104.

فعلى سبيل المثال، في السنوات التي سبقت تعقب عملاء الـ «سي. آي. إيه» الباكستانيين أبا أحمد الكويتي إلى مجمّع مترامي الأطراف في مدينة أبوت آباد الظليلة حيث تبين أن بن لادن يختبئ فيها، دُفع محقّقو الـ «سي. آي. إيه» إلى الاعتقاد أن للكويتي قيمةً هامشية. فقد أخبر المخطط الرئيسي لهجمات ١١ أيلول/سبتمبر، خالد الشيخ محمد، من يحققون معه أن الكويتي قد تقاعد. إلا أن قدراً كبيراً من الشك أحيط بما قاله خالد الشيخ محمد لأنه واحد من معتقلي الـ «سي. آي. إيه» الذين تعرضوا لأكثر تقنيات التحقيق تطرفاً، بما في ذلك محاكاة الغرق. كان كلما قال الحقيقة و أخبر المحققين بما يريدونه فقط، يثير جدالاً حاداً داخل الحكومة الأميركية. وبعد ذلك بسنة أكد أحد المعتقلين للمحققين أن الكويتي هو بالفعل الساعي الرئيس لبن لادن. وهي معلومة تمكنت الـ «سي. آي. إيه» في النهاية من التثبت منها في مكان آخر[1].

بالكاد امتلكت الـ «سي. آي. إيه» في باكستان، حتى مع زيادة عديدها هناك، المصادر لتعقب كل دليل، كما أن القيود التي فرضتها الاستخبارات الباكستانية على المراقبة التي يستخدمها الأميركيون صعّبت الأمر أكثر. وشرع أرت كيلر في الفترة التي قضاها في جنوب وزيرستان في فتح ملف أحد المتواطئين مع القاعدة الملقب بحجي عمر، الذي يمتلك بضعة مجمعات في المنطقة قيل إن مسلحي القاعدة يقصدونها. وبعث كيلر ببرقية إلى رؤسائه في إسلام آباد طالباً مراقبة جوية لحركة الدخول والخروج من هذه المجمّعات. فهو لم يكن لديه من المصادر البشرية العدد الكافي لمراقبة المجمع من كثب، كما أن المراقبة البشرية أكثر عرضةً للمخاطر.

وفحوى البرقية، بحسب كيلر، هي «أن هذا الشخص منخرط في لوجستيات القاعدة، وهو حتماً من السعاة، وربما أحد فتياننا. كيف سنعرف ذلك إذا لم نبدأ بمراقبته؟» لكن الاستخبارات الباكستانية رفضت، بوجود اتفاق السلام في جنوب وزيرستان، السماح بتحليق الـ «بريداتور».

شرعت الديناميات في جنوب وزيرستان تعطي كيلر لمحة عن التركيبة البيزنطية لجهاز الاستخبارات الباكستاني، حيث لا تتصل العجلات التي تدور في اتجاه عقارب

(١) Bergen، مصدر سابق، ص ١٠٠.

الساعة بالعجلات التي تدور في الاتجاه الآخر. فغالباً ما ساعد العاملون داخل «المديرية ج» في الاستخبارات الباكستانية ضباط الـ «سي. آي. إيه» على مطاردة عملاء القاعدة. فأسد منير، الرئيس السابق لمحطة بيشاور، كان ضابطاً في «المديرية ج». لكن ساد أحياناً خلاف بين هؤلاء الضباط والجواسيس الباكستانيين التابعين «للمديرية س» التي تولت فترة طويلة رعاية مجموعات مثل الطالبان وشبكة حقّاني و«لشكر طيبة»، التي رأت فيها باكستان وسطاء يؤدون دوراً حاسماً في دفاعها عن الهند[1]. وكانت «المديرية س» هي التي ساعدت على تسليح المجاهدين في خلال الحرب السوفياتية في أفغانستان، وساعدت في توجيه الطالبان في عملية ارتقائهم إلى السلطة في التسعينيات، وعملت في السنوات التي تلت ٢٠٠١ على أن تستمر مختلف المجموعات المقاتلة في تركيز عنفها داخل أفغانستان بدلاً من توجيه ضراوتها ضد باكستان.

يكاد لا يوجد ما هو مكتوب علناً عن «المديرية س»، وبالرغم من أن الـ «سي. آي. إيه» عملت مع عناصر «المديرية س» في خلال الحرب السوفياتية، لم يمتلك الجواسيس الأميركيون سوى صورة انطباعية عن عملياتها. وأمضى بعضهم داخل الـ «سي. آي. إيه» سنوات يجمعون في شكل مهووس شذرات من المعلومات عن «المديرية س». وما اتفق عليه المحللون الأميركيون عموماً هو أن «المديرية س» هي منذ ٢٠٠١ في طليعة استراتيجية الاستخبارات الباكستانية السرية القاضية بالإبقاء على الروابط مع المجموعات المحاربة، التي يمكن أن تخدم مصالح باكستان في المستقبل.

ولا يزال السؤال هل «المديرية س» أمرت في شكل روتيني بالهجمات القاتلة على القوات الأميركية وحلف شمال الأطلسي في أفغانستان خاضعاً لبعض من الجدل، لكن شبكة المراقبة الإلكترونية الأميركية لباكستان – وبشكل أكثر تحديداً لمقر قيادة الاستخبارات الباكستانية – اعترضت في شكل متكرر اتصالات هاتفية بين الجواسيس الباكستانيين وعملاء شبكة حقّاني[2]. وفي العادة ينفي المسؤولون الباكستانيون الدليل

(١) مقابلات أجراها المؤلف مع خمسة مسؤولين حاليين وسابقين في الاستخبارات الأميركية ومع مسؤول باكستاني واحد.

(٢) في ٢٠٠٨، وبعيد اعتراض وكالة الأمن القومي اتصالات تربط عملاء الاستخبارات الباكستانية بشبكة حقاني، تعهد الرئيس الباكستاني آصف علي زرداري أنه ستتم «معالجة» الاستخبارات الباكستانية. وطمأن المسؤولين الأميركيين إلى أنه، وعلى عكس سلفه، لا يعتمد سياسة استخدام الاستخبارات =

أو يقولون إنه من فعل عناصر مارقة في جهاز الاستخبارات، لكنهم حاجّوا في مجالسهم الخاصة بأن على وكالة التجسس العمل مع مجموعات مثل شبكة حقّاني لحماية خاصرة باكستان الغربية. بل إن وكالات التجسس الأميركية اعترضت في ٢٠٠٨ إحدى المكالمات الهاتفية التي أشار فيها الجنرال كياني إلى شبكة حقّاني بوصفها «ذخراً استراتيجياً»[١]. وقال كيلر: «يعلن الكثيرون من الناس داخل الـ«سي. آي. إيه» أن «الاستخبارات الباكستانية وسخة»، ويقول آخرون إنه «يمكن هذه الاستخبارات أن تساعدنا». إلا أنها في الحقيقة كناية عن الأمرين معاً، وتلك هي المشكلة».

وبالمقارنة بجنوب وزيرستان، اختلفت الدينامية بين الجواسيس الأميركيين والباكستانيين في صيف ٢٠٠٦ في شكل هامشي وحسب في شمال وزيرستان حيث لم توقع الحكومة بعد اتفاق سلام مع المحاربين. وعملت الـ«سي. آي. إيه» والاستخبارات الباكستانية في شكل أوثق بعضها مع بعض وتشاركتا في قاعدة في مبنى مدرسة مهجورة في «ميران شاه» على بعد أقل من ميلين من مدرسة ابتدائية تابعة لشبكة حقّاني في البلدة. ومن هناك جمع الجواسيس الأميركيون والباكستانيون الاستخبارات للعثور على شخصية كبيرة أخرى في القاعدة هي خالد حبيب.

أعادت الـ«سي. آي. إيه» تعيين كيلر في شمال وزيرستان بعدما اكتسبت مطاردة حبيب زخمها. لكنه بقي، حتى مع الانتقال، مسؤولاً عن العمليات في جنوب وزيرستان واستمر يدير مصادره عبر رسائل الكمبيوتر. وقام بالأمر نفسه وهو عالق داخل القاعدة في «وانا»، ولا أهمية كبيرة تالياً إذا عمل من بعد. ووجه كيلر وغيره من ضباط الـ سي. آي. إيه» الـ«بريداتور» لمراقبة قوافل الشاحنات والمجمعات المبنية من الطين خارج «ميران شاه» أملاً في الحصول على ما يكفي من المعلومات لطلب الإغارة على خالد حبيب. وجمعت الاستخبارات الباكستانية معلوماتها الخاصة من المصادر البشرية وتم إدماجها في معلومات الـ«بريداتور» والتنصت الإلكتروني.

لكن للتعاون حدوده.. وعندما وصل كيلر إلى «ميران شاه» أعطاه رئيس القاعدة

= لإقامة روابط مع مجموعات الإرهاب. وقال: «نحن لا نصطاد مع الكلاب ونهرب مع الأرانب، كما فعل مشرّف».

(١) David E. Sanger, *The Inheritance: The World Obama Confronts and the Challenges to American Power* (New York: Crown, 2009): 248.

نصيحة. قال: «لا تخبر استخبارات الجيش الباكستاني بأي ما لا تريده أن يصل إلى الطالبان».

اعتُقد أن لاستخبارات الجيش الباكستاني، وهي وحدة مستقلة عن جهاز الاستخبارات، روابط أشد عمقاً مع الطالبان وشبكة حقّاني من تلك التي تربط «المديرية س» بهما. فقبل أسابيع على وصول كيلر إلى «ميران شاه»، أغار جهاز الاستخبارات الباكستاني والـ«سي. آي. إيه» على مدرسة حقّاني ولم يخرجا بشيء. وعلم ضباط الـ«سي. آي. إيه» لاحقاً أن الجواسيس الأفغان حذّروا مسلحي حقّاني من أن الغارة على وشك الوقوع.

وأدرك كيلر تماماً، بالرغم من إحباطه، سبب احتراس باكستان من تفكيك شبكة حقّاني. فالولايات المتّحدة لن تبقى في أفغانستان إلى الأبد، ومن شأن تحويل حقّاني إلى عدو أن يؤدي إلى نتيجتين ممكنتين بالنسبة إلى إسلام آباد، وكلتاهما مريعتان. وتتمثل الحالة الفضلى في أن يجد الجنود الباكستانيون أنفسهم غارقين في حرب لا تنتهي في الجبال ضد جماعة يمكن أن تكون أكثر إفادة بكثير في الجهد الآيل إلى إضعاف النفوذ الهندي في أفغانستان. أما الحالة الأسوأ فهي إمكان أن تمتد الحرب شرقاً فتمارس حقّاني العنف في المناطق الحضرية من باكستان.

وخاف ضباط الجيش الباكستاني أياً من الاحتمالين وبدأوا في أواسط ٢٠٠٦ يناقشون سرّاً اتفاق سلام مع شمال وزيرستان شبيهاً بذلك القائم بالفعل في جنوب وزيرستان. وحذّر كيلر وزملاؤه في الـ«سي. آي. إيه» نظراءهم في جهاز الاستخبارات الباكستاني من أن أي اتفاق سيأتي بعواقب كارثية. إلا أن وجهة نظرهم لم تُحدث الكثير من الوقع. وسمسرت الحكومة الباكستانية لاتفاق لوقف النار في أيلول/سبتمبر، ٢٠٠٦. وقد أُنجز بفضل المفاوضات السرية التي أجرتها شخصية مألوفة من واشنطن، الجنرال علي خان أوركزاي، الرجل الذي عينه الرئيس مشرّف قائداً عسكرياً في المناطق القبلية بعد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، والذي اعتقد دوماً أن مطاردة القاعدة في باكستان وأفغانستان مهمة المغفّل.

تقاعد أوركزاي منذ ذلك اليوم من الجيش وعينه مشرّف حاكماً على المقاطعة الحدودية الشمالية - الغربية ما منحه إشرافاً على المناطق القبلية. واعتقد أوركزاي أن

تهدئة المجموعات المقاتلة في المناطق القبلية، تشكل السبيل الوحيد لوقف انتشار الحالة القتالية في المناطق الحضرية من باكستان. واستخدم نفوذه لدى مشرّف لإقناع الرئيس بحسنات اتفاق السلام مع شمال وزيرستان.

وبقيت مع ذلك الحاجة إلى إقناع واشنطن. وقرر مشرّف أن يأتي معه بأوركزاي في رحلة لإقناع بوش والبيت الأبيض بفضائل اتفاق السلام. وقال أوركزاي لبوش إن اتفاق السلام في شمال وزيرستان سيتكرر في أجزاء أخرى من باكستان ويتيح للقوات الأميركية الانسحاب من البلاد بأقرب مما هو متوقع[١].

انقسم المسؤولون في إدارة بوش، واعتبر بعضهم أوركزاي مسترضياً ضعيف الشخصية - وشبهوه بِنِفِلْ تشامبرلاين المناطق القبلية. لكن قلة منهم رأت أنه يوجد أي أمل في وقف صفقة السلام في شمال وزيرستان. حتى أن الرئيس بوش، بأسلوبه الدبلوماسي الشخصي جداً، خشي في ٢٠٠٦ من إكثار الطلبات على الرئيس مشرّف. وبقي بوش معجباً بمشرّف على قراره في الأيام الأولى لهجمات ١١ أيلول/سبتمبر مساعدة الولايات المتّحدة على مطاردة القاعدة. وحتى بعدما هيأ مسؤولو البيت الأبيض لاتصالات هاتفية منتظمة بين بوش ومشرّف بغية الضغط على الزعيم الباكستاني للاستمرار في العمليات العسكرية في المناطق القبلية، فإن النتيجة خيبتهم في العادة: ونادراً ما طرح بوش مطالب محددة على مشرّف في خلال الاتصالات. وسيشكر مشرّف على مساهماته في الحرب على الإرهاب ويتعهد باستمرار الدعم المالي الأميركي لباكستان[٢].

قضى الرأي السائد لدى كبار مستشاري الرئيس في أواخر ٢٠٠٦ أن الكثير من الضغط الأميركي على مشرّف قد يستجلب سيناريوهاً كابوسياً: انتفاضة شعبية على الحكومة الباكستانية قد تأتي بحكومة إسلامية راديكالية. ولم يواز الإحباط من التعامل مع مشرّف إلا الخوف من الحياة من دونه. وهو خوف غذّاه مشرّف نفسه محذّراً المسؤولين الأميركيين تكراراً في شأن قبضته الضعيفة على السلطة ومستشهداً بنجاته بأعجوبة من عدة محاولات لاغتياله. ومحاولات الاغتيال حقيقية جدّاً لكن استراتيجية

(١) Mark Mazzetti and David Rohde, "Amidst U.S. Policy Disputes, Qaeda Grows in Pakistan", *The New York Times* (June 30, 2008).

(٢) المصدر نفسه.

مشرّف تميّزت أيضاً بالفاعلية الكبيرة في الحفاظ على دفق مستمر من المساعدة وفي إبعاد أي مطالب من واشنطن تتعلق بالإصلاحات الديمقراطية.

تبيّن أن اتفاق السلام في شمال وزيرستان شكل كارثة لكل من بوش ومشرّف. فقد سيطرت شبكة حقّاني على «ميران شاه» فيما وطّدت المجموعة إمبراطوريتها الإجرامية على طول الطرف الشرقي للحدود الأفغانية. وتعهد الحقّانيون وغيرهم من الجماعات المحاربة، كجزء من الاتفاق، وقف الهجمات في أفغانستان، إلا أن التوغلات عبر الحدود من المناطق القبلية إلى أفغانستان استهدافاً للقوات الغربية ازدادت في الأشهر التي أعقبت الاتفاق بنسبة ٣٠٠ بالمئة[١]. وأعلن الرئيس بوش في مؤتمر صحافي في خريف ٢٠٠٦ أن القاعدة «في حالة فرار». لكن العكس هو الصحيح. امتلكت الجماعة موطناً آمناً ولم تحتج إلى الهروب إلى أي مكان.

غادر أرت كيلر باكستان تماماً قبل أن يدخل اتفاق شمال وزيرستان حيّز التنفيذ، وقد انتهت دورة خدمته التي استغرقت خمسة أشهر. واهتم، قبل مغادرته، بجزء أخير من عمل لم يُنجز: شراء هدية لعميله الباكستاني الأفضل في جنوب وزيرستان، وهو رجل لم يلتقه قط. والرجل رياضي متحمّس، وكتب لكيلر أنه يمكن بالتأكيد «سي. آي. إيه» أن تجد طريقةً لشراء بعض التجهيزات الرياضية الأميركية لواحد من مصادرها البشرية القليلة في المناطق القبلية. وبعد فورة من البرقيات بين «وانا» وإسلام آباد ولانغلي حول صوابية الطلب، أذعنت الـ«سي. آي. إيه» في النهاية ووضعت التجهيزات الرياضية داخل طائرة شحن متوجهة إلى باكستان مع غيرها من المواد الحسّاسة المرسلة إلى السفارة الأميركية في إسلام آباد.

بعد ذلك بسنتين، في إثر توقيع الرئيس بوش أمراً سرّياً بتصعيد حرب الـ«سي. آي. إيه» الخفية في أفغانستان، قُتل أبو خباب المصري في غارة بطائرة من دون طيار على بعد ١٢ ميلاً وحسب من قاعدة الـ«سي. آي. إيه» في «وانا». وبعدها بثلاثة أشهر قتل صاروخ أطلق من طائرة للـ«سي. آي. إيه» تطير بلا طيار خالد حبيب وهو جالس

(١) Mark Mazzetti and David Rohde, "Amidst U.S. Policy Disputes, Qaeda Grows in Pakistan", *The New York Times* (June 30, 2008).

في سيارة تويوتا ستايشن متوقفة في قرية «تابارغاي» في جنوب وزيرستان[1]. وبوقوع الغارتين كان أرت كيلر قد عاد إلى الولايات المتّحدة واعتزل العمل في الـ «سي. آي. إيه» ويعيش في ألبوكرك. ولم يعرف، بسماعه الخبر، هل أي من العمل الذي قام به في باكستان في ٢٠٠٦ – من التجسس في بازار «وانا» إلى التمحيص في نتف المعلومات في مبنى المدرسة في «ميران شاه» – قد ساعد على التسبب بموت الرجلين.

ومن المرجح أنه لن يعرف أبداً.

(١) Pir Zubair Shah, "US Strike Is Said to Kill Qaeda Figure in Pakistan", *The New York Times* (October 17, 2008).

١٠ : ألعاب بلا حدود

«أرغن وورليتزر العظيم»[1].

- فرانك ويسنر

بالرغم من كل افتتان الجمهور بالانقلابات ومحاولات الاغتيال وتهريب الأسلحة التي نفذتها الـ «سي. آي. إيه» في العقود الأولى على إنشائها، كرّس القسم الأكبر بكثير من موازنة برامج العمل الخفي في وكالة التجسس في إبان الحرب الباردة لأدوات الحرب الأكثر إتقاناً. فالدعاية السوداء والعمليات النفسية مثلتا في ما مضى حجر الزاوية لعمل الـ «سي. آي. إيه» الخفي: من رشّ المال في أنحاء أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، إلى التأثير في الانتخابات، إلى إقامة محطات إذاعية تمولها الـ «سي. آي. إيه» في الكتلة الشرقية وفي جنوب شرقي آسيا. وقال فرانك ويسنر، أحد قدامى الـ «أو. أس. أس» الذي ترقى ليصبح رئيساً للعمليات الخفية في الـ «سي. آي. إيه»، إن إدارة مهمات الدعاية احتاجت إلى منظمة ماهرة وناضجة يمكنها القيام بعدة حملات تأثير مختلفة في آن – ما أطلق عليه اسم «أرغن وورليتزر العظيم» الذي يعزف الموسيقى الحربية في معركة الأفكار. ولم تعد الـ «سي. آي. إيه» بعد انتهاء الحرب الباردة تجد فائدةً في الاستثمار بقوة في الدعاية السوداء، أو في تدريب الضباط على الحرب النفسية، وسقطت البرامج في التسعينيات ضحية الاقتطاعات الضخمة في الميزانية.

(١) Frank Wisner, quoted in Richard H. Schulz, *The Secret War Against Hanoi: Kennedy's and Johnson's Use of Spies, Saboteurs, and Covert Warriors in North Vietnam* (New York: HarperCollins, 1999): 129. Original citation of the "Wurlitzer" quote is in John Ranelagh, *The Agency: The Rise and Decline of the CIA* (New York: Touchstone, 1986): 218.

لكن الأمر لم يتعلّق بالمال وحسب. فمجيء الإنترنت وعولمة المعلومات جعلا من كل حملات الدعاية مجازفة قانونية بالنسبة إلى الـ «سي. آي. إيه». إذ يحظر القانون الأميركي على وكالة التجسس تنفيذ عمليات دعاية ضد أجهزة الإعلام الأميركية والقيام بحملات تأثير في المواطنين الأميركيين. وأمكن الـ «سي. آي. إيه» قبل الإنترنت وضع صحافيين أجانب على جداول رواتبها وزرع روايات كاذبة في الصحف من دون القلق حيال تسرّب هذه العمليات إلى الإعلام الأميركي. بيد أنه أصبح في إمكان متصفحي الإنترنت في نيويورك وأتلانتا في منتصف التسعينيات قراءة مواقع الأخبار من باكستان ودبي. وشرعت وسائل الإعلام الأميركية تعطي اهتماماً أكبر للأخبار الخارجية وتستشهد في تقاريرها بالصحافة الأجنبية. وزادت، بنتيجة ذلك، صعوبة الـ «سي. آي. إيه» في إقناع المشرفين عليها في الكونغرس، الذين يعطون الموافقة النهائية على كل الأعمال الخفية التي تقوم بها الوكالة، بأن حملة الدعاية المخطط لها لن «ترتد» على الولايات المتّحدة.

لكن البنتاغون سعى إلى ملء الفراغ بعدما تركت الـ «سي أي. إيه» جهدها الدعائي يصاب بالضّمور. ويواجه الجيش قيوداً مشابهة على ممارسة عمليات الدعاية على المواطنين الأميركيين، لكن الكونغرس أعطى في شكل عام وزارة الدفاع مجالاً واسعاً للقيام بمهمات العمليات النفسية مادام يمكن إظهار – ولو في شكل عرضي – أنها تدعم الجنود الأميركيين في المعركة. بل إن المجال فُتح أكثر أمام البنتاغون بعد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر عندما حدّد الكونغرس العالم في الواقع بوصفه ساحة القتال، وواجه القادة العسكريون الحقيقة المربكة بأن أعداء أميركا يعيشون في بلدان لا يمكن الجيش وسلاح المارينز الذهاب إليها. وتولّت وزارة الدفاع التحكّم في «أرغن وورليتزر العظيم» وأنفقت مئات الملايين من الدولارات للتأثير في الرأي العام في العالم الإسلامي، بعيداً من الحربين اللتين تُخاضان في العراق وأفغانستان.

وهكذا أخذ رجل سمين دسّ علبة مارلبورو في جيب صدره يسير في ربيع ٢٠٠٥ بين الأكشاك، التي أقامها بائعو التكنولوجيا في مؤتمر الاتحاد الوطني للمرئي والمسموع في لاس فيغاس. انتحل شخصية بائع لوازم، لكنه غطاء ضعيف بالنسبة إلى ضابط عمليات نفسية سابق في الجيش أمضى عقداً من الزمن يفكّر في وسائل شن الحرب داخل رؤوس الناس الآخرين.

ومن الجيّد أن ينجح مايكل فورلونغ في المعركة الذهنية، لأنه لم يعد صالحاً للنوع الجسماني منها. فتركيبته أشبه بدمية «ماتريوشكا» الروسية، وبنيته عريضة لا تضيق بعض الشيء إلا عند العنق والرأس. وهو مصاب بداء السكّري ويتحرّك ببطء، إلا أنه رغم ذلك كتلة من الطاقة العصبية ويتجه إلى التعرّق بشدّة. يتحدّث برشقات سريعة مدمجاً سلسلة الجمل بعضها في بعض، وهو بالكاد يلتقط نفسه. وعادة ما عمد في الاجتماعات إلى إغراق مستمعيه في عاصفة من الاصطلاحات العسكرية وهو ما يصب في العادة في مصلحته. قال ضابط عسكري عمل من كثب مع فورلونغ إن «مايك فائق الذكاء. لكنه يتحدّث بالكثير من الكلام غير المفهوم فلا يطرح عليه الأسئلة أحد خشية أن يبدو السائل غبياً ويعترف بأنه لا يعلم ما الذي يتكلّم عنه». وغالباً ما يغادر فورلونغ الغرفة في نهاية الاجتماع من دون مواجهة، ويتولّد لديه اقتناع بأنه حصل في الحال على الموافقة على ما طرحه من مخطط غير مألوف[1].

دُعي فورلونغ، ابن ميامي، إلى الخدمة في الجيش في ١٩٧٢ قبل أشهر فقط على قيام الرئيس ريتشارد نيكسون بإلغاء التجنيد، لكنه أرجأ خدمته لتحصيل شهادة في الصحافة والأعمال من جامعة لويولا في نيو أورلينز. وأمضى سنواته الأربع الأولى من الخدمة العسكرية بعد المعهد يتعلّم أسس حرب المشاة في فورت براغ في كارولينا الشمالية، وترقى من بعدها لقيادة وحدة مشاة مؤللة متمركزة في صحراء كاليفورنيا في فورت إيروين حيث برع. ولا يزال جرف في المكان يحمل اسم «جيد فورلونغ» بفضل نجاحه في مناورات حرب الصحراء. وأصبح في أواسط الثمانينيات مدرباً عسكرياً في وست بوينت أولاً، ومن ثم في الأكاديمية العسكرية الملكية فيساندهورست، في إنكلترا. وعاد فورلونغ بعد حرب الخليج في ١٩٩١ إلى فورت براغ رائداً في الجيش في مجموعة العمليات النفسية الرابعة.

خشي فورلونغ، على غرار الكثيرين من الضباط، من أن يتم استبعاده عن أي عمليات

---

(١) معظم مادة هذا الفصل تستند إلى مقابلات مع أكثر من دزينة من المدراء السابقين في «يو-تورن ميديا/ آي. أم. في.» (U-Turn Media/IMV)، ومئات الصفحات من وثائق الشركات، والنقاشات مع مسؤولين حاليين وسابقين في الجيش والاستخبارات. ولم يوافق معظم موظفي «يو - تورن ميديا» على استخدام أسمائهم بسبب اتفاقات عدم النشر التي وقعوها مع الشركة، التي لم تعد موجودة الآن. كما أجريت كذلك مقابلة مع مايكل فورلونغ حول مشاريع عمليات المعلومات لمصلحة البنتاغون.

ينخرط فيها الجيش الأميركي في الخارج، ومازح أحياناً زملاءه بأن خوفه الأعظم يتمثل في أن يهمّشه البنتاغون عبر تكليفه القيام بعمل مثل «نفخ كرات لعبة كرة السلة في شمال داكوتا». وتمكن في واقع الحال من البقاء قريباً من مركز الحركة. فبعدما وقّعت الأطراف المتحاربة في البلقان معاهدة سلام في دايتون، أوهايو، أصبح فورلونغ واحداً من بين أوائل الأميركيين، الذين انتشروا في البوسنة قائداً لكتيبة العمليات النفسية، التي أنيطت بها مهمة الحفاظ على السلام الهش، من خلال إسقاط المناشير والدعاية عبر الإذاعة والتلفزيون لإقناع السكان المحليين بالتعاون مع جنود حفظ السلام الأجانب.

بقيت مهمات العمليات النفسية في خلال التسعينيات أشبه بالعرض الجانبي داخل الجيش الأميركي. وأُهملت بوصفها جزءاً هامشياً من الحروب التي تُطلق فيها النيران، يديره أناس شاذون ربما فشلوا في شق طريقهم في اختصاصات عسكرية أخرى أكثر احتراماً مثل المشاة أو المدفعية. ولا يُشبه الأمر ذروة العمليات النفسية العسكرية في حرب فيتنام عندما عملت فرق القوات الخاصة مع الـ «سي. آي. إيه» على تنفيذ حرب نفسية معزّزة ضد الزعماء في هانوي والسكان الأوسع في فيتنام الشمالية. وشارك روبرت أندروز، عضو القبعات الخضر السابق الذي أصبح المستشار المدني لدونالد رامسفلد ودليله في عالم العمليات الخاصة، في هذه المهمات محاولاً زرع البلبلة من خلال حملات البريد المزيف والوثائق المزوّرة.

اتسمت العمليات في بعض الأحيان بإتقان أكبر، على غرار ما أنشأ أندروز وبقية وحدته حركة مقاومة زائفة في فيتنام الشمالية – السيف المقدس لرابطة الوطنيين – لنشر الوهم بوجود معارضة مسلحة للحزب الشيوعي الفيتنامي شمال المنطقة المنزوعة السلاح. وبالإضافة إلى الرسائل وإلقاء المناشير، خطف العملاء الأميركيون صيادي أسماك فيتناميين شماليين مستخدمين في ذلك زوارق مسلحة لا تحمل علامات تعريف، وعصبوا أعينهم وجلبوهم إلى جزيرة «كو لاو تشام»، قبالة شاطئ «دانانغ». وبنت المجموعة الوهمية «مقر قيادتها» في المكان حيث أُخبر الموقوفون بعمليات حرب العصابات الواسعة لتقويض الحكومة في هانوي. بل إنه طُلب أيضاً من بعض الصيادين الانضمام إلى «المقاومة»[1]. وأعطي الأسرى بعد عدة أسابيع أكياس هدايا فيها أجهزة

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع روبرت أندروز. نوقش «السيف المقدس لرابطة الوطنيين» أكثر في: Richard Schultz, *The Secret War Against Hanoi,* 139-148.

راديو مثبتة على إذاعة صوت السيف المقدس لرابطة الوطنيين، وأعيدوا إلى فيتنام الشمالية حيث يمكنهم إخبار الجميع عن المنظمة الوهمية. وبحسب الحرب السرية ضد هانوي للأستاذ في جامعة تافتس ريتشارد هـ. شولتز جونيور، فإن أكثر من ألف معتقل جلبوا ما بين ١٩٦٤ و١٩٦٨ إلى «كو لاو تشام» ولُقِّنوا سبل السيف المقدس لرابطة الوطنيين.

وحلم أندروز ومجموعته الصغيرة بأفكار أخرى، مثل تعويم جثة قبالة شاطئ فيتنام الشمالية مع رسائل مزوّرة في جيب الرجل الميت. وتصوّر المخططون أن يفك محللو الاستخبارات الفيتنامية الشمالية الرموز ويُمرّوا المعلومات الخاطئة إلى قادتهم. لكن قُضي على الفكرة في واشنطن؛ ولم يعرف أندروز قط من الذي فعل ذلك. فواشنطن كانت «ذلك المكان الغامض الذي يقول «نعم» أو «لا» لأفكارنا الرائعة. ولعنّاها جميعنا»[١].

اعتزل مايكل فورلونغ، بحلول ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، الخدمة الفعلية وأخذ يعمل مع الشركة الدولية للتطبيقات العلمية، وهي شركة تعاقد في قلب العاصمة واشنطن سرعان ما ستغرق في أموال العقود الحكومية الأميركية السرّية. وأمضى فورلونغ سنوات يدرس سبل نشر الرسائل المؤيدة لأميركا للمستمعين المعادين في الخارج ليجد نفسه فجأةً وسط حرب للفوز بالقلوب والعقول في العالم الإسلامي. وعمل في خريف ٢٠٠١ مع فريق دونالد رامسفلد لوضع استراتيجيات عمليات المعلومات – واستحق الميدالية المدنية لوزارة الدفاع على عمله – وجلس من وقت إلى آخر في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض فيما مسؤولو بوش يتخبّطون بحثاً عن سبل لإيصال أفكار البيت الأبيض إلى المسلمين[٢].

حصلت الشركة الدولية للتطبيقات العلمية بعد ذلك بسنتين على دفعة من المال

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع روبرت أندروز.

(٢) أخذت الجهود الأولى في التوقّف، وفي ٢٠٠٤ خلص تقرير لمجلس علوم الدفاع في البنتاغون – وهو هيئة تقدم المشورة لوزير الدفاع – إلى وجود «أزمة» في الجهود الأميركية لإيصال رسائلها إلى الخارج. وخلص التقرير إلى أن الحرب على الإرهاب لا يمكن أن تتعلق وحسب بإلقاء القنابل على أكواخ الطين وسجن المشتبه بأنهم إرهابيون وقتل الناس بصواريخ «هلفاير» التي تُطلق من طريق التحكم من بعد. بل يجب وجود جانب أكثر طراوة للحرب، جهد «لمواجهة التطرف العنيف» في أجزاء من العالم تكاد لا تتمتع الولايات المتّحدة فيها بأي شعبية. وأعطى الكونغرس البنتاغون المال لمحاولة حل المشكلة.

عندما جزّأ الجيش عقوداً حديثة في محاولة لإعادة بناء العراق الجديد. وسافر فورلونغ إلى بغداد لقيادة مشروع قيمته ١٥ مليون دولار منحه البنتاغون للشركة الدولية لإنشاء محطة تلفزيون هي شبكة الإعلام العراقية. وتم تصوّر الشبكة كثقل موازٍ للجزيرة وغيرها من الشبكات العربية، التي لاحظت واشنطن أن لديها انحيازاً إلى أميركا. لكن سرعان ما حاصرت المشاكل المشروع. استقال الموظفون العراقيون الذين لم يتقاضوا رواتبهم، وواجهت الشبكة مشاكل تقنية في بلوغ منازل العراقيين. وأهدرت الشركة الدولية للتطبيقات العلمية في غضون أشهر ٨٠ مليون دولار من أموال البنتاغون، وبات المشروع على وشك الانهيار. سُحب فورلونغ من المشروع في حزيران/يونيو ٢٠٠٣، بالرغم من أن زملاءه السابقين يقولون إنه ليس الوحيد الذي يجب أن يتحمل الملامة عن مصاعب الشبكة. إلا أنه أخذ يتصرف بطريقة استعراضية: فقد أصر على القيادة في أنحاء بغداد بسيارة هامر بيضاء – لا تزال تحمل لوحات البائع في ميريلاند – شحنها إلى العراق.

وإذ أغضب سلوك فورلونغ زملاءه، فإن تمكنه من نظام التعاقد البيزنطي في البنتاغون جعله لا يُقدّر بثمن بالنسبة إلى شركات الدفاع. ولا تكلّف مشاريع عمليات المعلومات إلا كسراً صغيراً من كلفة بناء دبابة أو طائرة مقاتلة، وما عرفه فورلونغ أكثر من غيره هو أنه يمكن أحياناً الأناس الأذكياء والطموحين، داخل مؤسسات بمليارات الدولارات مثل البنتاغون، ضمان ملايين الدولارات من طريق تحديد أكداس من المال في الزوايا المغمورة من البيروقراطية. ويمكنهم، بالقيام بذلك، بناء إمبراطوريات صغيرة.

كان، عندما وصل إلى مؤتمر لاس فيغاس في ربيع ٢٠٠٥، على وشك أن يقبل وظيفة مدنية رفيعة المستوى في قسم العمليات النفسية في قيادة العمليات الخاصة الأميركية. وحمل رزمة من بطاقات العمل تعرّف به على أنه بائع للأدوات المكتبية لتفادي الأسئلة عن عمله الحقيقي وهو: العثور على شركات صغيرة تمتلك التكنولوجيا المطلوبة لمساعدة البنتاغون على القيام بالدعاية وحملات جمع المعلومات في الشرق الأوسط.

أمضى فورلونغ، على مدى يومين، ساعات عند كشك «يو - تورن ميديا»، وهي مؤسسة تشيكية صغيرة شرعت في تطوير سبل بث الفيديو إلى الهواتف النقالة. وتصوّر فريق «يو - تورن» في شكل شبه فوري أن فورلونغ لا يبيع تجهيزات مكتبية إذ تعرّف بعضهم إلى عنوان قيادة العمليات الخاصة في تامبا المُدْرج في بطاقة عمل فورلونغ.

وتبين أن صدفة اللقاء مع مايكل فورلونغ شكلت فرصة غير مرتقبة للشركة المكافحة التي جاءت إلى لاس فيغاس بحثاً عن أعمال جديدة.

أدار يان أوبرمان «يو - تورن»، وهو مواطن تشيكي هربت عائلته من براغ في إبان حملة القمع السوفياتية في أواخر الستينيات. وحوّلته تجارب طفولته إلى مؤيد قوي لأميركا ومدافع شرس عن نشر الأفكار الديمقراطية الغربية في أنحاء العالم. عمل في الثمانينيات في مركز أميركي للدراسات والتخطيط وأصبح مديراً في راديو أوروبا الحرّة. ودفعته إمكانات كسب المال في السوق النامية للإنترنت والهواتف النقالة، والدعم المالي من مستثمر ألماني ثري، إلى إنشاء «يو - تورن ميديا» في ٢٠٠١. واجهت الشركة صعوبات في سنواتها الأولى قبل أن تحول الهواتف الذكية صناعة الهواتف النقالة إلى جبّار.

اعتمدت «يو - تورن» في السابق على تكنولوجيا خرقاء بعض الشيء لجني المال. ووقعت الشركة اتفاقات مع مزوّدي الخدمات وأطلقت حملة تسويق لتحويل حركة المستهلكين إلى مواقع الإنترنت التي يمتلكها زبائنها. ويمكن المستهلكين من هناك تحميل أيقونة على هواتفهم النقالة تشكّل «بوابة» إلى الإنترنت. لكن «يو - تورن» لم تجد في ذلك العصر الحجري للهواتف النقالة سوى قلة من الزبائن المستعدين للاستفادة من خدمتها.

وسّعت «يو - تورن» بحثها عن الزبائن بتعاونها مع الشركات الإباحية لتَصَوُّر طرائق بث الفيديوهات الإباحية إلى الهواتف النقالة. وإحدى شركاتها كانت مع مؤسسة تنتج برنامجاً ذا ميزانية مخفوضة يُدعى «تشيك ماي تيتز» (*Czech My Tits*) وهي كناية عن رجل يسير في شوارع براغ عارضاً على النّسوة خمسمئة كورونا تشيكية لإظهار أثدائهن أمام الكاميرا. واستُخدمت «يو - تورن» للمساعدة على بث الصورة والصوت إلى الهواتف النقالة[1]. ويستذكر بيل إيديدج، المدير السابق في الشركة، أنه بدا أن تجارة الأجساد أشبه بالطريق إلى الثروة. وقال: «تريد، ببنائك شركة مماثلة، أن تستهدف إما صناعة الإباحيات وإما عالم الاستخبارات. فهؤلاء هم الأناس الوحيدون الذين يملكون المال للدفع لقاء هذا النوع من الأشياء».

(١) «يو - تورن ميديا» (عرض بالباوربوينت لقيادة العمليات الخاصة).

وحصل أوبرمان، الذي خاض في الإباحية، على فرصة طرق باب سوق الاستخبارات عندما صادف فورلونغ في لاس فيغاس. وسبق للرجلين أن التقيا في الواقع في التسعينيات في البلقان، وأمضيا ساعاتٍ يتبادلان الروايات حول الحرب الباردة والنزاعات الإثنية الدامية، التي حدثت بعد سقوط جدار برلين. تقاسما وجهات نظر متطابقة حول أهمية نشر المثل الأميركية في الخارج وفي العالم الإسلامي على الخصوص. لكن فورلونغ شكّل أيضاً فرصة عمل ضخمة لـ «يو - تورن».

ما إن بدأ فورلونغ عمله في قيادة العمليات الخاصة حتى تحدّث مع أوبرمان ومدراء آخرين في «يو - تورن» حول تطوير ألعاب فيديو يمكن الناس في أنحاء الشرق الأوسط تحميلها على هواتفهم النقالة. ويمكن الألعاب، بالنسبة إلى قيادة العمليات الخاصة، أن تعالج مشكلتين في آن: أن الكثيرين من الناس في العالم الإسلامي يمقتون الولايات المتّحدة، وأن الولايات المتّحدة لا تعرف إلا القليل عن هؤلاء الناس. واهتم فورلونغ بابتكار ألعاب يمكن أن تؤثر في مفاهيم المستخدم للولايات المتّحدة وأيضاً في جمع المعلومات عمّن يلعبون هذه الألعاب. وشكّل ذلك منجم ذهب استخبارياً محتملاً: سيبعث آلاف الأشخاص بأرقام هواتفهم النقالة وغير ذلك من المعلومات، التي تُعرّف بهم إلى «يو - ترون»، ويمكن تخزين هذه المعلومات في قاعدة بيانات الجيش واستخدامها في عمليات التنقيب عن المعطيات، التي تقوم بها وكالة الأمن القومي وغيرها من وكالات التجسس. ولن يُضطر الجواسيس إلى السعي وراء المعلومات؛ لأن المعلومات ستأتي إليهم.

وليس ذلك إلا مظهراً واحداً من شبكة من البرامج، التي تصاعدت في السنوات التي أعقبت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر لإدخال المعلومات في قواعد بيانات الحواسيب المتطورة بحثاً عن نمط من النشاطات قد يكشف عن مؤامرات إرهابية مستقبلية. وقضى التفكير بأنه إذا أمكن رفد قواعد البيانات بكميات كبرى من المعلومات الشخصية، فسيمكن خوارزميات الحواسيب أن تمحّص المعطيات وتقوّم الروابط التي يعجز عنها المحللون البشريون.

بيد أن القوانين التي تحكم هذه النشاطات تميّزت في أحسن الأحوال بالغموض. وتضمّنت مبادرة لقيادة العمليات الخاصة، ستصبح في مآل الأمر مثاراً للجدل، جمع

المعلومات عن المواطنين الأميركيين الذين يُشتبه في وجود ارتباطات بينهم وبين المجموعات المناضلة. وخُزنت المعطيات في خوادم الكمبيوتر في فرجينيا، وشرع بعض المسؤولين العسكريين في القلق لخشيتهم ربما من خرق القوانين التي تنظِّم كيفية جمع وزارة الدفاع المعلومات عن المواطنين. وفكَّر الضباط المشرفون على البرنامج في قيادة العمليات الخاصة في نقل قواعد البيانات إلى الخارج، وطلبوا في مآل الأمر من مايكل فورلونغ حفظها في مقر «يو - تورن» في براغ وهي خطوة ستؤدّي إلى نزاع شديد بين فورلونغ والـ «سي. آي. إيه».

وضعت «يو - تورن» بحلول أواسط ٢٠٠٦ عرضاً من سبع وعشرين صفحة على ورق مصقول لبرنامج تجريبي يستخدمه البنتاغون في أنحاء العالم الإسلامي. وشدّدت المقاطع الافتتاحية للاقتراح على قوة الهواتف الخلوية كأدوات لبلوغ الجماهير:

«ما الذي يجمع بين الأم التي توصل أولادها إلى ملعب كرة القدم في أتلانتا، والتاجر البدوي، ورجل الأعمال الصيني، وعائلة عسكري أميركي، وموظف حكومي في الكويت، ومدير ذي علاقات واسعة في شركة نفط، وشهيد من القاعدة، ومسلم إيراني متديّن مسالم، ومتمرّد صربي، وبين الشبان في أنحاء الولايات المتّحدة وآسيا وأوروبا والشرق الأوسط كافة؟

«كل واحد من هؤلاء الناس، المراهقين منهم والبالغين في أنحاء الأرض كافة، يحمل ربما هاتفاً نقّالاً في كل دقيقة تقريباً من كل يوم وهو مستيقظ»[١].

وعرضت «يو - تورن» في اقتراحها قائمةً بخيارات بث رسائل بالخفاء حول العالم. وطرح الاقتراح «أخباراً مشوّقة ذات محتوى سياسي وديني مقرونة برسالة قيادة العمليات الخاصة الأميركية» يمكن أن «تستهدف المراهقين في المناطق المعادية ذات المخاطر العالية». ويمكن على مرّ الزمن إدماج رسالة البنتاغون «في أسلوب حياة هؤلاء المستهدفين». ووعد الاقتراح أنه يمكن توصيل ذلك كله من دون أن يحمل شعار «صنع في أميركا» — حملة «سرّية الشعار» تظهر وكأنها من صنع شركة ترفيه أوروبية.

فازت «يو - تورن» في آب/أغسطس ٢٠٠٦ بالمنافسة في البرنامج، ونالت العقد

(١) «يو - تورن ميديا» (الاقتراح المرفوع إلى قيادة العمليات الخاصة في ٨ أيار/مايو ٢٠٠٦).

وهو بقيمة ٢٥٠ ألف دولار فقط[١]. لكن قيمته الرمزية جاءت أكبر بكثير. فقد فازت شركة الاتصالات المغمورة من براغ بأول عقد لها من واحدة من أكثر الزوايا سرّية - وسرعة في النمو - في البيروقراطية العسكرية بعدما بقيت حتى حينه كالتاجر الجوال تبيع نشرات الأخبار والأفلام الإباحية الخفيفة للهواتف النقّالة. وفي الوقت الذي أخذت شركة مايكل فورلونغ تبرعم أضحى قسمه داخل قيادة العمليات الخاصة الأميركية وسط منح عقود سرّية كبرى لمؤسسات الاتصالات من أجل الحملة الدعائية في الشرق الأوسط ووسط آسيا. وأخذت قيادة العمليات الخاصة تخصص مئات الملايين من الدولارات لهذا الجهد، وبلغ الاستعجال أشدّه. وأخذت شركات صغيرة لديها القليل من الخبرة في عالم الدعاية، أو لا خبرة على الإطلاق، في إعادة تصنيف نفسها على أنها مؤسسات «اتصالات استراتيجية» للفوز بالأعمال الجديدة. وسيصبح ذلك، بالنسبة إلى «يو - تورن»، العقد الأول من بين عقود كثيرة وبداية حقبة جديدة لشركة وجدت مصادفة زبوناً يمتلك ما يبدو أنه ميزانية غير محدودة. عثرت «يو - تورن» على الدجاجة التي تبيض ذهباً.

عرف مزّودو الدعاية العاملون في قيادة العمليات الخاصة في تامبا ضرورة أن يبقى الدور الأميركي خفيّاً إذا أرادوا للحملات التي يُراد منها «التأثير» في الرأي العام في العالم الإسلامي أن تتميز بالفاعلية. وبعد قليل على توقيع فورلونغ عقد عمل «يو - تورن ميديا» لتنظيم برنامج تجريبي لألعاب الفيديو وغير ذلك من العروض الرقمية، أقنع فورلونغ مدراء الشركة بإنشاء شركة في الخارج يمكنها الحصول على عقود البنتاغون لكنها لا ترتبط مباشرةً بالولايات المتحدة. وتمكن يان أوبرمان، بأواخر ٢٠٠٦، من إنشاء «جي دي ميديا ترانسميشن سيستمز أل أل سي»، وهي شركة مُدرجة في جزر السيشل ومجهّزة لتلقي التحويلات المالية من الولايات المتّحدة عبر حساب في بنك أجنبي.

وباستثناء بعض القيود على كيفية إنفاق البنتاغون المال على البرامج الخفية، لم يجد فورلونغ من يراقب عمله من كثب. وأحب أحياناً أن يصف نفسه بأنه «ملك المناطق الرمادية»، واستخدم كل أنواع الخدع في العقود لضمان صفقات تنفيذ عمليات الدعاية

(١) SOCOM contract H92222-06-6-0026.

للشركات التي تشكّل واجهة لـ «يو - تورن». واستغل فورلونغ قانوناً يسمح بحصول الشركات التي يملكها الأميركيون الأصليون على بعض الأفضلية لدى تقديم عروضها للحصول على العقود الحكومية، وتدبّر شراكة بين «يو - تورن» و«وياندوت نت تل»، وهي شركة موجودة في بقعة صغيرة من الأراضي القبلية في شرق أوكلاهوما.

تمثل المشروع الكبير الأول لقيادة العمليات الخاصة، الذي طوّرته «يو - تورن» في لعبة «إطلاق نار» بأسلوب سلسلة ألعاب «نداء الواجب» (*Call of Duty*) الشعبية. وتأخذ اللعبة اللاعب في رحلة طويلة عبر شوارع بغداد فيطلق النار على متمردين يحاولون قتل مدنيين في موجات من الهجمات الإرهابية. والهدف من اللعبة بلوغ مخفر للشرطة العراقية وتسليم المخططات السرّية لهجوم متوقّع للمتمردين، وهي خطط سُرقت من مقر قيادة مجموعة الميليشيا. أما عنوان اللعبة فهو «البطل العراقي» (*Iraqi Hero*).

شكّل ذلك جزءاً من حملة البنتاغون الواسعة للعمليات النفسية، واسمها الرمزي «الصدى الفطري»، جرى توقيتها مع «الاندفاعة» الجديدة للقوات الأميركية إلى العراق التي أمر بها الرئيس بوش في ٢٠٠٧. وركّزت «الصدى الفطري» في الأساس على محاربة دفق المقاتلين الأجانب الذين يدخلون العراق من اليمن وسورية والسعودية وبعض أنحاء إفريقيا. وصُمّمت لعبة البطل العراقي بطريقة يمكن معها تعديلها بسهولة لتتوافق مع أي عدد من البلدان في العالم الإسلامي. وأدرجت «يو - تورن» في عرضها لقيادة العمليات الخاصة ثلاث عشرة دولة يمكن توزيع اللعبة فيها بعد إجراء تعديلات طفيفة ومن بينها السعودية والمغرب ومصر والأردن. ولا تحتاج رسمات اللعبة، التي تُصوّر الشوارع المحاطة بالجوامع وأشجار النخيل، إلى تعديل كبير؛ وحده الحوار سيتغيّر. فالنسخة اللبنانية من اللعبة، على سبيل المثال، ستستخدم حواراً يعكس الوضع السياسي في البلاد وستُدعى «المغاوير» على اسم وحدة الكوماندوس اللبنانية[1].

طوّرت «يو - تورن» لعبتين أخريين لعملية «الصدى الفطري»، إحداهما تدعى قطب النفط وتسمح للاعبين ببناء خطوط نفط وحماية البنى التحتية الحكومية في مواجهة الهجمات الإرهابية المستمرة، والأخرى عمدة المدينة وتعطي اللاعب دور التنظيم المدني فيقرر كيفية تخصيص الموارد المحدودة لإعادة بناء مدينة وهمية دمّرها الإرهابيون.

(١) «جي دي ميديا» (العرض المقدم في قيادة العمليات الخاصة في ٢٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٧).

وبنى الألعاب فريق من المبرمجين التشيكيين في مقر «يو - تورن» في براغ، وسرّع فورلونغ الجدول الزمني للشركة لإنهائها بأسرع ما يمكن وتوزيعها في الشرق الأوسط[1].

عملت «يو - تورن» مع قيادة العمليات الخاصة في تطوير مختلف السبل لتسليم الألعاب. وتمثلت الطريقة الأسهل بالتوزيع باليد عن طريق تسجيل اللعب على آلاف بطاقات الذاكرة وبيعها أو وهبها في الأسواق والبازارات. إلا أن السبيل إلى التوزيع الأوسع يقضي بإنزال الألعاب على مواقع الإنترنت والمدونات التي يقصدها اللاعبون في الشرق الأوسط. وهو أيضاً ما يسمح لقيادة العمليات الخاصة بمراقبة عدد الناس الذين يحمّلون الألعاب، والأهم من ذلك هويّة من يقوم بذلك.

يصعب تقويم مدى عمليات الألعاب السرية لقيادة العمليات الخاصة أو معرفة العدد الدقيق للشركات الشبيهة بـ «يو - تورن»، التي تعاقد معها البنتاغون لخلق الدعاية التي تستهدف شبان العالم الإسلامي. وحث فورلونغ الشركة التشيكية على الخروج بما أمكن من المبادرات إلى درجة أن «يو - تورن» قدّمت عروضاً بماركة ثياب تستخدِم المغنين الشعبيين والمشاهير في الشرق الأوسط مسوّقين. بل جرت حتى نقاشات حول إسقاط شاشات تلفزة مسطحة كبيرة في القرى النائية حول آسيا الوسطى وشمال إفريقيا على أن تُحمى الأجهزة بصفائح مسلحة حتى لا يمكن تدميرها. وستمتلك التلفزيونات هوائيات كبيرة تتمكن من التقاط رسائل مؤيدة للأميركيين تُبث من على بعد آلاف الأميال.

لم تحظ هذه الفكرة البعيدة المنال قط بالموافقة. لكن وفيما البنتاغون يتوسع في أواخر ٢٠٠٧ في مبادراته الدعائية حول العالم، استُخدمت «يو - تورن» لمساندة البرنامج الجديد لقيادة العمليات الخاصة القاضي بتشغيل مواقع إنترنت تركّز على آسيا الوسطى وشمال إفريقيا والصين وغيرها من المناطق. واستخدمت «ترانس-ريجيونال وِبْ إينيشاتيف» مراسلين مستقلين لكتابة التقارير لمواقع تحمل أسماء مثل سنترال آسيا أونلاين، التي تنقل بالتأكيد أخباراً إيجابية عن الولايات المتّحدة وبعض من حلفائها الاستبداديين في أوزبكستان وسواها. وحمي جدال مع تسرّب أخبار البرنامج وتخلّت قيادة العمليات الخاصة عن الخطط الأساسية القاضية بإبقاء الدور الأميركي في مواقع

(١) رسائل إلكترونية من مايكل د. فورلونغ إلى مسؤولي قيادة العمليات الخاصة، ٢٢ حزيران/يونيو، ٢٠٠٧.

الأنترنت خفياً، واختارت وضع علامة صغيرة في أسفل كل موقع للتعريف به بأنه من إنتاج وزارة الدفاع. لكن بعض من في الكونغرس ووزارة الخارجية اعتقد أن البنتاغون قد تجاوز الحدود مع مواقع الإنترنت، وهو الحد الذي يفصل بين العمليات الإعلامية التي تتم كجزء من الحملة العسكرية، وبين المتطلّب الأكثر أساساً بأن يمد البنتاغون الجمهور الأميركي بالمعلومات الصحيحة[1].

لكن الواقع هو أن هذا الحد قد تشوّش قبل ذلك بأعوام، واستفادت منه شركات مثل «يو - تورن». وسافر فورلونغ مراراً إلى براغ للاجتماع مع أوبرمان ومبرمجي «يو - تورن» وفازت الشركة حتى حلول مطلع ٢٠٠٨ بأكثر من خمسة ملايين دولار من عقود قيادة العمليات الخاصة، وهي تعمل في العادة مقاولاً فرعياً أو شريكاً لمؤسسة يملكها أميركيون أصليون. وأنشأ أوبرمان شركة «إنترناشونال ميديا فنتشورز» (آي. أم. في) ومركزها الولايات المتّحدة تحدوه فكرة أن شركة داخل البلاد ستسهّل عليه الفوز بعقود حكومية سرّية. وأقام مكتباً للشركة على مقربة من مقاولين آخرين لـ «سي. آي. إيه» والبنتاغون في منطقة للمكاتب في سانت بيترسبرغ، فلوريدا، في الجهة المقابلة تماماً لـ «تامبا باي» من جهة المقار المترامية الأطراف لقيادة العمليات الخاصة والقيادة المركزية الأميركية في قاعدة ماك ديل الجوية.

لكن أخذ بعضهم داخل الـ «سي. آي. إيه» يثيرون الشكوك في كيفية تمكن «يو - تورن/آي. أم. في» من الفوز بعقود حكومية سرية. وما هي بالضبط العلاقة بين فورلونغ، البيروقراطي المدني الرفيع المستوى، وبين الشركة التشيكية المجهولة التي استخدمت جيشاً من المبرمجين لبناء ألعاب ومواقع إنترنت للبنتاغون؟ وشرعت محطة الـ «سي. آي. إيه» في براغ ترسل برقيات إلى لانغلي تثير فيها التساؤلات عن الترتيب، وعن مدى السهولة التي يمكن فيها العملاء الروس اختراق عملية «يو - تورن»[2].

بل إنه وُجدت مشكلة كبرى. ففي ٢٠٠٧ قامت قيادة العمليات الخاصة سرّاً بنقل

(١) Joseph Heimann and Daniel Silverberg, "An Ever Expanding War: Legal Aspects of Online Strategic Communication", *Parameters* (summer 2009).

(٢) المعلومات عن البرقيات من محطة الـ «سي. آي. إيه» في براغ مصدرها ضابطان في الاستخبارات الأميركية.

خوادم الكمبيوتر التي تحتوي على المعطيات التي جمعتها عن المواطنين الأميركيين إلى مقر «يو - تورن» في براغ. وتصور المسؤولون العسكريون أن نقل الخوادم قد يعيد تكييف البنتاغون مع قوانين التنصت الأميركية، لكن الولايات المتّحدة قد جهّزت الآن عملية حاسوبية خفية داخل الجمهورية التشيكية، الحليفة لأميركا، من دون إبلاغ الحكومة في براغ. وفي هذا مجازفة حتى في الظروف العادية لأن على المسؤولين الأميركيين أن يضعوا في الحسبان اكتشاف جهاز استخبارات الدولة الحليفة العملية وإغلاقها والانتقام من خلال رفض التعاون مع الـ «سي. آي. إيه» في عمليات أخرى.

لكنها ليست فترةً من العلاقات الدبلوماسية العادية بين الولايات المتّحدة وجمهورية تشيكيا. فقد أخذت إدارة بوش تتملّق بقوة الحكومة التشيكية للحصول على الإذن ببناء رادار تعقّب جنوب غربي براغ كجزء من برنامج البيت الأبيض للدفاع الصاروخي. وأثبت الحصول على الإذن التشيكي أنه صعب نظراً في الأساس إلى أن حكومة فلاديمير بوتين في موسكو ندّدت طوال سنين بخطط إدارة بوش للدفاع الصاروخي، وضغطت على بلدان أوروبا الشرقية لرفض الطلب الأميركي بناء محطات للرادار فيها.

تفاقم التوتّر بين الـ «سي. آي. إيه» وفورلونغ. وبدّل الأخير عمله في أواسط ٢٠٠٨ وانتقل إلى قاعدة لاكلاند الجوية في سان أنطونيو، تكساس، إلى مقر قيادة خلية عمليات نفسية تدعى «القيادة المشتركة للعمليات الحربية الإعلامية». لكنه احتفظ بإشرافه على «يو - تورن/آي. أم. في»، وقرر في حزيران/يونيو، في اللحظة الأخيرة، التوقف في براغ والاجتماع مع موظفي الشركة وهو في طريق عودته من أفغانستان إلى الديار في تكساس.

علم رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» وغيره من مسؤولي السفارة الأميركية في براغ قبل وقت ليس بالطويل، أن البنتاغون يدير عملية جمع قاعدة معطيات سرية من مكاتب «يو - تورن». وأدت المخاوف في واشنطن من عدم قانونية قاعدة المعطيات إلى وقف العملية، وها إن فورلونغ يجلس في السفارة الأميركية - من دون أن يحصل على الإذن اللازم للسفر إلى براغ في عمل - وقد شكّ ضباط الـ «سي. آي. إيه» في براغ في أنه يحاول إحياء برنامج التنقيب عن المعطيات. وانتابهم القلق من أن الرجل المتحذلق

الكثير التدخين ربما يخطط لقضاء أسابيع في البلاد مشرفاً على البرامج الخفية، وقد يطيح أشهراً من المفاوضات الدبلوماسية في شأن ميثاق الدفاع الصاروخي.

تبعت ذلك فورة من الاتصالات المحمومة بين براغ وواشنطن وسان أنطونيو إذ حاول الجميع تصوّر ما يجب فعله حيال وضع فورلونغ. واتفق الجميع على أن الجواب بسيط يتمثل في إخراجه بأسرع ما يمكن من البلاد. واتصل به رئيسه في سان أنطونيو الجنرال جون كوزيول إلى براغ وأبلغه رسالة صريحة: غادر فندقك، توجه إلى المطار واخرج من البلاد على متن أول رحلة. لقد طُرد فورلونغ بالفعل من الجمهورية التشيكية. وقال ضابط عسكري عمل معه في سان أنطونيو، «انهالت عليه الـ «سي. آي. إيه» بما يشبه طنّاً من الآجرّ».

أُخمدت طموحات فورلونغ وبات الآن على القائمة السوداء للـ «سي. آي. إيه». لكنه تصوّر أن رؤساءه في أعلى مراتب وزارة الدفاع سيوفّرون له الحماية، وأخذ بالفعل يعيد توجيه طاقاته صوب مشكلة جديدة: العنف القتالي المتنامي في باكستان الذي أخذ يتفشّى عبر الحدود إلى أفغانستان. وصمّم فورلونغ على مساعدة قادة الجيش الأميركي على المشكلة يقيناً منه أن الـ «سي. آي. إيه» ليست على قدر المهمّة. وها قد ارتدى الأمر طابعاً شخصياً. وشرع، بعد واقعة براغ، يشير إلى الـ «سي. آي. إيه» بوصفها «لعنتي».

بعد أسابيع فقط على طرد فورلونغ من جمهورية تشيكيا حطت طائرة تقل وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس وفريقاً من الدبلوماسيين الأميركيين في مطار براغ. وقرعت رايس في تلك الأمسية، في عشاء احتفالي فاخر، كأس الشامبانيا مع وزير الخارجية التشيكي كارل شوارزنبرغ – نخب ميثاق الدفاع الصاروخي الجديد وحقبة جديدة من العلاقات الحارة بين الولايات المتّحدة وجمهورية تشيكيا.

١١: عودة «الختيار»

«أتذكر قاعدة التقاعد الأولى يا جورج؟
لا جمع بين وظيفتين، ولا تلاعب بالأمور السائبة.
ولا مشاريع خاصة، على الإطلاق».

- جون لو كاريه، Smiley's People

شبع الجنرال ديفيد ماك كيرنان كلاماً. مرّت أشهر على إخبار كبير القادة في أفغانستان بخطة طوّرها رجلا أعمال لتسليم تقارير منتظمة تأتي من شبكة من المصادر في أنحاء البلاد كافة وعبر الحدود في باكستان. وأراد ماك كيرنان معرفة سبب توقّف هذا الجهد. فقد أمل توفير معلومات موثوق بها عن باكستان بعكس برقيات الـ «سي. آي. إيه» التي ارتاب بأن الجواسيس الباكستانيين هم الذين يقومون بتلقيمها. وتصوّر أن أقزاماً بلا وجوه يقومون، من مكان ما في البنتاغون، بتأخير الأمور.

وصاح ماك كيرنان بأركانه، «من الشيوعي الذي يجب عليّ قتله للحصول على هذا العقد؟» بعدما علم أنه لم تتم بعد الموافقة على تمويل برنامج المعلومات[1].

(١) تأتي تفاصيل رغبة ماك كيرنان في الحصول على عقد «أفباكس» AfPax من خمسة ضباط عسكريين راهنين وسابقين في أفغانستان في ذلك الوقت، إضافة إلى ثلاثة متعاقدين خاصين. ويأتي جزء كبير من الترتيب الزمني للأحداث المؤرّخة في هذا الفصل من التحقيق الذي أجراه البنتاغون في عملية تجسس خاصة أدارها مايكل فورلونغ. وأنجز التقرير النهائي للتحقيق "Inquiry into Possible Questionable Intelligence Activities by DoD Personnel and Contractors" by M. H. Decker، وسُلم إلى وزير الدفاع روبرت غايتس في ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠١٠. ويبقى التقرير الذي سيشار إليه في ما يلي بـ "Decker Report" سرّياً لكن المؤلف حصل على نسخة منه.

جلس مايكل فورلونغ في ذلك اليوم من خريف ٢٠٠٨ إلى جانب الجنرال ماك كيرنان. وقد شرع في رحلات مكوكية بين كابول وسان أنطونيو أملاً منه في الشروع في مجموعة من مشاريع عمليات توفير المعلومات للجنرالات في أفغانستان، تراوح بين وضع خرائط التركيبة القبلية في الجنوب، والقيام باستطلاعات للرأي حول المواقف الأفغانية من الجيش الأميركي. فالحرب أخذت تسوء يوماً بعد يوم. واستعاد الطالبان قطاعات كبيرة من الأرض في مناطق البلاد الجنوبية والشرقية واغتالوا مسؤولين حكوميين أفغاناً وأقاموا حكومات ظل في مقاطعتي قندهار وهلمند. وسمحت صفقتا السلام في شمال وجنوب وزيرستان للطالبان ولشبكة حقّاني بالازدهار وبتصعيد هجماتهم من القرى الباكستانية على المراكز الأمامية الأميركية في أفغانستان. وقُتل من الجنود الأميركيين بحلول نهاية حزيران/يونيو ٢٠٠٨، وهو الشهر الذي تولى فيه ماك كيرنان القيادة، أكثر مما قُتل منهم في أي شهر آخر منذ بداية الحرب في ٢٠٠١ [١].

اقتنع ماك كيرنان على الفور، عند وصوله إلى كابول، أنه ليس لديه ما يكفي من الجنود. فقد استمرت حرب العراق تشكّل الأولوية القصوى لإدارة بوش، وتكفّلت ببقاء النزاع المُهمل في أفغانستان في حال أسماها البنتاغون، بتلطيف الكلام، «عملية الاقتصاد في القوة». وسبق لسلف ماكيرنان، الجنرال دان ماك نيل، أن حكم بقساوة على استراتيجية الحرب وهو في طريقه إلى مغادرة البلاد قائلاً إن القادة يحتاجون إلى المزيد من القوات البرية والهليكوبتر ووحدات الاستخبارات. وقال رئيس الأركان المشتركة الأميرال مايك مولن في إحدى جلسات الاستماع في الكونغرس. «في أفغانستان نقوم بما نستطيع وفي العراق نقوم بما يجب».

وألقى الجنرال ماك نيل بالملامة أيضاً على حكومة باكستان لأنها لم تقم بما يكفي لصد دفق المقاتلين الذين يعبرون الحدود إلى أفغانستان. وأصبحت باكستان بالفعل هدفاً مفضّلاً للجنرالات الأميركيين الذين يشتكون من ارتفاع وتيرة العنف في البلاد. وفي عودة إلى الوراء حتى أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦، حاول الجنرال كارل إيكنبري – سلف ماك نيل – استرعاء انتباه البيت الأبيض بجمعه تقريراً عن عدم فاعلية باكستان في

(١) Mark Mazzetti, "Coalition Deaths in Afghanistan Hit a Record High", *The New York Times* (July 2, 2008).

المناطق القبلية. وسافر إلى واشنطن ومعه عرض بالباوربوينت يتّهم باكستان بالتواطؤ في تغذية الروح القتالي هناك، بل إنه ذهب إلى حد الإشارة إلى أن جلال الدين حقّاني أدار على المكشوف مدرسته في ميران شاه (المدرسة نفسها التي دفع أرت كيلر وضباط الـ «سي. آي. إيه» بالقوات الباكستانية إلى الإغارة عليها في صيف ٢٠٠٦)، على بعد أقل من ميل واحد من قاعدة عسكرية باكستانية كبرى.

وهكذا عندما طرح رجلا أعمال، بعد ذلك بسنتين، على الجنرال ماك كيرنان اقتراحهما جمع المعلومات داخل باكستان وإمرارها إلى القيادة العسكرية الأميركية في كابول، افتُتن الجنرال بالأمر على الفور. وسبق للرجلين اللذين قدما الطرح – إيزون جوردان المدير اللبق السابق في الـ «سي. أن. أن» وروبرت يونغ بلتون الكاتب الكندي الثائر الذي وضع سلسلة من الكتب التي تساعد المسافرين على شق طريقهم في المواقع الخطرة من العالم - إن عملا معاً. وأنشأ جوردان وبلتون، في أشد أيام حرب العراق دموية، «إيراك سلوغر» IraqSlogger، وهو موقع على الإنترنت مخصص للوقائع والإشاعات والتقارير الميدانية للصحافيين العراقيين المحليين. وحظي الموقع بعدد قليل ولكن ثابت من الأتباع، بيد أنه واجه صعوبات مالية واضطرا إلى إقفاله. وأرادا استنساخ المشروع في أفغانستان وأقاما شبكة من المندوبين في أفغانستان وباكستان للموقع الجديد الذي أسمياه «أفباكس إنسايدر» AfPax Insider. بيد أنهما أملا هذه المرة حمل البنتاغون على تمويل مسعاهما الجديد.

لكن الجنرال ماك كيرنان لن يدفع لقاء خدمة إخبارية ابتدائية. وقال عندما التقى جوردان في تموز/يوليو ٢٠٠٨ في كابول إنه يريد تقارير منتظمة من أماكن لا تستطيع قواته بلوغها، ومن حيث لا تمدّه الـ «سي. آي. إيه» بأي معلومات يُركن إليها. وتميّزت علاقة ماك كيرنان برئيس محطة الوكالة في كابول بالكآبة؛ وبالكاد تواصل الرجلان. وسيندّد ماكيرنان علانيةً بالـ «سي. آي. إيه» في اجتماعات الأركان. وخلص في غضون أسابيع من وصوله إلى كابول إلى أن وكالة التجسس لا تمتلك إلا مصادر قليلة في المناطق القبلية الباكستانية يمكنها تحذير القادة الأميركيين في شأن المؤامرات التي تُحاك فيها. وكَمَنَ الطالبان، قبل يوم واحد فقط على لقائه جوردان، لمركز عسكري أميركي متقدّم في «وانات» في شرق أفغانستان وقتلوا تسعة جنود وجرحوا سبعة وعشرين.

أُعجب ماك كيرنان في اجتماع سابق بقيام جوردان بتسليم المسؤولين العسكريين لائحة بأرقام هواتف المحاربين المشتبه فيهم في باكستان، التي جمعها فريقه من المندوبين. وبحسب جوردان فإنه لم يعط سوى أرقام هواتف «المتحدثين» باسم الطالبان المتوافرة في شكل واسع للصحافيين. وأُدخلت أرقام الهواتف في قاعدة بيانات سرّية يحتفظ بها الضباط العسكريون في قاعدة باغرام الجوية، وتطابقت حفنة منها مع الأرقام التي يراقبها الجيش بالفعل. وأثار ذلك التوقعات لدى أركان ماك كيرنان بأنه في وسع الفريق توفير معلومات فعلية في الوقت الحقيقي. ووافق ماك كيرنان في مآل الأمر على ٢٢ مليون دولار لـ «أفباكس إنسايدر» وأصدر الأمر لمايكل فورلونغ بالتحقق من وصول المبلغ.

أظهر فورلونغ، شأنه دائماً، قدرته على إقحام نفسه في قلب العمليات الحربية الأميركية، وشارك في شكل متكرر، في النصف الثاني من ٢٠٠٨، في الاجتماعات المتعلقة بالدعاية وحملات عمليات المعلومات في أفغانستان. وغالباً ما نسي ماك كيرنان اسم فورلونغ وأشار إليه بـ «الفتى السّمين المتعرّق» إلى أعضاء أركانه الآخرين.

لكن ماك كيرنان يخطئ في حساباته لو أنه استخف بفورلونغ. وربما لم يفكّر الجنرال كثيراً في عواقب الموافقة على مشروع جوردان وبلتون لجمع المعلومات، لكن وضع مايكل فورلونغ في موقع المسؤولية عن العملية حرّك واحداً من أغرب فصول الحروب السرّية منذ ٢٠٠١. فقد اختلط الكثير من العناصر الآخذة في التطوّر في المختبر – المنافسة بين الجيش والـ «سي. آي. إيه»، العالم المتوسع للتجسس الحكومي، التخصيص الزاحف للحرب – ليتحول إلى تركيبة متفجّرة. ولاحقاً سيحل بمايكل فورلونغ، بعد الاتهام والتحقيقات، مصير أسوأ بكثير من أي شيء يخشاه. لم يُرسل «لنفخ كرات لعبة كرة السلة في شمال داكوتا». بل أصبح خارج اللعبة تماماً.

ومن جهته سيكتشف ماك كيرنان الغاضب، بعدما وافق على مشروع «أفباكس إنسايدر»، أنه حتى النجوم الأربع على كتفه لا تشكّل ضمانة للحصول على ما يريد. وواجهت جهوده للحصول على التمويل للمشروع العراقيل التي وضعت الـ «سي. آي. إيه» معظمها.

اتجه فورلونغ في الخامس من أيلول/سبتمبر ٢٠٠٨ مع مجموعة من كبار مسؤولي

وزارة الدفاع إلى لانغلي لطرح مشروع جمع المعلومات على مركز مكافحة الإرهاب في الـ «سي. آي. إيه»[1]. ورافقه العميد روبرت هولمز، نائب قائد العمليات في القيادة المركزية الأميركية، وأوستن برانش، وهو مسؤول مدني يعمل في مكتب استخبارات البنتاغون الذي أنشأه دونالد رامسفلد قبل ذلك بأعوام عديدة.

بات مسؤولو الـ «سي. آي. إيه» يحترزون من فورلونغ، بسبب حادثة براغ قبل ذلك بأشهر وحسب، وعرف الأخير تمام المعرفة كم تصبح وكالة التجسس شائكة عندما تشعر أن البنتاغون يعتدي على مجالها. واختار لغته بعناية لدى مناقشة العملية المقترحة في الاجتماع. وقال إن المتعاقدين معه لا «يتجسسون» أو حتى «يجمعون الاستخبارات». بل يقومون وحسب بجمع «المعلومات عن الأجواء» لإطلاع القادة في كابول عليها ولحماية الجنود الأميركيين. وشرح فورلونغ الأمر لاحقاً بالقول: «اضطررت إلى الخروج بتعبير تلطيفي لوصف ما نقوم به»[2].

ذهب البنتاغون، بعد سبعة أعوام على هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، بعيداً جداً في لعبة التجسس إلى حد اختراع لغة جديدة تماماً. ومع إرسال الجنود الأميركيين إلى بلدان ليست أميركا في حرب معها، أصبح الأمر أنهم يعملون ميدانياً على «تهيئة ساحة المعركة»، وجمع المعلومات عن «الأجواء»، هو القول المأثور الجديد الذي يستخدمه الجيش لتفادي إثارة غضب الـ «سي. آي. إيه». وحاول فورلونغ في اجتماع أيلول/ سبتمبر في لانغلي التأكيد لضباط الـ «سي. آي. إيه» أنه سيتم تنسيق العمليات مع محطتي الوكالة في كابول وإسلام آباد، لكن المزاج اكفهرّ سريعاً. وشكّ عشرات الضباط الذين جاؤوا للاستماع إلى فورلونغ على الفور بأن العملية ليست من باب خفي إلا عملية تجسس.

بل اشتد الأمر سوءاً بعد ذلك بثلاثة أشهر عندما طار فورلونغ عائداً إلى أفغانستان ليطلع مجموعة من ضباط الـ «سي. آي. إيه» في كابول، بمن فيهم رئيس المحطة، على المشروع. وتحول الاجتماع إلى مباراة في الصياح واتهم رئيس المحطة فورلونغ بمحاولة جمع الاستخبارات لمهمات قاتلة داخل باكستان. واستذكر ضابط عسكري

---

(١) Decker Report, A-2.، مصدر سابق.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع مايكل فورلونغ.

حضر الاجتماع أن «أحد أفراد الـ «سي. آي. إيه» أخذ بالحرف الواحد يزبد وشرع فورلونغ يرد عليه بالصياح». وبعد ذلك بأسابيع كتب أحد المحامين في مقر الـ «سي. آي. إيه» مذكرة إلى البنتاغون يقدّم فيها رسمياً احتجاج الوكالة على برنامج تعتقد أنه غير خاضع للرقابة ويُحتمل أن يُشكّل خطراً[1].

توقّع فورلونغ المقاومة، ووصف الأمر بأنه الـ «سي. آي. إيه» الضيقة التفكير في أسوأ حالتها: حماية أسهمها بأي ثمن، تجاهل عجز الـ «سي. آي. إيه» عن منع الهجمات من أفغانستان التي تؤدّي في كل يوم إلى قتل جنود أميركيين. واقتنع بأن الوكالة أجرت مقايضة شيطانية مع باكستان، وبأنها تغض الطرف عن تقديم الاستخبارات الباكستانية الدعم سرّاً للطالبان ولشبكة حقّاني، في مقابل الحصول على حق التحليق بالطائرات التي تطير بلا طيار فوق باكستان. وحاجّ فورلونغ ضباط الـ «سي. آي. إيه» بأن جمع المعلومات لحماية الجنود الأميركيين يتماشى مع سلطة البنتاغون بموجب «المادة ١٠»، بغض النظر عن المكان الذي يتم فيه.

قرر فورلونغ، فيما الـ «سي. آي. إيه» تحاول عرقلة الموافقة على «أفباكس إنسايدر» وفيما ركّز المحامون العسكريون في مقر القيادة المركزية على تفاصيل العملية المقترحة، أنه لا يحتاج إلى انتظار الموافقة من واشنطن. وتدبّر، في أواخر ٢٠٠٨، أن يحصل المشروع على تمويل أولي بمليون دولار من أحد صناديق الطوارئ العسكرية، والتفّ من حول مشكلة بيروقراطية شائكة أخرى – وهي أن أياً من إيزون جوردان وروبرت يونغ بلتون لا يحوز الموافقة الحكومية على أنه بائع. واستنبط حلاً بسيطاً: وضع المشروع تحت إدارة شركة يعرفها تمام المعرفة، وهي شركة يان أوبرمان «إنترناشونال ميديا فنتشورز»، في سانت بيترسبرغ في فلوريدا[2]. واستطاع أن يوفر، بحلول نيسان/ أبريل ٢٠٠٩، ٢,٩ مليون دولار أخرى للمشروع، وكلّها مرّت عبر الشركة الموجودة في فلوريدا. وأخذ فورلونغ، سيّد المواربة، في الاستفادة من منظومة جاهزة للاستغلال. وقد وافق الكونغرس على المليارات لحربي العراق وأفغانستان، إلا أن رقابته كانت شبه معدومة على طريقة إنفاق المال.

(١) Decker Report, A-3.، مصدر سابق.

(٢) المصدر نفسه.

لكن بلتون وجوردان لم يتسلما سوى القليل منه وساورهما الشك في امتلاك فورلونغ مخططات أخرى للمال الذي أمر به الجنرال ماك كيرنان لـ «أفباكس إنسايدر». ومع ذلك استمر كلاهما في العمل، وأُرسل بلتون في صورة منتظمة إلى أنحاء في أفغانستان لجمع المعلومات من شيوخ القبائل وعناصر الطالبان وأمراء الحرب. وسافر مع فريق من الضباط العسكريين يرتدون اللباس المدني وهو يقود طوال ساعات على طرق غابت ملامحها لجمع المعلومات عند الحدود مع باكستان. واستقل بلتون أيضاً الطائرة في الاتجاه المعاكس، إلى الحدود الأفغانية مع إيران، حيث التقى إسماعيل خان أمير الحرب القوي في مدينة هراة لتقويم دعمه للحرب الأميركية في البلاد.

وجه الجنرال ماك كيرنان، في ذلك الوقت كلّه، انتباهه في اتجاه آخر. فقد أخذت الإشاعات تدور بأن الرئيس باراك أوباما، الذي تسلّم منصبه في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩، مستاء من الاستراتيجية في أفغانستان ويخطط لإعادة النظر في كل فريق الحرب. وطار وزير الدفاع روبرت غايتس في أيار/مايو إلى كابول لنقل الخبر إلى كيرنان: لقد أعفي من منصبه وقرر الرئيس أوباما استبداله بالجنرال ستانلي ماك كريستال وكان في حينئذٍ قائداً للقيادة المشتركة للعمليات الخاصة. وتبين أن انتقال القيادة جاء بمنزلة نعمة هبطت على فورلونغ؛ وطرح، عندما التقى كبار أركان ماك كريستال، مشروع جمع المعلومات بوصفه أمراً واقعاً. وقال، في لقاء مع اللواء مايكل فلين، كبير ضباط الاستخبارات في أفغانستان، إن لديه فرقاً من المتعاقدين الذين يعملون في أنحاء باكستان وأفغانستان وإن تقارير معلوماتهم «تُحشر» في قواعد البيانات الاستخبارية العسكرية السرية[١].

وصحّت شكوك جوردان وبلتون بأنه تتم تنحيتهما جانباً، ولما ضايقاه بإلحاحهما طلباً للمال، شرع يبعث لهما برسائل إلكترونية يخبرهما فيها أنه عثر على متعاقدين آخرين لديهم مصادر أفضل للمعلومات. وعاد فورلونغ في مطلع تموز/يوليو من رحلة إلى خارج أفغانستان وبعث برسالة إلكترونية إلى جوردان وبلتون.

كتب، «الشخصان اللذان التقياني في دبي في عطلة الأسبوع الماضي هما أقرب ما أمكنني رؤيته أبداً من الشخصية الحقيقية، التجارية، لجيسون بورن[٢]. وكلاهما يجيد

(١) Decker Report, A-7.، مصدر سابق.

(٢) شخصية وهمية، بطل لسلسلة روايات اقتُبست سينمائياً وتلفزيونياً للكاتب روبرت لودلوم. (المترجم)

الداري والبشتو والعربية ويبنيان الشبكات على الأرض في كل يوم»[1]. وقال إن الجنرال ماك كيرنان قد رحل، وليس لدى القادة الجدد في أفغانستان مصلحة كبرى في الدفع لـ «أفباكس إنسايدر». وكتب، «لنكن صادقين يا رفيقي، فأنتما تطلبان من الحكومة أن تدفع لكما للبدء بخدمتكما. وقد استثمر الشخصان الآخران بالفعل في إقامة شبكتهما على مدى الأعوام الأربعة والنصف الماضية»[2].

من هما بالتحديد هذان المتعاقدان الجديدان، هذان الـ «جيسون بورنز»؟ لم يقل فورلونغ من هما في رسائله الإلكترونية، وتحدث فقط عن شبكة من جنود سابقين في القوات الخاصة وفي الـ «سي. آي. إيه» ممن رفضوا العمل مع وكالة التجسس لأنها تنفر جداً من المخاطرة وتعتمد كثيراً على أجهزة استخبارات أجنبية مثل الاستخبارات الباكستانية.

شكّلا ما أسماه «سي. آي. إيه الظل» وهما على استعداد لجمع الاستخبارات التي قد تُستخدم في مهمات العمليات الخاصة. أما بالنسبة إلى الشخص الذي يدير «سي. آي. إيه الظل» هذه، فقد أشار إليه فورلونغ وحسب بـ «الختيار».

لم يذهب دوان «ديوي» كلاريدج قط، وهو في السابعة والسبعين، إلى التقاعد بهدوء. فهذا ليس أسلوبه؛ ثم إن هناك الكثير من الحسابات القديمة التي ينبغي تصفيتها. فقد ترك الـ «سي. آي. إيه» وسط تداعيات قضية إيران - الكونترا مقتنعاً بأن رؤساءه حوّلوه إلى كبش محرقة. واعتبر أن توجيه الاتهام إليه بعد ذلك بسنتين بالكذب على الكونغرس في شأن دوره في إيران - الكونترا ليس إلا عملاً حزبياً من أعمال مطاردة الساحرات.

عندما عفا الرئيس جورج هـ. و. بوش عشية عيد الميلاد في ١٩٩٢ عن كلاريدج وغيره من شخصيات إيران-الكونترا – بمن فيهم وزير الدفاع السابق كاسبار واينبرغر – في الأيام الأخيرة لرئاسته، شعر كلاريدج بدرجة ما من التبرئة. وقد وضع ورقة العفو الرئاسي في إطار وعرّضها في ردهة بيته لتصبح الشيء الأول الذي تقع عليه أنظار الزائرين لدى الدخول.

(١) رسالة مايكل فورلونغ الإلكترونية.

(٢) المصدر نفسه.

كتب في أواخر التسعينيات مذكراته بعنوان «جاسوس لكل الفصول» *(A Spy for All Seasons)* عارضاً تفاصيل حيّة عن الكثير من مآثره في الحرب الباردة، وبقي ملتزماً القضايا الجمهورية. عمل في ١٩٩٨، بوصفه مستشاراً خاصاً، مع الجنرال المتقاعد واين دوانيغ – الرئيس السابق للقيادة المشتركة للعمليات الخاصة – على خطة لإدخال آلاف المنفيين العراقيين والكوماندوس الأميركيين إلى العراق لإسقاط نظام صدّام حسين. وحصل الاقتراح على موافقة أحمد الجلبي، رئيس المؤتمر الوطني العراقي الذي تمتع بالحظوة لدى الجمهوريين المؤيدين للحرب في العراق، لكن قائد القيادة المركزية الأميركية رفضه بوصفه وهماً. وأشار القائد، الجنرال أنتوني زيني، إلى خطة داونينغ - كلاريدج بوصفها «خليج الماعز».

وعندما نجحت الولايات المتّحدة في النهاية في إطاحة صدام حسين في ٢٠٠٣، جمع كلاريدج المال للقيام بجهود خاصة مختلفة ليثبت، بعكس كل الأدلة، أن الديكتاتور العراقي امتلك مخابئ للأسلحة الكيماوية والبيولوجية في مختلف أنحاء البلاد. وبقي، في غضون ذلك، مشجعاً لا يتزعزع للتدخل الأميركي في الخارج. ودافع بغضب، في حوار في خلال مقابلة أجريت معه في ٢٠٠٧، عن الكثير من عمليات الـ «سي. آي. إيه» السيئة الذكر، قائلاً إن من واجب الولايات المتّحدة فرض إرادتها في الخارج.

وقال لأحد المراسلين: «سنتدخل كلّما قررنا أن تدخلنا يصب في مصلحة أمننا القومي. وإذا لم تحب ذلك، ما عليك سوى التحمّل».

«تعوّد الأمر أيها العالم فنحن لن نتحمّل الهراء»[1].

لكنه قسا أيضاً على الـ «سي. آي. إيه». فقد ألقى في تلك السنة نفسها خطاباً في أركنساس عن مدى الضمور الذي أصاب عمليات جمع الاستخبارات البشرية على مر السنين. وقال إن الوكالة لم تستطع الحصول على معلومات موثوق بها عن النظامين في إيران وكوريا الشمالية لأنها أصبحت كثيرة الاعتماد على أقمار التجسس والتنصت الإلكتروني. وأعتقد أن المشكلة تكمن في أن الكثيرين من المحامين المتوتّرين يمتلكون الكثير جداً من التأثير في لانغلي وأحبطوا في شكل روتيني اقتراحات للقيام بمهمات خطرة لجمع الاستخبارات. وأخذ يحلم بنموذج جديد للتجسس، بأمر أصغر

(١) *The War on Democracy*, directed by Christopher Martin and John Pilger, 2007.

وأكثر ليونةً من الـ «سي. آي. إيه» ولا يدين بالفضل لأي حكومة أجنبية. أي ما هو أشبه بمكتب الخدمات الاستراتيجية (أو. أس. أس) لكنه مُحدث ليتأقلم مع عالم القرن الواحد والعشرين – عالم تسيطر عليه الشركات، والشبكات الإجرامية والإرهابية الدولية المتفلّتة، والمؤسسات المتعدّدة الجنسيات.

وليس التجسس الخاص بالفكرة الجديدة كلّياً. فبعد الحرب العالمية الثانية بلغ الإحباط بمؤسس الـ «أو. أس. أس» وليام دونوفان، لأن الرئيس ترومان لم يعينه أول مدير للاستخبارات المركزية، حداً قرر معه أن ينشئ عملية استخبارات خاصة به. وجمع في خلال زيارات العمل التي قام بها إلى أوروبا المعلومات عن النشاطات السوفياتية من السفراء الأميركيين والصحافيين وبحث عن عملاء سرّيين محتملين. وأغرق الـ «سي. آي. إيه» بالأفكار المتعلقة بالعمليات الخفية. لكن ترومان استشاط غضباً لدى علمه بنشاطات دونوفان ووصفه بـ «ابن الزنى المتطفّل»[1]. ونجحت الـ «سي. آي. إيه» في السنوات التالية عموماً في إخماد جهود مماثلة للتجسس الخاص.

أضرّ دونوفان، في السنوات التي أعقبت تقاعده، بمعظم علاقاته في لانغلي. لكنه بقي قريباً من الرابطة الأخوية التي جمعت ضباط العمليات الخاصة المتقاعدين ممن حافظوا على الروابط مع كوماندوس الخدمة الفعلية في «فورت براغ» وفي القواعد المتقدمة في أفغانستان والعراق. وأكسبه انتقاده الـ «سي. آي. إيه» بوصفها متعثّرة وهاوية شعبية لدى بعض منهم، ولجأ إلى كادر صغير من جنود العمليات الخاصة المتقاعدين وهو يبني شبكة من العملاء لعمليات في أفغانستان وباكستان[2].

تعاون كلاريدج مع مايك تايلور، وهو عنصر سابق في القُبّعات الخضر وشريك أحياناً في الأعمال يدير مؤسسة أمن خاصة مركزها بوسطن تُدعى «أميركان إنترناشونال سيكيوريتي كوربوريشن» (الشركة الأميركية الدولية للأمن)، لإنشاء شبكة من الغربيين والأفغان والباكستانيين ممن اعتقد أنه يمكنهم العمل في المنطقة من دون إثارة الشبهات

(١) Douglas Waller, *Wild Bill Donovan: The Spymaster Who Created the OSS and Modern American Espionage* (NewYork: Free Press, 2011): 353.

(٢) لا يزال بعض العملاء في شبكة كلاريدج يعملون متخفّين في باكستان وأفغانستان، ويقدمون الخدمات من وقت إلى آخر للحكومة الأميركية. وقد وافق المؤلف على عدم كشف هوية هؤلاء العملاء أو مهنهم.

في نشاطاتهم. وحصلوا على أول وظيفة عندما استُخدم كلاريدج للمساعدة على تحرير مراسل النيويورك تايمز ديفيد رود، الذي اختطفته شبكة حقّاني في شرق أفغانستان واجتازت به الحدود إلى ميران شاه، المدينة الكبيرة في شمال وزيرستان. وفي خلال المحنة التي استمرت شهراً، أبلغ كلاريدج أعضاء في عائلة رود أن عملاءه في المناطق القبلية الباكستانية سيتمكنون من العثور على مكان احتجاز المراسل ويزودون الجيش المعلومات للقيام بعملية إنقاذ أو للمفاوضة في إطلاقه.

وقفز رود ومترجمه الأفغاني، تحت جنح ظلام إحدى ليالي حزيران/يونيو ٢٠٠٩، من فوق سور المجمع الذي احتجزا فيه ووجدا طريقهما إلى مركز متقدم للجيش الباكستاني. ولم يساعد عملاء كلاريدج على عملية الفرار، لكن الظروف الدقيقة للواقعة المثيرة بقيت على درجة كبيرة من الغموض في صيف ٢٠٠٩ بحيث وجد كلاريدج في الأمر فرصةً لتسويق دوره في قضية رود للفوز بأعمال جديدة. لكن العمل على قضايا اختطاف خاصة في أفغانستان لا يشكل نموذج العمل الذي يعد بنمو كبير وهَدَفَ كلاريدج إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير. وتصوّر أنه إذا تمكن من جعل الحكومة تستخدم شبكته فسيعود إلى لعبة التجسس.

وجاءت الفرصة في غضون أسابيع عندما أخذ الجنود الأميركيون يبحثون عن مفقود آخر في أفغانستان، وهو في هذه المرة جندي شاب من أيداهو يدعى بو برغدال. واختفى الجندي برغدال في حزيران/يونيو في ظروف غامضة في محافظة «باكتيتا» الأفغانية، وأوحت التقارير المتضاربة أنه إما أُسر وهو في دورية وإما غادر موقعه وحسب من دون مأذونية. ولما لم يظهر عند التعداد الصباحي في قاعدته أوفد القادة العسكريون طائرات الـ «بريداتور» وطائرات التجسس لتفتيش المنطقة.

واعترضت الطائرات في غضون ساعات محادثة بين مقاتلين من الطالبان تتم عبر جهازين لاسلكيين يدويين. وناقش المقاتلان خططاً للكمون لفريق البحث عن برغدال:

«نحن في انتظارهم».

«يعرفون مكانه لكنهم يستمرون في سلوك الاتجاه الخاطئ».

«حسناً، جهّز لهم العمل».

«نعم، لدينا الكثير من العبوات الناسفة على الطريق».

«سنفعل ذلك، بإذن الله»[١].

لكن الأميركيين لم يعرفوا في الواقع بمكان برغدال. فقد أصبح أسير حرب وصُنّف تحت عنوان: «وضعُه في الخدمة: مكانه غير معروف». وقفز فورلونغ إلى عملية تحديد مكان برغدال، وسرعان ما وجد نفسه في دبي مجتمعاً مع أعضاء في فريق كلاريدج، الذي اتصل به زاعماً أنه يمتلك معلومات عن موقع الجندي المفقود. وسُحر فورلونغ لسبب أساسي وهو أنه حظي بفرصة العمل مع دوي كلاريدج الأسطوري الذي يدعوه تحبباً بـ «الختيار».

وبالرغم من أن فورلونغ بقي يعمل بحثاً عن تحرير الـ٢٢ مليون دولار الأساسية التي طلبها بداية الجنرال ماك كيرنان، ظلت تراوده طموحات أكبر بكثير لقاء عمليته التجسسية. فقد عثر على «جايسون بورنز» خاصته ولم يعد في حاجة إلى ما اعتبره «خدمة المشاة» التي طرحها في الأساس إيزون جوردان وروبرت يونغ بلتون. وشرح في رسالة إلكترونية مُطعّمة بالاصطلاحات التجسسية أن رجلي كلاريدج اللذين التقاهما في دبي – أحدهما يحمل الاسم الحركي «ويلي ١» – «لديهما ارتباطات لم يسبق لي أن رأيت مثلها من قبل». وقد «حركا أحد العملاء إلى مقربة من الطرد» داخل باكستان[٢]. و«الطرد» هو بو برغدال. لكن فورلونغ عرف أن إدارة شبكة تجسس خفية داخل باكستان تتجاوز بكثير صلاحياته، وبات على يقين أن أعداءه في الـ «سي. آي. إيه» سيقضون على العمل إذا عرفوا ما الذي ينويه. وكتب أنه سيحتاج «إلى غطاء رفيع المستوى حتى لا يواجه موقفاً خطيراً مع لعنتنا»، ويعني بذلك الـ «سي. آي. إيه»[٣].

وأخذ كلاريدج وفريقه يعملون بالمجان للجيش في انتظار حصول فورلونغ على المال للعملية. وفي غياب منظومة قائمة يرفع من خلالها فريق كلاريدج التقارير إلى منظومة الاستخبارات العسكرية، استخدم فورلونغ القنوات الخلفية لإيصال البرقيات إلى أصدقاء في القيادة المركزية الأميركية وقيادة العمليات الخاصة في تامبا. لكن هذا

(١) المكالمة التي تم اعتراضها كما هي موجودة في التقارير العسكرية عن الوضع الأفغاني التي نشرتها ويكيليكس.

(٢) رسالة مايكل فورلونغ الإلكترونية.

(٣) المصدر نفسه.

التدبير المرتجل تسبّب بالالتباس، وسرعان ما بعث نائب قائد وحدة برغدال برسالة إلكترونية غاضبة إلى كابول سائلاً أين، بالضبط، يجول عملاء الاستخبارات هؤلاء في المناطق القبلية في باكستان؟ وكتب، «لست مرتاحاً لهذا التدبير. أطلب أن توفَروا معلومات الاتصال المباشر بهؤلاء «المصادر» لأتمكن من إشراك ضابط استخبارات بشرية متمرّس وفريق من المحللين في الأمر. وإلا فإن هناك احتمالاً كبيراً لارتكاب الأخطاء وللفرص الضائعة»[1].

وفي خلال صيف ٢٠٠٩، وسع كلاريدج وفريقه بانتظام حيّز المعلومات التي أمرُّوها إلى الضباط العسكريين. وزُوّدت قنوات الاستخبارات السرية ملفاً مفصّلاً أعده كلاريدج حول المواقع المزعومة داخل باكستان لكبار قادة شبكة حقاني، استخدمه جنود العمليات الخاصة لمراقبة نشاطات الشبكة.

أخذ كلاريدج يدير ذلك كله من على بعد آلاف الأميال، من بيته المتواضع في ضواحي سان دييغو. أنشأ داخل منزله في اسكونديدو، كاليفورنيا، مركزاً عصبياً للعملية وتواصل مع عملائه مستخدماً الحاسوب والهاتف الخلوي. وشرع بعض ضباط العمليات الخاصة في تامبا وفي كابول يشيرون مازحين إلى مقر قيادته على أنه «اسكونديدو ١». وأخذ يجر رجليه في أنحاء البيت في كل ساعات الليل مجيباً على الرسائل الإلكترونية من عناصر فريقه الموجودين في مناطق زمنية تتقدم عليه بـ١٢ ساعة. وتحدث أحياناً مع العملاء وهو يستلقي إلى جانب حوض السباحة خاصته.

ضمن فورلونغ في النهاية، مع أواخر أيلول/سبتمبر ٢٠٠٩، عقداً لعملية التجسس الخاصة وهي صفقة بـ٢٢ مليون دولار تشرف عليها «لوكهيد مارتن». وافتُرض بالمبلغ أن يكفي ستة أشهر مع إمكان التجديد. ووضع هذا التدبير الاستثنائي الجديد إجراءات لكيفية إيصال كلاريدج تقاريره – خليط من الإشاعات عن مكان قادة الطالبان والقاعدة وأقاويل في بازارات القرى وبعض المعلومات الدقيقة جداً عن مخططات يتم إعدادها ضد القوات الأميركية في أفغانستان – إلى قواعد بيانات الاستخبارات التي يستخدمها القادة العسكريون الأميركيون.

تصرّف كلاريدج أشبه بغرفة المقاصة إذ يتلقى المعلومات من الميدان ويلخّصها في

(١) Decker Report, A-5.، مصدر سابق.

تقرير تحليلي للأوضاع. ويُرسل من بعدها التقارير عبر «هاشميل» Hushmail، وهي خدمة بريد إلكتروني تجارية مرمّزة، إلى فريق صغير من المتعاقدين الذين تدبّر فورلونغ إجلاسهم داخل مركز القيادة العسكري في كابول. وعمل بعض هؤلاء المتعاقدين لـ «إنترناشونال ميديا فنتشورز» التي خضعت أخيراً لإعادة تنظيم إداري. فقد طرد يان أوبرمان معظم القيادة الرفيعة المستوى وجاء بمجموعة من شيب ضباط العمليات الخاصة المتقاعدين لإدارة الشركة. وكان ريتشارد باك، رئيس مجلس إدارة الشركة الجديد، واحداً من مخططي المهمة الفاشلة لإنقاذ الرهائن في طهران في ١٩٨٠. كما أن روبرت هولمز، العضو الآخر في الفريق الإداري الجديد، جنرال متقاعد من سلاح الجو كان قبل ذلك بعام تماماً ضابط عمليات في القيادة المركزية الأميركية، وسافر إلى لانغلي بصحبة مايكل فورلونغ لطرح خطة جمع المعلومات في أفغانستان. وكلما تلقى فريق المتعاقدين في كابول رسائل «هاشميل» من كلاريدج وغيره من فرق الاستخبارات التي أشرف عليها فورلونغ في حينه، يدخلون التقارير في قواعد البيانات العسكرية السرية[1].

وما إن تدخل التقارير الدورة الدموية الاستخبارية حتى يستحيل عملياً تفريق المعلومات الواردة من الجواسيس الخاصين عن تلك الواردة من ضباط الحالة في الـ «سي. آي. إيه» وعملاء الاستخبارات العسكرية. واحتوت تقارير كلاريدج، بحسب تحقيق أجراه البنتاغون، إحداثيات مراكز الطالبان المتقدمة في باكستان وحركة مقاتلي الطالبان في مناطق زراعة الأفيون في جنوب أفغانستان[2]. وأدت التقارير في بعض الأحيان إلى التحرّك. واستندت طائرات الأباتشي المسلحة ولو جزئياً أقلّه في مناسبة واحدة إلى استخبارات كلاريدج لتطلق النار على مقاتلين من الطالبان يحتشدون على مقربة من قاعدة أميركية شرق قندهار، وأطلقت القيادة المشتركة للعمليات الخاصة قذائف مدفعية تنطلق إلى ارتفاع شاهق على مجمع مشتبه فيه للمقاتلين داخل باكستان. اهتزّ فورلونغ طرباً وسيتباهى تكراراً أمام زملائه بأن المعلومات التي جمعتها الشبكة المتعاقدة معه أحرجت الـ «سي. آي. إيه».

وعاش دوي كلاريدج هو الآخر لإحراج وكالة التجسس، وانجرّت شبكته أحياناً

(١) Decker Report, A-6، مصدر سابق.

(٢) المصدر نفسه، A-9.

إلى الحرب الداخلية بين الجيش والـ «سي. آي. إيه» التي بدت أحياناً نوعاً من التقاطع بين رواية لغراهام غرين ومقالة في مجلة «ماد» عن الجاسوس ضد الجاسوس. وشرعت مجموعة كلاريدج في إحدى الحالات في محاولة نبش الملفات لتشويه سمعة أحمد والي كرزاي، الأخ غير الشقيق للرئيس الأفغاني، وهو أهم صانعي السياسة في جنوب أفغانستان وواحد من أهم مخبري الـ «سي. آي. إيه» في البلاد.

أخذ كرزاي في تحصيل ملايين الدولارات من الوكالة منذ بدء الحرب، وبدأ بحلول ٢٠٠٩، تجنيد المسلحين في جيش من الأفغان تدربه الـ «سي. آي. إيه» ويُدعى القوة الضاربة القندهارية. لكن كبار الجنرالات الأميركيين، بمن فيهم ماك كيرنان وماك كريستال، رأوا في أحمد والي كرزاي تأثيراً ضاراً والرجل المسؤول عن الفساد المنتشر الذي يجعل الافغانيين يستديرون صوب الطالبان.

جمع كلاريدج ملفاً من الادعاءات ضد كرزاي، بما في ذلك علاقته بتجارة الهيرويين وبالاستيلاء على الأراضي والاتهامات بالقتل، وأمَّره إلى القادة العسكريين في كابول. واستخدم الضباط الوثيقة في حملة لإقالة أحمد والي كرزاي من السلطة في قندهار، لكن الـ «سي. آي. إي» قاومت وانتصرت. وبقي في مركزه.

بيد أن أحمد والي كرزاي لم يتمكن في النهاية من النَّجاة من أعدائه الكثيرين. وقُتل وهو يخرج من حمّام قصره في قندهار. وكان القاتل حارسه الشخصي منذ زمن طويل وقد أطلق عليه رصاصتين في رأسه وفي صدره(١).

انتهك مايكل فورلونغ، بإقامته شبكة التجسس الخاصة، قاعدة للبنتاغون تحظر على وزارة الدفاع توظيف متعاقدين للقيام بعمليات تجسس بشري. لكنه عرف أن الحد الذي يفصل بين عمل الجنود وعمل الجواسيس قد تشوّش كثيراً بحيث سهل نسبياً العثور على المبرّرات لعمله. وعندما سأل مسؤولون أميركيون في كابول فورلونغ عمّن أذن بعمليته، وعندما شرع رؤساؤه في سان أنطونيو يتلقون اتصالات غاضبة من الـ «سي. آي. إيه» تتهم فيها فورلونغ بإدارة عملية تجسس مخادعة، ردّ على إطلاق النار عليه بذخيرته الخاصة.

(١) "Afghan President's Brother, Ahmed Wali Karzai Killed", *BBC News* (July 12, 2011).

ففي الوقت الذي شرعت وزارة الدفاع في الموافقة على عقد لوكهيد مارتن لعملية الاستخبارات الخاصة، أصدرت القيادة المركزية الأميركية توجيهاً سرّياً شاملاً وسّعت بموجبه النشاطات التجسسية العسكرية في أنحاء العالم الإسلامي من السعودية إلى اليمن وإيران وباكستان. وأمر التوجيه، الذي وقّعه قائد القيادة المركزية الجنرال ديفيد بترايوس، بالقيام بمهمات جديدة «لإعداد البيئة» لعمليات قتالية مستقبلية في أنحاء الشرق الأوسط وتهيئة الجيش لمهمات عسكرية لا تستطيع الـ«سي. آي. إيه» إنجازها[1]. وأذن الأمرُ لوحدات سرّية جداً مثل «قوة المهمات الخاصة البرتقالية» – فرق جمع الاستخبارات البشرية المرتبطة بالقيادة المشتركة للعمليات الخاصة، ودُعيت سابقاً «الثعلب الرمادي» – إضافة إلى المتعاقدين الخاصين، «بتطوير بنية تحتية خفية يمكن أن توكل إليها مهمة معرفة مكان وتحديد وعزل وتعطيل/تدمير» الشبكات المتطرفة وقادة المجموعات الإرهابية[2].

وشكّل التوجيه، ويُدعى «الأمر التنفيذي لقوات المهمات الخاصة المشتركة للحرب غير التقليدية»، جزءاً من مبادرة أوسع في السنة الأولى من ولاية إدارة أوباما لتحديد دور الجيش الأميركي في بلدان خارج مناطق الحرب المعلنة. وأملت الإدارة الجديدة جلب بعض النظام إلى العالم الفوضوي للعمليات العسكرية والاستخبارية السرية التي توسعت إلى حد كبير منذ ٢٠٠١، وفي إعادة ربط الخيوط التي تفلتت في السنوات التي تعاقبت بعدما دفع دونالد رامسفلد الجيش في الأساس ليصبح أكثر تورّطاً في التجسس البشري.

بيد أن التوجيهات الجديدة – بما فيها الأمر السرّي للجنرال بترايوس – أدت، من بين ما أدت إليه، إلى تعزيز معظم ما قد تم فعله في عهد إدارة بوش. بل إن ضباط العمليات الخاصة باتوا يتمتعون اليوم بسلطات أوسع للقيام بمهمات تجسس عبر العالم. وأصبحت هذه الأوامر بمنزلة مسوّدة جديدة للحروب السرّية التي سيعتنقها الرئيس أوباما.

ترافق التوجيه الذي أصدره الجنرال بترايوس مع تصعيد إدارة أوباما حربها السرية في اليمن، الأمر الذي صبّ كثيراً في تعزيز عديد العمليات الخاصة والتجهيز حول

(١) U.S. Central Command, "Joint Unconventional Warfare Task Force Execute Order", September 30, 2009. لا يزال الأمر سرّياً لكن المؤلف حصل على نسخة عنه.

(٢) المصدر نفسه.

صنعاء. لكن عندما قرأ مايكل فورلونغ التوجيه الذي أصدره بترايوس، لم يجد فيه ما هو أقل من التصديق على ما يقوم به تماماً في باكستان وأفغانستان. وهو تصديق يأتي من الجنرال ديفيد بترايوس، الذي هو ربما أكثر الجنرالات نفوذاً بين أبناء جيله[1]. وتصوّر فورلونغ الأمر على أنه أشبه بالحصول على البركة من البابا.

بيد أن الـ «سي. آي. إيه» لم تعتبر فورلونغ على هذا القدر من المباركة وقررت أنه يجب وضع حد نهائي له. وفي الثاني من كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٩ بعث رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» في كابول ببرقية مُدمِّرة إلى واشنطن طارحاً فيها قضية مفصلة ضده. وتضمّنت اللائحة المفصلة مزاعم بأن فورلونغ يدير حلقة تجسس غير قانونية ويكذب على رؤسائه في شأن طبيعة عمليته[2]. كما أنها أشارت أيضاً إلى واقعة براغ في العام الذي سبق، وقدّمت التفاصيل عن سبب مغادرة فورلونغ جمهورية تشيكيا على عجل في صيف ٢٠٠٨.

جادلت مذكّرة رئيس المحطة بأنه يمكن أن تنتج عواقب كارثية عن مجموعة من المتعاقدين الخاصين، الذين يجوبون أنحاء باكستان متجسسين للبنتاغون من دون تنسيق عملياتهم مع الـ «سي. آي. إيه». وما لم تشر إليه البرقية، لكن بعض كبار المسؤولين صدّقوه، أن استخبارات جواسيس فورلونغ أدت في شكل مباشر، في أواخر ٢٠٠٩، إلى غارة بطائرة تطير من دون طيار على ما يُشتبه بأنه منزل آمن للقاعدة في شمال وزيرستان، أسفرت عن قتل عشرات الرجال العرب يعمل عدد منهم جواسيس مزدوجين لمصلحة الاستخبارات الباكستانية. واغتاظت الاستخبارات الباكستانية لمصرع العملاء واشتكت إلى الـ «سي. آي. إيه» التي اشتكت بدورها إلى الجيش وألقت بالملامة على عملية فورلونغ التجسسية.

وها قد أضحت الوكالة في حرب مفتوحة مع فورلونغ إلى درجة أنه لم يعد في إمكان داعميه حمايته. وأطلقت برقية رئيس المحطة موجة من التحقيقات في نشاطات فورلونغ. وبحلول ربيع ٢٠١٠ قطع ضباط الأمن في قاعدة لاكلند الجوية في سان أنطونيو السبيل للوصول إلى شبكة الكمبيوتر السرية وحظروا عليه دخول مكتبه.

(١) Decker Report, A-6.، مصدر سابق.

(٢) وصف محتويات المذكرة مصدره ثلاثة ضباط عسكريين ومتعاقدين على معرفة بهذا المحتوى.

وأصبح في المطهر – لم توجه إليه تهمة بأي جريمة لكنه غير قادر على الدفاع عن نفسه لأنه لم يعد له وصول إلى أي من سجلاته السرية. وكاد يقضي كل وقته في شقته الزهيدة الأثاث في مجمع سكني مبتذل في سان أنطونيو، محاولاً إعداد دفاعه ومختبئاً من مراسلي التلفزة الذين تجمعوا خارج بوابته مع ذيوع خبر عملية التجسس.

ألقى التقرير النهائي للبنتاغون باللوم كله تقريباً على فورلونغ، ووصف عملية التجسس التي قام بها بـ«غير المباحة» واتهمه بتضليل القادة العسكريين الأميركيين حول قانونية عمل المتعاقدين. لكنه تفادى أي اتهامات جنائية واعتزل بهدوء وزارة الدفاع.

من المؤكد أن فورلونغ دوّر الزوايا، وخلقت محاولاته تجنّب الإجراءات البيروقراطية النموذجية التباساً في مختلف التراتبيات العسكرية. إلا أنها، في نظرة فورلونغ إلى العالم، ليست إلا مسائل صغيرة في وقت يُقتل جنود أميركيون والـ«سي. آي. إيه» لا تساعد الجيش على كسب الحرب في أفغانستان. وقال لاحقاً إن عمليته التجسسية ضرورية «عندما تكون حياة الناس على المحك والـ«سي. آي. إيه» تعتمد في كل معلوماتها على الأجهزة الأجنبية».

كما إن فورلونغ ليس بالضبط عاملاً مارقاً. فالواقعة كلها نشأت عن إحباطات جنرال اميركي في أفغانستان لم يثق بالـ«سي. آي. إيه» وأطلق العنان لمايكل فورلونغ. وبدا، مع انتهاء تحقيق البنتاغون في العملية، أن عدم قيام أحد «بربط المعلومات بعضها ببعض» في شأن ما قام به فورلونغ مردّه إلى أنه ما من أحد أراد القيام بذلك.

«هذا كل ما أراده رؤسائي»، قال فورلونغ وهو يدخن سيجارته الخامسة في المقابلة الطويلة. «وأنا حققت ذلك»[1].

انتهت، مع أواخر أيار/مايو ٢٠١٠، صلاحية عقد «لوكهيد مارتن» الذي أمّنه مايكل فورلونغ وجف ينبوع المال الذي موّل شبكة عملاء ديوي كلاريدج في باكستان وأفغانستان. وغضب كلاريدج لأن الجيش اختار عدم تجديد العقد، بل ازداد غضبه لأنه بدا أن الـ«سي. آي. إيه» هي السبب في وقف العملية. فقد سبق له أن أرسل مئات

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع مايكل فورلونغ.

التقارير الاستخبارية إلى القادة العسكريين في أفغانستان، وبعث في ١٥ أيار/مايو برسالة إلى كابول بأنه سيتوقف عن إرسال التقارير ليتمكن «من تهيئة نحو ٢٠٠ موظف محلي للتوقف عن العمل»[1].

بيد أن كلاريدج لم ينو تفكيك شبكته. وأنشأ في اليوم التالي تماماً موقعاً على الإنترنت محمياً بكلمة مرور يسمح للضباط العسكريين بالاستمرار في معاينة برقياته، واعتمد على بعض الأصدقاء الأثرياء في إبقاء شبكته عائمة. أنشأ شركة واجهة لعملياته، «ذي إكليبس غروب»، وحمّل على موقعه النوع نفسه من التقارير الاستخبارية التي أعطاها في السابق للجيش. ووُجدت تقارير محدّدة عن كيفية قيام الاستخبارات الباكستانية بتدريب مسلحين لشن هجمات في أفغانستان، وكيف أن الجواسيس الباكستانيين يبقون زعيم الطالبان الملاّ محمد عمر في الإقامة الجبرية ليتمكنوا لاحقاً من تعيينه ألعوبةً في أيديهم في جنوب أفغانستان فور مغادرة الجنود الأميركيين البلاد. وتكهّن تقرير آخر بأن الملّا عمر عانى أزمة قلبية وهرع به عناصر الاستخبارات الباكستانية إلى المستشفى.

بل إنه حلم أيضاً بمخططات أكثر غرابةً لإسقاط من يعتقد أنهم يحاولون نسف المجهود الحربي الأميركي. واقتنع، على سبيل المثال، بأن الرئيس الأفغاني حامد كرزاي يفاوض سرّاً مع إيران كجزء من محاولة يائسة للتخلي عن الأميركيين والبقاء في السلطة في كابول، وطبخ كلاريدج بالتالي مخططاً لنبش دليل دامغ يثبت الإشاعات الطويلة بأن كرزاي مدمن هيروين.

والخطة مأخوذة مباشرة من كتاب الخدع الوسخة القديمة للـ«سي. آي. إيه»: سيدسّ عميلاً في القصر الرئاسي في كابول لجمع ما يهذّبه كرزاي من شعر لحيته، وإخضاع ذلك لفحص المخدّرات ومن ثم تقديم الدليل للقادة العسكريين الأميركيين في كابول الذين سيواجهون كرزاي بالدليل، الذي يجرّمه وتحويل الرئيس إلى حليف طيّع أكثر. وتخلّى عن المخطط بعدما أشارت إدارة أوباما إلى التزامها تعزيز حكومة كرزاي وليس دفع الرئيس الأفغاني خارج السلطة.

وحتى بعدما عمّ خبر عملية التجسس الخاصة وتخوّف المسؤولون العسكريون من قبول المعلومات من شبكة كلاريدج، وجد الأخير سبلاً أخرى لإيصال المعلومات إلى

(١) Decker Report, A-9.، مصدر سابق.

الجمهور. فقد بعث أصدقاؤه بتقارير إلى المؤلفين المؤيدين للجيش، من أمثال براد ثور الكاتب الناجح لقصص الجاسوسية المشوقة، الذين نشروا معلومات كلاريدج على مدوّناتهم الإلكترونية. بل إنه دفع المعلومات إلى أوليفر نورث، مواطنه القديم منذ أيام إيران - الكونترا وقد أصبح الآن شخصيةً تظهر على هواء «فوكس نيوز».

بدا الأمر أشبه بالأيام الخوالي عندما أخذ ديوي وأولي يقومان بالعمل الذي اعتقدا أن ما من أحد آخر يمتلك الجرأة على القيام به.

١٢: حدّ المبضع

«سنستمر في القول إنها قنابلنا وليست قنابلكم»(١).

- الرئيس علي عبدالله صالح

جُهز الاجتماع لعملية الاستسلام، وهي بادرة سلمية رمزية متزامنة مع شهر رمضان الكريم. حتى أن الوزير السعودي أرسل طائرته الخاصة لنقل الشاب النحيل إلى جدة، المدينة السعودية الثانية المبنية بمحاذاة شواطئ البحر الأحمر. فهناك اتبع الأمير محمد ابن نايف العادة الرمضانية القاضية باستقبال المهنئين في منزله، وأعطى الأوامر لشلّة مساعديه بالسماح لعبدالله العسيري بتجاوز الإجراءات الأمنية العادية وبعدم تفتيشه وهو يدخل القصر.

اتصل العسيري قبل ذلك بأيام بالأمير ابن نايف، مساعد وزير الداخلية وأحد أفراد العائلة السعودية المالكة، معلناً نيته الاستسلام لجهاز الاستخبارات السعودية وتقديم المعلومات عن المجموعة، التي انضم إليها قبل عامين وهي فرع من شبكة أسامة بن لادن الإرهابية أعادت أخيراً تسمية نفسها القاعدة في شبه الجزيرة العربية. واعتبرت المجموعة أن الأمير ابن نايف بعبعها وهو الرجل المصمّم على سحق التطرف في السعودية وفي اليمن، الجار الجنوبي الفقير للبلاد. وعندما شن المجاهدون في اليمن في ٢٠٠٣ حملة منذ عشرين شهراً من العنف داخل السعودية – تفجير مبانٍ حكومية ومنشآت نفطية سعودية ومجمعات سكنية إضافة إلى قطع رؤوس الغربيين – أمر ابن

(١) Cable from U.S. embassy in Sana'a to State Department, "General Petraeus Meeting with President Saleh on Security Assistance, AQAP Strikes", January 4, 2010.

نايف بعملية قمع دامية شملت توقيف وتعذيب آلاف المشتبه فيهم الذين اعتقلوا داخل البلاد. وزرع المخبرين داخل الجوامع التي اعتقد أن المتطرفين اخترقوها[١].

هجوم ابن نايف على القاعدة جعل منه صديقاً لإدارة بوش، وبحلول صيف ٢٠٠٩ كان رئيس أميركي جديد ومساعدوه قد اعتبروا الأمير حليفاً لا يمكن الاستغناء عنه. واستَقْبَل بانتظام وجهاء من واشنطن بما في ذلك زيارة قام بها في أيار/مايو ٢٠٠٩ دبلوماسي مخضرم كلّفه الرئيس أوباما على الفور تدبير نهاية مقبولة للحرب في أفغانستان. لكن عندما التقى ريتشارد هولبروك الأمير في الرياض لطلب مساعدة المملكة في حرب أخذت أميركا تخسرها، حذّر الأمير من أن الولايات المتّحدة قد تواجه مصدراً للقلق أكبر بكثير من العنف المتصاعد في أفغانستان. وقال ابن نايف لهولبروك: «لدينا مشكلة اسمها اليمن»[٢].

عدّد الأمير لائحة بالمخاوف للمبعوث الأميركي. فالقبائل اليمنية أكثر تعاطفاً بكثير من الأفغان مع القاعدة، واليمن أقرب من أفغانستان إلى أهداف القاعدة في السعودية. وقال إن اليمن دولة فاشلة ذات زعيم ضعيف وفاسد في شخص الرئيس علي عبدالله صالح الذي «تقلّصت» رؤيته للبلاد «إلى صنعاء» - محافظاً على صلابة العاصمة وقاعدته. وقال إن صالح تمكن دوماً من ضبط القبائل في اليمن، لكن الرئيس أخذ يفقد السيطرة ويعطي المزيد من السلطة إلى ابنه الذي لا يتمتع بعلاقات وثيقة مع القبائل. وقال السعودي إنه من غير المجدي إمرار المدفوعات النقدية إلى حكومة صالح لأن الرئيس والمحيطين به ينقلون المال إلى خارج البلاد فور وصوله.

وقال الأمير ابن نايف لهولبروك إن «المال ينتهي في حسابات مصرفية في سويسرا».

وشرعت الحكومة السعودية بدلاً من ذلك في تمويل مشاريع تنموية في المناطق اليمنية التي زرع فيها مجاهدو القاعدة جذورهم، على أمل أن تستنزف الدعم للمتطرفين «وتقنع اليمنيين بأن المتطرفين مجرمون وليسوا أبطالاً». وفي نهاية الاجتماع وعد

(١) Michael Slackman, "Would-Be Killer Linked to al Qaeda, Saudis Say", *The New York Times* (August 28, 2009).

(٢) Cable from U.S. embassy in Riyadh to State Department, "Special Advisor Holbrooke's Meeting With Saudi Assistant Interior Minister Prince Mohammed Bin Nayef", May 17, 2009.

هولبروك الأمير بأن الرئيس أوباما سيعمل مع المملكة على تفكيك شبكة القاعدة النامية في اليمن.

تصوّر ابن نايف أنها ضربة حظ عندما اتصل عبدالله العسيري بالسعوديين بعد ذلك بثلاثة أشهر عارضاً الاستسلام. والعسيري واحد من خمسة وثمانين مجاهداً مرتبطين «بالمجموعات الضالة» يطاردهم السعوديون. وتلك هي أيضاً حال شقيق الشاب الأكبر إبراهيم الذي أوقف في ٢٠٠٣ وهو يحاول الالتحاق بالتمرد في العراق، وأشعلت فيه فترة إقامته في السجن في السعودية الحقد على المملكة وعلى تحالفها مع الولايات المتّحدة الذي ربطه بالعلاقة بين السيّد والعبد. وإبراهيم هو من بين الشقيقين من اعتبره السعوديون الأشد خطراً بكثير؛ فقد تدرّب على صنع القنابل وله موهبة مشؤومة في العثور على وسائل إبداعية لإخفاء المتفجّرات. وأدرك إبراهيم أن السعوديين قد يرتابون في أن «الاستسلام» المخطط له هو خدعة حذقة لينتقم الأخوان العسيري من الأمير ابن نايف، فاخترع قنبلة يمكنها تجنّب الإجراءات الأمنية العادية. وقبل وقت قصير على صعود العسيري الأصغر إلى متن الطائرة الملكية السعودية في الرحلة إلى جدة، دس إبراهيم قنبلة من الـ «بنتيريتريتول تيترانيترات» - نوع من المتفجّرات البلاستيكية - في شرج عبدالله.

لكن وبالرغم من كل عبقرية إبراهيم في صنع القنابل، فإن مؤامراته القاتلة غالباً ما أبطلتها عدم جدارة مفجّريه. فقد سافر شقيقه بالقنبلة المخبأة من اليمن إلى جدة ووصل من دون أي مشكلة إلى قصر الأمير ابن نايف. وبعدما دخل عبدالله المتوتّر القاعة التي يستقبل فيها الأمير زواره، مدّ يده إلى ثوبه لإلقاء المتفجّرات لكنه شغّل القنبلة في وقت أبكر من اللازم، قبل أن يقترب كفاية من الأمير. شقّ الانفجار العسيري بالنصف مخلّفاً فجوة تصاعد منها الدخان على الأرضية المبلطة وبقع الدم في أنحاء القاعة[1]. ولم يصب الأمير ابن نايف سوى بجروح طفيفة من الانفجار.

فشل الهجوم، لكن أمكن القاعدة في شبه الجزيرة العربية تنفيذ أول عملية لها خارج اليمن. وفي حال أُحرجت المجموعة من حماقة قاتلها فإنها لم تعط أي إشارة إلى ذلك في البيان المتفاخر، الذي أذاعته بعد وقت قصير على الهجوم. وجاء في البيان أن على

(١) "Profile: Al Qaeda 'Bomb Maker' Ibrahim al-Asiri", *BBC* (May 9, 2012).

السعوديين أن يشعروا بالإحراج لأن الاختراق الأمني الذي قام به عبدالله العسيري هو الأول في نوعه في تاريخ السعودية، وأن المجموعة المجاهدة تعمل على اقتلاع شبكة التجسس السعودية في اليمن، التي أقامتها العائلة المالكة لاختراق القاعدة في شبه الجزيرة العربية[١].

ووعد البيان من يعيشون الآن في الخوف في الرياض، ومن أخذوا الآن يعيرون انتباههم في واشنطن، بمزيد من الهجمات الآتية:

«أيها الطغاة، تأكدوا أنكم ستذوقون الأمرّين، لأن قلعتكم لن تتمكن من حمايتكم».

«سننال منكم قريباً»[٢].

وفي اليوم الذي أعقب قسم باراك أوباما اليمين بوصفه الرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحدة، تلقى الأمير ابن نايف اتصالاً من صديق قديم في واشنطن. والرجل على الطرف الآخر من الخط هو جون برينان، ضابط كبير سابق في الـ «سي. آي. إيه» قدّم المشورة لأوباما في خلال حملته وعُين بوصفه كبير مستشاري البيت الأبيض لشؤون مكافحة الإرهاب. وتلك ليست الوظيفة التي أرادها برينان. فقد افتُرض به أن يصبح، في نهاية الحملة، المرشح الأول لتولي الـ «سي. آي. إيه» في حال تم انتخاب أوباما. وهو لديه أوراق الاعتماد اللازمة: ابن لمهاجرين إيرلنديين ترعرع في نيوجرسي ودرس في جامعة فوردهام؛ أمضى عقوداً في الـ «سي. آي. إيه» محللاً ويتحدث العربية بطلاقة. كما لديه الخبرة النادرة بتوليه في التسعينيات رئاسة محطة الـ «سي. آي. إيه» في الرياض بالرغم من كونه محللاً وليس ضابطاً خفياً. وهو رجل عريض المنكبين وجهه وكأنه حفر في لوحة من الصخر الجيري، ومظهره أشبه بملاكم عصر الكساد الاقتصادي الكبير.

لكن حلمه أحبط بتولي الـ «سي. آي. إيه» في خلال فترة أوباما الانتقالية عندما عاودت ملاحظات أثارها الظهور – وبدا فيها كأنه يؤيد وسائل التحقيق الوحشية التي

(١) "Al Qaeda Claims Attempted Assassination of Saudi Prince Nayef", *NEFA Foundation* (August 28, 2009).

(٢) المصدر نفسه.

استخدمتها الـ «سي. آي. إيه» في السجون السرية – وانتقدها الناشطون في مجال حقوق الإنسان. وكان برينان من بين كبار مستشاري جورج تينيت عندما تم العمل في برنامج السجون، في ٢٠٠٢، وهو يرتبط بالتالي ببرنامج وصفه الرئيس أوباما تكراراً بأنه لطخة سوداء في السجل الأميركي منذ هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. وخشي برينان معركة تثبيت طويلة ومدعاة للإلهاء في مجلس الشيوخ فسحب اسمه من التداول بالنسبة إلى وظيفة الـ «سي. آي. إيه»[١].

وربما جاء الموقع في البيت الأبيض بمنزلة جائزة ترضية، لكن برينان سيعمد في فترة قصيرة إلى تحويل مكتبه الموجود في قبو الجناح الغربي والخالي من النوافذ، إلى مركز عمليات للحروب السرية التي انتصر لها أوباما كرئيس. ومنحت رغبة الرئيس أوباما في إدارة أوجه برنامج الاغتيال مباشرة من البيت الأبيض برينان دوراً فريداً في نوعه في تاريخ الحكومة الأميركية: فقد أصبح في جزء منه جلاداً، وفي جزء آخر كبير البائحين بالكلام للرئيس، وفي آخر متحدّث عام مُرسل لتبرير مبدأ أوباما قتل أعداء أميركا في أنحاء بعيدة من العالم.

عندما اتصل برينان بابن نايف في ذلك اليوم من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩ تعهّد للرجل الذي عرفه جيّداً منذ أيامه في الرياض، التزام الرئيس أوباما مطاردة الإرهابيّين وقتلهم تماماً كما فعل الرئيس بوش[٢]. وفي خلال الفترة الانتقالية التي أعقبت انتخاب أوباما، قُدّم موجز لبرينان وغيره من كبار أعضاء فريق الأمن القومي التابع لأوباما، على مدى يومين في مقر قيادة الـ «سي. آي. إيه»، استعرض فيه كبار مسؤولي الوكالة لائحة ببرامج العمل الخفي الموجودة في السجلات. وأبلغ رئيس مركز مكافحة الإرهاب، وهو ضابط خفي اسمه الأول مايك، المجموعة بأن الرئيس بوش قد سرّع في الصيف الماضي في وتيرة الغارات التي تشنها الطائرات التي تطير بلا طيار، وأن الـ «سي. آي. إيه» تحاول إدخال المزيد من الجواسيس إلى باكستان. وتعهّد أوباما في خلال الحملة الرئاسية تكراراً أنه سيركّز الانتباه على باكستان وأفغانستان وعلى مطاردة أسامة بن

---

(١) ندد برينان ببرنامج سجون الـ «سي. آي. إيه» بعدما انضم إلى حملة أوباما. لكن عدداً من الضباط الذين خدموا معه في ٢٠٠٢ لا يذكرون أنه عبّر، في خلال خدمته، عن اعتراضاته على البرنامج.

(٢) Cable from U.S. embassy in Riyadh to State Department, "Special Advisor Holbrooke's Meeting with Saudi Assistant Interior Minister Prince Mohammed Bin Nayef", May 17, 2009.

لادن – وفي هذا تشديد متجدد على ما يُسمى بـ «الحرب الجيدة» التي تجاهلها بوش بشروعه في «الحرب السيئة» في العراق. وأبلغ برينان في الاجتماعات كلاً من مايك وستيفن كابس، نائب مدير الـ «سي. آي. إيه» الذي طلب إليه أوباما البقاء في وظيفته في لانغلي، أنه من المرجح استمرار عمليات القتل بواسطة الطائرات التي تطير بلا طيار في ظل مناوبة أوباما[١].

وهناك سبب آخر سيدفع أوباما وبرينان وغيرهما من كبار أعضاء الإدارة الجديدة إلى الاعتماد على الاغتيال كأداة مهمّة من أدوات مكافحة الإرهاب. وتحدث أوباما تكراراً في خلال الحملة كيف أن الاحتجازات السرية وتقنيات الاستجواب شوهت صورة أميركا، وأعلن في أسبوعه الأول في السلطة خطة لإقفال سجن خليج غوانتنامو وحظر كل أساليب الاستجواب الإكراهية التي استخدمتها الـ «سي. آي. إيه» منذ هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. وندد نائب الرئيس السابق ديك تشيني على الفور بالقرار بوصفه خطوةً معيبة من رئيس قليل الخبرة يلعب السياسة على حساب الأمن القومي. وحذّر تشيني من أنه لو وقع هجوم إرهابي كبير وأوباما في الرئاسة، فسيقع الذنب على أوباما لحرمانه الـ «سي. آي. إيه» من الأدوات التي تحتاج إليها للحفاظ على سلامة البلاد.

مثلت تعليقات تشيني الذميمة، وقد صدرت فور مغادرته البيت الأبيض، خرقاً ملحوظاً للبروتوكول الأساسي القاضي بعدم قيام الإدارة الراحلة بانتقاد الرئيس الجديد – أقله في الأشهر الأولى على تسلمه السلطة. بيد أن تشيني قصد أن يشكّل انتقاده طلقةً تحذيريةً وإشارة إلى أن أي دليل على «ضعف» باراك أوباما في مسائل الأمن القومي سيصبح مادة للهجمات الحزبية ضد الرئيس الجديد.

وعندما جلس جون ريزو، المحامي في الـ «سي. آي. إيه» الذي حقّق درجة من الخزي لدوره في الحصول على موافقة وزارة العدل على برنامج الوكالة القاضي بالاعتقال والتحقيق، في الاجتماعات مع الفريق الجديد، دُهش لنبرة مساعدي أوباما المتشددة. وقال: «لم يأتوا قط ويقولوا إنهم سيشرعون في قتل الناس لأنهم لا يستطيعون التحقيق معهم، لكن المعنى الضّمني لم يخف على أحد. ما إن توقف التحقيق حتى لم يتبقَّ إلا القتل»[٢].

(١) مقابلة مع اثنين من مسؤولي إدارة أوباما حضرا اللقاء في الـ «سي. آي. إيه».

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع جون ريزو.

لكن خيارات التحقيق مع السجناء لم «تتوقف» كما قال ريزو. بيد أنه يتضح أن التحقيق والاعتقال أصبحا أشبه بالأدغال للإدارة الجديدة: فضلاً عن قرار إغلاق خليج غوانتنامو في خلال سنة، انتاب فريق أوباما القلق أيضاً في شأن اعتقال الأسرى وتسليمهم إلى حكومات أجنبية لأن ذلك قد يثير الانتقادات الليبرالية للإدارة بأنها تُلزّم التعذيب. وفي الوقت نفسه لم ينتقد أي عضو في حزب أوباما غارات الطائرات التي تطير بلا طيار، كما أن الجمهوريين ليسوا في موقع الاعتراض على خوض الرئيس الجديد حملةً عدائيةً جداً ضد الإرهابيّين. وباتت الظروف السياسية مهيأة لتصعيد الحروب السرية.

شكّلت الاجتماعات التي امتدت على يومين في لانغلي الإشارات الأولى إلى أن الرئيس أوباما يخطط، بطرائق لم يعتمدها حتى جورج و. بوش وديك تشيني، للاعتماد على الـ «سي. آي. إيه» والقيادة المشتركة للعمليات الخاصة بوصفهما الأداة الأميركية الأولى لتنفيذ العمليات القاتلة. فبعد سبعة أعوام على هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، أنهكت حربا العراق وأفغانستان الجمهور الأميركي واستنزفت الخزانة الأميركية. إلا أن الأهم من ذلك هو أنه تمّ في تلك الفترة ضبط وتهذيب أدوات الحرب السرية واعتقد فريق أوباما أنه وجد فرصةً لخوض حرب من دون التكاليف المذهلة للحملات العسكرية الكبرى، التي تُسقط الحكومات وتتطلب سنوات من الاحتلال وتحفّز الراديكالية في أنحاء العالم الإسلامي. ويمكن الولايات المتحدة، كما وصف برينان مقاربة أوباما في إحدى خطبه، أن تستخدم «المبضع» بدلاً من المطرقة لخوض الحرب في ما هو أبعد من مناطق الحرب[1].

وليس أوباما الرئيس الليبرالي الديمقراطي الأول الذي يتبنّى العمليات السوداء. فجون ف. كنيدي أعطى الموافقة النهائية على عملية خليج الخنازير وكثّف العمليات الخفية في فيتنام. وانتهى الأمر بجيمي كارتر، بالرغم من كل الوقت الذي أمضاه وهو مرشح للرئاسة في شجب مغامرات الـ «سي. آي. إيه»، بالإذن بسلسلة من العمليات الخفية في السنتين الأخيرتين له في البيت الأبيض.

لكن باراك أوباما هو أيضاً أول رئيس يدخل البيت الأبيض وقد جاء من عصر ما بعد حرب فيتنام والأحداث العكرة في الستينيات والسبعينيات التي عزّزت تعييب

(١) خطاب لجون برينان في ٢٦ أيار/مايو ٢٠١٠ في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن.

الجيل الأسبق على الـ «سي. آي. إيه» وفي شكل أوسع، على استخدام القوة الأميركية في الخارج. وقال أوباما لبوب وودورد في مقابلة أجراها الأخير معه في ٢٠١٠: «إنني ربما الرئيس الأول على قدر من صغر السن لم تحتل فيه حرب فيتنام مكانها في جوهر نموي»، وقد كبر بالتالي «من دون حمل أي من الأمتعة الناشئة عن النزاع في شأن حرب فيتنام»[1]. وجاء ذلك في جواب عن سؤال حول التوتّرات بين الجيش والمدنيين في خلال حقبة فيتنام، بيد أنه من الواضح أن نظرة أوباما إلى الـ «سي. آي. إيه» تختلف في جيله عن جيل أبناء فورة الولادات أمثال بيل كلينتون.

لم يتعلّق نفوذ الـ «سي. آي. إيه» في عهد إدارة أوباما بعمر الرجل الجالس في المكتب البيضوي وحسب، أو بطبيعة التهديدات التي اطلع عليها أوباما في كل يوم من خلال الموجزات الاستخبارية. بل إن له علاقة أيضاً بما للمدير الأول الذي عينه أوباما على الـ «سي. آي. إيه»، من قدرة على تقديم مصالح الوكالة داخل الجهاز التنفيذي، إذ إنه أكثر مدراء الـ «سي. آي. إيه» نفوذاً منذ وليام كايسي في عهد إدارة ريغان.

بدا ليون إ. بانيتا في البداية الخيار الأبعد احتمالاً لتولي الـ «سي. آي. إيه» فهو لم يمتلك أي خلفية مهنية في الشؤون الاستخبارية أو العسكرية خارج خدمته، التي امتدت سنتين في الجيش في الستينيات. ولم يشارك، في خلال سنواته عضواً ديمقراطياً في الكونغرس ممثلاً جيباً ساحلياً في شمال كاليفورنيا، في أي من اللجان المشرفة على أي من البنتاغون أو الـ «سي. آي. إيه». وهو ودّي في الظاهر ومتساهل، لكنه من خلف الكواليس مفاوض شرس أيضاً ومقاتل يطلق الشتائم من حول الغرفة، بالقدر الذي يتلفظ فيه بحروف الجرّ. وأقام اتصالاً سريعاً بعالم الاستخبارات في خلال توليه رئاسة موظفي الرئيس كلينتون، لكنها كانت حقبة مختلفة جداً و«سي. آي. إيه» مختلفة جداً أيضاً.

لم يمتلك بانيتا عندما تولى منصب مدير الـ «سي. آي. إيه» أي فكرة، بالمعنى الحرفي للكلمة، بأن الوكالة تقوم بقتل الناس في العالم. ونقلت الصحف في مطلع ٢٠٠٩ في شكل موسع أخبار حملة الاغتيال باستخدام الطائرات التي تطير بلا طيار في باكستان. ومع ذلك، وفي شكل لا يُصدّق، صُدم بانيتا لمعرفته في خلال موجزاته الأولى

(١) Bob Woodward, *Obama's Wars* (New York: Simon & Schuster, 2010): 377.

قبل توليه الـ «سي. آي. إيه» بأنه سيصبح في الواقع قائداً عسكرياً لحرب سرية[1]. «كان، عندما دخل بوابة لانغلي، أشبه تماماً بالصفحة البيضاء في ما يتعلق بمسائل الاستخبارات»، قال ريزو الذي ساعد على إعداد سلسلة من الموجزات لبانيتا قبل جلسة الاستماع في مجلس الشيوخ لتثبيته في منصبه. لكنه عوّض ما ينقصه من خبرة ملموسة في مسائل تتعلق بالحياة والموت باستيعابه الواسع لواشنطن. وتمتع بانيتا باثنتين من الصفات التي تتطلع الـ «سي. آي. إيه» الدائمة الشك إلى وجودها في المدير: النفوذ والاحترام داخل البيت الأبيض والاستعداد للدفاع عن مضمار الـ «سي. آي. إيه» ضد من ترى فيهم الوكالة أعداءها في واشنطن.

وقد امتحنت هاتان الصفتان على الفور بعدما قرّر مسؤولو البيت الأبيض إنهاء معركة قانونية طويلة الأمد ونزع الصفة السرية عن المذكرات الداخلية، التي تأذن بأساليب التحقيق التي اعتمدتها الـ «سي. آي. إيه» في السنوات الأولى على إدارة بوش. وسبق لبانيتا أن عرّف بالفعل بوجهات نظره في شأن أساليب التحقيق في خلال جلسات الاستماع لتثبيته، معلناً بما لا يقبل التأويل أن أقل ما يقال فيها هو أنها «تعذيب». وشكّل هذا البيان صدمةً في أجزاء من الجهاز الخفي في الـ «سي. آي. إيه» وأثار الشكوك في كون المدير الجديد للوكالة سيمثل المجيء الثاني لستانسفيلد تورنر، أي كناية عن دخيل يرسله الرئيس الليبرالي إلى لانغلي لإلجام ما يعتقد البيت الأبيض أنه وكالة التجسس وقد خرجت على السيطرة.

بيد أن ما جرى هو العكس. وأصبح بانيتا بطل الـ «سي. آي. إيه» يحبه الكثيرون في لانغلي ولكن قد انتقده آخرون ممن اعتبروا أن الفرع الخفي في الوكالة قد استماله إليه على غرار الكثيرين من المدراء قبله. وتمكن في غضون شهر على وصوله من تأخير نشر مذكرات التحقيق، ومن فرض نقاش داخل البيت الأبيض حول الفائدة من الإفشاء ببرنامج السجون المتوقف.

واختبر بانيتا عند هذا الحد في شكل مباشر تأثير مديرية العمليات في الـ «سي. آي. إيه» في رؤساء الجواسيس في لانغلي. فقد حذّره كل من ستيفن كابس والضباط

(١) ردة فعل بانيتا على معرفته في شأن الغارات التي تشنها الـ «سي. آي. إيه» بالطائرات التي تطير بلا طيار مصدرها اثنان من كبار مسؤولي الحكومة الأميركية.

في مركز مكافحة الإرهاب من أن نشر المذكرات سينسف المعنويات داخل المركز[١]. وترافق التحذير مع تهديد ضمني: فهو يخاطر في خسارة دائمة لدعم القوة الخفية العاملة في الوكالة قبل أن يتمكن حتى من تصوّر كيفية الانتقال من مكتبه إلى كافتيريا الوكالة. وأمضى بانيتا ما يكفي من الوقت في واشنطن لمعرفة تبعات ما يسمعه. فهو يخاطر في أن يصبح جون دوتش آخر أو بورتر غوس، وهما الرجلان اللذان تواجها مع مديرية العمليات ووجدا أن فترة منصبهما في الوكالة تصبح بغيضة وفظّة وقصيرة. واقتنع بانيتا.

علم، وهو في رحلته الأولى إلى الخارج بوصفه مديراً لـ «سي. آي. إيه»، بخطط البيت الأبيض نزع الصفة السرية عن مذكرات الاستجواب ونشرها – استجابة لحكم أحد القضاة الفدراليين في دعوى تتعلق بقانون حرية الوصول إلى المعلومات رفعها اتحاد الحريات المدنية الأميركي. واتصل على الفور برئيس موظفي أوباما، رحم إيمانويل، وحثّه على تأجيل النشر. وتربط الرجلين معرفة تعود إلى أيام كلينتون في البيت الأبيض، كما أن إيمانويل هو الذي دفع إلى تعيين بانيتا في الـ"سي. آي. إيه». ساير إيمانويل بانيتا الذي جادل البيت الأبيض بحماسة للحفاظ على سرية المذكرات مستميلاً إياه إلى جانبه[٢]. وشكلت تلك لحظة غريبة تكاد تكون من العالم الآخر: رجل سبق أن اتهم الـ «سي. آي. إيه» علناً بانتهاك القانون الأميركي بارتكابها أعمال تعذيب يحاج بقوة من أجل إخفاء تفاصيل هذه الأعمال عن الجمهور.

خسر بانيتا في النهاية الجدال وأمر الرئيس أوباما بنشر المذكرات. لكن الأمر لم يهم كثيراً المدير الجديد لـ «سي. آي. إيه» إذ إنه، بإصراره أقله على أن يناقش البيت الأبيض المسألة، أثبت لمختلف سلسلة الرتب والرواتب في الوكالة، على أن لديه نفوذاً داخل الإدارة الجديدة. والأهم من ذلك أنه صارع حتى النهاية في مسألة مهمة جداً للجهاز الخفي. وأظهر، حسبما وجد ذلك الكثيرون داخل الـ «سي. آي. إيه»، أنه جزء من الفريق.

---

(١) نقاشات بانيتا مع كبار مسؤولي الـ «سي. آي. إيه» حول نشر المذكرات المتعلقة بالاستجواب، تأتي من مقابلات أجريت مع مسؤولَين أميركيين شاركا في النقاشات.

(٢) نقاشات البيت الأبيض وقرار إيمانويل الاصطفاف مع بانيتا مصدرهما شخصان شاركا في النقاشات. وثمة تغطية واسعة للنقاشات المتعلقة بنشر المذكرات في: Daniel Klaidman, *Kill or Capture: The War on Terror and the Soul of the Obama Presidency* (New York: Houghton Mifflin Harcourt, 2012).

شكّل الأمر كلّياً مسألة أخرى بالنسبة إلى الرجل الذي كان، أقله على الورق، رئيساً لبانيتا. أُرسل الأميرال دنيس بلير إلى الـ «سي. آي. إيه» في عهد إدارة كلينتون ضابط ارتباط مع البنتاغون، وترقى من يومها إلى أعلى الرتب في البحرية وأنهى حياته العسكرية أميرالاً ذا أربع نجوم أنيطت به قيادة المحيط الهادئ. ومنحه عمله إشرافاً على ثلث مساحة الأرض، ونُفِّذت أوامره عبر مئات الآلاف من الأميال المربعة. بيد أن بلير، وقد تقاعد الآن من الجيش، تسلم وظيفة بقيت سيئة التعريف بعد مضي أربع سنوات على خلق إدارة بوش منصب مدير الاستخبارات الوطنية بضغوط من الكونغرس ومن لجنة ٩/١١ لتفسير الإخفاقات الاستخبارية، التي سبقت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر وحرب العراق. وتصوّر بعضهم أن يشكّل المركز الاستخباري موقعاً قوياً يسوق قطيعاً مؤلفاً من مجموعة من أجهزة التجسس الشّموس الموزعة على أقسام مختلفة. بيد أن حلفاء دونالد رامسفلد في الكونغرس، نجحوا في تحييد الموقع الجديد، واحتفظ البنتاغون بمعظم ميزانية مجتمع الاستخبارات. وعنى النزاع البيروقراطي الحاد بأن البنتاغون والـ «سي. آي. إيه» ضمناً أن لا يصبح بلير، في الوقت الذي تسلّم منصبه في مطلع ٢٠٠٩، أكثر من شخص صوري. وزاد الطين بلةً أن بلير رأى على الفور أنه دخيل على مجموعة متماسكة من المستشارين الذين رافقوا الرئيس أوباما في خلال الكثير من حملته الشاقة - وهي مجموعة أشار إليها بلير بازدراء بـ «القائمين بالمسيرة الطويلة»، تيمناً بالانسحاب العسكري على مدى آلاف الأميال، الذي قام به الشيوعيون الصينيون في ١٩٣٤. ونشأت ريبته من خلال احتكاكه الأولي ببانيتا. إذ أخذ بلير يدفع للحصول على سلطة تعيين كبير الجواسيس الأميركيين في كل بلد في الخارج، وهو تعيين قضى العرف بأنه يقع تلقائياً على عاتق رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه». وهذه مسألة بسيطة نسبياً لكن بانيتا ونائبه ستيفن كابس وجدا فيها تهديداً لسلطة الـ «سي. آي. إيه» وضغطا على البيت الأبيض لرفض مخطط بلير. ولما وجد بلير في خلال صيف ٢٠٠٩ أن الاقتراح يذوي في البيت الأبيض، قرّر أنه لا يحتاج إلى انتظار قرار البيت الأبيض وأصدر أمراً يوعز فيه بالتغيير. وأبلغ بانيتا بقراره في مكالمة هاتفية قصيرة شابها التوتّر. وأقفل بانيتا الخط في وجهه، وقال لفريق من المساعدين تجمّع في مكتبه: «ذلك الفتى أحمق لعين». وبُثت في اليوم التالي برقية من بانيتا إلى سائر محطات الـ «سي. آي. إيه» في الخارج. ونقلت البرقية رسالة بسيطة فحواها: تجاهلوا توجيهات بلير[1].

(١) تأتي رواية المحادثة بين بلير وبانيتا من مسؤولين اثنين في مكتب بانيتا في الـ «سي. آي. إيه».

اشتكى بلير، الذي لم يعتد عصيان أوامره، إلى مستشار أوباما لشؤون الأمن القومي جايمس جونز من أن بانيتا يعصي الأوامر ويجب طرده. وانحاز البيت الأبيض إلى الـ «سي. آي. إيه».

كان لبلير منذ زمن طويل نظرة كالحة إلى تاريخ الـ «سي. آي. إيه» في برامج العمل الخفي. واعتقد أن الكثيرين جداً من الرؤساء، في كثير جداً من الأحيان في التاريخ الأميركي، استخدموا الـ «سي. آي. إيه» عكازاً كلما عجز مستشاروهم عن الاتفاق على كيفية التعاطي مع مسألة شائكة بنوع خاص في السياسة الخارجية. كما أنه اعتقد أن برامج العمل الخفي تستمر في العادة سنوات أكثر من قيمتها بالنسبة إلى البلاد[١].

وهكذا عندما أمر الرئيس أوباما، في سنته الأولى في السلطة، بمراجعة نحو دزينة من برامج العمل الخفي التي تنفّذها الـ «سي. آي. إيه» في حينه، من غارات الطائرات التي تطير بلا طيار في باكستان، إلى حملة تخريب العمل النووي الإيراني، أمل بلير أن تشكل العملية فرصةً لتفحص شبكة تحريك كل برنامج لتقرير الفائدة من الاستمرار فيه. لكن اجتماعات صيف ٢٠٠٩ أدت بدلاً من ذلك إلى الموافقة على كل مغامرات الـ «سي. آي. إيه» السرية. وجادل ستيفان كابس بقوة في الاجتماعات لمصلحة الطريقة التي تكلّل بها كل برنامج بالنجاح، وكيف أنه يحتاج إلى الاستمرار. وبحلول الوقت الذي تقرر فيه اجتماع «لجنة المدراء» في الخريف، عندما سيتخذ كبار مستشاري الأمن القومي لدى الرئيس أوباما القرارات النهائية في شأن برامج العمل الخفي، لم يعد أي منها موضوعاً للنظر في إلغائه.

راقب بلير بإحباط العملية وهي تتكشف. وقارب روبرت غايتس، وزير الدفاع الذي أمضى معظم حياته المهنية في واشنطن في الـ «سي. آي. إيه»، وشهد على قسم كبير من العمليات الخفية وهي تنهار. كما أنه عرف بأن لغايتس نفوذاً داخل البيت الأبيض. اتفق غايتس مع بلير على أنه يجب عليهما وضع لائحة بالمبادئ الأساسية التي توجه القرارات المتعلقة ببرامج العمل الخفي. وكانت لائحة المبادئ الستة التي وضعاها غير مؤذية تماماً: وضمّناها بنداً بأنه يجب الاستمرار في تقويم برامج العمل الخفي لتحويلها

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع دنيس بلير.

إلى نشاطات غير خفية، وبنداً آخر بأنه لا يُفترض بالبرامج أن تقوّض «نمو حكومات مستقرة، غير فاسدة وتمثيلية تحترم حقوق إنسان مواطنيها»[١].

وأمرّ بلير اللائحة على الحاضرين عندما اجتمع كبار مستشاري الرئيس أوباما في البيت الأبيض لمناقشة برامج العمل الخفي. أمل غايتس تحويل الاجتماع إلى منتدى يناقش الحكمة العامة من العمل الخفي للـ«سي. آي. إيه»، وطال الاجتماع ساعات فيما حاول بلير فرض نقاش حول كل برنامج سري. واستذكر أن «الـ«سي. آي. إيه» أرادت الدفع في اتجاه إمرار برامج [العمل الخفي]»، وازداد غضب ليون بانيتا ونائب مستشار الأمن القومي توم دونيلون مع كل سؤال محدّد يطرحه بلير[٢].

لم يتعلّق الأمر باعتقاد بانيتا أن بلير يحاول الظهور بمظهر المهم وحسب؛ بل بمحاولته أن يسحب من الـ«سي. آي. إيه» ما دافعت عنه وكالة التجسس بغيرة منذ إنشائها في ١٩٤٧ – وهو الخط المباشر إلى الرئيس للحصول على الموافقة على الأعمال الخفية. واعتقد بانيتا أن اللائحة التي جمعها بلير وغايتس تضع قيوداً غير ضرورية على قدرة الرئيس أوباما على السماح بعمليات سرية.

فشلت جهود بلير ووافقت إدارة أوباما على كل واحد من برامج العمل الخفي التي أقرّها الرئيس بوش. وحقّقت الـ«سي. آي. إيه» بذلك نصراً جديداً وتعرّضت مكانة بلير داخل البيت الأبيض لضرر دائم.

لم يتم التفكير قط، حتى عندما أخذت إدارة أوباما تناقش مستقبل برامج العمل الخفي للـ«سي. آي. إيه»، في وقف الجهود الهادفة إلى القتل. بل على العكس تماماً. ففي الأشهر الأولى للإدارة قاد مستشار الأمن القومي جايمس جونز مشروعاً يقضي بجمع «لائحة اغتيال» مركزية للعمليات القاتلة في ما هو أبعد من مناطق الحرب المعلنة. وشكّل ما أصبح يُعرف بـ«مذكّرة جونز» محاولة أولى من إدارة أوباما لوضع إجراءات للقيام بحرب سرية اعتقد معظم أعضاء الإدارة أنها ستستمر سنوات بعد انقضاء

(١) استحصل المؤلف على اللائحة الكاملة لمبادئ بلير/غايتس. وقد نُشرت اللائحة للمرة الأولى في حواشي كتاب بوب وودرورد حروب أوباما.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع دنيس بلير.

ولاية الرئيس أوباما في البيت الأبيض[1]. وحافظ مجلس الأمن القومي على اللائحة؛ وبالرغم مما بذله بعض المسؤولين من محاولات للإبقاء على المعايير المتشدّدة حول من تمكن إضافته إلى لائحة الاغتيال، فإنه تم أحياناً التساهل في تلك المعايير.

ففي بداية إدارة أوباما، على سبيل المثال، لم يؤذن للـ «سي. آي. إيه» باغتيال بيت اللّه محسود الذي برز بوصفه الزعيم، الذي لا منازع له لطالبان باكستان منذ الأيام، التي سمع بها أرت كيلر باسمه للمرة الأولى، وهو يخدم في واحدة من قواعد الوكالة في المناطق القبلية. أخذ طالبان باكستان، ويعرفون داخل البلاد باسم «تحريكي - إي - طالبان باكستان»، في مهاجمة المراكز العسكرية الباكستانية والمنشآت الحكومية في موجة مرعبة من العنف. وشرعت حكومة باكستان المدنية التي جاءت إلى السلطة بعد تنحّي مشرّف، في حث إدارة أوباما على قتل محسود بطائرة مسلحة تطير بلا طيار تماماً كما فعلت الـ «سي. آي. إيه» بسلفه نك محمد. لكن الجواب جاء بالنفي. وأبلغ ستيفن كابس، نائب مدير الـ «سي. آي. إيه»، حسين حقّاني، سفير باكستان في واشنطن، في لقاء خاص في مطلع ٢٠٠٩ أن الوكالة لم تتمكن من الحصول على الموافقة القانونية على قتل محسود بما أن الأخير وأتباعه لم يهاجموا الولايات المتّحدة[2].

كان لبعض أصحاب نظريات المؤامرة في باكستان وجهة نظر أكثر تعييباً عن سبب رفض الولايات المتّحدة قتل محسود: وهي أنه في الحقيقة عميل سرّي للهند، وقد تعهدت الولايات المتّحدة لنيودلهي ألّا يصاب بأي أذى. لكن ومع استمرار الضغط الباكستاني، شرع محامو الـ «سي. آي. إيه». في توزيع مذكرات قانونية محاجّين أنه بما أن الطالبان الباكستانيين يوفّرون المأوى لعملاء القاعدة، وبما أنه من الصعوبة بمكان التفريق بين الجماعات التي تتجه إلى شن الهجمات داخل باكستان وتلك التي تركز على ضرب الغرب، ثمة مبرّر لوضع كبار قادة طالبان باكستان على لائحة الاغتيال. واعتقد بعضهم، إلى جانب الأساس القانوني، أن قيام الـ «سي. آي. إيه» بقتل عدو باكستان الأخطر قد يثمر فوائد دبلوماسية.

وفي ليلة دافئة من ليالي مطلع آب/أغسطس ٢٠٠٩، وجهت طائرة تطير بلا طيار

(١) تأتي تفاصيل «مذكرة جونز» من مسؤولَيْن كبيرين سابقين في إدارة أوباما.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول حكومي باكستاني سابق.

تابعة لـ «سي. آي. إيه» تحلق فوق قرية «زنغارا» في جنوب وزيرستان كاميرتها على سطح يتنشق منه بيت الله محسود وعدد من أفراد عائلته هواء الليل. وكان محسود، المصاب بداء السكري، يتلقى حقنةً في الوريد عندما أطلقت الطائرة صاروخاً قتل جميع من على السطح. ورحب المسؤولون الباكستانيون بعملية القتل ووصف بعضهم في واشنطن غارة الطائرة التي تطير بلا طيار بأنها «القتل إظهاراً لحسن النية».

أولع ليون بانيتا بدوره الجديد قائداً عسكرياً، وسيشتهر عهده في الـ «سي. آي إيه» بحملة القتل الهجومية – التي سيعتبرها بعضهم متهورة. وقال بانيتا، الكاثوليكي المتديّن، في نهاية ولايته على الـ «سي. آي. إيه» مازحاً: «لقد تلوت صلاة السلام عليك يا مريم في العامين الأخيرين بأكثر مما فعلته في حياتي كلها»[1].

بعد شهرين على اغتيال بيت الله محسود، وصل ليون بانيتا إلى البيت الأبيض ومعه لائحة طويلة بطلبات الـ «سي. آي. إيه» المتعلقة بعمليات شبه عسكرية. سعى إلى المزيد من الطائرات المسلحة التي تطير بلا طيار، والموافقة على طلب الإذن من باكستان لتحليق هذه الطائرات فوق قطاعات كبرى من المناطق القبلية، وهو ما تسمّيه الـ «سي. آي. إيه» بـ «مربعات الطيران». وسبق الرئيس أوباما، بِحَثٍّ من نائب الرئيس جو بايدن، أن وافق بالفعل على زيادة عدد الضباط الخفيين داخل باكستان، الذين يعمل عدد كبير منهم في البلاد من دون معرفة جهاز الاستخبارات الباكستانية.

فوجئ بعضهم بطلب الـ «سي. آي. إيه» توسيع أسطولها من الطائرات التي تطير بلا طيار، وتساءل بعض المسؤولين صراحةً عن سبب ابتعاد وكالة التجسس بهذا القدر عن مهمَتها الأساسية وهي جمع الاستخبارات وتحليلها. وسأل الجنرال جايمس كارترايت، نائب رئيس هيئة رؤساء الأركان، في عدة مناسبات: «هل يمكنكم أن تشرحوا لي لماذا نحن في صدد بناء سلاح جو ثان؟»[2] وفكّر آخرون أن الـ «سي. آي. إيه» أضحت مولعةً بطائراتها القاتلة إلى درجة أنها لم تعد تحث محلليها على طرح السؤال الأساسي: إلى أي درجة تؤدّي غارات الطائرات التي تطير بلا طيار إلى خلق إرهابيين أكثر مما

(١) مقابلة غير منشورة لبانيتا مع النيويورك تايمز.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول كبير سابق في إدارة أوباما.

تقتل في الواقع منهم؟ إلا أن الرئيس أوباما لبى، في نهاية الاجتماع في غرفة الأوضاع، ليون بانيتا كل طلباته. وقال الرئيس إن «الـ«سي. آي. إيه» تحصل على ما تريد»[1].

بيد أن حرب الـ«سي. آي. إيه» في جبال باكستان بقيت، حتى مع الموارد الجديدة، تستهلك معظم طائرات مجتمع الاستخبارات التي تطير بلا طيار وأقمار التجسس وضباط الحالة. ولم يترك ذلك إلا القليل لحرب من نوع آخر على بعد ثلاثة آلاف ميل إلى الغرب، يعمل مستشارو الرئيس أوباما على توسيعها سريعاً. فقد أوجدت محاولة اغتيال الأمير ابن نايف في آب/أغسطس ٢٠٠٩ إلحاحاً جديداً على واشنطن لمهاجمة المجموعة التابعة للقاعدة في اليمن، التي أعلنت نيتها ضرب الغرب.

لم يكن يوجد في أواخر ٢٠٠٩، إلا حفنة صغيرة من الجنود الأميركيين والجواسيس المتمركزين داخل السفارة الأميركية في صنعاء. واحتفظ البنتاغون، بالإضافة إلى محطة الـ«سي. آي. إيه» في البلاد، بمجموعة من جنود العمليات الخاصة في اليمن منذ ٢٠٠٢، لكن حربي العراق وأفغانستان حازتا على امتداد سنوات أولوية أكبر من أولوية البعثة في اليمن. لكن ومع خمود الحرب في العراق، بات لدى القيادة المشتركة للعمليات الخاصة المزيد من جنود القوات البحرية الخاصة لتخصيصهم للمهمات الجديدة.

خشي الجنرال ديفيد بترايوس، قائد القوات الأميركية في الشرق الأوسط، منذ توليه القيادة المركزية في السنة السابقة، من تعاظم نفوذ القاعدة في شبه الجزيرة العربية[2]. ووقع بترايوس في أواخر أيلول/سبتمبر ٢٠٠٩ أمراً سرّياً بالتوسّع في التجسس الأميركي في اليمن وغيرها، وهو الأمر نفسه الذي استخدمه مايكل فورلونغ لتبرير عمليته القاضية بجمع الاستخبارات في باكستان. وهو يؤذن للجيش بالقيام بطائفة من المهمات غير

(١) Daniel Klaidman, *Kill or Capture*، مصدر سابق، ص١٢١.

(٢) طلب بترايوس المشورة من السفير الأميركي السابق في اليمن إدموند هول، الذي تابع على مدى سنوات عدة نمو الحركة الجهادية في البلاد، وشعر بالغضب لأنه بدا وكأن البلاد أخذت تنزلق إلى الفوضى بعد النجاحات في مكافحة الإرهاب في السنوات التي أعقبت مباشرة هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. وقال لبترايوس إن اليمن قد تصبح في حال الاستمرار في تجاهلها أفغانستان أخرى وملاذاً آمناً للهجمات في بلدان أخرى؛ وبدا التوقع دقيقاً في شكل مرعب بعد ذلك بأشهر مع محاولة اغتيال الأمير ابن نايف.

التقليدية في اليمن، من عمليات تنصّت أوسع إلى دفع المال للمحليين لقاء المعلومات.

أراد قائد القيادة المشتركة للعمليات الخاصة الأميرال وليام ماك رافن أن يستخدم في اليمن المخطط نفسه، الذي استخدمه الكوماندوس في العراق لمحاربة القاعدة في بلاد ما بين النهرين: غارات ليلية متكررة لاعتقال عناصر القاعدة واستجوابهم للحصول على المعلومات الاستخبارية، ومن ثم استخدام المعلومات للقيام بالمزيد من عمليات الدهم والاعتقال. وقد تم بالفعل استنساخ هذا النموذج في أفغانستان وهو يعتمد على ما يسميه القادة العسكريون «دورة الاستخبار»، واعتقد ماك رافن أنه يمكن بالمجيء بمزيد من الجنود إلى اليمن، أن يعطّل قوة القاعدة في شبه الجزيرة العربية قبل أن تنجح في مهاجمة الولايات المتّحدة[1].

رفضت واشنطن أفكار ماك رافن الطموح حول اليمن بوصفها غير واقعية. فلن يجيز الرئيس اليمني صالح أبداً للقوات البرية الأميركية إقامة مركز للاعتقال والتحقيق داخل اليمن، ناهيك بالسماح بعمليات الاعتقال والقتل في أنحاء البلاد. وقد واجه البيت الأبيض معارضةً سياسيةً شديدة لخططه القاضية بإقفال السجن في خليج غوانتنامو، وبالكاد استمرأ مساعدو الرئيس إمكان تولي شأن عدد كبير من المعتقلين الجدد الذين يؤسرون في اليمن. وطُلب من ماك رافن تصوّر طريقة أخرى لخوض الحرب هناك.

أعقبت ذلك حملة غريبة وغير ناضجة: تقوّضت الحرب شبه السرية أحياناً من جراء محاولات سخيفة لإخفاء اليد الأميركية في العمليات العسكرية. وأجبر القليل من الاستخبارات الدقيقة عن مكان وجود قادة المحاربين ورفض الرئيس اليمني السماح، منذ ٢٠٠٢، بتحليق الطائرات المسلحة التي تطير بلا طيار، المخططين العسكريين على الاعتماد على صواريخ كروز، التي تُطلق من السفن الحربية قبالة الساحل اليمني والغارات الظرفية التي تشنها طائرات هاريير التابعة للبحرية. وجاءت النتائج بشعة، إذ ستؤدّي الغارات الأميركية على اليمن في الأشهر القليلة التالية إلى قتل مدنيين أكثر من قتل كبار عناصر الملتحقين بالقاعدة في شبه الجزيرة العربية.

وقعت الغارة الأميركية الأولى في ١٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٩. اعترض

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع قائد أميركي سابق للعمليات الخاصة شارك في النقاشات حول العمليات العسكرية في اليمن.

الأميركيون مكالمات صادرة من أحد المعسكرات الإرهابية في محافظة أبين، وهي مساحة نائية من الصحراء والقرى الساحلية تمتد جنوب مدينة عدن ذات المرفأ. وتبيّن أن القاعدة في شبه الجزيرة العربية بلغت المراحل النهائية من إرسال مجموعة من المفجرين الانتحاريين لمهاجمة السفارة الأميركية في صنعاء. وقدم الأميرال ماك رافن، في اتصال متعدد الأطراف بالفيديو قبل ذلك بيوم، موجزاً مفصلاً لمسؤولين في البيت الأبيض والبنتاغون ووزارة الخارجية حول خطته لضرب المعسكر. وفيما تحظى الـ «سي. آي. إيه» عموماً بموافقة مسبقة على القيام بغارات بالطائرات التي تطير بلا طيار في باكستان من دون الحصول في كل مرّة على إذن من البيت الأبيض، يحتاج الجيش إلى الضوء الأخضر من فريق صغير في واشنطن – مجموعة تُلقّب بـ «مجلس إدارة مكافحة الإرهاب»، يرأسها جون برينان[1]. والفريق هو الذي يقرر في شأن خطة ما ثم ينقل توصياته إلى الرئيس أوباما الذي يوقّع شخصياً على كل غارة.

وافق أوباما على العملية. وأُرسلت في اليوم التالي برقية مشفَّرة إلى أسطول صغير من السفن الحربية، التي تجوب بحر العرب، وسقطت في غضون ساعات عدة صواريخ كروز من طراز «توماهوك» على المخيم الصحراوي في أبين. ومع نهاية اليوم نشرت الحكومة اليمنية بياناً صحافياً هلل لنجاح العملية قائلاً إن الغارة التي شنها سلاح الجو اليمني قتلت «نحو ٣٤» من مقاتلي القاعدة.

اتصل الرئيس أوباما في اليوم التالي بعلي عبدالله صالح ليشكره على تعاونه بالرغم من أن الجنود اليمنيين بالكاد شكلوا ورقة التين للعملية الأميركية. وكشف ما التقطه المحليون من فيديو في المعسكر بقايا صاروخ تحمل علامات أميركية وأثبت أن صواريخ توماهوك زُودت قنابل عنقودية – وهي أسلحة مصممة لشق طريق واسع من الدمار عن طريق نثر قنابل صغيرة فوق منطقة واسعة. وكان معظم القتلى من المدنيين وانتشرت صور النساء والأطفال الموتى والمضرجين بدمائهم كالوباء على «يوتيوب». وفي خلال احتجاج في الشارع، نقلته الجزيرة، وجه أحد مقاتلي القاعدة وهو يحمل رشاش كلاشنكوف نداء مباشراً إلى الجنود اليمنيين.

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع قائد أميركي سابق للعمليات الخاصة شارك في النقاشات حول العمليات العسكرية في اليمن.

قال: «عليكم، أيها الجنود، أن تعرفوا أننا لا نريد أن نقاتلكم. فلا مشكلة بيننا وبينكم. المشكلة هي مع أميركا وعملائها. احذروا أخذ جانب أميركا!»[1].

بعد ثلاثة أسابيع على الضربة الأميركية وصل الجنرال بترايوس إلى صنعاء للقاء الرئيس صالح ومستشاريه في شأن المرحلة التالية من الحرب. وهناك أمر طارئ جديد: ففي عشية عيد الميلاد ٢٠٠٩ صعد شاب نيجيري في أمستردام إلى متن طائرة متوجهة إلى ديترويت، وقد خاط في ثيابه التحتية ما شكّل آخر الإبداعات الشيطانية لإبراهيم العسيري سيّد صناعة القنابل في اليمن. وفيما الطائرة تبدأ انحدارها النهائي حاول عمر فاروق عبد المطلب تفجير القنبلة – المصنوعة من ثمانين غراماً من المتفجرات البلاستيكية – مستخدماً حقنةً ملأى بالحمض السائل. ومرةً أخرى تعثّر عمل العسيري من جراء عدم جدارة حامل قنبلته. ونجح عبد المطلب فقط في إشعال النار في ساقه وصارعه ركاب آخرون وألقوا به أرضاً. ونُقل الإرهابي السيّئ الحظ إلى الاحتجاز في ديترويت، وتفادت الولايات المتّحدة بشق النفس أول حادثة إرهابية واسعة المدى في عهد إدارة أوباما.

صحيح أن محاولة اغتيال الأمير ابن نايف شكّلت الإشارة الأولى إلى طموح القاعدة في شبه الجزيرة العربية إلى الضرب أبعد من اليمن، إلا أن هجوم عيد الميلاد المحبَط أثبت أن المجموعة مصمّمة فعلاً على مواصلة العمل، الذي بدأه أسامة بن لادن وزمرته المتقلصة من عملاء القاعدة المختبئين في باكستان. وعندما هبطت طائرة الجنرال بترايوس في العاصمة اليمنية في مطلع كانون الثاني/يناير ٢٠١٠، كانت إدارة أوباما قد قررت بالفعل تصعيد الغارات الأميركية في البلاد.

لطالما كان الرئيس صالح صلباً في شأن السماح بجعل اليمن ساحة للعمليات السرية الأميركية، وغالباً ما تحولت الاجتماعات بين الرئيس اليمني والمسؤولين الأميركيين إلى نوع من جلسات المقايضة. بدأ بترايوس الاجتماع الذي استغرق تسعين دقيقة بتليين

(١) Scott Shane with Mark Mazzetti and Robert Worth, "Secret Assault on Terrorism Widens on Two Continents", *The New York Times* (August 14, 2010).

الرئيس اليمني: أشاد به على عملياته العسكرية الناجحة ضد القاعدة في شبه الجزيرة العربية وقال إنه طلب مضاعفة الدفعات النقدية لليمن على عملياته المضادة للإرهاب من ٦٧ مليون دولار إلى ١٠٥ ملايين دولار في السنة[1].

لكن الطاغية الماكر دفع من أجل المزيد. وأثار موضوع الضربات الأميركية الأخيرة ليقول إن «أخطاء قد ارتُكبت» في قتل مدنيين في أبين. فصواريخ الكروز من نوع «توماهوك» لا تصلح في القتال ضد الإرهابيّين، ويمكن تفادي الإصابات المدنية إذا أعطته الولايات المتّحدة دزينةً من الهليكوبتر المسلحة للانقضاض على مخيمات الإرهابيّين. وقال صالح إن ذلك سيسمح له بتجنّب المدنيين وبقتل المذنبين. وقال إنه ربما يمكن الجنرال بترايوس الضغط على السعودية والإمارات العربية المتّحدة لتساهم كل منهما بست طائرات في حال لم توافق الولايات المتّحدة على طلبه. وردّ بترايوس بأن طلب منه: السماح لجنود العمليات الخاصة الأميركيين بالتجسس في نطاق أقرب إلى خطوط الجبهة في اليمن، وبهذه الطريقة يمكن الأميركيين أن يبثوا الاستخبارات من الطائرات التي تطير بلا طيار ومن الأقمار الصناعية ويستخدموا هذه الاستخبارات لضرب أوكار الإرهابيّين بسرعة ودقة كبيرتين.

ردّ صالح الطلب صراحةً وأبلغ بترايوس أن على الأميركيين البقاء في مركز العمليات الذي أقامته الـ«سي. آي. إيه» والقيادة المشتركة للعمليات الخاصة عند مشارف العاصمة. لكنه أضاف إنه يمكن الحرب الجوية أن تستمر. وسيسمح للمقاتلات والقاذفات الأميركية بأن تطوف قُبالة السواحل وتدخل المجال الجوي اليمني في مهمات محددة عند بروز معلومات استخبارية عن مكان زعماء القاعدة في شبه الجزيرة العربية. وقال إنه سيستمر في خدعته القاضية بأن الولايات المتّحدة لا تخوض حرباً داخل اليمن.

قال صالح: «سنواصل القول إننا نحن من يقصف وليس أنتم».

(١) Cable from U.S. embassy in Sana'a to the State Department, "General Petraeus Meeting with President Saleh on Security Assistance, AQAP Strikes", January 4, 2010. تأتي رواية الاجتماع كلها من هذه البرقية.

أخذت الولايات المتّحدة تنغمس ببطء في حرب داخل بلد تجاهلته واشنطن طويلاً ولم تفهم الكثير عنه. وهي حرب ضد متعصبين يوجهون ضربات أكبر منهم في قتال ضد القوة العظمى العالمية. ولا تزال إدارة أوباما لا تمتلك إلا فكرة غامضة جداً عن مدى الدعم الذي يتلقاه المحاربون وعن مكان اختبائهم. وصعب التفريق بين ما هو استخبارات حقيقية وبين ما هو تضليل تسلمه إلى الأميركيين مصادر يمنية تعمل على تقديم روزناماتها الخاصة.

بعد خمسة أشهر على لقاء بترايوس صالح فجّر صاروخ أميركي سيارة جابر الشبواني نائب محافظ مأرب والرجل الذي أخبر صالح عنه بأنه صلة الارتباط بين الحكومة اليمنية وجماعة القاعدة. وقد قُتل الشبواني وحراسه وهم في الطريق للقاء عناصر من القاعدة في شبه الجزيرة العربية لمناقشة هدنة. لكن خصوم الشبواني السياسيين أبلغوا الأميركيين رواية أخرى: وهي أن السياسي اليمني متحالف مع القاعدة. واستُغل الأميركيون وحسب للقيام بضربة ذات تقنية عالية لتصفية حساب الضغائن القبلية.

أثارت غارة أيار/مايو ٢٠١٠ الاستياء في أنحاء اليمن وطلب الرئيس صالح وقف الغارات الجوية. وأشعل السكان المحليون في مأرب أحد خطوط أنابيب النفط واستمرت النار مشتعلة عدة أيام. وتوقفت الحرب الأميركية في اليمن لأجل غير مسمى.

يُخلّد كبار الرؤساء الأميركيين في واشنطن من خلال صروح عظمى وتُحفر أشهر أقوالهم على كتلة من الرخام الأبيض. ويحصل الرؤساء العاديون على قاعات اجتماع تُطلق عليها أسماؤهم في فنادق وسط العاصمة. ونزل دنيس بلير في ٦ نيسان/أبريل ٢٠١٠ الدرج إلى الطبقة السفلة لفندق ويلارد الذي يضم متاهة من قاعات الاجتماع تحمل أسماء ميلارد فيلمور، زكاري تايلور، فرانكلين بيرس وجايمس بوكانان. وألقى هناك آخر محاضرة له بوصفه رئيساً للاستخبارات الوطنية.

أخذت إحباطات بلير من الوظيفة تتفاقم وعرف أن الدعم له آخذ في التراجع في كل من البيت الأبيض ووسط أنتليجنسيا الأمن القومي في واشنطن. ووصل بلير في ذلك الصباح وهو مصمم على إشهار مخاوفه في شأن الـ «سي. آي. إيه» والعمليات

السرية التي يعتقد أنها تعيث في الأرض فساداً. وجاءت رسالته واضحة بالرغم من اللغة الدبلوماسية التي غلّفت كلامه[1].

قال إن الولايات المتّحدة تعتمد أكثر من اللازم على العمل الخفي في عالم تصعب فيه حماية الأسرار والاستمرار في إبقاء يد الحكومة الأميركية مخفية.

«هناك الكثير جداً من أدوات القوة الوطنية المكشوفة المتوافرة لمواجهة المشاكل في مناطق من العالم، شكلت في الماضي، المكان الذي لا يمكن فيه إلا تطبيق العمل الخفي».

لم يشر خطابه قط إلى الـ «سي. آي. إيه» إلا أنه لم يخف على أحد أن كلماته موجهة إلى الوكالة، التي راقبها وهي تكدّس سلطة هائلة داخل إدارة أوباما.

انتهك بلير، بالتعبير علناً عن مخاوفه، واحدة من القواعد الجوهرية لإدارة أوباما: وهي الإبقاء على النزاعات في شأن مسائل الأمن القومي داخل العائلة. بل إن ما له مغزى أكبر هو أنه يعترض على أحد الأعمدة الأساسية في سياسة الرئيس أوباما الخارجية: وهو استخدام الـ «سي. آي. إيه» أداة في الحرب السرية. وثار، كما هو متوقع، سخط ليون بانيتا وغيره من كبار المسؤولين في الـ «سي. آي. إيه» لما عرفوا بخطاب بلير. وبعد أكثر من شهر على ذلك تماماً أعفى الرئيس أوباما دنيس بلير من منصبه.

فالـ «سي. آي. إيه» تحصل على ما تريد.

(١) نص ملاحظات بلير في فندق ويلارد متوافر على: dni.gov/speeches/20100406_5_speech.pdf

١٣ : التزاحم على إفريقيا

«إنه المنّ من السماء!»

- أميرة

شقّت سفينة الشحن «أم في فاينا» التي تملكها أوكرانيا، طريقها في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٨ في محاذاة ساحل الصومال تدفعها محرّكاتها في اتجاه مومباسا في كينيا. لكنها لن تبلغ وجهتها النهائية. إذ، وفيما تبحر في بقعة من المياه الغادرة بنوع خاص، تجمّع أكثر من دزينة من المسلحين من حولها وهم يستقلون زوارق ذات محرّكات واختطفوا الطاقم المؤلف من ١٧ أوكرانياً وثلاثة روس ولاتفي واحد رهائن.

لم يصدّق القراصنة حظهم عندما نزلوا إلى مخزن السفينة: فهي تنقل حمولة سرّية من ٣٣ دبابة روسية «تي-٧٢» ودزينات من صناديق القنابل اليدوية وترسانة من المدافع المضادّة للطائرات. لم يمتلك القراصنة أي وسيلة تمكنهم من معرفة أن الحمولة جزء من جهد سرّي تقوم به الحكومة الكينية لتسليح ميليشيات جنوب السودان في قتالهم ضد الحكومة في الخرطوم – في انتهاك للحظر الذي فرضته الأمم المتحدة[١]. والقراصنة الصوماليون باتوا خبراء في تحديد الفدية استناداً إلى قيمة الشحنة، فطالبوا بعد وقت قصير على احتجاز السفينة بما يصل إلى ٣٥ مليون دولار ليتركوا الطاقم والسفينة وشحنتها الحساسة بسلام.

---

(١) Cable from U.S. embassy to State Department headquarters, "Whither the M/V Faina's Tanks?" October 2, 2008. تصف هذه البرقية الطريق الذي تصل من خلاله الأسلحة إلى جنوب السودان. فبعد وصول الأسلحة إلى مومباسا تُرسل عبر خطوط السكة الحديد إلى أوغندا ومنها إلى جنوب السودان.

وفي غضون أيام طوقت بوارج البحرية الأميركية السفينة وحلقت طائرات الهليكوبتر فوق سطح «فاينا» في محاولة لاستكشاف صحة الطاقم. لكن المفاوضات حول الرهائن امتدّت على مدى أسابيع إذ رفض مالكو السفينة الانصياع لمطالب القراصنة الذين أعلنوا، وقد أحبطهم عدم تحقيق أي تقدّم، أنهم يريدون وسيطاً جديداً في المفاوضات. وخربشوا رسالة على قطعة قماش بيضاء ونشروها فوق سياج «فاينا».

والرسالة كناية عن كلمة واحدة وحسب: أميرة.

أضحت ميشال «أميرة» بالارين، في غضون أيام، في قلب مفاوضات الرهائن مع مجموعة من القراصنة الذين يحتجزون سفينةً ملأى بالدبابات الروسية. وشرعت بالارين بالفعل، في الوقت الذي طرح القراصنة مطالبهم، في العمل مع مجموعة من شيوخ القبائل الصومالية للتفاوض في شأن الفدية وإنهاء المواجهة، بالرغم من نفيها لاحقاً وجود أي مصلحة مادية لها في التفاوض. وقالت إن اهتمامها نابع من دافع إنساني محض عبر توفير هواتف تعمل بالأقمار الصناعية ليستطيع القراصنة الاتصال بالشيوخ الصوماليين عند الشاطئ ويتمكن أفراد طاقم «فاينا» بالتالي من الاتصال بعائلاتهم[1]. لكن الغضب استبد بمالكي السفينة الأوكرانية من تدخل هذه المرأة الغريبة من فرجينيا. فوجودها غير مرغوب فيه؛ وتصوّروا أنها لا تفعل سوى رفع ثمن تحرير طاقمهم والحمولة. وقال متحدث باسم الشركة: «عليها أن تدرك أنها لا تفعل، بعرض مبلغ ضخم من المال على المجرمين - وهي بالمناسبة لا تملكه – سوى إعطاء الأمل الكاذب»[2].

وتدخلت الحكومة الأوكرانية هي الأخرى. وفي مطلع شباط/فبراير ٢٠٠٩، بعد أسابيع وحسب على تولي أوباما السلطة، كتب وزير الخارجية الأوكرانية فولوديمير أوريزكو رسالة إلى وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون في شأن المرأة التي قال ببعض من الزخرفة إنها «أصبحت وسيطاً لقراصنة البحر»[3]. وتابع الوزير الأوكراني إن أفعال

(١) مقابلة أجراها هارون معروف لإذاعة صوت أميركا (٢ آب/أغسطس ٢٠١٠).

(٢) "Ukraine Ship Owners Object to U.S. Woman's Role in Pirate Talks", *Russian News Room*, December 19, 2008.

(٣) Cable from U.S. embassy in Ukraine to State Department headquarters, "Faina: Letter from Foreign Minister Ohryzko", February 5, 2009.

بالارين «تحرّض القراصنة على زيادة لا مبرر لها في مبلغ الفدية». وطلب من كلينتون «تسهيل إقصائها عن عملية التفاوض مع القراصنة»[1].

لم يُفترض بهيلاري كلينتون معرفة من هي ميشال بالارين قبل أن تتسلم رسالة الوزير الأوكراني، لكن افترض بالكثيرين من المسؤولين الأميركيين الآخرين أن يعرفوا. فقد حصلت بالارين، مع تسلم الرئيس أوباما السلطة، على عقد مع البنتاغون لجمع الاستخبارات داخل الصومال، وهذا ليس إلا واحداً من المشاريع الكثيرة التي حاولت، بدرجات متنوعة من النجاح، الحصول على موافقة حكومة الولايات المتّحدة عليها.

لما تثمر بعد جهودها التي تعود إلى ٢٠٠٦ لتنظيم مقاومة صوفية لمحاربة الشباب، لكنها لم ترتدع. واستخدمت عدداً من الشركات الواجهة ذات الأسماء الغامضة والمتحذلقة مثل «بلاك ستار» و«أركنجل» و«غولف سيكيوريتي غروب»، لتبتكر مغامرات جديدة صُممت لجعلها شريكاً لا يمكن الاستغناء عنه للجيش الأميركي ولأجهزة الاستخبارات. وحوّلت فندقاً تاريخياً في فرجينيا إلى منشأة محمية - مع جدران مدعّمة وأقفال مرمّزة - أملت أن تستخدمها الـ«سي. آي. إيه» أو البنتاغون لخزن المعلومات السرية. ولم تنجح في حمل أي وكالة حكومية على استئجار المكان.

استخدمت عدداً من ضباط الجيش ومن الجواسيس المتقاعدين، بمن فيهم الضابط السابق في الـ«سي. آي. إيه» روس نيولاند، الذي ترك وكالة التجسس ليصبح مستشاراً، للمساعدة على توفير الاجتماعات مع كبار أعضاء مؤسسة الأمن القومي. وعملت مع الرقيب الأول بيري دايفيس، الممتلئ الجسم المتقاعد من القُبعات الخضر الذي خدم سنوات طويلة في جنوب شرقي آسيا، وبحثت لفترة وجيزة في فكرة البحث عن قواعد في الجزر البعيدة في الفيليبين وأندونيسيا، اعتقدت أنه يمكن استخدامها لتدريب جنود من السكان المحليين على مهمات خفية لمكافحة الإرهاب، لكنها ركّزت في الغالب على إفريقيا.

وكتبت في آب/أغسطس ٢٠٠٧ رسالة إلى الـ«سي. آي. إيه» أعلنت فيها بأنها رئيسة «غولف سيكيوريتي غروب»، الشركة القائمة في الإمارات العربية المتّحدة ولها

(١) Cable from U.S. embassy in Ukraine to State Department headquarters, "Faina: Letter from Foreign Minister Ohryzko", February 5, 2009.

«هدف وحيد» يتمثل في مطاردة وقتل «شبكات القاعدة الإرهابية وبناها التحتية وعناصرها في القرن الإفريقي».

وتابعت الرسالة:

«يمتلك الموقعون أدناه، وهم مواطنون أميركيون ليست لديهم أي مصالح خارجية أو ما يتأثرون به، شركة «غولف سيكيوريتي غروب» ويديرونها. نتمتّع بعلاقات عميقة مع العشائر المحلية والزعماء السياسيين في الصومال وكينيا وأوغندا وفي أنحاء القرن الإفريقي، بما في ذلك اتحاد المحاكم الإسلامية، ومع من يسيطرون على محاربيهم ونشاطاتهم الجهادية. وستسمح هذه العلاقات بالتوصل إلى نتيجة ناجحة للمهمة من دون ترك أي بصمات أو آثار أو ما يدل على هويّة القائمين بها، مع توفير الإمكانية التامة للإنكار»[1].

وبعث أحد محامي الـ «سي. آي. إيه» بجواب لاذع عن مثل هذا الاقتراح الذي يقطع الأنفاس. وكتب جون ل. ماكفرسون، المحامي العام المساعد في الوكالة، «إن الـ «سي. آي. إيه» غير مهتمة باقتراحكم غير المرغوب فيه ولا تسمح لكم بالقيام بأي نشاط بالنيابة عنها. وأنا أرد اقتراحكم». وكتب ماكفرسون أن اقتراح بالارين حَشْد فرق ضاربة من المحليين قد يمثل انتهاكاً لقانون الحياد الذي يحظر على المواطنين العاديين إنشاء جيوش خاصة في الخارج[2].

وربما اختارت بالارين التوقيت غير المناسب مهما بدا عرضها بعيد الاحتمال. فالـ «سي. آي. إيه» كانت لا تزال قبل ذلك بسنة تماماً تدفع لإيريك برانس وأنريكي برادو على دورهما في برنامج القتل الذي لُزّم لموظفي بلاكووتر. لكن الوكالة قررت في أواسط ٢٠٠٦ وجوب إغلاق برنامج بلاكووتر بسبب المخاوف نفسها تماماً التي أثارتها رسالة ماكفرسون حول صلاحية استخدام مواطنين عاديين لتأدية دور في عمليات القتل.

(١) رسالة «غولف سيكيوريتي غروب» إلى الوكالة المركزية للاستخبارات في ١٧ آب/أغسطس ٢٠٠٧. وقد حصل المؤلف على نسخة من الرسالة.

(٢) رسالة من جون ل. ماكفرسون إلى ميشال بالارين في ٢٧ آب/أغسطس ٢٠٠٧. وقد حصل المؤلف على نسخة من الرسالة.

وليست الـ «سي. آي. إيه» على استعداد لأن تأخذ في الاعتبار اقتراحاً مماثلاً من امرأة غامضة ليس لها سجل من المشاركة في العمليات الخفية.

اقترحت بالارين لاحقاً، وقد حُرمت من القتل من أجل الـ «سي. آي. إيه»، التجسس للجيش. وحققت في ذلك نجاحاً أكبر. ووصلت بالارين وبيري دايفيس، في ربيع ٢٠٠٨، إلى مبنى عادي قبالة البنتاغون حيث عقدا اجتماعاً في مقر «مكتب الدعم التقني لمحاربة الإرهاب»[1]. ومكتب الدعم كناية عن جهاز صغير ذي ميزانية متواضعة لتوفير التمويل الأولي لبرامج سرية لمكافحة الإرهاب، وقد ساهم أحد معارف بالارين داخل البنتاغون في التمهيد للاجتماع. سوى أن قلة داخل مكتب الدعم عرفت أي شيء عن المرأة الأنيقة الملبس الواقفة أمامهم. وتميّزت بالارين بالصراحة وهي تعرّف بنفسها بوصفها رئيسة شركة تدعى «بلاك ستار».

قالت: «سأصلح الصومال».

وطرحت بالارين ودايفيس الخطوط العريضة لخطة وضع برنامج للمساعدة الغذائية الإنسانية يشكل غطاء لجمع الاستخبارات. وستصل كميات الغذاء بحراً إلى أحد الموانئ الصومالية وتُحمّل بالشاحنات وتنقل إلى مراكز المساعدة، التي يخطط فريقها لإقامتها حول البلاد. وقضى المخطط بأن يعطي الصوماليون الذين يصلون إلى مراكز الغذاء أسماءهم وغير ذلك من المعلومات المتعلقة بتحديد هوياتهم ويحصلون في المقابل على بطاقات تعريف. وقالت بالارين للمسؤولين العسكريين إنه يمكن إرسال المعلومات التي تُجمع في مراكز الغذاء إلى قواعد بيانات البنتاغون وتُستخدم لرسم خريطة البنية القبلية الصومالية المعقدة وفي مساعدة الولايات المتّحدة على مطاردة زعماء الشباب.

وقالت بالارين إنها ستموّل معظم البرنامج من جيبها الخاص، لكنها تتطلع إلى الحصول على كلا الموافقة من البنتاغون والتمويل الإضافي. ولم تقدّم بالارين ودايفيس إلا تفاصيل محدّدة قليلة عن الطريقة التي ينويان من خلالها إنجاح العملية، لكنهما تمكنا من تسويق الخطة. وبعد ذلك بفترة قصيرة وعد مكتب البنتاغون «بلاك ستار» بمبلغ أولي يقارب الـ ٢٠٠ ألف دولار مع تعهّد بالمزيد في حال أخذ البرنامج يظهر بأنه

(١) يأتي وصف اجتماع بالارين في «مكتب الدعم التقني لمحاربة الإرهاب» من مسؤول عسكري مشارك في برامج مكافحة الإرهاب حضر الاجتماع.

واعد. وحصلت بالارين للمرة الأولى على تصريح من الحكومة الأميركية للعمل الخفي في إفريقيا.

تضافر عدد من العوامل لتمهيد طريق ميشال بالارين لعملية جمع الاستخبارات في الصومال. وأولها والأكثر بداهة هو الافتقار إلى أي معلومات عن بلد تنتاب بعضهم في واشنطن مخاوف غامضة من أن يصبح شبيهاً بنموذج أفغانستان كما كانت قبل هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. فحرب الطائرات التي تطير بلا طيار في باكستان ودعم العمليات العسكرية في العراق وأفغانستان قد استهلكا الـ «سي. آي. إيه» وتركاها مع القليل من وسائل التجسس داخل الصومال. أضف إلى ذلك، والـ «سي. آي. إيه» لا تزال تشعر بآثار الكي من حملة ٢٠٠٦ الخفية الكارثية مع أمراء الحرب هناك، أن الكثيرين في لانغلي لم يهتموا في ذلك الوقت بالخوض من جديد في الوحول الصومالية. كما أنهم ليسوا متيقنين أن المسألة جديرة بذلك: فقد تجاهل مدير الـ «سي. آي. إيه» مايكل هايدن حركة الشباب بوصفها عديمة الأهمية في مقابلته الأخيرة مع الصحافيين في نهاية عهد إدارة بوش.

لكن البنتاغون أخذ في الوقت نفسه يدفع إلى تصعيد النشاطات الخفية في أنحاء إفريقيا: من القرن، وعبر الدول العربية في الجزء الشمالي من القارة، إلى الدول الغربية مثل نيجيريا. وشكّل إنشاء القيادة الإفريقية الأميركية في خريف ٢٠٠٨، وهو أول مقر قيادة للبنتاغون مخصص حصرياً للعمليات في إفريقيا، إشارةً أخرى إلى الانتباه المتزايد إلى القارة الثانية الأكبر والأكثر سكاناً في العالم بعد سنوات من الإهمال النسبي. وامتلك البنتاغون مركز قيادة عسكرياً جديداً تماماً في شتوتغارت، ألمانيا – لكن من دون الاستخبارات اللازمة لدعم أي عمليات.

كما أنه لم يمتلك فكرةً واضحةً عمّن يجب دعمه داخل الصومال. وبعد أشهر وحسب على تولي الرئيس أوباما السلطة أعلنت الإدارة الجديدة قرارها شحن أربعين طناً من الأسلحة والذخائر إلى الحكومة الفدرالية الانتقالية المحاصرة، وهي الحكومة التي تدعمها الأمم المتّحدة ويعتبرها الصوماليون فاسدة بقدر ما هي ضعيفة. ولم تعد الحكومة الانتقالية تسيطر بحلول ٢٠٠٩ إلا على مساحة صغيرة من الأرض بما لا يتعدّى بضعة الأميال المربعة داخل مقديشو، وذُعر فريق الرئيس أوباما من احتمال أن يدفع

هجوم للشباب في العاصمة الحكومة إلى خارج وسط مقديشو. واضطرت الإدارة إلى طلب الحصول على موافقة الأمم المتّحدة على شحنة الأسلحة بسبب الحظر القائم على تدفق الأسلحة الأجنبية إلى الصومال. ووصلت أول شحنة من الأسلحة في حزيران/يونيو ٢٠٠٩، لكن الجنود الحكوميين الصوماليين لم يحتفظوا بها طويلاً. بل عمدوا بدلاً من ذلك إلى بيع الأسلحة التي اشترتها لهم واشنطن في بازارات السلاح في مقديشو. وانهارت سوق الأسلحة وتوافر لمقاتلي الشباب إمداد جديد من الأسلحة الرخيصة. وأمكن، بنهاية الصيف، العثور في البازارات على الـ «أم-١٦» الأميركية الصنع بخمسة وتسعين دولاراً لا غير، كما أمكن شراء الكلاشنكوف «أك-٤٧» المرغوب فيه أكثر بخمسة دولارات وحسب[١].

من الواضح أنه استمر خوض الحملة في القرن الإفريقي بطريقة اتفاقية ومشتّتة حيث أدارت الولايات المتّحدة حرباً جرى تلزيمها للقوى الوكيلة وأمراء الحرب. واعتُبرت الصومال تهديداً لكنها ليست على هذا القدر من الخطر لتستأهل حملة عسكرية أميركية فيها. وبالتالي فتحت الأبواب أمام متعاقدين أمثال بالارين ممن عرضوا ملء الفراغ الاستخباري، تماماً كما فعل ديوي كلاريدج بالنسبة إلى باكستان.

أخذت الصومال تتحول ببطء إلى جنة لكل أنواع العمليات الخفية: من المهمات السرّية لمكافحة الإرهاب التي تقوم بها الحكومات الغربية، إلى المخططات الجامحة التي يضعها المتعاقدون لمطاردة القراصنة. وأُعد مثل هذا المخطط بمساعدة من إريك برانس الرئيس السابق لـ «بلاكووتر ورلدوايد» المحاصرة، الذي غادر الولايات المتّحدة لبدء فصل جديد في الإمارات العربية المتّحدة حيث قال إنه سيصعب فيها على «بني آوى» – محامو الادعاء ومحققو الكونغرس – ملاحقته ومطاردة أمواله[٢]. وإلى جانب مشروع سرّي لمساعدة الإمارات تم إنشاء جيش من المرتزقة مؤلف من الجنود الكولومبيين، وهو جيش تصوّر المسؤولون الإماراتيون أنه يمكن إرساله لإخماد الاضطرابات في البلاد، بل حتى ردع الهجمات من إيران، بدأ برانس العمل مع

(١) Peter J Pham, "Somali Instability Still Poses Threat Even After Successful Strike on Nabhan", *World Defense Review* (September 17, 2009).

(٢) Robert Young Pelton, "An American Commando in Exile", *Men's Journal* (December 2010).

مجموعة من المرتزقة الإفريقيين الجنوبيين للمساعدة على إنشاء قوة لمكافحة القرصنة في شمال الصومال[1].

ازداد قلق الإمارات العربية المتّحدة حيال القراصنة قبالة القرن الإفريقي، الذين ينتقون السفن المتوجهة من الخليج الفارسي وإليه، وعمل المسؤولون الإماراتيون وبرانس على تطوير استراتيجية جديدة لمحاربة القرصنة: فبدلاً من مواجهة القراصنة في أعالي البحار، ستنفذ الميليشيا الجديدة غارات على أوكار القراصنة البر[2]. والتقى برانس، وهو الشخص الذي لا يتحاشى كلّ ما يثير الجدل، مسؤولين في شركة إفريقية جنوبية تدعى «سراسن إنترناشونال»، وهي شركة أمن خاصة أدارها في حينئذٍ لافراس لويتينغ الضابط السابق في مكتب التعاون المدني في حقبة التمييز العنصري في جنوب إفريقيا. وللمكتب سجل عنيف من الاغتيالات ومن ترويع الإفريقيين الجنوبيين السود، وأصبح الكثيرون من عناصره، بعد سقوط نظام التمييز العنصري، مرتزقة يُستخدمون في عشرات الحروب الأهلية في القارة الإفريقية. وما عملية مكافحة القرصنة إلا المغامرة السرّية الأخيرة للويتينغ والمرتزقة الإفريقيين الجنوبيين في ذلك الجزء من العالم الذي لا يزال عرضةً للكثير من التجاهل.

شرعت القيادة المشتركة للعمليات الخاصة، إلى جانب جهود الشركات الخاصة، في تركيز المزيد من الانتباه على خوض حرب سرية ضد المسلحين في الصومال. وناقش الأميرال وليام ماك رافن، تماماً كما سبق أن اقترح بالنسبة إلى اليمن، خطة في القيادة المشتركة للعمليات الخاصة مع مسؤولين في واشنطن تقضي بإنشاء قوة مهمات مخصصة تماماً للصومال، مؤلفة من جنود العمليات الخاصة وفق نموذج قوة المهمات الخاصة في العراق، التي انتزعت أحشاء المنتسبين إلى القاعدة هناك: عمليات دهم واعتقال واستجواب للسجناء تقوم بها القوات البحرية الخاصة في الأراضي، التي يسيطر عليها الشباب لتفكيك مجموعاتهم.

(١) تورّط برانس في ميليشيا مكافحة القرصنة في «بونتلاند» موثّق في تقريرين لمجموعة المراقبة التابعة للأمم المتّحدة في إريتريا والصومال.

(٢) تأتي المعلومات عن ميليشيا «بونتلاند» من ثلاثة أشخاص على علاقة مباشرة بالعمليات. وقامت مجموعة المراقبة التابعة للأمم المتحدة، من جهة أخرى، بتحقيق واسع في شأن «سراسن» و«سترلينغ»، وأكدت روابط الشركتين بإريك برانس وبالإمارات العربية المتحدة.

وتشكّل الصومال، بالمقارنة باليمن وباكستان، بيئةً أسهل وأصعب معاً للحرب الخفية. فلا يوجد، على عكس باكستان واليمن، حكومة مركزية على الأميركيين التعامل معها، ولا جهاز استخبارات محلياً يستطيع اختراق الشباب. وبالتالي لم تطرح الصومال وجع الرأس الذي يفرض على الولايات المتّحدة طلب الإذن قبل اغتيال. ولم يوجد علي عبدالله صالح أو برويز مشرّف يحتاجان إلى التحبب إليهما، ولا مدفوعات سرّية لقاء حق خوض الحرب داخل بلد آخر. فالصومال هي، حسب ضابط عسكري كبير مشارك في التخطيط لعمليات القرن الإفريقي، «منطقة توفّر الحرّية التامة في لإطلاق النار».

لكن اقتراح القيادة المشتركة للعمليات الخاصة لم يحظ سوى بالقليل من الدعم. فواقعة «إسقاط البلاك هوك» لا تزال ترخي بثقلها على أي نقاش يتعلّق بعمليات مكافحة الإرهاب في الصومال، ورفض البيت الأبيض في النهاية اقتراحات الأميرال ماك رافن الطموح مصرّاً على موافقة الرئيس شخصياً على كل عملية عسكرية داخل البلاد[1]. حتى أن محامي إدارة أوباما ناقشوا هل يمكن استهداف الشباب الذين لم ينفذوا أعمالاً إرهابية ضد الولايات المتّحدة؟ وهل تمثل الجماعة تهديداً لأميركا أم أنها ميليشيا محلّية على واشنطن أن تتجاهلها وحسب؟

صعب أحياناً أخذ الجماعة على محمل الجد. فالشباب، حتى وهم يلفّون مقديشو بغطاء من تطبيق الشريعة ويأمرون بقطع يد السارق وبرجم الزّناة حتى الموت، قد تورطوا في تصرّفات شاذة بل حتى هزلية. وقام قادتهم بإعلانات غريبة في محاولات يائسة لكسب المجندين الجدد. وأعدوا برنامجاً للمواهب على غرار برنامج «أميركان أيدول» التلفزيوني وبرنامج ألعاب سطحية للأولاد الذين تراوح أعمارهم بين العاشرة والسابعة عشرة حيث يُطرح على المتسابقين أسئلة مثل «في أي حرب قتل زعيمنا

---

(١) أكد ضابط عسكري كبير متقاعد وموظف مدني كبير سابق في إدارة أوباما اقتراحات القيادة المشتركة للعمليات الخاصة الإغارة على معسكرات الشباب. ويمكن العثور على تفاصيل النقاشات داخل إدارة أوباما في شأن كلفة ومنافع ضرب معسكرات الشباب في: Eric Schmitt and Thom Shanker, *Counterstrike: The Untold Story of America's Secret Campaign Against Al Qaeda* (New York: Times Books, 2011). اعتقد معظم المسؤولين، بحسب الكتاب، أن ضرب المعسكرات لا يعادل الفائدة الممكنة من قتل عدد صغير من كبار قادة الشباب.

الشيخ تيماجيليك؟» والجائزة الأولى كناية عن بندقية هجومية طراز «أك-٤٧»[1]. وبعدما قدّمت وزارة الخارجية الأميركية مكافآت مالية نقدية لمعرفة أمكنة وجود قادة الشباب، أبلغ واحد من كبار عناصر الشباب آلاف الصوماليين الذين تجمعوا بعد صلاة الجمعة، أن المجموعة المقاتلة تقدّم مكافآت للحصول على المعلومات عن «مخابئ» كبار المسؤولين الأميركيين. والشخص الذي يساعد على إرشاد الشباب إلى «أوباما الغبي» سيكافأ بعشرة جمال. أما الشخص الذي يدلّ على مخبأ «المرأة العجوز هيلاري كلينتون» فسيحصل على عشر دجاجات وعشرة ديكة[2].

وفي وجود خيارات قليلة لاعتقال المشتبه فيهم بالإرهاب، والقليل من القابلية لعمليات برية واسعة في الصومال، مثّل القتل في بعض الأحيان خياراً يتمتّع بجاذب أكبر من الاعتقال. وسجّلت القيادة المشتركة للعمليات الخاصة في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٩ نجاحاً استخبارياً: حصلت على معلومات دقيقة عن مكان وجود صالح علي صالح نبهان، العضو في خلية القاعدة في شرق إفريقيا، التي نفذت في ١٩٩٨ الهجومين على السفارتين الأميركيتين، والرجل الذي يُعتقد أنه الصلة بين القاعدة والشباب. أشارت المعلومات الاستخبارية إلى أن نبهان، وبعد أشهر من التنقل داخل المدن والبلدات ما استحال معه على الأميركيين تنفيذ الغارات الجوية، يستعد للسفر في قافلة من الشاحنات من مقديشو إلى مدينة «براوة» الساحلية. وشرح الأميرال ماك رافن، في اتصال بالفيديو متعدد الأطراف مع البيت الأبيض والبنتاغون والـ«سي. آي. إيه» ومقر القيادة المشتركة للعمليات الخاصة في «فورت براغ»، مختلف خيارات الغارة. وتمثل الخيار الأقل خطورةً بإطلاق صواريخ كروز من طراز «توماهوك» من سفينة قبالة الشاطئ، أو صواريخ من طائرة حربية. وقال ماك رافن إنه يمكن، بدلاً من ذلك، أن ينقض جنود القوات البحرية الخاصة الذين يطيرون على متن طائرات هليكوبتر «أهـ-٦» على القافلة ويقتلوا نبهان ويجمعوا من الساحة ما يكفي من دليل الحمض النووي لتأكيد مصرعه. وطرح ماك رافن في النهاية تنويعاً في الخيار الثاني: ستعمد القوات الخاصة البحرية إلى

(١) "Kids Awarded Guns in Somali Recruitment Game", *Der Spiegel* (September 26, 2011).

(٢) SITE Intelligence Group, "Shabaab Official Offers Rewards for Information on Obama, Clinton", June 9, 2011.

خطف نبهان بدلاً من قتله وتضعه في واحدة من طائرات الهليكوبتر وتنقله إلى مكان ما للتحقيق معه[1]. واختار الرئيس أوباما ما اعتقد أنه الخيار الأقل خطورة: القصف الصاروخي للقافلة.

لكن الأمور لم تسر حسب ما هو مخطط لها. ففيما القيادة المشتركة للعمليات الخاصة تجري الاستعدادات الأخيرة للعملية، التي أطلق عليها الاسم الرمزي «الميزان السماوي» Celestial Balance حدث خلل في قاذفة الصواريخ على الطائرة المخصصة للمهمة. وأخذ الوقت يمرّ ونبهان يتحرّك، فأمر ماك رافن الكوماندوس بتنفيذ الخطة الاحتياطية: صعد جنود القوات الخاصة البحرية المنتظرون على إحدى السفن قبالة الشاطئ الصومالي إلى طائرات الهليكوبتر وتوجهوا غرباً، إلى المجال الجوي الصومالي. وانقضت الهليكوبتر على القافلة وقتلت نبهان وثلاثة من عناصر الشباب.

شكّلت العملية نجاحاً في الصومال، لكنها أثارت، بالنسبة إلى بعض المشاركين في التخطيط للمهمة، أسئلةً غير مريحة. فقد اضطرت الولايات المتحدة، بسبب فشل الخطة «أ» إلى اتخاذ الخطوة الاستثنائية القاضية باستخدام الجنود في واحد من أكثر البلدان عدائيةً في العالم. لكن لماذا لم يعمد الجنود، وقد أصبحوا في المكان، إلى الاكتفاء بأسر نبهان بدلاً من قتله؟ يقع جزء من الجواب في أن مهمة الاعتقال اعتُبرت كثيرة المخاطر. لكنه ليس السبب الوحيد. فالقتل شكل مسار العمل المفضّل في الصومال، وكما ذكر أحد المشاركين في التخطيط للمهمة، «لم نعتقله لأنه سيصعب إيجاد مكان نضعه فيه».

استخدم البنتاغون ميشال بالارين وبيري دايفيس في الأساس للحصول على نوع المعلومات التي أدت إلى قتل نبهان. وأعطى ذلك بالارين تأثيراً في خلال سفراتها المتكررة إلى شرق إفريقيا حيث تبجّحت في خلال اجتماعاتها الخاصة مع الفئات الصومالية المختلفة بعلاقاتها بالحكومة الأميركية. وجلبت كل سفرة فرصاً جديدة

(١) Daniel Klaidman, *Kill or Capture: The War on Terror and the Soul of the Obama Presidency* (New York: Houghton Mifflin Harcourt, 2012): 123-124، يفصل الكتاب المناقشات الأولى لمختلف الخيارات التي طرحها الأميرال وليام ماك رافن. وأكد مسؤولون حكوميون أميركيون، كل على حدة، حقيقة الاتصال المتعدد الأطراف بالفيديو والخيارات التي نوقشت.

للعمل، ورأت في بروز الصومال مركزاً للقرصنة العالمية الكسب المفاجئ الذي قد يأتي من عملها وسيطاً في المفاوضات في شأن الفدية. فالشخص الذي شكل رابطة بالارين الأساسية مع البنتاغون ومنحها العقد دفعها إلى تعزيز علاقاتها بالعشائر الصومالية التي لها روابط وثيقة بشبكات القرصنة، وخططت، في الوقت الذي عرض القراصنة لافتة «أميرة» على هيكل «فاينا»، لتصبح المفاوض في شأن الفدية الذي يجب اللجوء إليه. وقالت بالارين في العلن إن اهتمامها بالتفاوض ينبع من دوافع إنسانية بحت، لكنها قالت بالسر لبعض من موظفيها إن أخذ حصة من دفعات الفدية قد يصبح رابحاً مع تفاقم بلوى القرصنة. وقال زميلها السابق بيل دينينغر: «امتلكتْ ذلك الحلم بإدارة كل المفاوضات، وبأن تصيب الثراء». وقالت في مقابلة مع أحد المراسلين إن هدفها يقضي «بفك أسر كل السفن السبع عشرة وجميع الأربعمئة وخمسين شخصاً» الذين يحتجزهم القراصنة رهائن[1].

ودينينغر واحد من عدد من الموظفين السابقين الساخطين الذين خاب أملهم من بالارين، وتوقفوا عن العمل لها عندما اعتقدوا أنها فشلت في الوفاء بالكثير من وعودها[2]. ووظّف بعض من ضباط الجيش المتعاقدين الذين عملوا في شركاتها المختلفة بعضاً من أموالهم الخاصة معها وشعروا بأنهم احترقوا عندما لم يستعيدوا استثمارهم. وكافحت، بالرغم من أن البنتاغون أعطاها في ٢٠٠٨ مالاً أولياً لمشروعها جمع المعلومات، للحصول على دفق ثابت من المال من العقود الحكومية وقطعت روابطها مع الكثيرين من شركائها.

وحافظت مع ذلك على مظهر الحياة الباذخة في تلال فرجينيا في ما وراء نطاق واشنطن. وواصلت التودّد إلى كبار مسؤولي الجيش والاستخبارات الأميركيين، في

---

(١) أُطلق طاقم «فاينا» بعد أيام وحسب على الرسالة التي بعث بها الوزير الأوكراني إلى وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون، لكن لا يوجد دليل على أن اشتراك بالارين في النقاشات دفع القراصنة إلى إطلاق الطاقم. وانتهى الأمر بأن حصّل القراصنة أكثر من ثلاثة ملايين دولار من مال الفدية التي دفعها مالكو السفينة. ونُشرت المقابلة التي ناقشت فيها «فك أسر» حالات الرهائن كلها في مقالة في Military.com في ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٨. ويصعب تمييز كمية المال، إذا كان هناك من مال، التي حصلتها بالارين من انخراطها في المفاوضات.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع ثمانية موظفين سابقين في شركات بالارين.

الغالب في القصر القرميدي الكبير الذي استأجرته، والذي يُستخدم أيضاً متجراً للأثريات ويقع ضمن مساحة ١١٠ فدادين شكّلت سابقاً مضماراً لمزارع الخيل، لكنها أصبحت في وقت أكثر حداثةً جزءاً من ضواحي واشنطن المزدهرة والمترامية الأطراف. ورفّهت عن المسؤولين الأميركيين والأفارقة في غرفة طعام القصر، وهي مساحة مزوّقة بالأواني الأثرية وبرسوم لرحلات الصيد وبرواق كبير ازدان بصور رونالد ريغان والبابا يوحنا بولس الثاني. وترأست، وقد تزينّت بالجواهر وتلاعبت أحياناً بحبات سبحة صلاة، الاجتماعات على رأس طاولة قديمة كبيرة. وسينهض بيري دايفيس، في فترات منتظمة لإعادة ملء أكواب شاي الزائرين بمزيج حلو من الشاي الكيني الأسود مع الهال وكبش القرنفل وغير ذلك من التوابل.

واصلت بالارين أسفارها إلى شرق إفريقيا حيث نسجت علاقات مع فصائل صومالية يجمع بينها انتماؤها إلى الصوفية. وطوّرت في مآل الأمر شعاراً لعملها داخل الصومال: فهي توفّر «حلولاً عضوية» للمشاكل التي تقيّحت من عقود، حلولاً لا يمكن أن تقرّها حكومات أجنبية أو ما اعتبرته مجموعات متطفلة خارجية مثل الأمم المتحدة. وتحدّثت في مقابلة مع صوت أميركا عن مقاربة «لينة الجانب» تتفادى العنف.

قالت: «رأى الصوماليون ما يكفي من النزاع، ورأوا ما يكفي من الشركات العسكرية الخاصة، رأوا سفك الدماء، ورأوا ما يكفي من البارود، وما يكفي من الرصاص. كل الأمور البشعة التي خلقت جيلاً من الشباب لا يعرف شيئاً آخر غيرها. لماذا يريد أي من يهتم بعمق بهذه الثقافة إدامة ذلك؟ إنها ليست الطريق إلى التقدم؛ ليست كذلك حقاً»[١].

لكن اتضح أن تحديدها لـ «الحل العضوي» كان مطّاطاً. فقد حاولت في ٢٠٠٩، على سبيل المثال، مساعدة مجموعة من القتلة المأجورين الصوماليين على اغتيال خمسة عناصر بارزين من الشباب يتجمعون للقاء في مقديشو. وقالت إن جل ما احتاجوا إليه كواتم صوت لمسدساتهم[٢].

(١) مقابلة أجرتها إذاعة صوت أميركا مع ميشال بالارين.

(٢) الرواية التي تلي مأخوذة من مقابلة أجراها المؤلف مع ميشال بالارين. وأكد روايتها مسؤول أميركي سابق على معرفة بجهودها لحمل البنتاغون على تبني خطتها استخدام قتلة مأجورين صوماليين لقتل عناصر الشباب.

جلست وهي تروي القصة، التي أكد تفاصيلها مسؤول حكومي أميركي سابق، في جناحها في «جيبوتي بالاس كمبينسكي»، فندق الخمس نجوم الوحيد في البلاد الصغيرة والفقيرة. وقد استضاف الفندق مؤتمراً دولياً لانتقاء القادة الجدد للحكومة الانتقالية الصومالية الواهنة – وهي كناية عن تجمع حقيقي للقبائل. وبعد مفاوضات جرت في غرف الاجتماعات وعلى أطراف بركة السباحة اختير شريف شيخ أحمد، المعتدل الذي قاد سابقاً اتحاد المحاكم الإسلامية، لإدارة البلاد.

وفي منتصف إحدى الليالي قرعت مجموعة من الصوماليين باب بالارين وأخذوها للقاء مسؤول كبير في الحكومة الانتقالية الصومالية الجديدة. وهناك أخبرها المسؤول الصومالي أنه على اتصال مع عنصر كبير في الشباب مهتم بتبديل الجانب والانضمام إلى الحكومة. وعرف المخبر في شأن الاجتماع المقبل لزعماء الشباب وعرض – بموافقة أميركية – قتلهم جميعهم.

جاءت لائحة الحاجات قصيرة: يحتاج رجاله إلى بعض التدريب بالمسدسات وإلى كواتم للصوت لضمان نجاح العملية بأقصى ما يمكن من السرية. وأراد المنشق أن تخصص الولايات المتّحدة أموالاً لمساعدة أرامل وأولاد قادة الشباب القتلى.

لدى عودة بالارين إلى الولايات المتّحدة اتصلت وبيري دايفيس بمجموعة صغيرة من الضباط العسكريين، الذين يعرفانهم في البنتاغون. ورأت أن القرار ليس صعباً كما استذكرت لاحقاً بدرجة من الغضب ما قالته للمسؤولين العسكريين الذين التقتهم.

واستذكرت قولها للعسكريين، «إنه المنُّ من السماء! التقطوه!».

لكن الأميركيين مانعوا. فإذا وافقت القيادة المشتركة للعمليات الخاصة على العملية فسينفذها الأميركيون أنفسهم. لكن بالارين اعتقدت أن جعل الصوماليين – بدلاً من الكوماندوس الأميركيين أو غيرهم من الوكلاء الأجانب – يقتلون بضربة واحدة أعلى مراتب الشباب سيؤدي بصفة خاصة إلى إصابة التنظيم الإرهابي المحلي بالشلل.

«هذا حل عضوي»، قالت. «أنت لا تُرسل فرق القوات الخاصة البحرية. إنه الأسلوب الصومالي، وهذه ليست مسائل ممتعة نتحدث عنها».

وتحدّثت بكآبة عما أمكن أن يحدث وهي تتذكّر الواقعة بعد ذلك بعدة أعوام.

«جلّ ما أرادوه كواتم للصوت».

لم تقنع بالارين بتأدية مجرّد دور الجامع الساكن للاستخبارات. فقد قضت رؤيتها بأن تصبح في قلب الصحوة الصوفية الكبرى تشرف على توحيد مختلف الجماعات الصوفية في أنحاء شمال وشرق إفريقيا في حملة عارمة ضد الوهابية. وعندما استولى مسلحو الشباب على محطات الإذاعة في مقديشو وحظروا الموسيقا وأجبروا معدّي البرامج الإذاعية على تقديم نشرات الأخبار بتسجيلات لأصوات المدافع وثغاء الماعز وقوقأة الدجاج، كتبت بالارين نشيد المقاومة لصوفيي الصومال. واحتوى النشيد، المكتوب بالإنكليزية وأنشده أحد مغنّي البوب البرازيليين، على صرخة النداء: «الطريقة الصوفية التي لن يهزموها أبداً!».

ارفعوا أصواتكم ... خذوا موقفاً!

استردّوا شرفنا وأرضنا

من القوى الأجنبية، من الأيدي العابثة.

إخوتي وأخواتي، خذوا موقفاً!

ارفعوا أصواتكم ... خذوا موقفاً!

من الارتباطات الإقليمية ... والحظر الدولي.

يا إخوتي، هيّوا معي ... من رجل لرجل.

إخوتي وأخواتي ... خذوا موقفاً!

اعتقدت بالارين أن على الصحوة الكبرى أن تبدأ في الصومال حيث أقامت بالفعل اتصالات بأهل السنّة والجماعة، وهي جماعة صوفية تسيطر على بقعة كبيرة من الأرض وسط الصومال. ولأهل السنة والجماعة نوع من التاريخ المتقلّب. فقد اصطفت الجماعة في خلال الحرب الأهلية التي عصفت بالصومال في التسعينيات مع أمراء الحرب أنفسهم، الذين قادوا المسلحين الصوماليين الذين قاتلوا جوالة الجيش الأميركي وعناصر قوة دلتا في خلال واقعة إسقاط الـ «بلاك هوك». ولم تمارس الجماعة، قبل بروز الشباب، تأثيراً ذا شأن في حروب القبائل الصومالية. لكن ما إن بدأ مقاتلو الشباب الاستيلاء على مدن جنوب الصومال ووسطها، حتى آل المسلحون الوهابيون على أنفسهم، أينما ذهبوا، تدمير قبور الصوفيين وجوامعهم. ونُبشت العظام وتُركت تبهت في الشمس، وأوقف

حراس القبور وأبلغوا بعدم العودة إلى العمل. وقال محاربو الشباب إن المدافن كناية عن أنصاب تذكارية مُحكمة الصنع – وهي كناية عن عبادة للأصنام يحرمها الإسلام. وقال المتحدث باسم الشباب في مدينة «كيسمايو» الجنوبية ذات المرفأ، الشيخ حسن يعقوب علي، لـ «بي. بي. سي» إنه «يُحظر تحويل القبور إلى ضرائح»(١).

أثار تدنيس القبور اتجاهاً محارباً داخل أهل السنة والجماعة المسالمين إلى حد كبير، وشرعوا في تعبئة أنفسهم في مجموعات مسلحة تهدف إلى العمل كثقل موازٍ للشباب. وأدركت بالارين إمكانات الصحوة الصوفية وشرعت في تشجيع زعمائها على تطوير استراتيجية لوقف تقدم الشباب. وتحدثت هي وبيري دايفيس تكراراً مع الشيوخ الصوفيين ومع القادة العسكريين لأهل السنة والجماعة، وسافرا إلى وسط الصومال للحديث عن حملتهما العسكرية وتصرفا وكأنهما هيئة أركان حربية مؤلفة من شخصين. وتبجحت بالارين ودايفيس أمام الأميركيين بأنهما دربا المقاتلين الصوفيين على كيفية استعادة الأسلحة من ساحة المعركة وتخزين الذخيرة.

ثم، وبعد أشهر من الجمود، تحركت طوابير من دهماء المقاتلين المسلحين التابعين لأهل السنة والجماعة إلى «عيل بور»، وهي حصن للشباب وسط الصومال. ويشعّ وجه بالارين فرحاً عندما تستذكر رسالة نصّية قالت إنها تلقتها في منتصف الليل من قادة أهل السنة والجماعة:

«استولينا على عيل بورا!».

لم تجد ميشال بالارين في ٢٠١١، وهي جالسة أمام التلفاز في قصرها المبني من الآجر في شمال فرجينيا، أملاً في «الربيع» العربي وهي تشاهد ما تبثه «فوكس نيوز» من فيديو عن الثورات في شمال إفريقيا. ورأت كابوساً يتكشّف: الإسلام الراديكالي الوهابي يقطع عبر شمال إفريقيا وصولاً إلى الساحل الغربي للقارة. وفي ذهنها أن الحكومات الاستبدادية في مصر وليبيا شكّلت سدّاً في وجه انتشار الوهابية وها هي التحصينات تأخذ الآن في الانهيار. وتيقّنت أن رعاة الوهابية الأثرياء في السعودية سيتحركون إلى المنطقة ومعهم الأموال لبناء الجوامع والمدارس الدينية، وأن الولايات المتّحدة في

(١) BBC World Service, "Somali Rage at Grave Destruction", June 8, 2009.

صدد خسارة شركائها الوحيدين في القتال ضد الإسلام الراديكالي. ورأت أن القذافي ربما كان سفّاحاً لا يعرف الرحمة وعدوّاً لبطلها رونالد ريغان، لكن الديكتاتور الليبي، في رأيها، أصبح في صف الصالحين في العهد الذي يتم فيه تحديد الصراع على أنه صراع بين الخير والشر[١].

أضحت الثورات الشعبية عبر دور شمال إفريقيا أشبه بالعاصفة الصحراوية، في سياق دفن عقود من الحكم الاستبدادي. لكنها أخذت أيضاً الـ «سي. آي. إيه» على حين غرّة وأدرك مسؤولو البيت الأبيض أن وكالات التجسس الأميركية متأخّرة عدة خطوات عن الانتفاضات الشعبية بالرغم من مليارات الدولارات، التي تنفقها الولايات المتّحدة سنوياً لجمع المعلومات وتوقع الحوادث العالمية المدمّرة. وقال مسؤول كبير في إدارة أوباما إن «الـ «سي. آي. إيه» فوتت تونس. وفوتت مصر. وفوتت ليبيا. فوتتها فرادى وفوتتها جماعة». وفي الأسابيع المحمومة بعد بدء الثورات العربية، أعيد تخصيص مئات محللي الاستخبارات في الـ «سي. آي. إيه» وفي غيرها من وكالات التجسس الحكومية للتكهّن بمغزى الاضطرابات. أصبح الأمر أشبه بلعبة اللحاق بالركب[٢].

شكّلت تلك أول انتفاضة جماهيرية في عصر وسائط الاتصال الاجتماعية، وأخذت الثورات تُبث عبر رسائل الـ «تويتر» والتحديثات عبر الـ «فيسبوك». ولم يشبه الأمر في شيء ما سبق للمسؤولين في لانغلي رؤيته، ولم تسعف السوابق التاريخية، مثل سقوط الشيوعية، كثيراً قادة الـ «سي. آي. إيه» وهم يكافحون لتحذير البيت الأبيض ووزارة الخارجية في شأن الديكتاتور العربي التالي الذي سيسقط. وحث مدير الـ «سي. آي. إيه» ليون بانيتا مساعديه، في أحد اجتماعات كبار الموظفين، على إعطاء معنى لعاصفة الرسائل الرقمية. «ألا يستطيع أحد التقاط كل هذه الرسائل في مكان واحد؟» سأل وقد حيّرته بوضوح سبل الجيل الأصغر سنّاً.

لكن المشكلة ذهبت إلى ما هو أعمق من ذلك بالنسبة إلى الـ «سي. آي. إيه»، وكالة التجسس التي أخذت تختبر بسرعة كبرى الجانب السلبي لإعادة توجهها نحو مكافحة

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع ميشال بالارين.

(٢) يأتي تعبير «مئات محللي الاستخبارات» من مسؤول أميركي سابق في الاستخبارات على معرفة مباشرة بتحركات المحللين في مجتمع الاستخبارات بعد بدء الربيع العربي.

الإرهاب. فقد أنشئت الـ «سي. آي. إيه» في ١٩٤٧ على فرضية أن الرؤساء وصانعي السياسة يحتاجون إلى تحذير مسبق في ما يتعلّق بالديناميات التي تصوغ أحداث العالم، لكن كلا الرئيسين جورج و. بوش وباراك أوباما قرّرا أن مطاردة الإرهابيّين وقتلهم يجب أن يشكلا الأولوية القصوى للوكالة. ولم يكن لدى الوكالة ما يكفي من الجواسيس للقيام بالتجسس الفعلي، ولا ما يكفي من ضباط الحالة على الأرض في بلدان مثل مصر وتونس ممن تقضي مهمتهم جمع الاستخبارات حول اعتماد الشوارع أو حول مخاوف الزعماء الأجانب من أنهم ربما يفقدون قبضتهم على السلطة.

تحالفت الـ «سي. آي. إيه» مع أجهزة استخبارات وحشية في أنحاء الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وشكلت شراكات مع أجهزة استخبارات أجنبية يديرها أمثال حسني مبارك ومعمر القذافي. وساعدت هذه الشراكات الـ «سي. آي. إيه» على جمع الغنائم للحرب على الإرهاب. فقد رُفعت الكلفة بين مدراء الـ «سي. آي. إيه» وبين موسى كوسى رئيس جهاز التجسس الوحشي التابع للقذافي، وعمد الجواسيس الأميركيون والليبيون معاً إلى مطاردة رجال يُشتبه في ارتباطهم بالقاعدة واعتقالهم ووضعهم في سجن «أبو سليم» الليبي السيّئ الذكر. وبعد سقوط القذّافي وقيام المتمردين بنهب مقر الاستخبارات الليبية، عُثر على كنوز من الوثائق التي تفصّل الروابط الوثيقة بين الاستخبارات الأميركية والليبية. حتى أنه وُجدت رسالة من بورتر غوس المدير السابق للـ «سي. آي. إيه» إلى موسى كوسى يشكر فيها رئيس الجواسيس الليبيين على هديته من البرتقال الطازج في مناسبة عيد الميلاد[1].

وهنا مكمن الكثير من المشكلة: إذ يصعب على الجواسيس الليبيين أو المصريين أن يصارحوا المسؤولين الأميركيين بهشاشة حكومتيهم. كما أنهم راقبوا من كثب قادة المعارضة ما صعّب على ضباط الحالة في الـ «سي. آي. إيه» في مدن مثل القاهرة الاجتماع مع المجموعات المعارضة وجمع الاستخبارات عن الاضطرابات الداخلية في دول شمال إفريقيا. وسيعترف لاحقاً مدير الـ «سي. آي. إيه» السابق، مايك هايدن، بأن قرار الوكالة ربط نفسها بالأنظمة الاستبدادية في العالم العربي، قد عوّق قدرتها على

(١) Ben Wedeman, "Documents Shed Light on CIA, Gadhafi Spy Ties", CNN.com, September 3, 2011.

جمع الاستخبارات السياسية والاجتماعية في تلك البلدان. ووصف الأمر بالقول: «كم أنك تريد أن تدفع في اتجاه جمع المعلومات عن الإخوان المسلمين في مصر إذا كنت ستغضب [رئيس استخبارات مبارك] عمر سليمان فيتوقف عن كونه شريكك الجيّد في مكافحة الإرهاب؟».

هلّل زعماء الحكومات في العالم لنهاية ديكتاتوريي شمال إفريقيا المتكلّسين. بيد أن أحداث مطالع ٢٠١١ بالكاد شكّلت سبباً لتفاؤل ضباط مكافحة الإرهاب في الـ«سي. آي. إيه» الذين يجافيهم النوم والعصابيين في الغالب. ولم يتعلق الأمر فقط برؤية حلفائهم المقربين الأجانب وهم يُزاحون بفظاظة عن السلطة. بل إن الأمر الأكثر إثارةً للقلق هو أن المجموعات الإسلامية التي بقيت عقوداً من الزمن تحت جزمة الديكتاتوريين - من الإخوان المسلمين في مصر إلى المجموعات الراديكالية في ليبيا التي عملت الـ«سي. آي. إيه» والاستخبارات الليبية معاً على إخمادها - أخذت تكتسب سلطة سياسية. وخشي مركز مكافحة الإرهاب مما يمكن أن تزرعه الزوبعة التي تهب على العالم العربي، من بذور انبعاث القاعدة وفروعها.

ذلك كان الاحتمال المشجع لزعيم القاعدة المختبئ داخل الطبقة العلوية لأحد المجمعات في «أبوت آباد» في باكستان. وجادل أسامة بن لادن، الذي أخذ يكتب في الأشهر الأولى من ٢٠١١ الرسائل في شكل محموم إلى مرؤوسيه في ما سيشكل الأسابيع الأخيرة من حياته، بأن الثورات العربية هي تحقيق لرؤيته التي وضعها أساساً في التسعينيات عندما أسس القاعدة. لكن الواقع هو أن الثورات لم تتم في شيء كما توقعه، وأطيحت الحكومتان في مصر وفي تونس ليس على يد القاعدة أو من يسعون إلى الخلافة الإسلامية، بل من جراء جهد بذلته قاعدة شعبية شبابية مستخدمة تكنولوجيا وسائل الاتصال الجماهيرية لمؤازرة الثورة.

غير أن بن لادن بقي يجد الأمل وسط الفوضى. وكتب بابتهاج إلى أحد مساعديه أن وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون أعربت عن مخاوفها «من سقوط المنطقة في أيدي الإسلاميين المسلحين». وكتب أن ما يشهده العالم «في أيام الثورات المتعاقبة هذه هو حدث عظيم وجليل» يُحتمل أن «يشمل معظم العالم الإسلامي بإذن الله»[1].

(١) رسالة من أسامة بن لادن إلى عطية عبد الرحمن مؤرّخة في ٢٦ نيسان/أبريل ٢٠١١. نشر نص الرسالة مركز محاربة الإرهاب في وست بوينت.

١٤: تكشّف الأمور

«إنهم الأميركيون!

إنها بلاكووترا!

إنه رايموند دايفيس آخر!»

- حافظ محمد سعيد

قبع الجاسوس الأميركي أسابيع داخل الزنزانة المظلمة في سجن «كوت لخباط»، عند الحافة الصناعية من لاهور، وهو سجن بغيض السمعة اشتهر بمصرع نزلاء فيه في ظروف غامضة. عُزل عن بقية السجناء ووُضع في قسم من المنشأة التالفة حيث لا يحمل الحرّاس أي سلاح، وفي ذلك تنازل للحفاظ على سلامته استطاع المسؤولون الأميركيون انتزاعه من فريق السجن. وفاوضت القنصلية الأميركية في لاهور في وقاية أخرى: أخذت مجموعة صغيرة من الكلاب في تذوّق طعام رايموند دايفيس للتحقق من عدم دس السمّ فيه[1].

بدا الرجل القابع في زنزانة السجن، بالنسبة إلى الكثيرين من كبار الجواسيس الباكستانيين، البرهان الدامغ الأول على اشتباههم في إنشاء الـ «سي. آي. إيه» جيش صغير داخل باكستان هو كناية عن مجموعة من رعاة الأبقار الذين يستسهلون الضغط على الزناد ويقومون ببعض النشاطات الشنيعة. وبالنسبة إلى الـ «سي. آي. إيه» ألقى الكشف عن دور دايفيس مع الوكالة ضوءاً غير مجامل على ظاهرة ما بعد ١١ أيلول: كيف

(١) يأتي وصف الشروط من مسؤول أميركي مطلع على ظروف دايفيس في السجن.

أن الـ «سي. آي. إيه» أجّرت وظائفها الأكثر حساسية لمتعاقدين خارجيين وغيرهم ممن لا يمتلكون الخبرة والمزاج للعمل في ساحات حرب العالم الإسلامي.

ترعرع رايموند ألن دايفيس، الابن الثالث لبنّاء قرميد وطباخ فقير، في منزل صغير من الألواح الخشبية في دسكرة «ستراوبري باتش» التابعة لـ «بيغ ستون غاب» (صدع الصخر الكبير)، وهي مدينة من ستة آلاف نسمة في منطقة الفحم الحجري في فرجينيا، وقد سُمّيت كذلك بسبب الصدع الموجود في الجبال الذي يتدفّق منه نهر «باول»[1]. وتميّز دايفيس، الخجول والمتحفظ، بقوة غير عادية وأصبح نجم الثانوية المحلية في كرة القدم والمصارعة. انخرط بعد تخرجه في ١٩٩٣ في سلاح المشاة في الجيش وقام بنوبة عمل في مقدونيا في ١٩٩٤ بوصفه جندياً في قوة حفظ السلام. عاود في ١٩٩٨ الانخراط في الجيش بعد انتهاء سنوات فترة تطوعه الخمس في المشاة، والتحق في هذه المرة بمجموعة القوات الخاصة الثالثة التابعة للجيش المتمركزة في «فورت براغ». ترك الجيش في ٢٠٠٣ وتوظّف، على غرار المئات من أفراد القوات الخاصة البحرية والقبعات الخضر المتقاعدين، في شركة إريك برانس «بلاكووتر يو. أس. إيه». وسرعان ما وجد نفسه في العراق يعمل حارساً أمنياً للـ «سي. آي. إيه».

لا يُعرف الكثير عن عمله لبلاكووتر سوى أنه غادر بحلول ٢٠٠٦ الشركة وأسس مع زوجته شركة أمن خاصة في لاس فيغاس. وسرعان ما وظّفته الـ «سي. آي. إيه» متعاقداً خاصاً، أو ما تسميه الوكالة «الشارة الخضراء» بسبب لون بطاقات تحديد الهوية، التي يظهرها المتعاقدون للدخول إلى المقر في لانغلي. وقد استُخدم الكثيرون من المتعاقدين، على غرار دايفيس، لملء صفوف «فريق الاستجابة العالمي» التابع للـ «سي. آي. إيه» – وهم حراس شخصيون سافروا إلى مناطق الحرب لحماية ضباط الحالة وتقويم أمن مواقع الاجتماع المحتملة، بل حتى القيام بالاتصال الأولي بالمصادر للتحقق من عدم جرّ ضباط الحالة إلى كمين. وسيتعرّض ضباط من قسم الأمن في الـ «سي. آي. إيه» في السنة التالية لنيران حامية على سطح قاعدة الوكالة في بنغازي، ليبيا. وزادت مطالب الحربين في العراق وأفغانستان في أعباء العمل على كادر الـ «سي. آي. إيه» من ضباط

(١) Matthew Teague, "Black Ops and Blood Money", *Men's Journal* (June 1, 2011), and Mark Mazzetti, et al., "American Held in Pakistan Worked with CIA", *The New York Times* (February 21, 2011).

الأمن إلى حد اضطرت معه الوكالة إلى دفع مبالغ ضخمة للمتعاقدين الخاصين للقيام بالوظائف الأمنية. وعندما خدم دايفيس للمرة الأولى مع الـ «سي. آي. إيه» في ٢٠٠٨ في باكستان، عمل من قاعدة الوكالة في بيشاور واكتسب ما يصل إلى مئتي ألف دولار في السنة بما في ذلك المخصصات والمصاريف[١].

وها قد انقضت عدة أسابيع ودايفيس لا يزال حتى أواسط شباط/فبراير ٢٠١١ في السجن ومن غير المرجح أن يُطلق في أي وقت قريب. فقد ألهبت قضية القتل المشاعر المعادية لأميركا داخل باكستان التي ترافقت مع احتجاجات في الشارع وافتتاحيات غاضبة في الصحف تطالب الحكومة الباكستانية بعدم الخضوع لمطالب واشنطن بإطلاق دايفيس وبالحكم عليه بدلاً من ذلك بالموت. وأشارت الدلائل في ذلك الوقت إلى أن الرجلين اللذين قتلهما دايفيس قاما في ذلك اليوم بسلسلة من عمليات السرقة الصغيرة، لكن أضيفت إلى ذلك مشكلة أخرى: وهي قتل رجل ثالث بسيارة أميركية رباعية الدفع لا تحمل إشارات وهي تهرب من الساحة.

وزاد في سوء الأمور بالنسبة إلى دايفيس أنه مسجون في لاهور حيث تسيطر عائلة نوّاز شريف على الثقافة السياسية فيها. ولم يخف الرئيس السابق نيته حكم باكستان من جديد ما جعله المناوئ الأكبر للرئيس آصف علي زرداري وماكينته السياسية في إسلام آباد على بعد ٢٥٠ ميلاً. وضغطت السفارة الأميركية على زرداري لإطلاق دايفيس من السجن، لكن سرعان ما أدرك الدبلوماسيون أنه ليس لزرداري الكثير من التأثير في ضباط الشرطة والقضاة في مدينة الخصم اللدود للرئيس.

بيد أن العامل الأهم الذي يضمن أن يتعفّن دايفيس في السجن، يتمثل في ضرورة إبلاغ إدارة أوباما الحكومة الباكستانية بما تشكّ فيه الأخيرة بالفعل، وبما أوضحته دقة رايموند دايفيس في إصابة الهدف في دوار السير في لاهور: أنه ليس دبلوماسياً أميركياً آخر من مقلّبي الأوراق. فعمل دايفيس في أفغانستان أكثر غموضاً ويتضمّن جسّ نبض عصب مفتوح في العلاقات الفائقة الحساسية بالفعل بين الـ «سي. آي. إيه» وجهاز الاستخبارات الباكستانية.

---

(١) المعلومات عن راتب دايفيس في الـ «سي. آي. إيه» مصدرها تقارير نشرتها وزارة الخارجية الباكستانية بعد توقيف دايفيس.

منذ أن أرسلت مجموعة «لشكر طيبة»، «جيش الأطهار»، الباكستانية المجاهدة في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٨ فرقاً من القتلة لمحاصرة الفنادق الفخمة في مومباي، الهند، حيث قتلوا وجرحوا أكثر من خمسمئة شخص على مدى أربعة أيام من الضرر المتعمّد، أخذ محللو الـ «سي. آي. إيه» في التحذير من أن المجموعة تسعى إلى إبراز صورتها العالمية من خلال تنفيذ هجمات مثيرة في ما هو أبعد من جنوب آسيا. ودفع ذلك الـ «سي. آي. إيه» إلى تخصيص المزيد من كادرها المتوسّع من العملاء في باكستان لجمع الاستخبارات حول عمليات «لشكر» – القرار الذي أثار تضارباً مباشراً بين مصالح الـ «سي. آي. إيه» ومصالح جهاز الاستخبارات الباكستانية. فأن يترصّد الجواسيس الأميركيون المناطق القبلية في مطاردتهم شخصيات القاعدة، أمرٌ؛ لكنه أمرٌ آخر تماماً أن تذهب الـ «سي. آي. إيه» إلى المدن الباكستانية في مهمات تجسسية على مجموعة تعتبرها الاستخبارات الباكستانية قوة وكيلة قيّمة.

تأسست «لشكر» في ١٩٩٠ كتحالف بين جماعات مختلفة رعتها الاستخبارات الباكستانية لمحاربة الاتحاد السوفياتي في أفغانستان. وتحوّل تركيز المجموعة في شكل شبه فوري من أفغانستان إلى الهند، وبدأ الرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق في إرسال مقاتلي «لشكر» إلى كشمير كثقل مواز للمجموعات الاستقلالية الكشميرية التي خشي الرئيس أن تدفع في اتجاه إنشاء دولة انفصالية في المنطقة الجبلية المتنازع عليها بين الهند وباكستان. ورعت الاستخبارات الباكستانية المجموعة سنوات بوصفها ذخراً مفيداً ضد الهند، وأدى عمل زعمائها على مرأى من الجميع إلى السخرية من قرار الرئيس مشرّف «حظر» المجموعة في ٢٠٠٢ بعد الهجوم الصارخ على مبنى البرلمان الهندي في نيودلهي. وضم مقر «لشكر» المترامي الأطراف في «مريدكي»، وهي من ضواحي لاهور على جانب الطريق الرئيس الكبير الشهير، مدرسة دينية راديكالية وسوقاً ومستشفى بل حتى مزرعة لتربية الأسماك. وقد بُني المجمع بمساهمات من مانحين أثرياء في السعودية وغيرها من بلدان الخليج، إلا أن «لشكر» قامت أيضاً بحملات ناجحة لجمع التبرعات وقدّمت مجموعة كبيرة من الخدمات الاجتماعية للفقراء مستخدمة تنظيماً حليفاً هو «جماعة الدعوة» واجهة لها[1].

---

(١) تأتي خلفية عمليات «لشكر طيبة» من مقابلة مع ك. كريستين فير من جامعة جورج تاون الخبيرة في الجماعة.

وُضع قائد المجموعة الكاريزمي حافظ محمد سعيد في الإقامة الجبرية على مرّ السنين، لكن المحكمة العليا في لاهور أسقطت في ٢٠٠٩ كل الاتهامات بالإرهاب ضد الرجل الذي بلغ التاسعة والخمسين من العمر وتركته حرّاً. وخطب سعيد، الممتلئ الجسم والذي أطلق لحيته، في الهواء الطلق في الكثير من أيام الجمعة محاطاً بحراس شخصيّين وواعظاً في حشود من أتباعه عن امبريالية الولايات المتّحدة والهند وإسرائيل. واستمر، حتى بعدما عرضت الولايات المتّحدة مكافأة قيمتها عشرة ملايين دولار لقاء معلومات تربط سعيد بالهجمات في مومباي، في التنقل بحرّية في العلن مضيفاً المزيد من الدعم إلى أسطورته بوصفه النسخة الباكستانية لروبن هود.

في الوقت الذي انتقل رايموند دايفيس في أواخر ٢٠١٠ إلى منزل آمن مع حفنة من ضباط الـ «سي. آي. إيه» والمتعاقدين الآخرين، انخرط معظم ضباط الوكالة في لاهور في جمع المعلومات عن نمو «لشكر». ولم يسعْ مسؤولي الاستخبارات الباكستانية، مع جلب الكثيرين من عملاء الـ «سي. آي. إيه» إلى البلاد تحت غطاء كاذب لتغطية تحركاتهم، إلا القيام بتخمينات لا أساس لها عما يفعله الأميركيون.

استغلت الـ «سي. آي. إيه»، لإدخال المزيد من جواسيسها إلى باكستان، القواعد الغامضة المعمول بها للموافقة على تأشيرات الدخول للأميركيين. إذ لدى كل من وزارة الخارجية والـ «سي. آي. إيه» والبنتاغون قنوات منفصلة لطلب التأشيرات لموظفيها، وهي تحطّ كلها على مكتب حسين حقّاني السفير الباكستاني في واشنطن الموالي لأميركا[1]. وتلقى حقّاني، وهو سياسي وأستاذ سابق في جامعة بوسطن، تعليمات من باكستان بالتساهل في الموافقة على التأشيرات، بما أن الكثيرين من الأميركيين المتوجهين إلى باكستان سيتولّون – أقله رسمياً – إدارة ملايين الدولارات من أموال المساعدة الخارجية للبلاد. وفي الوقت الذي حدثت عمليات القتل في لاهور، في مطلع ٢٠١١، بات الكثيرون جداً من الأميركيين يعملون داخل باكستان بهويات مشروعة ومزوّرة معاً إلى حد أن السفارة الأميركية في البلاد لم تمتلك سجلات دقيقة لتتبع هويّاتهم أو أمكنة وجودهم[2].

(١) وصف مسؤول أميركي في إسلام آباد على اطلاع مباشر على العملية طريقة حصول الأميركيين على تأشيرات الدخول إلى باكستان.

(٢) المصدر نفسه.

والسفارة الأميركية في إسلام آباد هي في الأساس قلعة داخل القلعة، كومة من المباني المحاطة بأسوار يعلوها الشريط الشائك وكاميرات المراقبة، ومحاطة بعد ذلك بحلقة أخرى من الأسوار الخارجية تفصل المنطقة المحاطة بالأشجار، وتدعى «الجيب الدبلوماسي»، عن بقية المدينة. وإذا بدا وكأنه مبالغة، وإلى حد ما غير دبلوماسي، أن تعزل الحكومة الأميركية نفسها وراء هذا الكم من الباطون والفولاذ، فإن للأميركيين أقله سبب وجيه في ذلك: فقد أحرق السفارة القديمة في ١٩٧٩ طلاب محتجون أغضبتهم تقارير كاذبة بأن الولايات المتّحدة تقف وراء احتلال المسجد الحرام في مكة. والواقع هو أن مجموعة إسلامية راديكالية منشقة احتلت المسجد وأخذت رهائن من بين مئات الآلاف الذين جاؤوا إلى مكة للحج[1]. وهناك فصل كبير داخل السفارة الأميركية بين عمل الدبلوماسيين والجواسيس حيث تحتل محطة الـ «سي. آي. إيه» جحوراً من المكاتب في جناحها الخاص في السفارة، الذي لا يمكن ولوجه إلا عبر أبواب ذات أقفال مرمّزة.

لكن السفارة أصبحت، بعد اعتقال شرطة لاهور رايموند دايفيس، منزلاً منقسماً بما هو أكثر من الجغرافيا. فقبل يومين وحسب على إطلاق النار في لاهور، أوفدت الـ «سي. آي. إيه» رئيس محطة جديداً إلى إسلام آباد، وهو الأخير أصبح أشبه بالأبواب الدوّارة في المركز الرئيسي للوكالة في باكستان. وكان مركزه السابق في الخارج في روسيا حيث أرسلت الوكالة أكثر ضباطها دهاء وقدرة في خلال الحرب الباردة، وعيّنت في فترة أكثر حداثة عناصر يتمتّعون بما يكفي من الشدة لدقّ رؤوسهم برؤوس جهاز الاستخبارات الخارجية وهو تجسيد للـ «كا. جي. بي». في مرحلة ما بعد الاتحاد السوفياتي. ولم يأت رئيس المحطة الجديد، التابع للمدرسة القديمة والعنيد، إلى باكستان للتودّد إلى جهاز استخباراتها[2]. بل أراد تجنيد المزيد من العملاء الباكستانيين للعمل مع الـ «سي. آي. إيه» من تحت أنف جهاز الاستخبارات الباكستاني، وتوسيع المراقبة الإلكترونية لمكاتب هذه الاستخبارات، وعدم تقاسم الكثير من المعلومات مع ضباطها. وحملت

(١) لأفضل رواية حول إحراق السفارة في ١٩٧٩ راجع: Steve Coll, *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001.*

(٢) لا يزال رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد يعمل في الخفاء.

المقاربة الصقورية لمهنة التجسس منذ وقت طويل اسماً داخل الـ «سي. آي. إيه» هو: «قوانين موسكو». ويتم الآن تطبيق هذه الاستراتيجية على باكستان ما جعل رئيس المحطة الجديد يشعر وكأنه في بيته تماماً.

وضعه هذا المسلك الحازم في شكل شبه فوري على خلاف مع السفير الأميركي في إسلام آباد كاميرون مانتر. وقد ترقى مانتر، الدبلوماسي المحترف الذي يهوى الكتب وقد حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة جونز هوبكنز، في مراتب بيروقراطية وزارة الخارجية ذات التركيز على أوروبا. وقبل بعد ذلك عدة مواقع في العراق ليتولى في النهاية البعثة الأميركية في إسلام آباد في أواخر ٢٠١٠. وتُعتبر الوظيفة واحدة من أهم وأصعب المهمات في وزارة الخارجية، وقد حمل مانتر عبء وصوله بعد آن باترسون، الدبلوماسية المشاكسة، التي طوّرت قبل ثلاثة أعوام على وصول مانتر علاقات وثيقة مع مسؤولين في كل من إدارتي بوش وأوباما. وأشادت بها الـ «سي. آي. إيه» على دعمها الحازم غارات الطائرات التي تطير بلا طيار في المناطق القبلية.

بيد أن مانتر رأى الأمور من منظار مختلف؛ وشكّك في قيمة عمليات مكافحة الإرهاب في باكستان على المدى الطويل[1]. وتساءل مانتر، الذي وصل إلى إسلام آباد في وقت أخذت العلاقة بين الولايات المتّحدة وباكستان في التدهور، هل قد يؤدّي إيقاع حرب الطائرات التي تطير بلا طيار إلى إضعاف العلاقات مع حليف مهم ليس إلّا لمعالجة سريعة تقضي بقتل إرهابيين من المستوى المتوسط. وسرعان ما سيدرك مانتر أن وجهات نظره في شأن برنامج الطائرات التي تطير بلا طيار لا تهم في النهاية كثيراً. فعندما يتعلّق الأمر، في إدارة أوباما، بالأسئلة التي تُطرح حول الحرب والسلم في باكستان، فإن ما تعتقده الـ «سي. آي. إيه» هو الذي يهمّ بالفعل.

وجادل مانتر، ورايموند دايفيس قابع في السجن، بأنه من الضروري الذهاب على الفور إلى رئيس الاستخبارات الباكستانية الجنرال أحمد شوجا باشا لعقد صفقة تعترف الولايات المتّحدة بموجبها بأن دايفيس يعمل لـ «سي. آي. إيه»، وتعوّض سرّاً على

(١) وصف خمسة مسؤولين أميركيين ديناميات العلاقة بين رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد والسفير كاميرون مانتر. ويأتي معظم الرواية عن الخلافات بين الرجلين والوصف الأوسع للمداولات في شأن واقعة رايموند دايفيس من هؤلاء المسؤولين.

عائلات ضحايا لاهور، ويتم تهريب دايفيس بهدوء من البلاد على ألا يعود إليها أبداً. لكن الـ «سي. آي. إيه» اعترضت. فدايفيس كان يتجسس على مجموعة مقاتلة ذات ارتباطات واسعة بجهاز الاستخبارات الباكستانية، ولا تريد الـ «سي. آي. إيه» أن تعترف بذلك. وخشي كبار مسؤولي الـ «سي. آي. إيه» من أن طلب الرحمة من جهاز الاستخبارات الباكستانية قد يُهلك دايفيس، الذي قد يُقتل في السجن قبل أن تتمكن إدارة أوباما من الضغط على إسلام آباد لإطلاقه، على أساس أنه دبلوماسي أجنبي يتمتّع بالحصانة من القوانين المحلية – حتى تلك التي تحظر القتل. وفي اليوم الذي أوقف دايفيس، دخل رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» إلى مكتب مانتر وأعلن اتخاذ القرار برفض التعاون مع الباكستانيين. وحذّر من عقد صفقة مضيفاً: إن باكستان هي العدو.

وتعني الاستراتيجية أن على المسؤولين الأميركيين، من أعلى المراتب إلى أسفلها، أن يعتّموا في العلن وفي السر على ما يفعله رايموند دايفيس بالضبط في البلاد. وفي ١٥ شباط/فبراير، وبعد مضي أكثر من أسبوعين على إطلاق النار، أدلى الرئيس أوباما في مؤتمر صحافي بتعليقه الأول على قضية رايموند دايفيس. وقال أوباما إن المسألة بسيطة: على دايفيس، «دبلوماسينا في باكستان»، أن يُطلق على الفور بموجب «مبدأ» الحصانة الدبلوماسية «البسيط جدّاً». وفحواه، قال الرئيس «أن دبلوماسيّينا الموجودين في بلد آخر لا يخضعون للملاحقة القانونية المحلية في تلك البلاد»[1].

ووصْفُ دايفيس بـ «الدبلوماسي» دقيق من الناحية التقنية. فقد دخل باكستان بجواز سفر دبلوماسي من شأنه، في ظل الظروف العادية، أن يحميه من الملاحقة في بلد أجنبي. لكن الباكستانيين لم يكونوا، بعد إطلاق النار في لاهور، موضوعاً قابلاً لمناقشة النقاط الدقيقة للقانون الدولي. ورأوا أن دايفيس جاسوس أميركي لم يتم الكشف عنه لجهاز الاستخبارات الباكستاني ولا يزال مسؤولو الـ «سي. آي. إيه» لا يعترفون بأنهم يديرونه. وقبل وقت قصير على مؤتمر أوباما الصحافي سافر رئيس الاستخبارات الباكستانية الجنرال باشا إلى واشنطن للقاء ليون بانيتا والحصول على المزيد من المعلومات حول المسألة. وتكوّن لديه شبه اقتناع بأن دايفيس موظف في الـ «سي. آي.

(١) مؤتمر صحافي للرئيس أوباما في ١٥ شباط/فبراير ٢٠١١.

إيه» واقترح على بانيتا أن يعالج جهازا التجسس المسألة سرّاً. وطرح، وهو جالس في مكتب بانيتا سؤالاً مباشراً.

سأل باشا، هل دايفيس يعمل للـ «سي. آي. إيه»؟

أجاب بانيتا، لا إنه ليس واحداً منّا.

وتابع بانيتا القول إن المسألة ليست في يده، وإن قنوات وزارة الخارجية هي التي تتولاها. واستبد الغضب بباشا وهو يغادر مقر قيادة الـ «سي. آي. إيه» وقرر أن يترك مصير رايموند في أيدي القضاة في لاهور. وقال لآخرين إن الولايات المتّحدة فوتت على نفسها فرصة وضع حد سريع للنزاع[١].

أظهر إشراف مدير الـ «سي. آي. إيه» على شبكة خفية كبيرة من الجواسيس الأميركيين في باكستان، ومن ثم كذبه على مدير الاستخبارات الباكستانية حول حجم الحرب الأميركية السرّية في البلاد، المدى الذي آلت إليه العلاقة منذ ٢٠٠٢ في الأيام التي تعاون فيها أسد منير مع الـ «سي. آي. إيه» في بيشاور لمطاردة أسامة بن لادن في غرب باكستان. بل إن الأمور باتت أشد سوءاً من فترة ٢٠٠٦ عندما سمحت الاستخبارات الباكستانية لأرت كيلر وغيره من عملاء الـ «سي. آي. إيه» بالعمل من القواعد العسكرية الباكستانية في المناطق القبلية. فأين أخفقت الأمور إلى هذا الحد؟

بالرغم من العلاقة المشحونة بين جهازي الاستخبارات منذ بدء الحرب الأفغانية، حدث الصدع الحقيقي في تموز/يوليو ٢٠٠٨ عندما زار ضباط في الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد قائد الجيش الجنرال أشفق برويز كياني لإبلاغه بأن الرئيس بوش وقّع مجموعة من الأوامر السرّية تسمح باستراتيجية جديدة في حروب الطائرات التي تطير بلا طيار. ولن تعطي الـ «سي. آي. إيه» بعد اليوم تحذيراً مسبقاً لباكستان قبل إطلاق الصواريخ من طائرات الـ «بريداتور» أو الـ «ريبر» على المناطق القبلية. وأبلغ ضباط الـ «سي. آي. إيه» كياني أن حملة القتل في باكستان ستصبح من الآن فصاعداً حرباً من طرف واحد.

(١) تأتي تفاصيل الاجتماع بين بانيتا وباشا من مسؤولَين باكستانيين ومن محتويات مذكرة داخلية لوكالة الاستخبارات الخاصة «ستراتفور» نشرتها ويكيليكس. والمذكرة متوافرة على: http://wikileaks.org/gifiles/docs/1664671_rc-alpha-insight-afghanistan-pakistan-isi-chief-not-for.html.

اتُخذ القرار في واشنطن بعد أشهر من الجدل المجهد حول نمو الروح القتالي في المناطق القبلية الباكستانية[1]؛ وربط تقويم داخلي للـ «سي. آي. إيه» ذلك بالملاذ الآمن للقاعدة في أفغانستان في الأعوام التي سبقت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. واستنتجت دراسة الـ «سي. آي. إيه» الفائقة السرّية والمؤرّخة في الأول من أيار/مايو ٢٠٠٧ أن القاعدة بلغت منذ ٢٠٠١ أقصى درجات الخطر بسبب قاعدة العمليات، التي أقامها المحاربون في شمال وجنوب وزيرستان وباجور وغيرها من المناطق القبلية.

أصبح ذلك التقويم حجر الزاوية في نقاش استمر سنةً في شأن المشكلة الباكستانية. وحذّر بعض الخبراء في الشؤون الباكستانية في وزارة الخارجية من أن توسيع حرب الـ «سي. آي. إيه» في باكستان سيزيد في إذكاء الغضب المعادي لأميركا في الشوارع وقد يدفع البلاد إلى الحافة. لكن المسؤولين في مركز مكافحة الإرهاب في الـ «سي. آي. إيه» جادلوا من أجل تصعيد حملة الطائرات التي تطير بلا طيار من دون موافقة جهاز الاستخبارات الباكستاني. وقالوا إنه منذ قتل نك محمد في ٢٠٠٤ شنّت أقل من ٢٥ غارة في باكستان بالطائرات التي تطير بلا طيار وثلاثة فقط من هذه الغارات قتلت محاربين موضوعين على قائمة الـ «سي. آي. إيه» لـ «الأهداف ذات القيمة العالية». وسُرّع غيرها من الغارات المحتملة في الدقيقة الأخيرة بسبب التأخير في الحصول على الموافقة الباكستانية عليها، أو لأنه بدا أنه تم إخبار المقصودين الذين هربوا. وحاول المستهدِفون داخل مركز مكافحة الإرهاب جمع الدليل على أن عناصر في «المديرية س» – الفرع الذي لديه علاقات تاريخية بالمجاهدين – قد حذّروا المحاربين، لكنهم افتقروا إلى برهان واضح على ذلك.

وعلى عكس السنوات التي عيّر فيها بعض ضباط الحالة عناصر مركز مكافحة الإرهاب بأنهم غير مثقفين وبأنهم «صبية مع ألعابهم»، اتحد، بحلول ٢٠٠٨، مختلف الأقسام داخل وكالة التجسس على موقف يقضي بوجوب تكثيف حملة الطائرات التي تطير بلا طيار. وتمكنت الـ «سي. آي. إيه» منذ أواخر ٢٠٠٥ من مضاعفة المزيد من المصادر في المناطق القبلية ممن يمكنهم توفير معلومات دقيقة عن أمكنة وجود قادة القاعدة. أضف إلى ذلك أن المتعاقد الدفاعي «جنرال أتوميكس» قد ضاعف من إنتاج

(١) دراسة سرّية للـ «سي. آي. إيه» وصفها مسؤولان أميركيان كبيران في الاستخبارات.

طائرات «بريداتور» و«ريبر» التي تطير بلا طيار بما سمح للـ«سي. آي. إيه» باقتراح استخدام هذه الطائرات لمراقبة شبه دائمة للمجمعات التي يُشتبه بأنها مراكز ومعسكرات تدريب للقاعدة. وقرر المحللون داخل قسم التحليل في الـ«سي. آي. إيه»، أي في مديرية الاستخبارات، أن شن عمليات أحادية الجانب في باكستان لن يؤدّي، كما خشي مسؤولو بوش على مدى سنوات، إلى إطاحة الحكومة العلمانية في باكستان، وإلى نشوء حكم إسلامي في البلاد. وخلص المحللون إلى أن الحكومة المدنية في إسلام آباد، التي يرأسها آصف علي زرداري وانتُخبت بعدما رضخ الجنرال مشرّف للدعوات التي طالبته بالتنحّي، تتمتّع بما يكفي من القوة للصمود في وجه موجة عارمة من الغضب العام، الناتج من الازدياد في غارات الطائرات التي تطير بلا طيار.

وساهم أيضاً التغيير في قيادة البنتاغون في اتخاذ إدارة بوش مقاربة أكثر عدائية في باكستان. وحرص دونالد رامسفلد في الواقع، بالرغم من كل جهوده لتوسيع السلطات التي تخوّله إرسال جنود العمليات الخاصة إلى خارج مناطق الحرب، على عدم القيام بالكثير من العمليات التي تتطلب «وجود جنود على الأرض» داخل باكستان خشية ارتداد جماهيري قد يضعف الرئيس مشرّف. لكن، ومع رحيل مشرّف، اعتقد خليفة رامسفلد، روبرت غايتس، أن في وسع الولايات المتّحدة خوض المزيد من المخاطر في البلاد. وقد ساعد غايتس، المدير السابق للـ«سي. آي. إيه»، على إدارة حملة الوكالة الخفية ضد السوفيات في أفغانستان في الثمانينيات ولمس فوائد الشراكة مع باكستان. لكن كانت له أيضاً نظرة مستهجنة إلى طريقة إدارة باكستان لأمنها، وعرف أن إسلام آباد لن تقوم بعمل عدائي ضد الجماعات المسلحة في المناطق القبلية، إذا لم تمتلك المصلحة أو القدرة على القيام بذلك. جلس غايتس، في رحلته الأولى إلى أفغانستان بوصفه وزيراً للدفاع، في غرفة إيجاز مأمونة في قاعدة باغرام الجوية، حيث قدّم له نائب قائد القيادة المشتركة للعمليات الخاصة الأميرال روبرت هوارد موجزاً سرّياً عن كل المجمعات في المناطق القبلية، التي يعتقد الجيش أن عناصر القاعدة يختبئون فيها. وسأله غايتس، «إذاً، لماذا لا تذهبون وتنالون منهم؟»[1].

وهكذا، عندما جاء مدير الـ«سي. آي. إيه» مايكل هايدن ونائبه ستيفن كابس

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول عسكري كبير حضر الاجتماع.

إلى البيت الأبيض، ليقدما للرئيس بوش ومجلس حربه خطة الوكالة القاضية بشن حرب أحادية في جبال باكستان، لم يصعب إقناع الرئيس المحبط. «يجب أن نتوقف عن المناورة»، قال بوش. «فأبناء الزنى هؤلاء يقتلون أميركيين. لقد اكتفيت»[1]. وباشر ذلك في ما سيصبح الهجوم الفتاك للطائرات التي تطير بلا طيار، الذي امتد على سنوات كثيرة وتابعه الرئيس أوباما عندما تولى السلطة. ومع توتّر علاقات الـ «سي. آي. إيه» مع جهاز الاستخبارات الباكستانية، أوفدت لانغلي رؤساء محطات إلى إسلام آباد بذلوا وقتاً وطاقة لبناء الثقة مع الجواسيس الباكستانيين أقل بكثير مما فعله أسلافهم. واشتكى ريتشارد بلي، الرئيس السابق لوحدة مطاردة بن لادن في الـ «سي. آي. إيه» ورئيس المحطة السابق في إسلام آباد، من أن «مدرسة (اللعنة عليك) سادت» في الـ «سي. آي. إيه». وتعاقب منذ ٢٠٠٨ عدد من ضباط الحالة المتمرّسين على إسلام آباد ليغادر كل منهم باكستان وهو أكثر سخطاً ممن سبقه.

كان أحد رؤساء المحطات، جون بينيت، ضابطاً قديم العهد في الجهاز الخفي أدار عمليات الـ «سي. آي. إيه» في الصومال من محطة الوكالة في نيروبي، وأدار في وقت أقرب محطة الـ «سي. آي. إيه» في جنوب إفريقيا. ووصل بينيت، وهو ضابط من جيل ما بعد «لجنة تشيرتش»، إلى باكستان تحدوه المخاوف نفسها، التي للكثيرين من أقرانه في شأن عمليات القتل التي تقوم بها الـ «سي. آي. إيه»، لكن مدّة خدمته في باكستان بدّلت رأيه تدريجاً. ورأى في الطائرات التي تطير بلا طيار الوسيلة الوحيدة الموثوق بها لإزالة القاعدة في باكستان وخصوصاً بعد تضاؤل تبادل المعلومات الاستخبارية بين الـ «سي. آي. إيه» وجهاز الاستخبارات الباكستاني. وأصبحت علاقة بينيت بالاستخبارات الباكستانية جليدية عندما بدأ التحقيق في دور الوكالة الباكستانية في تحريك المعارضة الداخلية لغارات الطائرات التي تطير بلا طيار، وكانت له في الوقت الذي غادر إسلام آباد في ٢٠١٠ نظرة عيّابة إلى جهاز الاستخبارات الباكستاني. وسيتذكّر أمام زملائه الوقت الذي أمضاه في باكستان وتعامله مع الاستخبارات الباكستانية

(١) يمكن إيجاد ردّ بوش على موجز الـ «سي. آي. إيه» في: Bob Woodward, *Obama's Wars* (New York: Simon & Schuster, 2010): 4–5. وتوجد الرواية الأكثر تفصيلاً عن موجز الـ «سي. آي. إيه» في تموز/ يوليو ٢٠٠٨ في: Eric Schmitt and Thom Shanker, *Counterstrike: The Untold Story of America's Secret Campaign Against Al Qaeda* (New York: Times Books, 2011).

بأنها «سنوات من حياته لن يستعيدها أبداً». واضطر خلفه في رئاسة المحطة، الذي تعمّق أكثر في البحث عما اعتبره حملة الدعاية التي قامت بها الاستخبارات الباكستانية لإثارة الغضب حيال غارات الطائرات التي تطير بلا طيار، إلى مغادرة البلاد على عجل بعدما كُشفت هويته في الصحافة الباكستانية. واشتبهت الـ «سي. آي. إيه» في تسريب الاستخبارات الباكستانية الخبر انتقاماً لأن الجنرال باشا هو أحد المتهمين في الدعوى، التي رفعها في نيويورك ضحايا هجمات ٢٠٠٨ في مومباي.

بل إن الكثير من العمليات التي بدا لأول وهلة أنها قد تؤشّر إلى حقبة جديدة من النية الحسنة بين الـ «سي. آي. إيه» والاستخبارات الباكستانية، انتهى إلى المهاترات وتبادل الاتهامات. وفي كانون الثاني/يناير ٢٠١٠، في عهد بينيت رئيساً لمحطة الـ «سي. آي. إيه»، تقفّى فريق من ضباط الـ «سي. آي. إيه» الأميركيين الخفيين وجنود العمليات الخاصة العاملين في كراتشي، أثر هاتف خلوي إلى منزل في «بلديّة تاون»، وهي كناية عن حي فقير في الجزء الغربي من المدينة المترامية الأطراف. ولأن الـ «سي. آي. إيه» لا تقوم بعمليات أحادية داخل المدن الباكستانية الكبرى، أبلغ الأميركيون الاستخبارات الباكستانية بما لديهم من معلومات. وشن الجنود ورجال الشرطة الباكستانيون غارةً مفاجئة على المنزل[1].

إلا أن الـ «سي. آي. إيه» لم تعرف مسبقاً أن الملاّ عبد الغني بارادار، الذي يعد القائد العسكري للطالبان الأفغان والرجل الثاني في القيادة بعد الملاّ محمد عمر، مختبئ داخل المنزل. ولم تعرف الـ «سي. آي. إيه» أن بارادار من بين المعتقلين إلا بعدما تم توقيف المشتبه فيهم في المنزل واستجوابهم. وأخذته الاستخبارات الباكستانية إلى منشأة توقيف في القطاع الصناعي من إسلام آباد ورفضت السماح للـ «سي. آي. إيه» بالوصول إليه. وقال ضابط سابق في الـ «سي. آي. إيه» إن «الأمور تعقّدت فعلاً عند هذا الحد».

هل كانت الواقعة كلها مكيدة؟ انتشرت إشاعات في داخل باكستان فحواها أن بارادار أراد عقد صفقة مع الأميركيين وجلب الطالبان إلى طاولة المفاوضات في

(١) تأتي رواية أسر الملاّ بارادار من خمسة مسؤولي استخبارات مختلفين أميركيين وباكستانيين.

أفغانستان. فهل هندست الاستخبارات الباكستانية كامل عملية التوقيف ملقّمة الـ «سي. آي. إيه» معلوماتٍ استخبارية تؤدّي إلى إخراج بارادار من الساحة وإفشال محادثات السلام الناشئة؟ مضت أشهر على ذلك ولم يتمكن كبار مسؤولي الـ «سي. آي. إيه» في لانغلي من الإجابة عن هذين السؤالين.

ألقى شكّ الـ «سي. آي. إيه» القوي في استمرار الاستخبارات الباكستانية في اللعبة المزدوجة مع الطالبان الأفغان بثقله الدائم على العلاقة التجسسية، ومع ذلك جرى بعض العمليات المشتركة، التي أنتجت نجاحاً استخبارياً غير متوقع. ففي حزيران/يونيو ٢٠١٠، قبل أن يسمع العالم باسم رايموند دايفيس بثمانية أشهر، كثّفت وكالتا التجسس عملية مراقبة تتبعتا فيها الهواتف الخلوية لمجموعة من العرب، الذين يُشتبه في توفيرهم الدعم اللوجستي لقادة القاعدة المختبئين في باكستان. لكن العملية لم تكن «مشتركة» إلا إلى حد ما: لم تخبر الـ «سي. آي. إيه» الباكستانيين أن أحد أرقام الهواتف يخص أبا أحمد الكويتي، وهو الاسم المستعار لرجل عرّف به عناصر القاعدة المعتقلون للـ «سي. أي. إيه» قبل ذلك بأعوام، بأنه الساعي الخاص لأسامة بن لادن[1]. وأدى تقفّي الساعي، منذ معرفة أمر الكويتي، إلى عدة طرق مسدودة، إلى أن تلقت الـ «سي. آي. إيه» في ٢٠٠٧ معلومة من جهاز استخبارات أجنبي بأن اسمه الحقيقي هو إبراهيم سعيد أحمد. ويكاد الاسم يكون شائعاً في العالم الإسلامي، لكنّ المعلومة الجديدة سمحت لوكالة الأمن القومي بأن تحدّد تدريجاً رقم هاتف خلوي يستخدمه الساعي وأرسلته إلى الـ «سي. آي. إيه» من أجل عملية مراقبة الهاتف.

واتفق في ذلك الصيف في ٢٠١٠، أن تلقى الكويتي اتصالاً عبر هاتفه المراقب. والمتصل صديق للكويتي يهاتفه من أحد بلدان منطقة الخليج الفارسي، وأخذ الجواسيس الأميركيون يتنصتون.

سأله الرجل، «اشتقنا إليك. أين كنت؟».

وجاء ردّ الكويتي غامضاً ولكنه مثير.

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع اثنين من مسؤولي الاستخبارات الأميركية، وقد استقيت المعلومات أيضاً من: Peter Bergen, *Manhunt: The Ten-Year Search for Bin Laden—from 9/11 to Abbottabad* (New York: Crown, 2012): 122–124.

قال: «عدت مع الأناس الذين كنت معهم من قبل»[1].

بدت الرسالة المرمّزة ذات مغزى: فقد أوحت أن الكويتي عاد للعمل مع القاعدة، بل ربما جرى اتصال مباشر بأسامة بن لادن. واستخدمت وكالة الأمن القومي تكنولوجيا تحديد الموقع الجغرافي لتعيين المكان، الذي يستخدم فيه الكويتي هاتفه، ووجّهت اهتمامها إلى منطقة تحيط ببيشاور. وفي هذا بعض المعنى في حال أن الكويتي يسافر جيئة وذهاباً إلى المناطق القبلية حيث يُعتقد أن القسم الأكبر من كبار قادة القاعدة يختبئون، مع أن مجموعة صغيرة من المحللين داخل الـ «سي. آي. إيه» توقعت أن بن لادن قد يكون مختبئاً في مكان آخر، وربما حتى في مناطق باكستان الحضرية. وذلك حدس ناتج من درجة ما من عملية الاستبعاد المحض: فقد أمضت الـ «سي. آي. إيه» سنوات مركّزة على المناطق القبلية من دون أي جزء من الدليل الجديد إلى أن زعيم القاعدة مختبئ فيها. وبدا أنه يوجد، عند حد ما، مغزى للشروع في البحث في مكان آخر.

أثبت الحدس صحته. وبعد شهرين على الاتصال بواسطة الهاتف الخلوي، لمح باكستاني يعمل للـ «سي. آي. إيه» الكويتي في بيشاور وهو وراء مقود شاحنة «سوزوكي بوتوهار» بيضاء ذات إطار إضافي مربوط إلى الباب الخلفي. ولاحق الكويتي إلى خارج المدينة – ولكن ليس غرباً إلى المناطق القبلية والجبال البرّية. بل سارت الشاحنة ما ينيف على ١٢٠ ميلاً شرقاً إلى قرية هادئة شمال إسلام آباد، هي مقر لأكاديمية التدريب العسكري الأولى في باكستان، وتشكّل جنة شعبية للضباط المتقاعدين الذين يمضون أيامهم في قذف كرات الغولف في أفضل ملاعب باكستان. ودخلت السوزوكي هناك، في أبوت آباد، إلى مجمّع مترامي الأطراف محاط بأسوار من الباطون ارتفاعها ١٢ قدماً. وارتفعت من فوق الأسوار الطبقات العليا لمنزل كبير – وامتازت الطبقة الأخيرة من بقية الطبقات فقط بفتحاتها الصغيرة غير الشفّافة، التي تحل محل النوافذ[2]. ولم يكن في المنزل خط هاتف أو اتصال بالإنترنت. فمن يعش في داخله يحاول البقاء منفصلاً عن العالم الخارجي.

(١) Peter Bergen, *Manhunt*، مصدر سابق، ص ١٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤.

دفع ليون بانيتا، في الأشهر التي تلت، مركز مكافحة الإرهاب في الوكالة إلى التفكير في عدد من المخططات غير المألوفة لتحديد من قد يختبئ في المنزل، ويذكِّر بعضها بالحقبة التي سبقت حصول الوكالة على أسطول الـ«بريداتور»، وفكِّرت في استخدام المناطيد للتجسس على معسكرات التدريب التابعة لبن لادن في أفغانستان. وجاء ضباط مركز مكافحة الإرهاب بعدسة تقريب عملاقة إلى مكتب بانيتا، وهي أكبر عدسة متوافرة، واقترحوا تركيزها في الجبال على بعد عدة أميال، إذ لم يمتلك بيت آمن جهزته الـ«سي. آي. إيه» سرّاً في مكان لا يبعد كثيراً عن المجمع الكبير خط رؤية مباشراً إلى المنزل، ولا فائدة بالتالي للعدسة المقرّبة في النقطة المطلّة تلك.[1] والتقطت أقمار التجسس، على مدى أسابيع متواصلة، مئات الصور للمنزل في خلال مرورها من فوق باكستان، لكن الأعين الموجودة في السماء لم تنتج برهاناً قاطعاً على أن بن لادن مختبئ فيه.

راقبت الـ«سي. آي. إيه» وانتظرت للحصول على إثبات قاطع بسيط قد ينهي المطاردة المستمرة منذ عقد من الزمن.

في الوقت الذي تابعت الـ«سي. آي. إيه» الخيوط الأكثر تشجيعاً المؤدية إلى بن لادن منذ فرار زعيم القاعدة من جحره في تورا بورا في أفغانستان واجتيازه الحدود في ٢٠٠١ إلى باكستان، بات من غير الملائم جدّاً للوكالة أن يقبع أحد ضباطها في السجن في لاهور يواجه تهمة ارتكاب جريمة قتل مزدوجة. وقد نظّمت الأحزاب الإسلامية في باكستان تظاهرات احتجاج في الشوارع وهدّدت بأعمال شغب عنيفة إذا لم يُحاكم رايموند دايفيس ويُشنق في النهاية على جريمته. وزار الدبلوماسيون الأميركيون في لاهور دايفيس بانتظام، لكن إدارة أوباما واصلت التعتيم على الحكومة الباكستانية في شأن طبيعة عمل دايفيس في البلاد. وتسبّبت الواقعة بسقوط ضحية أخرى.

في ٦ شباط/فبراير، ابتلعت الأرملة الحزينة لواحد من ضحيتي دايفيس كمية قاتلة من سمّ الجرذان، وهُرع بها إلى المستشفى في فيصل آباد حيث قام الأطباء بغسل معدتها. كانت المرأة، شميلة فهيم، متيقّنة أن الولايات المتّحدة وباكستان ستعقدان صفقةً سريعةً لإخلاء سبيل قاتل زوجها من السجن، وهي وجهة النظر التي

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤولَيْن أميركيين كبيرين في الاستخبارات.

أعربت عنها لأطبائها وهي على سرير المستشفى. وقالت: «إنهم يعاملون بالفعل قاتل زوجي في عهدة الشرطة وكأنه شخصية مهمة جداً وأنا على يقين أنهم سيتركونه يرحل بسبب الضّغط الدولي. الرجل قتل زوجي وأنا أطالب بالعدالة. لا أبالي لكونه أميركياً. يجب ألا يُسمح له بالإفلات بفعلته»[1]. وماتت بعد فترة وجيزة من ذلك وأضحت على الفور شهيدةً بالنسبة إلى جماعات داخل باكستان حوّلوا قضية دايفيس إلى قضية شهيرة.

أخذ السخط يتصاعد سريعاً ويهدّد بوقف معظم عمليات الـ«سي. آي. إيه» في البلاد، وقد يخرّب عملية جمع الاستخبارات في أبوت آباد. لكن الـ«سي. آي. إيه» صمدت وأرسلت كبار المسؤولين إلى إسلام آباد لإبلاغ السفير مانتر بالتزام الاستراتيجية التي تقضي بإجبار الباكستانيين على إطلاق دايفيس وتهديدهم بالعواقب الوخيمة إذا لم ينصاعوا. لوّحوا بالألم وسيغيّرون رأيهم.

لكن مانتر قرر عند هذا الحد أن استراتيجية الـ«سي. آي. إيه» لم تنجح وشرع وعدد آخر غيره من المسؤولين الأميركيين في وضع خطة جديدة. وبعد نقاشات بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية ومسؤولي الـ«سي. آي. إيه» في واشنطن، قابل مانتر رئيس الاستخبارات الباكستانية الجنرال باشا واعترف بكل شيء. قال إن دايفيس مع الـ«سي. آي. إيه» وإن الولايات المتّحدة تحتاج إلى إخراجه من البلاد بأسرع ما يمكن.

غير أن باشا لن يترك الأميركي ينجو بهذه السهولة. فهو لا يزال غاضباً لأن بانيتا كذب عليه، وسيجعل الأميركيين يتلوّون بتركه دايفيس قابعاً في السجن فيما يفكّر – من خلال جدوله الزمني – في الطريقة الفضلى لتسوية الوضع.

بعد أكثر من أسبوع عاد باشا بجوابه إلى مانتر. وهو حلّ باكستاني محض يرتكز على تقليد قديم يسمح بتسوية المسألة من خارج النظام القضائي المتقلّب. ابتكر باشا الخطة مع عدد من المسؤولين الباكستانيين بمن فيهم السفير حقّاني في واشنطن. وسيأتي الحساب على أفعال دايفيس على شاكلة «دية»، وهو تقليد يقضي بحسب الشريعة

(١) Ahtishamul Haq, "Raymond Davis Case: Wife of Man Killed Commits Suicide", *The Express Tribune* (February 7, 2011).

بالتعويض على عائلات الضحايا. وسيتم التعامل مع المسألة بهدوء وتقوم الـ «سي. آي. إيه» بالدفعات السرّية ويُطلق دايفيس من السجن[١].

تولّت الاستخبارات الباكستانية المسألة. وأمر باشا عملاء استخباراته في لاهور بلقاء عائلات الرجال الثلاثة، الذين قتلوا في واقعة كانون الثاني/يناير والتفاوض في شأن التسوية. قاوم بعض من الأقارب في البداية، لكن مفاوضي الاستخبارات لن يسمحوا للمفاوضات بالانهيار. وبعد أسابيع من النقاشات وافق الأطراف على ما مجموعه مئتا مليون روبيه، أي نحو ٢,٣٤ مليون دولار، «للصفح» عن ضابط الـ «سي. آي. إيه» السجين[٢].

لم يعرف بالمحادثات إلا مجموعة قليلة من مسؤولي إدارة أوباما. وفيما المحادثات تتلكأ أخذت عقارب الساعة تدور في اتجاه إصدار المحكمة العليا في لاهور قراراً في شأن وجوب منح الحصانة الدبلوماسية لدايفيس، وقد توقّعت الـ «سي. آي. إيه» أن يصب الحكم في غير مصلحة الولايات المتّحدة، وخشيت أن يشكل ذلك سابقة لحالات مستقبلية في باكستان.

لم يعرف رايموند دايفيس بأي من هذا كله. وتوقّع تماماً، عندما مثل أمام المحكمة في ١٦ آذار/مارس، أن يسمع أن المحاكمة ستبدأ وسيحدّد القاضي موعداً جديداً لها. ودخل قاعة المحكمة وسط مواكبة ويداه مكبّلتان من أمامه وأُقفل عليه داخل قفص حديدي على مقربة من قوس القاضي[٣]. وجلس رئيس الجواسيس الباكستانيين الجنرال باشا في آخر قاعة المحكمة، وأخرج هاتفه الخلوي وشرع في إرسال سلسلة من الرسائل العصبية إلى السفير مانتر يطلعه فيها على آخر مستجدات مداولات المحكمة. وباشا واحد من أقوى الرجال في باكستان، ومع ذلك لم تمتلك الاستخبارات الباكستانية الكثير

(١) تأتي تفاصيل النقاشات بين مانتر وباشا وما أعقب ذلك من رواية للأحداث التي أدت إلى إطلاق دايفيس من مقابلات مع مسؤولين أميركيين وباكستانيين.

(٢) مع إطالة المفاوضات طوّر الأميركيون خطة رديفة: رفع المسألة إلى هيئة تحكيم دولية في سويسرا. وقد بدأ المسؤولون الأميركيون في جنيف مشاورات مع محامين سويسريين، لكنهم تصوروا مع ذلك أن الاحتمال بعيد في أن تتمكن الهيئة في سويسرا من إخراج راي دايفيس من السجن.

(٣) Carlotta Gall and Mark Mazzetti, "Hushed Deal Frees CIA Contractor in Pakistan", *The New York Times* (March 16, 2011).

من السيطرة على المحاكم المتقلبة في لاهور، وهو غير متيقّن تماماً أن الأمور ستسير وفق ما هو مخطط لها.

جرى القسم الأول من جلسة الاستماع كما توقعه الجميع. لاحظ القاضي، الذي قال إنه سيسير بالقضية، أن حكمه في شأن الحصانة الدبلوماسية سيصدر في غضون أيام. وعمل المراسلون الباكستانيون في شكل محموم على كتابة موضوعاتهم حول ما بدا أنه ضربة للقضية الأميركية، وأن دايفيس لن يُطلق من السجن في أي وقت قريب. ثم أمر القاضي بخروج جميع المراسلين من قاعة المحكمة، وشاهد الجنرال باشا من الخلف خطته السرّية وهي تتكشف.

دخل إلى القاعة، من الباب الجانبي، ١٨ من أقارب الضحايا الثلاث، وأعلن القاضي أن المحكمة المدنية تحوّلت إلى محكمة شرعية. اقترب كل من أفراد العائلات من دايفيس، وقد اغرورقت أعين بعضهم بالدمع أو أجهشوا تماماً بالبكاء، ليعلن أنه أو أنها تصفح عنه. وبعث باشا برسالة نصّية أخرى إلى مانتر: لقد سُوّيت المسألة. وأصبح دايفيس حرّاً. ففي محكمة لاهور تغلّبت قوانين اللّه على قوانين الإنسان.

دارت المسرحية كلّها بالأوردو وجلس رايموند دايفيس المذهول داخل القفص الحديدي طوال فترة المداولات. بل أصبح الأمر صادماً أكثر عندما سحب عملاء الاستخبارات الباكستانية دايفيس من قاعة المحكمة وزجوا به في سيارة منتظرة أسرعت متوجّهة إلى مطار لاهور.

صُمّم التحرّك لإخراج دايفيس من البلاد بأسرع ما يمكن. لكن القلق استبد بالمسؤولين الأميركيين الذين انتظروه في المطار بمن فيهم مانتر. فدايفيس في النهاية قد قتل رجلين اعتقد أنهما يهدّدانه. ولو اعتقد أنه أُبعد ليُقتل فقد يحاول الهرب بل حتى قتل عملاء الاستخبارات الباكستانية داخل السيارة. والأكيد أن عميل الـ «سي. آي. إيه» كان في حالة ذهول عندما بلغت السيارة المطار وتوقّفت عند الطائرة التي ستخرج دايفيس من باكستان. وبدا للأميركيين الذين ينتظرونه أن دايفيس أخذ يدرك عندئذٍ فقط أنه في أمان[1].

صعد رايموند دايفيس إلى الطائرة وطار غرباً من فوق الجبال إلى أفغانستان حيث

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤولَين أميركيين.

سُلّم لضباط الـ «سي. آي. إيه» في كابول. وتمكن للمرة الأولى منذ كانون الثاني/يناير الماضي من إخبار قصته عن عملية القتل في لاهور وتوقيفه وسجنه – من دون أن يخشى تنصت الجواسيس الباكستانيين عليه.

حاول الاستقرار من جديد في حياته في الولايات المتحدة، لكن رايموند دايفيس لم يتمكن في النهاية من البقاء خارج السجن. ففي الأول من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١١، بعد سبعة أشهر فقط على مغادرته المفاجئة باكستان، وضع دايفيس نظره على مكان لوقوف السيارات أمام متجر لبيع الكعك في «هايلاندز رانش» وهي ضاحية لمدينة دنفر في كولورادو. وكذلك فعل جف مايس، وهو قسّيس في الخمسين من عمره يقود السيارة وبرفقته زوجته وابنتاه الصغيرتان[١]. ولما سبق مايس دايفيس إلى الموقف، أوقف الأخير سيارته وراء سيارة مايس المركونة وشرع يكيل الشتائم من نافذته المفتوحة. ثم قفز خارجاً من سيارته وواجه القسيس قائلاً له إنه كان ينتظر للحصول على مكان التوقف.

«استرخِ»، قال مايس. «وكفّ عن الغباوة»[٢].

صفع دايفيس مايس على وجهه وأوقعه على الرصيف. وشهد مايس أن دايفيس استمر في ضربه بعدما عاود الوقوف من سقطته. وأوقف دايفيس في النهاية بتهمة الاعتداء من الدرجة الثالثة والسلوك المخل بالنظام، لكن ما لبثت التهمة أن تحولت إلى الاعتداء الجنائي، عندما تبين أن إصابات مايس أسوأ مما اعتُقد في البداية. وقالت زوجة القسّيس، وهي تستذكر الواقعة لاحقاً، إنها لم تر في حياتها قط رجلاً مفعماً على هذا القدر بالحنق.

دفعت قضية دايفيس لانغلي إلى إصدار الأمر بخروج عشرات الضباط الخفيين من باكستان أملاً في خفض درجة الغليان في العلاقات بين الـ «سي. آي. إيه» وجهاز الاستخبارات الباكستاني. وأصدر السفير مانتر بياناً عاماً بعد الإجراءات الغريبة في

(١) Sara Burnett, "Charges Upgraded Against Ex-CIA Contractor in Parking-Spot Dispute", *The Denver Post* (October 4, 2011).

(٢) "CIA Contractor in Court Over Felony Assault Charges", *CBS Denver* (October 4, 2011). صدر الكتاب قبل انتهاء الإجراءات القانونية في القضية.

المحكمة قال فيه إنه «ممتن لسخاء العائلات» ومعرباً عن الأسف للحادثة برمّتها «وللألم الذي تسببت به».

إلا أن الصفقة السرّية ساهمت في نشر الغضب في باكستان، واندلعت التظاهرات المناهضة لأميركا في المدن الكبرى بما فيها إسلام آباد وكراتشي ولاهور. أشعل المتظاهرون الإطارات واشتبكوا مع شرطة مكافحة الشغب ورفعوا لافتات تحمل شعارات مثل، «أنا رايموند دايفيس، كفّوا عن مضايقتي، فأنا لست إلا قاتلاً مأجوراً للـ«سي. آي. إيه».

أصبح دايفيس بعبع باكستان، وكناية عن قاتل أميركي قابع في لاوعي أمة متزعزعة جداً. بات موضوع نظريات المؤامرة الجامحة وصار اسمه يُسمع بانتظام في التجمعات المناهضة لأميركا. وذهبت إحدى الصحف الباكستانية، بعدما قلّصت الـ«سي. آي. إيه» عملياتها في البلاد، إلى حد الإشارة إلى أن سحب الجيش السرّي الأميركي هو السبب في تراجع العنف الإرهابي في باكستان في الأشهر الأخيرة[١].

في ليلة صيف حارة رطبة وقف حافظ محمد سعيد – رئيس «لشكر طيبة» والسبب في إرسال رايموند دايفيس وفريقه إلى لاهور في المقام الأول – على صندوق إحدى الشاحنات وتحدّث إلى الآلاف من المؤيدين الهاتفين على بعد أقل من ميل واحد من مبنى البرلمان الباكستاني في إسلام آباد. ولا تزال جائزة قيمتها عشرة ملايين دولار أميركي موضوعة على رأس سعيد وهي جزء من عملية الضغط على مالية «لشكر طيبة». لكن ها هو في الخارج في العراء يدفع الحشود إلى الهيجان وهو يتعهد «تخليص باكستان من الاستعباد الأميركي». وشكل التجمع ذروة مسيرة من لاهور إلى إسلام آباد أمر بها سعيد للاحتجاج على التورّط الأميركي في باكستان. وفي الليلة التي سبقت وصول المسيرة إلى العاصمة قتل مسلحون يمتطون دراجات نارية ستة جنود باكستانيين في مكان لا يبعد كثيراً عن المكان، الذي يبيت فيه المشاركون في المسيرة ليلتهم، ما أدى إلى تكهنات بأن سعيد هو الذي أمر بالهجوم.

لكن سعيد أصرّ في تلك الليلة على أنه يجب ألّا يُلام على عمليات القتل[٢]. وقال

(١) "Getting Rid of US Saboteurs", *The Nation* (August 11, 2011).

(٢) حضر المؤلف تجمّع تموز/يوليو ٢٠١٢ في إسلام آباد.

للحشود إن القتلة أجانب، مجموعة من السفّاحين لديهم روزنامة سرّية لزعزعة استقرار باكستان وسرقة ترسانتها النووية. وقال بتأنّ دراماتيكيّ إنه يعرف تماماً من قتل الرجال الستة.

«إنهم الأميركيون!» صاح وقد لاقى استحساناً صاخباً.

«إنها بلاكووتر!» وازدادت الهتافات حدة.

ووفّر التصفيق الأكبر للجملة الأخيرة:

«إنه رايموند دايفيس آخر!»

١٥ : الطبيب والشيخ

«لا أريد أن أكون السفير».

- رئيس محطة الـ «سي. آي. إيه» في إسلام آباد.

بعد مضي أكثر من عام على عمل الدكتور شاكيل أفريدي للـ «سي. آي. إيه» أعطته محرّكته الأميركية مجموعة جديدة من التعليمات. إنه كانون الثاني/ يناير ٢٠١١، الشهر الذي أوقف فيه رايموند دايفيس، وقد اجتاز الجراح الباكستاني حال الإجراءات الطويلة التي وضعتها الـ «سي. آي. إيه» ليلتقي صلة اتصاله الأميركية. سيلتقطه رجلان في موقع محدّد - أحياناً محطة «شل» للمحروقات وأحياناً أخرى سوق مكتظة في الهواء الطلق - ويخضعانه للتفتيش الجسدي ويأمرانه بالتمدد على المقعد الخلفي لسيارتهما ويغطيانه بحرام. وسلكت السيارة في ذلك اليوم شوارع إسلام آباد في شكل متعرّج إلى أن توقفت وتركت أفريدي يخرج. وهناك انتظرته سيدة أميركية في سيارة «تويوتا لاند كروزر» عرفها فقط باسم سو[1].

أبلغت سو الطبيب بأن عليه الاستعداد لحملة تلقيح ضد «التهاب الكبد ب» يصيب النساء ما بين الخامسة عشرة والخامسة والأربعين. وأمرته بأن يبدأ بمدينتين في كشمير - باغ ومظفر آباد - وفي منطقة خيبر باختونكوا مركزاً على مدينة أبوت آباد ذات الحامية

(١) معظم التفاصيل عن لقاءات الدكتور شاكيل أفريدي مع محرّكيه في الـ «سي. آي. إيه» مصدرها اعترافات أفريدي لمجموعة من المحققين الباكستانيين الذين نظروا في دوره في عملية بن لادن. وجاءت التفاصيل الأخرى من مسؤولين أميركيين على اطلاع على عمل أفريدي للـ «سي. آي. إيه» من ٢٠٠٨ إلى ٢٠١١.

الريفية. قالت إن على الحملة أن تستغرق ستة أشهر وتُجرى على ثلاث مراحل. احتسب أفريدي بسرعة كلفة الحملة مضيفاً إليها الهامش الكبير الذي يضمّنه دائماً عندما يعطي سعره لعملية للـ «سي. آي. إيه». وأبلغ سو أنه سيحتاج إلى ٥,٣ ملايين روبية، أي نحو خمسة وخمسين ألف دولار.

استراح أفريدي عند هذا الحد في علاقته مع الأميركيين وعرف أن الـ «سي. آي. إيه» لن تشرع في المماحكة في شأن المال. فهو تماماً ما يحتاج إليه الأميركيون يائسين – عميل يمكنه التحرّك بسهولة عبر مدن وقرى باكستان من دون إثارة شبهات، أي من المجاهدين أو جهاز الاستخبارات الباكستاني. إنه الجاسوس المثالي والأميركيون يدفعون بسخاء لقاء ذلك.

وسو هي الأخيرة في سلسلة من ضباط الـ «سي. آي. إيه» الذين كُلفوا العمل مع أفريدي منذ أن قارب الأميركيون في ٢٠٠٩ الطبيب ذا التاريخ المتقلّب. ترقى، وهو يومئذٍ في أواخر الأربعين، من أصوله المتواضعة ليصبح كبير أطباء إقليم خيبر في المناطق القبلية من باكستان، بالرغم مما لاحقه من اتهامات بقبوله الرشى من الممونين الطبيين وبيعه أدوية المستشفى في السوق السوداء[١].

قلّة هم الذين شكّكوا في انقطاعه لتحسين الظروف الصحية في واحدة من أفقر مناطق العالم، لكن أفريدي تمتع بقدرة على الإقناع واستمتع برواية نكات فاسقة لزميلاته من النساء، وتاق أكثر من اللازم إلى مطّ الحدود الخلقية الطبية من أجل كسب المزيد من المال. وبلغت الاتهامات في حقّه في النهاية مسامع منغال با غ، سائق الباص السابق الذي تحول إلى أمير حرب ومهرّب للمخدرات في إقليم خيبر، وهو قائد مجموعة غامضة تدعى «لشكر إسلام». حصل مقاتلو با غ على العناية الطبية المنتظمة من أفريدي. واستدعاه أمير الحرب إلى منزله وطالبه بدفع غرامة من مليون روبية، أي نحو عشرة آلاف دولار، على مخالفاته. ولما رفض أفريدي اختطفه با غ واحتجزه أسبوعاً حتى دفع.

كان أفريدي يشارك في ورشة عمل طبية في بيشاور في تشرين الثاني/نوفمبر

(١) Aryn Baker, "The Murky Past of the Pakistani Doctor Who Helped the CIA", *Time* (June 13, 2012).

٢٠٠٩ عندما، بحسب ما أخبره لاحقاً للمحققين الباكستانيين، قاربه رجل ادعى أنه مدير باكستان في المنظمة الإنسانية العالمية «أنقذوا الأولاد». اهتم الرجل، مايك ماك غراث، على الفور بعمل أفريدي ودعاه إلى إسلام آباد ليتمكنا من مواصلة الحديث في أثناء العشاء.

لم يتضح هل شك أفريدي أم لا في وجود دوافع خفية، لكنه عندما وصل إلى العاصمة الباكستانية في اليوم المحدّد، حضر مأدبة عشاء في منزل ماك غراث الكائن في قسم فخم من إسلام آباد. وقال إنه التقى هناك امرأة شقراء طويلة القامة في منتصف الثلاثينات وصفها لاحقاً بأنها ذات «مظهر بريطاني». أطلقت على نفسها اسم كايت وأصبحت محرّكته الأولى في الـ «سي. آي. إيه».

ونفت «أنقذوا الأطفال» قيام ماك غراث أو أي من موظفيها الآخرين بأي عمل للـ «سي. آي. إيه». كذلك ينفي المسؤولون الأميركيون أنهم استخدموا «أنقذوا الأطفال» للتجسس قائلين إنه لو استخدمت الـ «سي. آي. إيه» المؤسسات الإنسانية الدولية الكبرى لتجنيد العملاء، لوضعت عمال المساعدة في خطر التعرّض للانتقام منهم. ومع ذلك، ما إن نُشر تقرير التحقيق الباكستاني عن عمل أفريدي للـ «سي. آي. إيه» ولقائه ماك غراث حتى تحرّك المسؤولون في إسلام آباد لإقفال كل عمليات المؤسسة داخل البلاد[1].

إلا أن ما لم يجادل فيه المسؤولون الأميركيون هو أن الـ «سي. آي. إيه» شرعت منذ منتصف العقد الماضي في إرسال ضباط إلى باكستان منتحلين صفة عدد من المهن التي يمكن أن تسمح للجواسيس بالتحرك بحرية في البلاد. وفي خلال «فورة» دخول ضباط الـ «سي. آي. إيه» إلى باكستان بدءاً من ٢٠٠٥ و٢٠٠٦، وصل الجواسيس الأميركيون إلى البلاد في بحث يائس عن أدلة عن أسامة بن لادن ومطّوا القواعد المقبولة في العادة دولياً للعمل التجسسي.

طبّقت الـ «سي. آي. إيه»، على أثر ما كشفته لجنة تشيرتش في السبعينيات، سياسة تقضي بعدم تجنيد صحافيين ورجال دين ومتطوعين في فيلق السلام للتجسس

(١) Declan Walsh, "Pakistan May Be Expelling Aid Group's Foreign Staff", *The New York Times* (September 6, 2012).

للوكالة، واضعة بذلك حدّاً لروتين بقي متبعاً حتى ذلك الوقت. وقال مدير الـ «سي. آي. إيه» جون دويتش، في شهادة له في ١٩٩٦ أمام لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، إن ثمة حالات «من التهديد الأقصى للأمة» قد تحتاج الوكالة فيها إلى التخلي عن هذه السياسة. وبموجب هذه الظروف، قال دويتش: «أعتقد أنه من غير الحكمة منع الاستخدام المتعمّد لأي مصدر محتمل للمعلومات»[١]. ولم تمنع الـ «سي. آي. إيه» نفسها قط من تجنيد الصحافيين أو عمال المساعدات الأجانب، لكن المسؤولين الأميركيين أدركوا منذ فترة بعيدة مخاطر استخدام عمال المؤسسات الإنسانية جواسيس. وستنفذ الـ «سي. آي. إيه» مع ذلك كل أنواع النشاطات في السنوات التي أعقبت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر – من جعل المعتقلين يعانون شبه الغرق في السجون السرية، إلى قتل من يُشتبه في كونهم من المجاهدين بواسطة الطائرات التي تطير بلا طيار – مبرّرةً ذلك بأن العمليات ضرورية للحفاظ على أمن البلاد. وشكّل توسيع أصناف من يمكن تجنيده للتجسس تكتيكاً آخر للـ «سي. آي. إيه» وسط حرب مستمرّة.

وسيقوم الطبيب الباكستاني أفريدي، في سياق السنتين اللتين أعقبتا لقاءه الأول ضابطة الـ «سي. آي. إيه» الطويلة الشقراء، بعدد من الحملات الصحية العامة الخادعة لجمع الاستخبارات عن نشاطات المجاهدين في المناطق القبلية. واعتُبرت حملات التلقيح واجهةً جيدة للتجسس: يمكن جمع معلومات الحمض النووي من الحقن المستخدمة مع الأولاد وتحليلها بحثاً عن أدلة إلى مكان وجود عناصر القاعدة الذين تمتلك الـ «سي. آي. إيه» بالفعل معلومات عن حمضهم النووي. وأجرى أفريدي، في ذلك الوقت، نصف دزينة من حملات التلقيح في أنحاء إقليم خيبر ودفعت له الـ «سي. آي. إيه» ثمانية ملايين روبية[٢]. وتم، بحسب روايته، إمراره في كل بضعة أشهر إلى محرّك جديد في الـ «سي. آي. إيه»، من «كايت» إلى «طوني» إلى «سارة» وأخيراً إلى «سو» التي تولت حالته في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠. أعطي حاسوباً محمولاً وجهاز إرسال مأموناً للتواصل مع الـ «سي. آي. إيه» يُصدر إشارة تنبيه كلما حاول الأميركيون بلوغه[٣].

(١) تصريح جون دويتش متوافر على: http://intellit.muskingum.edu/cia_folder/ciarelations_folder/ciarcldcistmt.html.

(٢) إفادة أفريدي لمجموعة التحقيق الباكستانية.

(٣) المصدر نفسه.

بعد مرور شهر على حملة التلقيح في أبوت آباد، طلبت سو من الدكتور أفريدي تركيز نشاطاته على «بلال تاون»، وهو حي للطبقة المتوسطة العليا لا يبعد كثيراً عن مقر المدرسة العسكرية الباكستانية الأولى، وهي المرادف في البلاد لوست بوينت. وقد تم التسرّع بالفعل في تنفيذ برنامج «التهاب الكبد ب» وتجاهل البروتوكولات القائمة التي تفرض استراتيجية حريصة لحملات التلقيح من حي إلى حي. حتى أن أفريدي لم يبتع ما يكفي من الحقن لضمان حصول كل شخص من السكان المقصودين الذين تراوح أعمارهم بين ١٥ و٤٥ عاماً على الحقن المتعدّدة المطلوبة للتلقيح. كما أن بعض المسؤولين المحليين رفضوا التعاون معه بزعم أنه لا يحظى بالإذن للقيام بعمله هذا. وقالت شاهينة ممريز، المسؤولة في الصحة العامة في أبوت آباد، إنها ذهلت لعدوانية أفريدي عندما اقتحم مكتبها في آذار/مارس ٢٠١١ مرتدياً بزّة عمل سوداء وأخبرها بتفاصيل خطته لحملة التلقيح. ولم توافق على التعاون مع أفريدي إلا بعدما حثها رئيسها على ذلك[١].

وبالطبع فإن التفاصيل الدقيقة لمن سيتلقى التلقيح في أبوت آباد الكبرى خارجة على القصد بالنسبة إلى محرّكي أفريدي. وبحلول ربيع ٢٠١١ لم تعد مجموعة صغيرة من الضباط في مركز مكافحة الإرهاب في لانغلي مهتمة إلا بـ «بلال تاون» وبتحديد أكبر بالمجمّع الكبير المسوّر في شارع «باتان» الذي أمضت أقمار التجسس الأميركية أشهراً في مراقبته. ولم يخبر محرّكو أفريدي في الـ«سي. آي. إيه» الطبيب قط بمن يرتابون باختبائه في المنزل. فمسألة هل أسامة بن لادن وحاشيته يقيمون هناك لا تزال مدار الكثير من التكهنات، وأمل المسؤولون الأميركيون أن الولوج إلى داخل المنزل قد يسوّي الأمر. وأرادت الـ«سي. آي. إيه»، تحت غطاء حملة التلقيح، أن يتمكن أفريدي من إدخال أحد من فريقه إلى المجمّع والحصول على ما لا يزال الجنود والجواسيس الأميركيون يفتقرون إليه بعد نحو عقد من البحث المحموم: دليل قاطع على مكان اختباء بن لادن.

لكن لم يتمكن أفريدي أو أي من أفراد فريقه من توفير ذلك. فالأناس الوحيدون الذين رفضوا التلقيح ضد «التهاب الكبد ب»، في اليوم الذي لقّح الدكتور أفريدي

(١) Sami Yousafzai, "The Doctor's Grim Reward", *Newsweek* (June 11, 2012).

سكان شارع «باتان»، أقاموا في المجمّع الغامض، وهم الذين نادراً ما غامروا بالخروج إلى ما هو أبعد من المنزل وأحرقوا نفاياتهم بدلاً من إخراجها ليتم جمعها. وقيل لأفريدي إن شقيقين منعزلين من وزيرستان يقيمان مع عائلتيهما في المنزل، وإن الرجلين لا يهتمان بلقاء أي شخص من الجوار. وبعد المزيد من التنقيب تمكنت امرأة في الفريق الصحي لأفريدي من الحصول على رقم الهاتف الخلوي لواحد من «الشقيقين» المقيمين في المنزل. واتصلت بالرقم مستخدمة هاتف الدكتور أفريدي وتحدّثت إلى الرجل الذي قال إنه خارج المنزل وإن عليها معاودة الاتصال في المساء[1].

لم يتمكن فريق التلقيح قط من دخول المجمّع، وقرر أفريدي أن الإصرار على الأمر قد يثير الشبهات ويدفع سكان المجمّع إلى تبديل إجراءاتهم أو حتى إلى الفرار. وتوجه أفريدي، بعدما أنجز عمله في «بلال تاون»، وبحوزته أدوات التلقيح الفارغة إلى الموقع المحدّد في إسلام آباد، الذي تنتظره فيه سو وسيارتها التويوتا لاندكروزر. وأخبرها بكل ما يعرفه عن أناس المجمّع. وسلّمها أدوات التلقيح وسلّمته ٥,٣ ملايين روبية نقداً.

انطلقت أربع طائرات هليكوبتر أميركية من قاعدة مُرتَجلة في شرق أفغانستان وتوجهت شرقاً في سماء غاب عنها القمر، ناقلةً دزينات من الشبان المدججين بالسلاح إلى المعركة في بلاد لم تعلن الولايات المتّحدة عليها الحرب. استعدت مجموعة القوات الخاصة البحرية لقتال دام مع رجال من أشد الموالين الذين يدافعون عن أسامة بن لادن، أو حتى مع الجنود الباكِستانيين: فقد أدى عقد من العمليات الأميركية السرّية داخل أفغانستان إلى إنهاك العلاقة بين الحليفتين المزعومتين إلى حد أن المعركة النظاميّة بين الجنود الأميركيين والباكستانيين في قرية الطبقة المتوسطة أبوت آباد، تشكّل مخاطرة خطرت على بال جنود القوات الخاصة البحرية وهم يهبطون داخل مجمّع بن لادن المسوّر.

حدثت إشارات مشؤومة إلى الكارثة فيما بلغت الهليكوبتر وجهتها. علقت واحدة منها في دوامة من الرياح وهبطت اضطرارياً بعدما ارتطم ذيلها بعنف بسور المجمّع، في بلبلة تجد صداها في المهمّة الفاشلة في ١٩٨٠ لإنقاذ الرهائن الأميركيين في إيران.

(١) إفادة أفريدي لمجموعة التحقيق الباكستانية.

لكن ما إن اخترق جنود القوات الخاصة البحرية المنزل في شارع «باتان» مستخدمين متفجرات الـ «سي-٤» وصعدوا الدرج، حتى جاءت نهاية بن لادن سريعاً. شاهد الأميركيون زعيم القاعدة عند أعلى الدرج في الطبقة الثالثة وهو يسترق النظر من غرفته، وأطلق عليه واحد من الكوماندوس النار وأصابه في الجهة اليمنى من وجهه. سقط في غرفة نومه وتمدّد وهو ينتفض بقوة في بركة من الدم. التقط جنود القوات الخاصة البحرية صوراً لجثة بن لادن ووضعوها في كيس خاص وجروها نزولاً على الدرج إلى خارج الباب[1].

بعد أقل من أربعين دقيقة على وصول الهليكوبتر إلى أبوت آباد بلغت أوسع مطاردة وأكثرها إثارة للسخط نهايتها. دمّرت القوات الخاصة البحرية الهليكوبتر التي سقطت لمنع الباكستانيين من الوصول إلى أجهزة الملاحة السرّية داخلها، بحيث لم ينجُ من عملية التدمير المقصودة إلا ذيل الطائرة الذي انفصل عنها. وتكوموا في طائرات الـ «بلاك هوك» العاملة وفي طائرة هليكوبتر «شينوك» كانت في حالة انتظار احتياطاً. وطاروا غرباً عائدين إلى أفغانستان ناقلين معهم بن لادن ودزينات من الأقراص الثابتة والهواتف الخلوية و«فلاشات» الـ «يو. أس. بي» المنتشرة في أنحاء المجمع.

لم ترشح تفاصيل الغارة على بن لادن في باكستان إلا في وقت لاحق من ذلك اليوم. وحين انتشرت جلس أسد منير متسمّراً أمام التلفاز في غرفة جلوسه. اقتنع بأن في الموضوع ما هو أكثر. تيقّن الرئيس السابق لمحطة الاستخبارات الباكستانية في بيشاور، الرجل الذي تحدّث باحترام عن الأيام التي عمل فيها مع الـ «سي. آي. إيه» في الأشهر التي أعقبت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، أن الوكالة لن تنفذ أبداً عملية عسكرية وسط بلاده من دون مساعدة من الجنود أو الجواسيس الباكستانيين. وراح يفكر، «كيف يمكنهم ذلك؟ فليس لـ «سي. آي. إيه» أي جنود».

لكن الـ «سي. آي. إيه» كان لديها في تلك الليلة جنود.

في الأشهر التي سبقت إطلاق المهمّة، وفيما أقمار التجسس التي تحدّق من أعالي الفضاء تلتقط الصور للمنزل في شارع «باتان» والدكتور أفريدي وفريقه يحاولون

(١) Mark Bisonette (aka Mark Owen), *No Easy Day: The Firsthand Account of the Mission That Killed Osama Bin Laden* (New York: Dutton): 254.

الدخول إلى المجمّع، طرح مسؤولون في الجيش وفي الـ «سي. آي. إيه» على البيت الأبيض عدداً من خيارات الهجوم. وتم استبعاد الخيار الذي اعتُبر أقل مخاطرة ويقضي باستخدام طائرة الشبح القاذفة «بي-٢» لتمر من دون أن تلاحظها الرادارات الباكستانية وتسوّي المجمع بالأرض لأنه لا يوفّر لإدارة أوباما برهاناً قاطعاً على قتل بن لادن في العملية. وستطوّق السلطات الباكستانية المنطقة وتبحث في الركام، والتفاصيل الوحيدة التي ستعرفها الولايات المتّحدة هي تلك التي تختار الاستخبارات الباكستانية إطلاعها عليها.

واختار الرئيس أوباما بدلاً من ذلك الخيار الأكثر خطورةً ويقضي بإرسال القوات الخاصة البحرية إلى عمق أفغانستان لقتل بن لادن. وخشي المسؤولون، إلى جانب المخاطر الواضحة لمثل تلك العملية، من إرسال قوات برية أميركية إلى هذا العمق في أفغانستان. فالمهمّات القتالية الوحيدة التي نفّذها الجيش الأميركي حتى الآن على الأرض الباكستانية تمت في المناطق القبلية. وجرت المهمات على بعد أميال من الحدود الأفغانية بما يسمح بالهروب السريع إلى داخل أفغانستان في حال حدوث أمر خاطئ.

وهناك أيضاً المسألة التي اختلف عليها القادة الأميركيون سنوات وفحواها: بموجب أي سلطة يمكن الولايات المتّحدة أن ترسل جنوداً إلى بلد ليست أميركا معه في حرب؟ وهو السؤال الذي طرحه دونالد رامسفلد في الأيام التي أعقبت هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، عندما نظر بحسد إلى قدرة الـ «سي. آي. إيه» على المضي إلى الحرب في أي مكان في العالم. وعمل المحامون وصانعو السياسة، في السنوات التي تلت، على تحطيم الجدار الذي يفصل ما بين عمل الجنود والجواسيس. وتحوّلت المنافسات بين البنتاغون والـ «سي. آي. إيه» في خلال الجزء الأول من العقد في هذا المجال، إلى انفراج في العلاقة وترتيب جديد يتم بموجبه إضفاء شخصية بديلة على جنود العمليات الخاصة، ليتحولوا موقّتاً إلى عملاء في الـ «سي. آي. إيه».

هكذا وفيما الرئيس أوباما يتخذ القرارات النهائية في شأن عملية بن لادن، وفّر له عقد من التطور في الطريقة، التي تخوض فيها أميركا الحرب خيارات أكثر مما توافر للرؤساء الأميركيين السابقين. وستكون المهمة أميركية تنفّذها فرق من القوات الخاصة البحرية. لكن أضفيت شخصية بديلة على الفريق برمته من أجل المهمة التي تتم بموجب

المادة ٥٠، التي تخول الـ «سي. آي. إيه» شن أعمال خفية. وأوكل الرئيس أوباما مسؤولية العملية إلى مدير الـ «سي. آي. إيه» ليون بانيتا.

منذ لحظة انطلاق هليكوبتر الـ «بلاك هوك» من القاعدة في جلال آباد في أفغانستان، وفي خلال الدقائق المتوتّرة التي تحرك فيها جنود القوات الخاصة البحرية صعوداً على الدرج المظلم في المنزل الواقع في شارع «باتان»، وحتى اللحظات الأخيرة التي حلّقت فيها الهليكوبتر في الفضاء حاملة جثة بن لادن، أوصل بانيتا آخر المستجدات إلى مسؤولي إدارة أوباما المغتبطين، الذين حشروا أنفسهم في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض. فعضو الكونغرس الديمقراطي الليبرالي من كاليفورنيا، الرجل الذي عرف قبل وقت قصير من وصوله إلى لانغلي أن القسم الكبير من عمله سيتطلب منه إنزال عقوبة الإعدام بأعداء أميركا في العالم، امتلك السيطرة على آلة القتل. واحتفظ بانيتا بيده في جيبه يقلّب بين أصابعه حبات سبّحته الوردية فيما العملية تتكشّف[1].

ولم يختف التوتّر الخانق داخل غرفة الأوضاع في البيت الأبيض، إلا بعدما تكوم رجال العمليات الخاصة البحرية في طائرات الهليكوبتر وخرجوا من المجال الجوي الباكستاني من دون أن يرغموا على مواجهة سلاح الجو الباكستاني. لكن بالعودة إلى أبوت آباد فقد استمرت النيران تشتعل في حطام واحدة من الـ «بلاك هوك» وتمدّدت عدة جثث على أرض المنزل حيث قام جنود القوات الخاصة البحرية بعملهم العنيف.

وسيجب على أحد ما إبلاغ الباكستانيين بما قد جرى في الحال.

وقعت المهمة على كاهل الأميرال مايك مولن، رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة، الذي أدى ما يشبه دور المصلح فيما الولايات المتّحدة وباكستان تتمايلان من أزمة إلى أخرى. ومولن ابن وكيل إعلانات في هوليوود، أدرك منذ نعومة أظفاره أهمية بناء العلاقات الشخصية، وطور علاقة وثيقة مع الجنرال كياني – الرئيس السابق لجهاز الاستخبارات الباكستانية، الذي أصبح قائداً للجيش - من خلال حفلات عشاء لا تنتهي في منزل كياني في إسلام آباد. وسيواصل الرجلان الحديث حتى وقت متأخر من الليل عن أمن باكستان المحفوف بالمخاطر في منطقة تسيطر عليها الهند والصين وروسيا، وكياني يدخن السيجارة تلو الأخرى في خلال كل طبق يُقدّم على العشاء.

(١) مقابلة غير منشورة أجرتها النيويورك تايمز مع ليون بانيتا.

وأمضى مولن رحلاته الجوية إلى باكستان يقرأ «الحرية عند منتصف الليل» *Free-dom at Midnight*)، الكتاب الكلاسيكي الصادر في ١٩٧٥ عن استقلال الهند عن الإمبراطورية البريطانية وانفصال الهند عن باكستان. ولاحظ أحد المسافرين في حاشية مولن أن الرجلين يبدوان حتى من الخلف متشابهين – الطول نفسه تقريباً، ولون الشعر نفسه، والبزّة الكاكية المجعدة بعض الشيء نفسها، والمشية المتثاقلة المتشابهة – لا يفرّق بينهما إلا دخان السيجارة المتصاعد من الجنرال الباكستاني.

اتصل مولن بكياني من هاتف خارج غرفة الأوضاع وأبلغه بما قد جرى.

عرف كياني عند هذا الحد ما هو أساسي. وقد تلقى قبل ساعات اتصالاً من أحد مساعديه أطلعه على تقارير غامضة عن هليكوبتر تحطمت في أبوت آباد. واعتقد كياني لأول وهلة أن باكستان تتعرض لهجوم من الهند، وأمر على الفور قادة سلاح الجو أن يحركوا بسرعة طائرات «أف-١٦» لردّ الغزو[١]. لكن ما لبثت المخاوف في شأن هجوم هندي أن تراجعت. وفي الوقت الذي اتصل مولن بكياني كان الجنرال الباكستاني قد عرف أن الأميركيين جاؤوا إلى بلاده.

قال مولن في سياق الاتصال الهاتفي المتوتّر إن الجنود الأميركيين جاؤوا إلى المجمع في أبوت آباد وقتلوا بن لادن، وإن هليكوبتر أميركية قد سقطت في المكان[٢]. ثم أثار مولن موضوعاً يناقشه مسؤولو أوباما منذ تأكيد مقتل بن لادن: هل على الرئيس أن يعلن ذلك على الملأ في تلك الليلة، أم ينتظر إلى اليوم التالي؟ كان الفجر قد انبلج في إسلام آباد، وقال كياني لمولن إن على الرئيس أوباما أن يقوم بإعلانه بأسرع ما يمكن ولو ليشرح فقط أن هناك هليكوبتر عسكرية أميركية تحترق وسط باكستان. وانتهت المكالمة بعد بضع دقائق إضافية وأقفل الرجلان الخط.

أخذ كياني، الذي جعله موقعه كقائد للجيش الباكستاني الشخصية الأقوى في البلاد، يواجه الأزمة الأكثر حدّة في حياته المهنية الطويلة. وسيتعرض في غضون بضعة أيام للشجب الشديد من كبار جنرالات باكستان على السماح للولايات المتّحدة بانتهاك

(١) Peter Bergen, *Manhunt*، مصدر سابق، ص٢٣٥.

(٢) التفاصيل المتعلقة بالمحادثة بين مولن وكياني مصدرها مسؤولان أميركيان على معرفة مباشرة بما رشح في خلال الاتصال الهاتفي.

السيادة الباكستانية، لأن بن لادن قتل في الحال على بعد أقل من ميل واحد عن كلية باكستان العسكرية الأولى، لكنه استخدم في محادثته الهاتفية مع مولن نبرة تصالحية. وبدا لكياني في تلك الليلة أن الهجوم بعنف على مولن قد يغذّي الشكوك الأميركية بأن بلاده تؤوي الإرهابيّين ويؤدي إلى قطيعة دائمة بين الولايات المتّحدة وباكستان. واجه كياني، الرجل الفخور الذي بلغ ذروة حياته العسكرية، خياراً بغيضاً. فإما أن يبدو متواطئاً في إخفاء بن لادن وإما عديم الأهلية لعجزه عن منع الرجل الأكثر عرضةً للمطاردة من الاختباء في قلب بلاده. واختار الأخير.

خمد في الحقيقة إلى حد كبير، في وقت مصرع بن لادن، ما تبقّى من جمر العلاقات المنتجة بين الولايات المتّحدة وباكستان. فقد سممت واقعة رايموند دايفيس العلاقة بين ليون بانيتا ورئيس الاستخبارات الباكستانية الجنرال باشا، واضمحلّ كذلك العدد الصغير أصلاً من مسؤولي أوباما، الذين يدفعون في اتجاه علاقات فضلى بين واشنطن وإسلام آباد. وأخذ السفير كاميرون مانتر يفيد واشنطن في شكل يومي عن الوقع السلبي لحملة الطائرات المسلحة التي تطير بلا طيار، واتفق الأميرال مولن في شكل عام مع مانتر بأن الـ «سي. آي. إيه» تدير حرباً في فراغ غافلةً عن نتائج هذه الغارات على علاقات أميركا بالحكومة الباكستانية.

حازت الـ «سي. آي. إيه» موافقة البيت الأبيض على القيام بغارات صاروخية في باكستان حتى في غياب هدّافي الـ «سي. آي. إيه» تماماً من هويّة من سيقومون بقتله بموجب قواعد ما يُسمّى بالضربات، التي تستهدف أفراداً لا يمكن تحديد هويتهم ارتكازاً على أنماط من النشاطات التي تُعتبر مشتبهاً فيها. وها إنه يتم مرّة أخرى خفض معايير العمل القاتل.

فلو أنه تمت، على سبيل المثال، مشاهدة مجموعة من «الذكور الشبان في عمر حمل السلاح» وهي تتحرك إلى ومن معسكر يُشتبه في تدريب المسلحين ويُعتقد أنهم يحملون السلاح فسيُعتبرون أهدافاً مشروعة. ويعترف المسؤولون الأميركيون بأنه يصعب إلى حد ما الحكم على عمر الشخص من آلاف الأقدام في الجو، كما أنه يمكن «الذكر الذي بلغ السن العسكرية» أن يكون في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر في

مناطق باكستان القبلية[1]. وسمح استخدام مثل هذه التعريفات المطاطة لتحديد من هو «المقاتل»، ما يمثل بالتالي هدفاً مشروعاً، لمسؤولي إدارة أوباما بالزعم أن غارات الطائرات التي تطير بلا طيار في باكستان لم تقتل أي مدني. وشكّل ذلك نوعاً من الخداع المنطقي: ففي منطقة النشاط المسلح المعروف يُعتبر جميع الذكور الذين بلغوا السن العسكرية من المقاتلين الأعداء. وبالتالي فإن كل من يُقتل هناك بغارة طائرة تطير بلا طيار يُصنَّف في خانة المقاتلين ما لم تُثبت استخبارات واضحة براءته بعد الوفاة.

وكُشف عن مخاطر هذه المقاربة في ١٧ آذار/مارس ٢٠١١ بعد يومين وحسب على إطلاق رايموند دايفيس من السجن بموجب ترتيب «الدية» وسحبه سريعاً إلى خارج البلاد. فقد هاجمت طائرات الـ «سي. آي. إيه» التي تطير بلا طيار اجتماعاً للمجلس القبلي في قرية «داتا خل» في شمال وزيرستان وقتلت عشرات الرجال. واعتقد السفير مانتر وبعض من في البنتاغون أن توقيت الغارة كارثي، وشكّ بعض المسؤولين الأميركيين بأن الـ «سي. آي. إيه» حاولت من خلال الغارات الضخمة التنفيس عن غضبها في شأن واقعة دايفيس. واعتقد مانتر أن الجنرال باشا، رئيس الاستخبارات الباكستانية، خاطر كثيراً في المساعدة على إنهاء قضية دايفيس وأن الغارة على «داتا خل» قد تُعتبر طعنة في الظهر. بيد أن الأهم من ذلك هو اعتقاد الكثيرين من المسؤولين الأميركيين أن الغارة فاشلة وقد أدت إلى قتل عشرات من الأشخاص الذين لم يُفترض بهم أن يُقتلوا.

وهبّ مسؤولون أميركيون آخرون للدفاع عن الـ «سي. آي. إيه» قائلين إن الاجتماعات القبلية ليست في الواقع إلا اجتماعاً لكبار المقاتلين، وهي تشكّل بالتالي أهدافاً مشروعة. لكن غارة الطائرات التي تطير بلا طيار أدت إلى ردّ غاضب في باكستان. وأصدر الجنرال كياني بياناً عاماً نادراً اعتبر فيه أن العملية نُفِّذت «باستخفاف تام بالحياة الإنسانية»، وأجبرت التظاهرات في شوارع لاهور وكراتشي وبيشاور القنصليات الأميركية في هذه المدن على الإقفال الموقت.

لم يعارض مانتر برنامج الطائرات التي تطير بلا طيار، لكنه اعتقد أن الـ «سي. آي. إيه» تتهوّر وأن موقعه كسفير بات ضعيفاً. أما علاقته برئيس محطة الـ «سي. آي.

(١) شرح أربعة مسؤولين أميركيين القواعد التي تتحكم في استهداف أفراد لا يمكن تحديد هويتهم.

إيه» في إسلام آباد، المتأزمة أصلاً بسبب خلافاتهما حول التعامل مع قضية رايموند دايفيس، فتدهورت أكثر عندما طلب مانتر من الـ «سي. آي. إيه» أن تحيطه علماً قبل كل غارة صاروخية وتمنحه فرصة إلغاء العملية[1]. وحاول مانتر، في إحدى حفلات الصياح بينهما، أن يتيقن أن رئيس المحطة يعرف من يتولى المسؤولية ليتم تذكيره وحسب بمن يمسك بالسلطة فعلاً في باكستان.

صاح مانتر، «أنت لست السفير!».

وأجابه رئيس المحطة، «أنت محق، وأنا لا أريد أن أكون السفير».

امتدت معركة النفوذ إلى واشنطن وشرع كبار مستشاري الرئيس أوباما بعد شهر على قتل بن لادن يتحاربون علناً في اجتماع مجلس الأمن القومي حول من يتولى المسؤولية فعلاً في باكستان. وشرع مانتر الذي شارك عبر رابط مأمون بالفيديو باجتماع حزيران/ يونيو ٢٠١١ في المحاجّة بأنه يجب أن يمتلك سلطة النقض في شأن غارات محددة بالطائرات التي تطير بلا طيار. واستخدم تعبير كرة القدم قائلاً بأنه يجب أن يمتلك «بطاقة حمراء» لإحباط الغارات المقترحة.

قاطع ليون بانيتا مانتر وسط جملته ليبلغه بأن الـ «سي. آي. إيه» تمتلك سلطة فعل ما تشاء في باكستان. وهي لا تحتاج إلى الحصول على موافقة السفير على أي شيء.

وقال بانيتا لمانتر، بحسب عدة أشخاص شاركوا في الاجتماع: «أنا لا أعمل لك».

لكن وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون قامت للدفاع عن مانتر. واستدارت صوب بانيتا وأبلغته بأنه مخطئ في افتراضه أنه يمكنه دوس السفير وشن الغارات من دون موافقته.

«كلا، يا هيلاري»، قال بانيتا، «فأنت هي المخطئة تماماً»[2].

عمّ الصمت، وحاول مستشار الأمن القومي توم دونيلون استعادة السيطرة على الاجتماع بإسكاته المساعدين المتجادلين. ورعى دونيلون في الأسابيع التي تلت ذلك

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع اثنين من المسؤولين الحكوميين الأميركيين.

(٢) تأتي تفاصيل النزاع في اجتماع مجلس الأمن القومي من اثنين من المشاركين في الاجتماع.

نوعاً من التسوية: سيُسمح لمانتر بالاعتراض على غارات محددة بالطائرات التي تطير بلا طيار، لكنه يمكن الـ «سي. آي. إيه» الاستمرار في طرح قضيتها على البيت الأبيض للحصول على الموافقة على الغارات بالرغم حتى من اعتراضات السفير. وحاز السفير في أفضل الحالات «البطاقة الصفراء». وها إن «سي. آي. إيه» أوباما تكسب معركة أخرى.

وجد مانتر نفسه، في الأشهر التي تلت، يزداد عزلة. حتى أن الأميرال مولن، وهو المدافع السابق الأبرز في الإدارة عن الاحتفاظ أقله بعلاقات تعمل بالحد الأدنى مع إسلام آباد، أخذ يمتلك وجهة نظر أكثر قتامةً حيال باكستان بعد الإغارة على بن لادن. فهو لم يشك بأن شخصاً رفيع المقام في الجيش أو في الاستخبارات الباكستانية قد يكون خبّأ أسامة بن لادن؛ بل إنه أصبح أيضاً على اطلاع على معلومة استخبارية مذهلة. فقد اعترض الجواسيس الأميركيون مكالمات هاتفية يبدو أنها تثبت أن اغتيال سيّد سليم شاه زاد، الصحافي الباكستاني الذي يحقق في الروابط بين الاستخبارات والجماعات الجهادية الباكستانية، تم بأوامر من الجواسيس الباكستانيين. فقد ضُرب شاه زاد حتى الموت وألقي بجثته في قناة للري على بعد ثمانين ميلاً جنوب إسلام آباد. ووفقاً للتقويمات السرّية لوكالات التجسس الأميركية، فإن الأمر بالقتل صدر عن أعلى مراتب وكالة الاستخبارات الباكستانية، عن الجنرال أحمد شوجا باشا نفسه.

وبعد وقت ليس بالطويل، حذّرت معلومة استخبارية منفصلة من أن شاحنتي أسمدة كيماوية تعبران طرق الإمداد التي يستخدمها حلف شمال الأطلسي من باكستان إلى أفغانستان. والمعلومة غامضة وقد حذّرت فقط من إمكان استخدام الشاحنتين كقنبلتين يُعبر بهما إلى أفغانستان لشن هجوم على إحدى القواعد الأميركية[1]. واتصل مسؤولون عسكريون أميركيون في أفغانستان بالجنرال كياني في باكستان لتنبيهه، فوعد بوقف الشاحنتين قبل بلوغهما الحدود الأفغانية.

لكن الباكستانيين لم يتحرّكوا. وقبعت الشاحنتان شهرين اثنين في شمال وزيرستان فيما عمل عناصر من شبكة حقّاني على تحويلهما إلى قنبلتين انتحاريتين بقوة تكفي لقتل مئات الأشخاص. بقيت المعلومات الاستخبارية الأميركية عن موقع الشاحنتين

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع اثنين من المسؤولين العسكريين الأميركيين.

ضبابية لكن الأميرال مولن تيقّن، بالنظر إلى تاريخ علاقات الاستخبارات الباكستانية مع الحقّانيين، أنه في وسع الجواسيس الباكستانيين وضع حد لأي هجوم. وأخذت الشاحنتان تتحركان، بحلول التاسع من أيلول/سبتمبر ٢٠١١، في اتجاه أفغانستان، وحث كبير القادة الأميركيين في المنطقة، الجنرال جون ألن، في خلال رحلة له إلى إسلام آباد الجنرال كياني على وقف الشاحنتين. وأبلغه الأخير بأنه «سيجري مكالمة هاتفية» للحؤول دون هجوم وشيك، وهو عرض أثار الدهشة لأنه بدا وكأنه يشير إلى علاقة وثيقة بنوع خاص بين الحقانيين وجهاز الأمن الباكستاني[١].

ثم، وعشية الذكرى العاشرة للهجمات على مركز التجارة العالمية والبنتاغون، توقفت إحدى الشاحنتين على مقربة من السور الخارجي للقاعدة العسكرية الأميركية في إقليم «ورداك» في شرق أفغانستان. فجّر السائق المتفجرات داخل الآلية ومزّق الانفجار سور القاعدة. جُرح أكثر من ١٧ من المارينز الأميركيين وقتلت شظية متطايرة فتاة أفغانية في الثامنة من العمر وهي واقفة على بعد نصف ميل من المكان[٢].

أثار الهجوم سخط مولن وأقنعه بأنه ليست للجنرال كياني مصلحة صادقة في كبح روابطه العسكرية بالمجموعات المسلحة مثل الحقانيين. وسبق لبعض كبار المسؤولين الأميركيين أن اقتنعوا بذلك قبله بأعوام، لكن مولن اعتقد أن كياني نوع مختلف من الجنرالات الباكستانيين، رجل ينظر إلى روابط الاستخبارات الباكستانية مع الطالبان وشبكة حقّاني و«لشكر طيبة» على أنها ليست أكثر من ميثاق انتحار. لكن تفجير «ورداك» أثبت لمولن أن باكستان تلعب لعبة غير شريفة وقاتلة.

بعد أيام على التفجير – وفور هجوم جريء آخر شنّته شبكة حقّاني، هذه المرة على مجمّع السفارة الأميركية في كابول – توجه الجنرال مولن إلى تلة الكابيتول ليدلي بشهادته الأخيرة أمام الكونغرس بوصفه رئيساً لهيئة الأركان المشتركة. جاء ليدلي برسالة صريحة واحدة، فشل مسؤولو وزارة الخارجية في تلطيفها قبل ساعات من مثوله أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ.

---

(١) Declan Walsh, "US Bomb Warning to Pakistan Ignored", *The Guardian* (September 22, 2011).

(٢) Ray Rivera and Sangar Rahimi, "Deadly Truck Bomb Hits NATO Outpost in Afghanistan", *The New York Times* (September 11, 2011).

قال مولن للجنة الكونغرس إن الجواسيس الباكستانيين يديرون التمرّد داخل أفغانستان وأيديهم ملوثة بدماء القتلى من الجنود الأميركيين والمدنيين الأفغان. وأضاف «إن شبكة حقّاني تتصرّف وكأنها ذراع حقيقية لوكالة الاستخبارات الباكستانية».

ولم يدلِ أي من كبار المسؤولين الأميركيين حتى تلك اللحظة، حتى بعد عقد مضطرب من العلاقات الأميركية مع باكستان، بمثل هذا الاتهام المباشر في العلن. بل إن التصريح تمتّع بقوة أكبر كونه يصدر عن الأميرال مايكل مولن الذي اعتبره المسؤولون الباكستانيون واحداً من الحلفاء القليلين، الذين تبقوا لهم في واشنطن. لَسَعَتْ تعليقات مولن جنرالات باكستان، وخصوصاً منهم صديقه القديم الجنرال أشفق برويز كياني.

قضت العلاقة نحبها، ولم يعاود الرجلان الحديث معاً بعد شهادة مولن، إذ شعر كل منهما بأنه تعرّض للخيانة من قبل الآخر.

بعد أيام على مصرع أسامة بن لادن تلقى الدكتور شاكيل أفريدي اتصالاً طارئاً من سو، محرّكته في الـ «سي. آي. إيه»[1]. وكانت تداعيات العملية الأميركية لا تزال تعكّر صفو باكستان ولم يتلق أفريدي أي اتصال من أي أحد في الـ «سي. آي. إيه» منذ اقتحم جنود القوات الخاصة البحرية المنزل في أبوت آباد. وفهم أفريدي أخيراً، مع ما أخذ يرشح من تفاصيل عن العملية، سبب ذهابه إلى أبوت آباد ولماذا طلبت منه الـ «سي. آي. إيه» تركيز عمله على «بلال تاون» وسرّ ذلك الاهتمام الكبير بالمنزل الواقع في شارع «باتان». طلبت سو من أفريدي المجيء فوراً إلى إسلام آباد – ولقاءها في واحد من مواقع اجتماعهما المعهودة.

وأبلغته عند لقائهما أن بقاءه في باكستان لم يعد آمناً. والاستخبارات الباكستانية أخذت تطارد كل من قد ساعد الأميركيين على العثور على بن لادن، وأن اكتشاف عمله لـ «سي. آي. إيه» لم يعد إلا مسألة وقت. طلبت منه ركوب أحد الباصات والتوجه غرباً وعبور الحدود إلى أفغانستان. وسلّمته رقم هاتف طلبت منه الاتصال به فور بلوغ محطة الباصات في كابول. ومن هناك سيتلقى المزيد من التعليمات.

(١) إفادة أفريدي لمجموعة التحقيق الباكستاني. تأكدت رواية أفريدي بصورة مستقلة من مسؤول أميركي على معرفة مباشرة باتصالات أفريدي بالـ «سي. آي. إيه» بعد الغارة على أبوت آباد.

لكنه لم يذهب البتة. فقد افترض أفريدي أنه مادامت الـ «سي. آي. إيه» لم تبلغه قط أنه مشارك في مطاردة بن لادن، فسيبقى آمناً في بلاده ولن يعلق في الشباك التي نصبتها أجهزة الاستخبارات الباكستانية بعد الغارة على أبوت آباد. وارتكب بذلك خطأً جسيماً، إذ أوقفته الاستخبارات الباكستانية مع نهاية أيار/مايو وسجنته.

بعد أشهر من اللغط بين وكالة الاستخبارات المركزية ومديرية الاستخبارات الباكستانية، وبعد ازدواجية التعامل من الجانبين، وبعد المهاترات التي أعقبت قتل متعاقد مع الـ «سي. آي. إيه» شخصين في لاهور وأعيد إسدال الستارة على الجبهة الجديدة للحرب الأميركية السرية في باكستان، أظهرت قضية الدكتور شاكيل أفريدي مدى تدهور الأمور بالنسبة إلى الولايات المتّحدة وباكستان. فقد أوقفت الاستخبارات الباكستانية مصدراً أساسياً لـ «سي. آي. إيه»، وهو الرجل الذي أدى دوراً في الجهد لتقفّي أثر أكثر إرهابي مطلوب في العالم، وألقت به في زنزانة سجن في بيشاور.

لا ينظر أي بلد بالطبع بعين العطف إلى واحد من مواطنيه يُمسك به وهو يعمل لجهاز استخبارات خارجي. لكن، ويا للغرابة، لم يُتّهم أفريدي بالخيانة أو بالتجسس، كما أنه لم يُتهم بموجب القانون الباكستاني. بل وجد نفسه، بدلاً من ذلك، في إحدى محاكم بيشاور بسبب انتهاكه أنظمة غامضة تتعلق بالجرائم الحدودية معتمدة في المناطق القبلية وتعود إلى الحقبة الإنكليزية. ووجدت المحكمة أن أفريدي شارك «في مؤامرة لخوض حرب ضد الدولة»، بسبب روابطه مع «لشكر إسلام» المجموعة المجاهدة، التي يقودها سائق باص هو أيضاً تاجر مخدرات قام بخطفه في ٢٠٠٨ [١]. وحكم على الدكتور أفريدي بالسجن ثلاثاً وثلاثين سنة لأنه قدّم العلاج الطبي لمقاتلي باغ، وبسبب ما وصفته المحكمة بأنه «حبه لمانغال باغ»[٢].

وفور النطق بالحكم، أصدرت «لشكر إسلام» بياناً عاماً نفت فيه أي ارتباط لها «بمثل هذا الرجل الوقح».

---

(١) وثائق من المحكمة موجودة في مذكرة من مساعد الحاكم السياسي لإقليم خيبر إلى مدير الشرطة، الفريق المشترك للتحقيق، القسم الخاص، بيشاور. وقد حصل المؤلف على الوثائق.

(٢) المصدر نفسه.

وقال البيان إن أفريدي ليس صديقاً للجماعة بسبب تاريخه من الإفراط في تلقّي البدل من مرضاه[1].

(١) Agence France Press, "Lashkar-I-Islami Denies Links with Shakil Afridi", May 31, 2012.

١٦: نار من السماء

«كل شيء يسير إلى الوراء».

- و. جورج جاميسون

في صبيحة أحد نهارات أواخر صيف ٢٠١١ قام الجنرال ديفيد بترايوس، قبل أيام على تسلّمه مديرية وكالة الاستخبارات المركزية، بزيارة مايكل هايدن، مدير الـ «سي. آي. إيه» الثالث والأخير في عهد إدارة بوش. فقد ترقّى الرجلان في مراتب الجيش في الحقبة نفسها، لكنهما اختارا طريقين منفصلين ولم يكونا متقاربين في شكل خاص. فهايدن تخصص في الاستخبارات العسكرية وأدار وكالة الأمن القومي الفائقة السرّية في السنوات التي سبقت توليه إدارة لانغلي. وأمضى بترايوس حياته المهنية في الوحدات المقاتلة قائداً الحروب في العراق وأفغانستان ومترئساً القيادة المركزية الأميركية. وبرز واحد من أكثر الجنرالات الحائزين الإشادة في التاريخ الأميركي.

تشارك الرجلان في فطور ودّي في منزل هايدن الذي قدّم النصح لبترايوس حول كيفية إدارة الديناميات القبلية في لانغلي. وما عرفه هايدن هو أنه يمكن ضباط الحالة أن يكونوا متفانين ولكن شائكين، ولا يؤدون التحية كما يجب ولا يطيقون أحياناً تحمّل التراتبية. وتحوّل النقاش وسط الفطور إلى الجدية، وقدّم هايدن تحذيراً لبترايوس.

قال إن الـ «سي. آي. إيه» قد تغيرت، وربما في شكل دائم، وهناك خطر فعلي أن تتحول وكالة التجسس إلى ما هو أكثر من نسخة صغيرة وأكثر سرّية عن البنتاغون.

وقال هايدن: «لم يسبق قط أن بدت الـ «سي. آي. إيه» على هذا القدر من التشبّه بالـ «أو. أس. أس»، في إشارة منه إلى زمرة وليام دونوفان من رجال المؤامرات السرّية.

وقال هايدن إن عمليات المطاردة والقتل أخذت، بعد عقد من الحرب السرية، تستهلك الـ «سي. آي. إيه»، وإذا استمر ذلك فسيأتي يوم قد لا تتمكن فيه الوكالة من القيام بما افترض أن يشكّل مهمتها الأساسية: التجسس.

وتابع هايدن إن «الـ«سي. آي. إيه» ليست الـ«أو. أس. أس» فهي جهاز الاستخبارات العالمي للأمة. وعليك أن تنظّم روزنامتك وتجد الوقت للقيام بأمر آخر إلى جانب مكافحة الإرهاب»[1].

وأدى هايدن بالطبع دوره وزيادة في تسريع هذا التحوّل. فوكالة التجسس التي انتُقدت بقسوة في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ بأنها متردّدة تنفر من المخاطرة، مضت في فورة من القتل تحت العين الناظرة لأربعة مدراء تعاقبوا عليها. وقتلت الـ «سي. آي. إيه» في خلال صيف باكستان الطويل والحار الذي أعقب مصرع أسامة بن لادن سلسلةً من عناصر القاعدة بمن فيهم عطية عبد الرحمن، الذي شكّل رابط أسامة بن لادن بالعالم الخارجي، في خلال الفترة التي قضاها في أبوت آباد. وربط بعضهم في واشنطن بين الرئيس أوباما ومايكل كارليوني في الدقائق الأخيرة من فيلم العرّاب وهو يأمر مساعديه ببرودة بالقضاء على أعدائه في فورة محسوبة من العنف.

قبل ذلك بخمسة وثلاثين عاماً، وبعدما انتشرت على مرأى من الجمهور التفاصيل السامة عن جهود الـ «سي. آي. إيه» لقتل زعماء أجانب، أمر الرئيس جيرالد فورد بحظر الاغتيالات أملاً منه في أن يمنع ذلك الرؤساء اللاحقين من أن يقعوا بأسهل من اللازم فريسة إغراء العمليات السوداء. لكن في العقد الذي أعقب هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، كتبت فيالق من محامي الحكومة الأميركية آراء تفنّد فيها كيف أنه ليس في عمليات القتل التي نفّذتها الـ «سي. آي. إيه» والقيادة المشتركة للعمليات الخاصة في أمكنة بعيدة عن مناطق الحرب المعلنة انتهاك للحظر الذي فرضه الرئيس فورد على الاغتيالات. وكما أعاد محامو الرئيس بوش تعريف التعذيب للسماح للـ «سي. آي. إيه» والجيش باستخدام الوسائل المتطرفة في التحقيق، كذلك فعل محامو الرئيس أوباما بإعطائهم وكالات التجسس الأميركية مجالاً لتنفيذ عمليات قتل واسعة النطاق.

وهارولد كوه هو أحد هؤلاء المحامين، وقد جاء إلى واشنطن بعدما تولى منصب

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول أميركي كبير سابق.

عميد كلية الحقوق في جامعة يال. وكان من المنتقدين اليساريين الأشداء لحرب إدارة بوش على الإرهاب، وندّد بشدّة بوسائل التحقيق التي اعتمدتها الـ «سي. آي. إيه» - بما فيها محاكاة الغرق - بوصفها تعذيباً غير مشروع. لكنه وجد نفسه، فور التحاقه بالحكومة بوصفه كبير محامي وزارة الخارجية، يمضي الساعات منكباً على مجلدات من الاستخبارات السرية في محاولة للحكم هل يجب على إنسان ما أن يعيش أو يموت. وقدّم في خطبه دفاعاً شديداً عن عمليات القتل التي تقوم بها الإدارة، قائلاً إنه لا يجب على الحكومة الأميركية في زمن الحرب أن تمنح المشتبه فيهم الإجراءات القانونية العادية قبل وضعهم على لائحة القتل.

إلا أنه تحدث في أوقات التأمل العامة عن الأعباء النفسية، التي يفرضها قضاء هذا القدر من الوقت وهو يقرأ سير حياة شبان تناقش الحكومة الأميركية مسألة قتلهم أو لا. وقال في إحدى خطبه: «أمضيت، وأنا عميد لكلية الحقوق في يال الكثير والكثير من الساعات أنظر في سير حياة شبان في العشرين من العمر، طلاب في العشرين، وأنا أحاول أن أتصوّر من الذي سيتم قبوله. وها أنا أمضي الآن عدداً مشابهاً من الساعات في دراسة سير حياة إرهابيين، في العمر نفسه تقريباً. أقرأ كيف تم تجنيدهم، وأول مهمة لهم، وثاني مهمة. وأعرف أحياناً خلفياتهم بالدرجة الوثيقة نفسها التي أعرف فيها خلفيات طلابي»[1].

أمر الرئيس أوباما، وسط الاندفاعة في هجمات الطائرات التي تطير بلا طيار، بإجراء تعديلات على فريقه للأمن القومي. وأتت النتيجة بنوع من التزويق في نهاية عقد صعُبَ فيه إلى حد كبير التمييز بين عمل الجنود وعمل الجواسيس. وتولّى مدير الـ «سي. آي. إيه» ليون بانيتا البنتاغون بعدما حوّل وكالة التجسس إلى ما يشبه الجيش. أما الجنرال بترايوس ذو الأربع نجوم الذي وقع في ٢٠٠٩ أوامر سرّية تقضي بتوسيع عمليات التجسس التي يقوم بها الجيش في أنحاء الشرق الأوسط، فسيدير الـ «سي. آي. إيه».

أمضى بترايوس أربعة عشر شهراً في لانغلي، قبل أن يستقيل في شكل مخزٍ بسبب

---

(١) خطاب هارولد كوه أمام لجنة نقابة المحامين الأميركيين حول القانون والأمن القومي، في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١.

علاقته خارج إطار الزوجية بكاتبة سيرته، وسرّع في تلك الفترة في المسارات التي حذّره هايدن منها. ألحّ على البيت الأبيض طلباً للأموال اللازمة لتوسيع أسطول الـ «سي. آي. إيه» من الطائرات التي تطير بلا طيار، وأبلغ أعضاء الكونغرس أن الـ «سي. آي. إيه» تنفذ في عهده عمليات خفية أكثر من أي وقت مضى في تاريخها. بل إن بترايوس أمر، في غضون أسابيع على وصوله إلى لانغلي، بعملية لم يقم بها عند ذاك الحد أي مدير سابق للـ «سي. آي. إيه»، وهي قتل مواطنين أميركيين.

في الوقت الذي تولّى بترايوس الـ «سي. آي. إيه»، ارتقى داعية ذو وجه يشبه البوم ويضع نظارتين ويطلق لحيته الكثّة السوداء وينشر رسالة حانقة ليحتل رأس لائحة القتل الأميركية، وهي اللائحة التي يتم تنسيقها في قبو مكتب مستشار البيت الأبيض لمكافحة الإرهاب جون برينان. وقد شرع مسؤولو مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض، بعد قتل بن لادن وتوصّل غارات الطائرات التي تطير بلا طيار إلى خفض عدد صفوف القاعدة في باكستان، في تكريس المزيد من الانتباه إلى التهديد الآتي من اليمن ومن القاعدة في شبه الجزيرة العربية. وقضى ذلك بمطاردة أنور العولقي وقتله.

اتخذ العولقي مساراً غريباً تم فيه تحديده عدواً للولايات المتحدة. فقد ولد في ١٩٧١ في نيو مكسيكو وأمضى سنوات حياته الأولى في الولايات المتّحدة في الوقت الذي درس والده ناصر العولقي، الشخصية اليمنية البارزة الذي سيصبح وزيراً للزراعة في حكومة الرئيس صالح، الاقتصاد الزراعي في جامعة نيو مكسيكو الرسمية. وعاد ناصر، بعد ذلك بسبع سنين، بعائلته إلى اليمن حيث أقام أنور حتى عودته إلى الجامعة في الولايات المتّحدة في مطلع التسعينيات.

فاز أنور في جامعة كولورادو الرسمية برئاسة اتحاد الطلبة المسلمين في الكلية، لكنه لم يرتح للمسلك الإسلامي المتشدد في محافظته – الذي يحظر الجنس والكحول – الذي مارسه بعض من رفاقه الطلبة. وبقي بعد تخرجه في كولورادو وشرع في الوعظ في الجامع في فورت كولينز الأمر الذي ضايق والده. فقد أراد ناصر لولده ممارسة مهنة أكثر كسباً، لكن أنور انتقل في غضون سنوات إلى سان دييغو ليتولى منصبه إماماً في جامع يقع عند تخوم المدينة.

أخذت وجهات نظره تصبح تدريجاً أكثر محافظة، وبشّر لحياة من الطهر. لكنه

انحرف عن تعاليمه في حياته الخاصة؛ وقد اعتقلته الشرطة عدة مرات وهو يتلمّس الخدمة الجنسية من المومسات[1]. لكن الأهم هو أن الـ «أف. بي. آي» شرعت في ١٩٩٩ تحقق في ارتباطات العولقي بمن يُشتبه بأنهم من المناضلين في منطقة سان دييغو، وهي شبهات أثار بعضها عمله لإحدى الجمعيات الخيرية الإسلامية الصغيرة. بل إنه سيتصل باثنين من خاطفي الطائرات في ١١ أيلول/سبتمبر، وهما خالد المحضار ونواف الحازمي وكلاهما صلّيا في جامعه وشاركا في اجتماعات معه[2].

لكن تحقيقات الـ «أف. بي. آي» لم تكتشف أي نشاط جرمي، وفي الوقت الذي وقعت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر كان العولقي قد انتقل إلى شمال فرجينيا حيث وعظ في جامع كبير في ضواحي العاصمة واشنطن. وضمّن عظاته إشارات إلى الثقافة الشعبية والتاريخ الأميركيين، وسرعان ما تذوّق طعم النجومية الإعلامية عندما بدأ يتلقى اتصالات من المراسلين الصحافيين لمساعدتهم على شرح أسس الإسلام لقراء الصحف الأميركيين. بل اعتُبر أنه نوع من الصوت المعتدل - حيث شارك في محادثة عبر الإنترنت مع الواشنطن بوست في شأن رمضان وحضر صلاة فطور في البنتاغون. وقال في إحدى عظاته: «جئنا إلى هنا لنبني لا لنهدم»، واعتبر نفسه وغيره من الأئمة في أميركا «جسراً بين الأميركيين وبين مليار مسلم في العالم»[3].

لكن سرعان ما ستصبح رسالته أكثر ظلامية. فبعد الإجراءات الصارمة التي اتخذتها الشرطة في ٢٠٠٢ في حق المؤسسات الخيرية الإسلامية وغيرها من المؤسسات التي يملكها مسلمون، ندّد العولقي علناً بتحول حرب إدارة بوش على الإرهاب إلى حرب ضد المسلمين. وانتقل بعد فترة قصيرة من ذلك إلى لندن حيث فتن المسلمين الشبان الذين حضروا عظاته النارية وأولئك الذين استمعوا إلى محاضراته المسجلة على أسطوانات مدمجة باعها في مجموعات معلّبة. لكنه واجه، حتى مع صعود شهرته، صعوبةً في إعالة

(١) Scott Shane and Souad Mekhennet, "From Condemning Terror to Preaching Jihad", *The New York Times* (May 8, 2010).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

نفسه في المملكة المتّحدة وعاد في ٢٠٠٤ إلى اليمن حيث استخدم غرف المحادثة في الإنترنت وأخيراً الـ «يوتيوب» لبث عظاته في العالم[١].

حدّ إلقاؤه خطبه بالإنكليزية من نفوذه في العالم الإسلامي، لكن خطبه اللاذعة المناهضة للأميركيين دفعت حفنةً من أتباعه إلى العمل وأحدهم هو عمر فاروق عبد المطلب، الطالب النيجيري الشاب الذي حاول تفجير قنبلة مخبأة في ملابسه الداخلية وهو على متن طائرة في خلال رحلة نزولها إلى ديترويت يوم عيد الميلاد في ٢٠٠٩. وسبق لعبد المطلب أن كتب قبل ذلك بأشهر دراسة عن أسباب رغبته في الجهاد وأرسلها إلى العولقي[٢]. ولما بدأ المحققون الأميركيون جمع أجزاء مؤامرة عيد الميلاد الفاشلة، أخذ يتكوّن لديهم فهم أكبر للدور الذي أداه العولقي في القاعدة في شبه الجزيرة العربية. فالرجل الأميركي ابن الثمانية والثلاثين الذي سبق أن تحدث عن كونه «جسر» أميركا إلى العالم الإسلامي، لم يكن مجرّد رسول إلهامي للعصر الرقمي ومروّجاً للحقد على الإنترنت؛ بل إنه حوّل أقواله إلى أفعال وشرع في مساعدة الجماعة الإرهابية على التخطيط لموجة من الإرهاب ضد الولايات المتحدة.

واعتقد جون برينان، الذي احتفظ بعلاقات وثيقة بمسؤولي الاستخبارات السعودية وأخذ يدير من البيت الأبيض بالفعل الكثير من الحرب الأميركية الخفية في اليمن، أن العولقي هو المسؤول الأساسي عن التحول في استراتيجية الفرع التابع للقاعدة[٣]. فالجماعة فكّرت طويلاً عالمياً لكنها تصرّفت محلّياً بتركيز هجماتها على أهداف داخل السعودية. بيد أن القاعدة في شبه الجزيرة العربية وجدت في محاصرة بن لادن وأتباعه في باكستان، الفرصة لارتداء عباءة الملوّع الأساسي للأميركيين. واعتقد برينان أن العولقي يدفع الجماعة باطراد في هذا الاتجاه.

ربما هذه هي الحال وربما ليست كذلك، سوى أن المسؤولين داخل مجلس الأمن القومي شرعوا في مناقشة مسألة استثنائية تتعلق بإعطاء الموافقة على القتل السري

(١) Scott Shane and Souad Mekhennet، مصدر سابق.

(٢) Gregory Johnsen, *The Last Refuge: Yemen, al-Qaeda, and America's War in Arabia* (New York: W. W. Norton, 2012): 257.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٢.

للعولقي، المواطن الأميركي، من دون اعتقاله أو جلبه إلى المحكمة. وشرع هارولد كوه وغيره من محامي الحكومة في دراسة الاستخبارات الخام عن دور العولقي داخل المجموعة اليمنية الجهادية. وبعد أشهر على محاولة عبد المطلب الفاشلة تفجير الطائرة، أصدر مكتب الاستشارات القانونية في وزارة العدل مذكّرة سرّية تعطي الموافقة لإدارة أوباما على قتل رجل الدين الأميركي المارق. وشدّدت المذكرة على أن العولقي لم يعد يمتلك الحق الدستوري بالإجراءات القانونية الواجبة لأنه يتمتع بموقع كبير داخل القاعدة في شبه الجزيرة العربية، ولأنه أعلن الحرب على الولايات المتحدة.

بيد أن الولايات المتّحدة لم تمتلك أي دليل على مكان اختباء العولقي، أو أي عنصر آخر من كبار عناصر القاعدة في شبه الجزيرة العربية. وأخذت القيادة المشتركة للعمليات الخاصة على الفور في تكثيف جهودها لجمع الاستخبارات في اليمن، وكادت إدارة أوباما تعتمد تماماً على الجواسيس الذين زرعهم الرئيس اليمني علي عبدالله صالح وجهاز الاستخبارات السعودية في أنحاء البلاد. بل إن صالح وضع، بعد الغارة الأميركية الفاشلة في أيار/مايو ٢٠١٠ التي قتلت خطأ نائب أحد المحافظين في اليمن، المزيد من القيود على النشاطات الأميركية هناك وتوقّفت الحرب الخفية.

إلا أن رجل اليمن القوي أخذ بعد وقت قصير يخسر قبضته على البلاد. فقد احتفظ الرئيس صالح بالسلطة على مدى عقود من خلال إتقانه التلاعب بمختلف الفئات داخل البلاد، فيضعها في الغالب بعضها في مواجهة بعض بطريقة وصفها أحد المسؤولين في إدارة بوش بأنها أشبه «بالرقص في جحر الأفاعي»[1]. لكن اليمن غرق في مطلع ٢٠١١ في ثورات الشارع الآخذة في الانتشار عبر العالم العربي، ولم يعد في وسع الحكومة أن تحافظ حتى على النظام في العاصمة، بعدما أمكنها في السابق السيطرة تقريباً على المناطق خارجها. ثم، وفي خلال هجوم حزيران/يونيو على القصر الرئاسي، أصابت زخة من الصواريخ الغرفة التي اختبأ فيها صالح وطرحته أرضاً. وعانى نزفاً داخلياً في الجمجمة وأحرقت النيران الناتجة من الهجوم ٤٠ بالمئة من جسمه. ووضعه حراسه الشخصيون على متن رحلة طارئة إلى السعودية حيث خضع لجراحة استغرقت

(١) "U.S. Intelligence on Arab Unrest Draws Criticism", Associated Press (February 6, 2011).

ساعات[١]. ونجا لكن ولّت أيامه كرئيس. ولم يعد علي عبدالله صالح موجوداً ليفرض على الولايات المتّحدة ما يمكنها وما لا يمكنها فعله في بلاده.

استخدمت الـ «سي. آي. إيه» والقيادة المشتركة للعمليات الخاصة التوقف الذي استمر سنة في الحرب الجوية الأميركية في اليمن بعد قتل نائب المحافظ جابر الشبواني، لبناء شبكة من الجواسيس البشر وشبكة من التنصت الإلكتروني حول اليمن. وكُلف المزيد من المحللين في وكالة الأمن القومي في فورت ميد، ميريلاند، مراقبة الهواتف الخلوية في اليمن واختراق شبكات الكمبيوتر على أمل اختراق حركة الرسائل الإلكترونية[٢]. وشرعت الـ «سي. آي. إيه» تبني بالكثير من السرية قاعدةً للطائرات التي تطير بلا طيار في الصحراء السعودية لتُستخدم مركزاً لمطاردة القاعدة في اليمن. وقد سمحت السعودية للـ «سي. آي. إيه» ببناء القاعدة شريطة تمويه دور المملكة. وقال مسؤول أميركي شارك في قرار بناء القاعدة إن «السعوديين لم يريدوا لوجههم أن يظهر في العملية».

بقيت حرب اليمن حكراً على القيادة المشتركة للعمليات الخاصة بانتظار جهوز قاعدة الـ «سي. آي. إيه». وشرع البنتاغون في أيار/مايو ٢٠١١ في إرسال الطائرات المسلحة التي تطير بلا طيار إلى فوق اليمن ويتم التحكّم فيها من أثيوبيا ومن جيبوتي من معسكر «لومونييه»، وهو القاعدة السابقة الخالية للفيلق الأجنبي الفرنسي حيث تعمل مجموعة صغيرة من المارينز وجنود العمليات الخاصة منذ ٢٠٠٢. وأصبح هدير الطائرات التي تطير بلا طيار صوتاً اعتيادياً في بعض من المساحات الصحراوية اليمنية البعيدة، وبدأت لعبة القط والفأر بين الجهاديين والآلات القاتلة.

ووصف صحافي يمني أمضى أسبوعين مع قادة القاعدة في شبه الجزيرة العربية الإجراءات الأمنية التي تنفذها الجماعة لتفادي ضربها من الجو. وقال المجاهدون للمراسل إنهم يلازمون أمكنتهم لدى اقتراب طائرة مقاتلة يمنية لأن «الطائرات اليمنية تخطئ دوماً أهدافها». لكنهم يقومون بالأمر المعاكس عندما تشرع الطائرة الأميركية التي تطير بلا طيار في الهدير فوق رؤوسهم. يطفئون هواتفهم الخلوية ويقفزون إلى

(١) BBC News, "Yemen: Saleh 'Gravely Wounded' in Rocket Attack", June 7, 2011.

(٢) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول كبير في البنتاغون ومع مسؤول أميركي متقاعد في مكافحة الإرهاب.

الشاحنات ويبدأون بالتحرك لأن الطائرات التي تطير بلا طيار «لا تستطيع قصف هدف متحرّك»[١]. تصوّر المجاهدون واحدة من نقاط ضعف الطائرات التي تطير بلا طيار، وهي مشكلة ناشئة عن تحريك الطائرة بواسطة الأقمار الصناعية. ولأن آلاف الأميال تفصل بين الطائرات وطياريها، فإن ما يراه الطيارون على شاشاتهم في الولايات المتّحدة يأتي أحياناً متأخّراً بضع ثوان عما تراقبه الطائرة. وجعلت المشكلة، التي تُعرف بالكُمون، من الصعب على الضباط الهدّافين في الـ «سي. آي. إيه» والبنتاغون تصوّر مكان تصويب الصاروخ الذي يُطلق من الطائرة التي تطير بلا طيار، وهو ما يفسّر بعضاً من الإصابات المدنية وإخطاء الأهداف في حروب هذه الطائرات.

وسمح وجود العولقي في شاحنة متحركة بنجاته بأعجوبة من الموت في أيار/مايو ٢٠١١، بعد أيام فقط على غارة الكوماندوس التي قتلت بن لادن في باكستان. فقد وفّر مصدر بشري يتجسس للأميركيين المعلومة بأن العولقي يتنقل في شاحنة في محافظة شبوة، وأرسل فريق القيادة المشتركة للعمليات الخاصة طائرات تطير بلا طيار ومقاتلات هاريير تابعة للبحرية إلى المنطقة. لكن الصاروخ الأول أخطأ شاحنة العولقي، ولما تحرّكت الغيوم إلى المنطقة وحجبت الرؤية عن الطائرات تمكن العولقي من القفز إلى شاحنة أخرى انطلقت في الاتجاه المعاكس. واستمرت الطائرات الأميركية في ملاحقة الشاحنة الأولى وقتلت ضربة الصاروخ اثنين من عناصر القاعدة المحليين الموجودين فيها. ولجأ العولقي إلى إحدى المغاور. وبحسب الباحث في شؤون اليمن غريغوري جونسن، فإن العولقي قال لأصدقائه إن الحادثة «زادت في يقيني أن ما من كائن بشري يموت إلا عندما تنتهي حياته وتحين ساعته»[٢].

أخذ الإحباط في البيت الأبيض يصيب الرئيس أوباما وجون برينان من جراء استمرار القيادة المشتركة للعمليات الخاصة في إخطاء العولقي وغيره من كبار القادة. لم يُقتل أي من القادة الكبار في القاعدة في شبه الجزيرة العربية بعد سنة ونصف سنة على توسيع أوباما النشاطات الخفية في اليمن، ونُفِّذ عدد من الغارات استناداً إلى

(١) SITE Intelligence Group, "Yemeni Journalist Documents Experiences with AQAP in Abyan", October 21, 2011.

(٢) Johnsen، مصدر سابق، ص ٢٧٦.

استخبارات خاطئة. وقُتل من المدنيين أكثر ممن قُتل من جهاديي القاعدة. وشكل تحليق الطائرات التي تطير بلا طيار في أجواء اليمن تحسيناً أفضل من صواريخ كروز، لكن حكومة جيبوتي لم تسمح للولايات المتّحدة بشن أي مهمة قاتلة انطلاقاً من معسكر «لومونييه» من دون إذن مسبق منها. وأوقفت هذه القيود شعر رؤوس قادة القيادة الموحدة للعمليات الخاصة.

عملت الـ «سي. آي. إيه» من دون قيود مشابهة. وأُنجزت بحلول أيلول/سبتمبر ٢٠١١ القاعدة التي بنتها وكالة التجسس في الصحراء السعودية وباتت جاهزة للاستخدام. وأمر ديفيد بترايوس، الذي أصبح عند هذا الحد مديراً للـ «سي. آي. إيه»، بنقل بعض من أسطول الوكالة من طائرات الـ «بريداتور» و«ريبر» من باكستان إلى السعودية. كذلك غيّرت وكالات التجسس مواضع الأقمار الاصطناعية وعاودت تصميم شبكات المعطيات للسماح للطائرات بالتواصل مع الطيارين الموجودين في الولايات المتحدة، كما أنجزت الأعمال التكنولوجية الأخرى المطلوبة لفتح جبهة جديدة في حرب الطائرات التي تطير بلا طيار.

وامتلكت الـ «سي. آي. إيه» ما هو أكثر من الطائرات التي تطير بلا طيار والمركونة على مقربة من حدود اليمن: مصدر في داخل القاعدة في شبه الجزيرة العربية شرع في توفير معلومات منتظمة عن تحركات العولقي. وسبق الـ «سي. آي. إيه» أن جمعت استخبارات عن تركيبة القاعدة في شبه الجزيرة العربية وتمكنت في كل مرة من الحصول على إنذار مبكر عن منشورة انسباير المصقولة، التي تصدرها الجماعة على الإنترنت قبل نشرها. واستخدمت القاعدة في شبه الجزيرة العربية المجلة المكتوبة بالإنكليزية لإبراز صورتها ولتحريض الراغبين في الجهاد في الولايات المتّحدة، أو في المملكة المتّحدة، على خوض الحرب على مقربة من ديارهم. وكان الرائد نضال الحسن – طبيب النفس في الجيش الذي قتل ثلاثة عشر شخصاً في منشأة عسكرية مكتظة في فورت هود، تكساس، في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٩ – من قراء «إنسباير» (*Inspire*). وكذلك فيصل شهزاد المحلل المالي الصغير في كونيتيكت الذي حاول بعد ذلك بسبعة أشهر تفجير فان محمّل بالمتفجرات وسط ساحة التايمز. وحملت مقالة في «إنسباير»، كتبها ناشر المجلة الباكستاني الأميركي سمير خان عنواناً «كيف تصنع قنبلة في مطبخ والدتك».

وناقش مسؤولو أوباما، في كل مرة علموا فيها بالعدد المقبل من «إنسباير»، هل يخربون المجلة قبل نشرها على الإنترنت، أو يدسّون رسائل في النص قد تحرج القاعدة في شبه الجزيرة العربية وتقرع جرس الإنذار داخل الجماعة حول احتمال أن عميلاً متخفياً للسعوديين أو للأميركيين قد اخترق صفوفها. لكنهم قرروا ألا يفعلوا وأحد الأسباب في ذلك هو خشيتهم إعدام من يُشتبه في أنه يساعدهم.[1] لكن هناك سبباً آخر: بما أنه تُمكن قراءة «إنسباير» على الإنترنت في الولايات المتّحدة، فإن محاولات الـ «سي. آي. إيه» التلاعب بمحتوياتها قد تشكّل انتهاكاً للقوانين، التي تحظر على الوكالة القيام بأي عمليات دعائية ضد أميركيين. وهي المخاوف نفسها التي دفعت الـ «سي. آي. إيه» في المقام الأول إلى التخلي عن عمليات الدعاية منذ مجيء الإنترنت عندما بات في وسع الأميركيين الجالسين أمام حواسيبهم المحمولة قراءة الأخبار والمعلومات التي كُتبت من على بعد آلاف الأميال. وسمح هذا للبنتاغون ولأمثال مايكل فورلونغ بملء الفراغ بنوع جديد من حرب المعلومات المفصّلة على قياس العصر الرقمي.

أثار سجل الـ «سي. آي. إيه» في عمليات القتل في باكستان إعجاب مسؤولي البيت الأبيض، فسحبوا مهمة مطاردة أنور العولقي من البنتاغون وسلّموها إلى الوكالة. وأقلع في ٣٠ أيلول/سبتمبر أسطول من الطائرات الأميركية التي تطير بلا طيار من القاعدة في السعودية وعبر إلى اليمن وشرع في تقفّي مجموعة من الرجال المتنقلين في قافلة عبر محافظة الجوف، وهي كناية عن امتداد صحراوي على مقربة من الحدود السعودية واشتهرت في السابق بتربية الجياد العربية. وتوقف الرجال لتناول الفطور عندما لمحوا، بحسب أحد الشهود، الطائرات وهرعوا عائدين إلى سياراتهم. لكن الطائرات كانت قد سددت على هدفها، وتبعت ذلك سمفونية من الدمار اعتني في تنسيقها. حددت طائرتا «بريداتور» أشعة الليزر على السيارات، وهو تكتيك حسّن في دقة الإصابة التي تحققها الهجمات الصاروخية. وأطلقت طائرة «ريبر» صواريخ حققت إصابة مباشرة. وقتل كل رجل تنقّل في الموكب حتى المواطنان الأميركيان أنور العولقي وسمير خان الداعية الجهنمي والقوة الخلاقة وراء مجلة «إنسباير».

---

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول أميركي حالي واثنين سابقين على اطلاع على طريقة تعامل الـ «سي. آي. إيه» مع الإنذار المبكر المتعلق بمجلة «إنسباير».

تسلل عبد الرحمن العولقي – نجل الإمام ابن السادسة عشرة وهو الفتى النحيل المولود في دنفر – قبل ذلك بأسبوعين خارجاً من نافذة المطبخ في منزل العائلة في صنعاء. وهو المنزل الوحيد الذي عرفه منذ انتقاله وهو فتى صغير إلى اليمن، بعدما أصاب والده الشهرة في الولايات المتّحدة والمملكة المتّحدة على خطبه النارية. وأصبح الوالد في السنوات التي تلت الرجل الأكثر عرضةً للمطاردة من قبل إدارة أوباما، وهرب من صنعاء إلى المحافظات اليمنية البعيدة سعياً إلى ما توفره من أمن نسبي، إلا أن عبد الرحمن عاش في الغالب حياة المراهق العادي. ودخل الثانوية واهتم بالرياضة وبالموسيقى، وأبقى صفحته على الفيسبوك بانتظام.

وقرر في منتصف أيلول/سبتمبر ٢٠١١ أنه يحتاج إلى العثور على والده، أينما اختبأ. وترك ملاحظة لأقربائه قبل أن ينسل خارجاً من المنزل.

كتب، «آسف لرحيلي. فأنا سأبحث عن والدي»[١].

توجه إلى محافظة شبوة، تلك المنطقة من اليمن التي يُعتقد أن العولقي مختبئ فيها، وحيث أخطأته القاذفات الأميركية والطائرات التي تطير بلا طيار في أيار/مايو الماضي. وما لم يعرفه عبد الرحمن هو أن والده قد هرب من شبوة إلى الجوف. وطاف في المكان وهو لا يمتلك أي فكرة عما يفعله تالياً. ثم سمع الأخبار عن الضربة الصاروخية التي قتلت والده، واتصل بعائلته في صنعاء. وأبلغهم أنه عائد إلى المنزل.

لم يعد إلى صنعاء على الفور. وبعد أسبوعين على قتل طائرات الـ «سي. آي. إيه» التي تطير بلا طيار والده، جلس عبد الرحمن مع أصحابه في مطعم في الهواء الطلق على مقربة من مدينة عزّان في محافظة شبوة[٢]. وتناهى إليهم من بعيد، بصوت خافت في البداية، أزيز مألوف. ثم شقّت الصواريخ الهواء وأصابت المطعم. وفي غضون ثوانٍ انتشرت دزينة من جثث القتلى في التراب. وأحدهم عبد الرحمن العولقي. وفي غضون ساعات على خبر موته تحولت صفحة المراهق في الفيسبوك إلى حفل تأبيني.

لم يناقش المسؤولون الأميركيون العملية قط في العلن، لكنهم اعترفوا في مجالسهم

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع جميل جعفر وهينا شمسي محاميي آل العولقي.

(٢) Filing in the United States District Court for the District of Columbia in the case of *Nasser Al-Aulaqi et al. v. Leon C. Panetta et al.*, 13.

الخاصة بأن عبد الرحمن العولقي قُتل عن طريق الخطأ. ولم يرد اسم المراهق على أي لائحة استهداف. فالمستهدف من غارة الطائرة التي تطير بلا طيار هو إبراهيم البنّا القائد المصري للقاعدة في شبه الجزيرة العربية، إذ حصل المسؤولون الأميركيون على معلومات بأن البنا يأكل في المطعم في وقت الغارة، لكن تبين أن الاستخبارات خاطئة. فالبنا لم يكن في أي مكان قريب من موقع الضربة الصاروخية. أما عبد الرحمن العولقي فوُجد في المكان الخطأ في الوقت الخطأ.

بالرغم من أن الغارة لا تزال تحت الحفظ فقد قال عدة مسؤولين أميركيين إن الـ «سي. آي. إيه» لم تشغّل الطائرات التي قتلت الفتى، على عكس تلك التي قتلت والده. بل إن عبد الرحمن ضحية برنامج طائرات موازٍ تديره القيادة المشتركة للعمليات الخاصة التابعة للبنتاغون، وهو برنامج استمر حتى بعدما انضمّت الـ «سي. آي. إيه» إلى المطاردة في اليمن. وتلاقت الـ «سي. آي. إيه» والبنتاغون في ساحات القتل في واحد من أكثر بلدان العالم فقراً وقحلاً، وهما يديران حربين مختلفتين بالطائرات التي تطير بلا طيار. واحتفظت الـ «سي. آي. إيه» بلائحة استهداف فيما احتفظت القيادة المشتركة للعمليات الخاصة بلائحة أخرى. ووُجد كلاهما في اليمن ينفذان المهمة نفسها تقريباً. وبعد عشرة أعوام على محاولة رامسفلد الأولى انتزاع السيطرة على الحرب الجديدة من الجواسيس الأميركيين، أخذ البنتاغون والـ «سي. آي. إيه» يديران المهمات السرّية نفسها في أقاصي الأرض.

ندب الدكتور ناصر العولقي، بعد شهرين على قتل ابنه وحفيده، موتهما في رثاء بالفيديو رفعه على اليوتيوب. وتحدث الدكتور العولقي لما يقارب السبع دقائق بإنكليزية واضحة ومدروسة. وقال إن على المسلمين المخلصين الحفاظ على رسالة ابنه حيّة ونشرها على كل من لم تمسهم كلماته بعد. وتعهد، في شكل ينذر بالسوء ومن دون أي تفاصيل إضافية، بأن «دماء [ابنه] لن تذهب هدراً»[١].

وصف الدكتور العولقي أميركا «بالدولة التي جنّ جنونها»، وقد افتُتنت باستراتيجية الاغتيالات في أحلك زوايا الأرض. وقال إن الهجمات بلغت حدّاً من الروتين بحيث إن الغارات التي قتلت ابنه وحفيده كادت تمرّ مرور الكرام داخل الولايات المتحدة.

(١) تمكن مشاهدة رسالة ناصر العولقي بالفيديو على: www.youtube.com/watch?v=9GHP5Rf7dbE.

وهذا صحيح جزئياً. ففي يوم قتل أنور العولقي أشار الرئيس أوباما في خطاب له إلى موته بإيجاز معتبراً الأمر «معلماً مهماً آخر في الجهد الأوسع لهزم القاعدة والمنتمين إليها». لكن قتل الداعية ذي الخطب النارية – المواطن الأميركي الذي أجيز قتله في مذكرة سرّية من وزارة العدل – لم يحظ في اليوم التالي بأي إشارة في النشرات الإخبارية المسائية للشبكات. وبعد ذلك بأسبوعين كاد لا يحظى مصرع عبد الرحمن العولقي، المراهق الأميركي النحيل، بأي انتباه.

بقيت غارات الطائرات التي تطير بلا طيار سرّاً، أقله رسمياً. ولجأت إدارة أوباما إلى المحكمة لصدّ ما واجهته من تحديات في شأن نشر الوثائق المتعلّقة بالطائرات، التي تطير بلا طيار التابعة لـ «سي. آي. إيه» وللقيادة المشتركة للعمليات الخاصة وبوجهات النظر القانونية السرية التي تدعم العمليات. وفي أواخر أيلول/سبتمبر، جلست هيئة من ثلاثة قضاة قبالة جدار من الرخام الأخضر في قاعة المحكمة الفدرالية في واشنطن، واستمعت إلى الحجج الشفوية في القضية التي رفعها الاتحاد الأميركي للحريات المدنية، وطالب فيها الـ «سي. آي. إيه» بتسليم وثائق تتعلق ببرنامج الاغتيال. ورفض المحامي الذي يمثل الـ «سي. آي. إيه» الاعتراف بأي علاقة للوكالة بالطائرات التي تطير بلا طيار حتى في خلال الاستجواب الذي قام به القضاة المتشككون الذين ساءلوه عن تصريحات علنية للمدير السابق لـ «سي. آي. إيه» ليون بانيتا. فقد مازح بانيتا مجموعة من الجنود الأميركيين المتمركزين في نابولي في إيطاليا، بأنه بالرغم من امتلاكه وهو زير للدفاع «كمية أضخم بكثير من السلاح المتوافر ... مما ... امتلك في الـ «سي. آي. إيه»، فإن الـ «بريداتور» لم تكن سيئة قط».

أشار القاضي المغتاظ ميريك غارلند، في إحدى جلسات المحكمة، إلى عبثية موقف الـ «سي. آي. إيه» في ضوء واقع أن كلاً من الرئيس أوباما ومستشار البيت الأبيض لمكافحة الإرهاب جون برينان قد تحدثا علناً عن الطائرات التي تطير بلا طيار. وقال لمحامي الوكالة، «لو أن الـ «سي. آي. إيه» هي الإمبراطور، فأنت تطلب منا القول إن الامبراطور يرتدي ثياباً بالرغم من نفي أسياده».

لكن تمت مأسسة حرب الطائرات، بالرغم من كل ما أحيطت بها من سرّية، بما يكفل استمرار مهمات الـ «سي. آي. إيه» والبنتاغون في العمل معاً فيما تقاتل المؤسستان

للحصول على المزيد من الموارد لخوض الحرب السرية. وأدار الجهازان أحياناً، كما في اليمن، عمليات متوازية ومتنافسة للطائرات التي تطير بلا طيار. وتقاسمتا العالم في أحيانٍ أخرى وتولت كل منهما أجزاء مختلفة من الحرب التي تدار بواسطة التحكم من بعد - الـ «سي. آي. إيه»، مثلاً، في باكستان فيما يدير البنتاغون حرب الطائرات التي تطير بلا طيار في ليبيا.

وكان أن خلصت لجنة ٩/١١ في تموز/يوليو ٢٠٠٤ إلى أنه على الـ «سي. آي. إيه» التخلي عن وظائفها شبه العسكرية. واستنتجت اللجنة أنه ليس من المنطقي جداً أن تنشغل الـ «سي. آي. إيه» والبنتاغون معاً في عملية خوض الحروب الخفية. وأعلن البيان النهائي للجنة أنه، «سواء قيست الكلفة بأي من المال أو الناس، فإن الولايات المتّحدة لا تستطيع تحمّل بناء قدرتين منفصلتين لتنفيذ عملياتنا العسكرية السرية، تديران سرّاً المواجهة بالصواريخ، وتدربان سراً قوات عسكرية أو شبه عسكرية أجنبية».

رفضت إدارة بوش هذه التوصية وانتقلت الولايات المتّحدة في السنوات التالية إلى الاتجاه المعاكس تماماً. وها إن كلاً من الـ «سي. آي. إيه» والبنتاغون يحرس بيقظة شديدة الأجزاء المختلفة من بنية حرب الظلال - قاعدة في السعودية للطائرات التي تطير بلا طيار، قاعدة سابقة للفيلق الأجنبي الفرنسي في جيبوتي، وغير ذلك من المواقع الأمامية البعيدة - ويكره التخلي عن أي سيطرة فيما يعتنق السياسيون عمليات القتل بوصفها مستقبل الحرب الأميركية. ويواصل البنتاغون، في غضون ذلك، شقّ طريقه إلى التجسس البشري. وتأمل وكالة استخبارات الدفاع إنشاء كادر جديد من الجواسيس المتخفين، المئات منهم، من أجل مهمات تجسس في إفريقيا والشرق الأوسط وآسيا. وقال و. جورج جاميسون، المحامي الذي أمضى ثلاثين عاماً في الـ «سي. آي. إيه»، إن «كل شيء يسير إلى الوراء. فلديك وكالة تجسس تخوض حرباً وجهاز عسكري يحاول جمع الاستخبارات الميدانية»[1].

غالباً ما ألمح الرئيس أوباما، في خلال الموسم الشاق للانتخابات الرئاسية في ٢٠١٢، إلى القتل كمؤشّر إلى صلابته وتحدّث بطريقة استعراضية تذكّر بالرئيس بوش في الأيام الأولى، التي أعقبت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. وسأله أحد المراسلين مرّة عن

(١) صدرت تعليقات جاميسون في خلال جلسة مفتوحة لمؤتمر نقابة المحامين الأميركيين.

الاتهامات التي يطلقها المرشحون الجمهوريون للرئاسة ويصفون فيها سياسته الخارجية بأنها أشبه باستراتيجية المهادنة. وأجابه أوباما، «اسأل أسامة بن لادن والاثنين والعشرين من أصل قادة القاعدة الثلاثين الذين أُخرجوا من الساحة هل إنني أسير بالمهادنة فعلاً. أو اسأل أياً من تبقّى منهم عن ذلك»[1].

وبالرغم من كل الخلافات السياسية بين أوباما والحاكم ميت رومني في حملة ٢٠١٢ الرئاسية، لم يجد الرجلان ما يختلفان فيه عندما تعلّق الأمر بالقتل، وقال رومني إنه، في حال انتخب رئيساً، سيواصل عملية الإغارة بواسطة الطائرات التي تطير بلا طيار، والتي صعّدها أوباما. وسارع مسؤولو أوباما، في الأسابيع الأخيرة التي تسبق الانتخابات وقد تحسبوا لمثل هذا الاحتمال، إلى تطبيق قواعد واضحة في حال لم يعودوا يمسكون بعصي القيادة في حروب الطائرات التي تطير بلا طيار. وكشف هذا الجهد لقوننة إجراءات القتل كم أن العمليات السرية لا تزال نوعاً من الجهد المرتجل. ولا تزال أسئلة جوهرية في شأن من يمكن قتله وأين يمكن قتله ومتى يمكن قتله من دون جواب. وخف الضغط للإجابة عن تلك الأسئلة في ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٢ عندما ضمنت انتخابات حاسمة بقاء الرئيس أوباما في منصبه أربع سنوات أخرى. وتراخى الجهد لإضفاء الوضوح على الحروب السرية[2].

مع نهاية الولاية الأولى للرئيس أوباما، بدت الأمة، وقد أتعبتها الحربان الطويلتان والداميتان والمكلفتان في العراق وأفغانستان، غير مهتمة كثيراً بتصعيد الحكومة للحرب الخفية. بل ما جرى هو العكس تماماً. فبحسب استطلاع للرأي أجري لمصلحة إيمي زيغارت في جامعة ستانفورد أصبحت البلاد، إلى درجة ملحوظة، تزداد تشدّداً في المسائل المتعلقة بمكافحة الإرهاب. وقالت غالبية كبرى – ٦٩ بالمئة من المستَطلعين – إنها تدعم قيام الحكومة بقتل الإرهابيّين سرّاً[3].

(١) مؤتمر صحافي رئاسي للرئيس أوباما في ٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١١.

(٢) Scott Shane, "Election Spurred a Move to Codify U.S. Drone Policy", *The New York Times* (November 24, 2012).

(٣) أجرت «يوغوف» (YouGov) الاستطلاع لإيمي زيغارت. والكاتب ممتن للبروفسورة زيغارت على مشاركتها معه في معطيات الاستطلاع.

جعل القتل من الـ «سي. آي. إيه» وكالة لا يمكن إدارة أوباما الاستغناء عنها، بل حسّنت حتى من صورة الوكالة في مسائل أخرى. وأعرب ٦٩ بالمئة من المستطلعين، بحسب استطلاع الرأي نفسه، عن الثقة بامتلاك وكالات التجسس معلومات دقيقة عما يجري داخل إيران وكوريا الشمالية. وهذا أعلى بعشرين نقطة مما وجده استطلاع مماثل للرأي أجري في ٢٠٠٥ عندما أخذت الـ «سي. آي. إيه» تتعرض للانتقاد بسبب تقديراتها الفاشلة حول برامج الأسلحة العراقية. والمثير للاهتمام أن استطلاع ٢٠١٢ أجري بعد أشهر وحسب على وفاة الديكتاتور الكوري الشمالي كيم جونغ إيل – ولم يعرف مسؤولو الـ «سي. آي. إيه» بموته إلا بعد ذلك بعدة أيام من التلفزيون الكوري الشمالي[1].

غير أن المخاطر والكلفة في الفرص للـ «سي. آي. إيه» التي شرعت في نفخ عضلاتها أخذت تتضح تدريجاً. إذ أعادت الوكالة، بعدما فوجئت في الأسابيع الأولى للربيع العربي، تكليف دزينات من ضباط الحالة والمحللين دراسة ما يجري في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. ومرّة أخرى حولت إدارة أوباما أيضاً ضباط الـ «سي. آي. إيه» لتأدية دور الجنود بدلاً من الجواسيس. ولما تحولت الثورة الليبية إلى حرب أهلية مفتوحة أوفدت الـ «سي. آي. إيه» ضباطاً شبه عسكريين ومتعاقدين خاصين إلى البلاد للاتصال بالمجموعات المتمرّدة والمساعدة على ضمان تحويل أطنان من الرشاشات والأسلحة المضادة للطائرات المتدفّقة على ليبيا إلى قادة المتمردين المناسبين. وأصر الرئيس أوباما على عدم استخدام أي جنود أميركيين في حرب إقصاء القذّافي عن السلطة، واعتمد بدلاً من ذلك على الصيغة التي أصبحت إدارته تثق بها: الطائرات التي تطير بلا طيار، الضباط الخفيون، وكادر من المتعاقدين أعطوا سلطة استخدام المتمردين الليبيين جيشاً رديفاً.

لكن الـ «سي. أي. إيه» لم تمتلك إلا قليلاً من الاستخبارات الثمينة عن مجموعات المتمردين، وقد انقلب بعض من المتمردين الذين شدّت الولايات المتّحدة من أزرهم في ليبيا على رعاتهم. فبعد العاشرة تماماً من مساء ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠١٢ تلقت قاعدة

(١) Mark Landler and Choe Sang-Hun, "In Kim Jong-Il Death, an Extensive Intelligence Failure", *The New York Times* (December 19, 2011).

صغيرة للـ«سي. آي. إيه» في ليبيا نداء استغاثة من المجمّع الدبلوماسي الأميركي على بعد ميل واحد وحسب، في منطقة أخرى من بنغازي المدينة المرفئية على البحر المتوسط في شرق ليبيا، حيث أقامت الحكومة الأميركية رأس جسر بحرياً بعد سقوط معمّر القذافي. وقال المتصل في الطرف الآخر من الخط إن المجمع الدبلوماسي عرضة لإطلاق النار وإن المهاجمين الذين يحملون رشاشات الكلاشنكوف بدأوا يتدفّقون عبر البوابة الرئيسية للمنشأة[1]. وقد استخدم الرعاع صفائح البنزين وأشعلوا النار في أحد مباني المجمع.

جمع عملاء الـ«سي. آي. إيه» أسلحتهم، وقد جاؤوا إلى بنغازي ليحاولوا منع سقوط ترسانة القذافي من الصواريخ، التي تطلق من الكتف من السقوط في أيدي المجموعات المقاتلة، التي انشقت عن المتمردين المسؤولين الآن عن شؤون ليبيا، وانطلقوا بقافلة من سيارتين إلى المجمع الدبلوماسي. وفشلوا في إقناع مجموعة من مقاتلي الميليشيا الليبيين في الانضمام إليهم في جهد الإنقاذ، ولما وصلوا إلى المجمع كان إطلاق النار مستعراً. احتُجز السفير الأميركي في ليبيا، ج. كريستوفر ستيفنز، في واحد من المباني، وقد انهار سقفه. وعجز فريق الـ«سي. آي. إيه» عن بلوغ ستيفنز الذي اختنق بسبب الدخان الكثيف. وشرعت طائرة عسكرية تطير بلا طيار تم تحويلها من مهمة أخرى تحلّق فوق المكان وتبث فيديو القتال إلى مقر القيادة الأميركية لإفريقيا في ألمانيا. لكن الطائرة لم تكن مسلحة وبالتالي غير قادرة على توفير أي مساعدة لفريق الأميركيين وقد فاقه المهاجمون عدداً بكثير.

لم يعد في وسع عملاء الـ«سي. آي. إيه» وضباط الأمن التابعين لوزارة الخارجية الحفاظ على مواقعهم أكثر فأخلوا المجمع الدبلوماسي وتوجهوا بالسيارات إلى قاعدة الـ«سي. آي. إيه» على بعد ميل من المكان. ولم يمر وقت طويل على وصولهم حتى تعرضت قاعدة الـ«سي. آي. إيه» لوابل من نيران الكلاشنكوف والقذائف الصاروخية. ولم تصل مجموعة دعم أميركية من طرابلس إلا في الخامسة من بعد الظهر وانضمّت إلى عملاء الـ«سي. آي. إيه» على سطح القاعدة. بيد أن المهاجمين هيأوا عند ذاك

(١) يأتي وصف هجوم بنغازي في الأساس من جدول زمني مفصل احتواه تقرير التحقيق الذي أجراه مجلس المساءلة في وزارة الخارجية. أما التفاصيل الإضافية فمصدرها مقابلات مع عدة مسؤولين أميركيين.

الحد لهجوم آخر وأخذت قنابل الهاون تنفجر على السطح. وقُتل عميلا الـ «سي. آي. إيه» تايرون وودز وغلن دوهرتي، وكلاهما عنصران سابقان في القوات الخاصة البحرية. وعند الفجر كان الأميركيون قد أخلوا قاعدة الـ «سي. آي. إيه» وتوجهوا بالسيارات صوب المطار، فيما الـ «بريداتور» مستمرة في مراقبة القافلة من السماء. ونُقل جميع العناصر الأميركيين، إلى جانب جثث الأشخاص الأربعة الذين قتلوا في الهجوم، إلى طرابلس جواً. وأقفلت العمليات الأميركية في بنغازي التي شكلت القاعدة الرئيسية للـ «سي. آي. إيه» لجمع الاستخبارات في ليبيا.

أصاب الهجوم الـ «سي. آي. إيه» داخل ليبيا، في شكل شبه حرفي، بالعمى. ومع استدارة الوكالة طوال عقد صوب العمليات شبه العسكرية، استبد القلق بصفوف كل من الجواسيس الحاليين والسابقين نظراً إلى أن الوكالة قد تكون مصابة بالعمى في الكثير من الأماكن الأخرى أيضاً، ولسبب آخر. فمجتمع الـ «سي. آي. إيه» المغلق قد تغيّر في شكل جوهري، وها إن جيلاً من ضباط الوكالة يتآلف في الحرب. وأُبلغ روس نيولاند ورفاق صفه المتدربون، قبل جيل واحد فقط، أن على وكالة التجسس تحاشي القتل مهما كلّف الثمن، إلا أن الكثيرين من الضباط الذين انضمّوا إلى الوكالة منذ ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ لم يختبروا إلا المطاردة والقتل. وشعر أبناء الجيل الجديد بفورة الأدرينالين لوجودهم على خطوط الجبهة، أكثر مما يمكن الشعور بها في خلال العمل في الجمع الجلود و «اللطيف» للاستخبارات وفي التجسس. ويمكن العمل الأخير أن يتصف بالجفاف، بل حتى بالملل، أو كما وصف ضابط كبير سابق في الـ «سي. آي. إيه» الأمر بالقول، «كيف سيمكنك الآن إبقاء هؤلاء الناس في المزرعة بعدما شاهدوا الأضواء المتلألئة للمدينة؟».

يتحدث بعض كبار مسؤولي الـ «سي. آي. إيه» بفخر كيف أن غارات الطائرات التي تطير بلا طيار في باكستان، أهلكت القسم الأكبر من القاعدة وأجبرت زمرة أتباع أسامة بن لادن الآخذة في التقلص، على إيجاد أماكن أخرى للاختباء – في اليمن وشمال إفريقيا أو الصومال أو أي قسم آخر من العالم غير الخاضع للسيطرة الحكومية. ويعتقد الكثيرون أن برنامج الطائرات التي تطير بلا طيار هو برنامج العمل الخفي الأكثر فاعلية في تاريخ الـ «سي. آي. إيه».

لكن وفي السنوات القاتلة منذ ٢٠٠١ أصبح بعض من كانوا موجودين لدى وضع برنامج الطائرات التي تطير بلا طيار في الـ «سي. آي. إيه» - وهللوا للسلطات القاتلة التي تسلمتها الوكالة بعد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر - منقسمين جداً في الرأي. ولا يزال روس نيولاند يشيد بسلاح يسمح للولايات المتّحدة بخوض حرب من دون أن تعمد إلى القصف الكثيف لأراضي العدو، أو رمي القذائف المدفعية من دون تمييز على القرى البعيدة في باكستان، لكنه يعتقد أنه يجب على الـ «سي. آي. إيه» التخلي منذ سنين عن الـ «بريداتور» والـ «ريبر». وقال إن جاذب قتل الناس عبر التحكم من بعد أشبه بجاذب «النعناع البري» للهر، وقد حوّلت الطائرات التي تطير بلا طيار الـ «سي. آي. إيه» إلى الشرير في بلدان مثل باكستان حيث يفترض أن تعمل وكالة التجسس على رعاية العلاقة بغية جمع الاستخبارات. وقال نيولاند إن الـ «بريداتور» «تنتهي في مآل الأمر إلى الإضرار بالـ «سي. آي. إيه». فهذه ليست مهمة الاستخبارات»[1].

بل إن ريتشارد بلي أدى دوراً حاسماً أكبر في فجر عصر الطائرة التي تطير بلا طيار. وكان بلي، بوصفه رئيس محطة «ألك» في الـ «سي. آي. إيه»، وهي وحدة تابعة لمركز مكافحة الإرهاب أنيطت بها المهمة المحددة القاضية بالعثور على أسامة بن لادن، من بين مجموعة صغيرة من متعصبي مكافحة الإرهاب، الذين انزعجوا من القيود الموضوعة على وكالة التجسس في الأعوام، التي سبقت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. ودفع بلي، إلى جانب رئيسه ج. كوفر بلاك، من أجل منح الـ «سي. آي. إيه» السلطة القانونية لقتل بن لادن وأتباعه. ووقف في صيف ٢٠٠١ وسط صحراء موجافي في كاليفورنيا يراقب الصواريخ المطلقة من الـ «بريداتور» وهي تدمر نموذجاً عن معسكر التدريب التابع لبن لادن في مزارع تارناك. وشاهد بعد ذلك بألم الآلاف يموتون في ١١ أيلول/سبتمبر متسائلاً هل أمكنه وزملاءه أن يدفعوا بقوة أكبر للحؤول دون الهجمات. ولا يزال يحتفظ على مكتبه بقطعة من ركام النموذج المدمّر لمزارع تارناك.

وقد غادر الـ «سي. آي. إيه» إلا أنه اكتوى في السنوات التي أعقبت تقاعده بالشكوك في الحكمة من مهمة القتل المناطة بالوكالة. وازداد هوله مع خفض مستوى القيود على تنفيذ العمل القاتل ومع منح الوكالة الإذن بإطلاق صواريخ في باكستان، حتى لدى عدم تيقن الجواسيس الأميركيين هوية من يقتلونه - ما يُدعى الغارات على

(١) مقابلة أجراها المؤلف مع روس نيولاند.

الأهداف غير المتحقق من هويتها. وفكّر في أن ما تم في البداية تصوّره كآلة يمكن الولايات المتّحدة استخدامها انتقائياً قد تعرّض لإساءة الاستخدام.

وقال: «فرض علينا ضميرنا في الأيام الأولى أن نعرف من نقوم بقتله قبل أن يضغط أي كان على الزناد. ونقوم اليوم بإحراق هؤلاء الناس في كل مكان».

وقال إن مكابس آلة القتل تعمل كلّياً من دون احتكاك. وأضاف «إن كل ضربة بطائرة من دون طيار هي إعدام. وإذا وجب علينا إنزال هذه الأحكام بالموت فيجب أن يترافق ذلك مع محاسبة عامة ومع نقاش عام حول الأمر برمته».

وتوقّف بعض الشيء قبل أن يتابع، «ويجب أن يكون نقاشاً يمكن الأميركيين فهمه».

على بعد نحو ساعة خارج لاس فيغاس، وبعد اختفاء بيوت ضواحي المدينة المشيدة بالجص وتحوّل المشهد الطبيعي إلى شجيرات الشحم الخفيضة وأشجار اليوكا الشائكة، ينحرف الطريق إلى الغرب وينزل إلى أحد الوديان. وتظهر في البعيد مجموعة من المباني الخفيضة ذات اللون البني الفاتح وتطير من فوقها ببطء طائرة صغيرة تشبه الحشرة وتقوم بدوران كسول في السماء. وتعلو من فوق كتلة من التلال إلى يمين الطريق السريع وتلتف يساراً وتهبط على مدرج بُني من رمل الصحراء.

وتمكن، بعد ثلاث دقائق من القيادة، رؤية مدينة إنديان سبرينغز، نيفادا، التي ترتفع ٣,١٢٣ قدماً عن سطح البحر. وهي في معظمها مجموعة من باحات توقف المقطورات والبيوت المتنقلة وتخدمها محطتان للوقود ونزل ومتجر «أونتي مو» لبيع الجواهر وشرائها. وتشير لوحة مرفوعة فوق مركز البريد إلى أقرب سلسلة لتوفير وسائل الراحة: «دينيس، سابواي، نزل ٦ – على بعد ساعة من هنا». ولا يزال الكازينو الصغير، الذي احتفل فيه كورت هاوز وفريقه بوجبة فطور في شباط/فبراير ٢٠٠١ بعد صنعهما التاريخ بإطلاق أول صاروخ من الـ «بريداتور»، يقبع عند حافة المدينة. لكنه، كبقية أنديان سبرينغز، شبه خال؛ ولم يعد، بفضل طريق جانبي جديد، محطة توقف للسياح في طريقهم من لاس فيغاس إلى «وادي الموت» (ديث فالي)[1].

(١) المؤلف ممتن لتيموثي برات على تغطيته الصحافية من إنديان سبرينغز، نيفادا.

لم تحصد المدينة المنعزلة أياً من منافع النمو القوي الظاهر عبر الطريق السريع تماماً، وراء أميال من السياجات ومراكز الحرس حيث يمنع الجنود المسلحون الفضوليين من الدخول. وأعيدت في منتصف العقد الماضي تسمية ميدان سلاح الجو الرديف في إنديان سبرينغز «قاعدة كريتش الجوية» وبدأت القاعدة المتداعية التي تعصف بها الرياح، حيث انشغل أول طياري التجارب لـ«بريداتور» في إيجاد طريقة جديدة للحرب، تتحول إلى نقطة الانطلاق لعمليات القتل الأميركية في ما وراء البحار. وتقع كريتش الآن على مساحة ٢٣٠٠ فدان من أراضي الصحراء، وقد أصبحت ناشطة جداً إلى حد يأمل معه سلاح الجو توسيع القاعدة بشراء الأرض من رجال الأعمال المحليين، وهي خطوة قد تزيد في تحول إنديان سبرينغز إلى مدينة أشباح.

يطيّر كل من البنتاغون والـ«سي. آي. إيه» مهمات الطائرات التي تطير بلا طيار من كريتش، ولا يزال العناصر العسكريون والمتعاقدون المدنيون المشاركون في برنامج هذه الطائرات يتنقلون إلى القاعدة من ضواحي لاس فيغاس ويتناوبون على العمل في مقطورات طويلة شبيهة بلون الرمل ومصطفة في صفوف متقنة. ويطيّرون أحياناً مهمات تدريبية في كريتش ويقودون الـ «بريداتور» والـ «ريبر» على مقربة من القاعدة ويشحذون مهاراتهم القاتلة بتعقّب السيارات المدنية والشاحنات التي تسير على امتداد الطرق الموحدة. لكن الطيارين يقاتلون في الغالب في حرب تخاض غمارها على بعد آلاف الأميال – في أفغانستان، في باكستان، في اليمن، وفي مجال الصحراء الكبرى في شمال إفريقيا. وفي الأسابيع التي أعقبت هجوم أيلول/سبتمبر ٢٠١٢ على المجمع الدبلوماسي الأميركي في ليبيا، ضجّت السماء فوق بنغازي بأزيز الطائرات الأميركية التي تطير بلا طيار، والتي أُرسلت إلى هناك لتعقّب مرتكبي الهجوم.

وعند طرف قاعدة نيفادا، تحمل الحواجز الإسمنتية الحمراء الباهتة رسالة فخورة: «قاعدة كريتش الجوية: موطن الصيادين».

خاتمة: جاسوس في عالم مترف

«إنه المكان الذي تتم فيه الأعمال».

- ديوي كلاريدج

وقع ديوي كلاريدج. فبعد عام على إغلاق البنتاغون عمليته التجسسية الخاصة، تعثَّر في منزله على مقربة من سان دييغو وكسر عدة عظام. وضعه الحادث في المستشفى حيث أصبح أكثر عصبيّة من العادة، وأجبره على الانتقال إلى الساحل الشرقي ليصبح أكثر قرباً من عائلته. وانتقل ضابط الـ «سي. آي. إيه» السابق ابن التاسعة والسبعين إلى «ليجور وورلد» (العالم المترف) - وهو الذي أسس مركز مكافحة الإرهاب في الوكالة، وواحد من الأشرار العامين الرئيسيين في فضيحة إيران-الكونترا، والرجل الذي تبجح في خروجه بفكرة تلغيم مرافئ نيكاراغوا وهو يشرب الجن.

استأجر شقة في أحد الأبراج المرتفعة التي تشرف على الحرم الظليل لـ «ليجور وورلد» على بعد ٢٥ ميلاً من واشنطن العاصمة، وهي قرية للمتقاعدين تحاول استقطاب أطفال فورة الولادة من خلال تسويق نفسها بأنها «مقصد الجيل الذي لا يشيخ». ويصعب على كلاريدج، الجمهوري اليانكي المولود في خلال الكساد الاقتصادي الكبير، أن يكون من أطفال فورة الولادة، وهو يكره في شكل عام كل ما بات ذلك الجيل يمثله.

قدتُ السيارة للقائه في حزيران/يونيو ٢٠١٢، وأنا غير متيقن من نوع الاستقبال الذي سأحظى به. وقد كتبت الكثير عن كلاريدج وأعرف أنه لم يحب الكثير مما كتبته. لكنه رحّب بي بحرارة عندما بلغت المطعم الإيطالي الموجود في أملاك قرية التقاعد، وبدا أن كلاريدج هو الزبون الوحيد وقد حجز طاولة للاستمتاع بشمس العصر. بدا كأي

متقاعد آخر. ارتدى قميصاً ذا لون كلون سمك السلمون ولم يزرّر أعلاه ليسمح للسلسلة الذهبية من حول عنقه بالظهور. ووضع في رجله حذاء رياضياً وبدا نوعاً ما أكثر اسمراراً مما كان عليه في خلال إقامته في سان دييغو. وقال لي إنه تأقلم مع محيطه الجديد لكنه اشتكى من أن قططه ليست على هذا القدر من السرور. «الجميع هنا عندهم كلاب. تلك الكلاب الصغيرة».

بدا من السخرية نوعاً ما أن يعيش كلاريدج الآن على بعد أميال وحسب من الـ «سي. آي. إيه»، الوكالة التي نظر إليها إلى حد كبير بازدراء، لكنه لم يبد أنه يفتقد كاليفورنيا أو يشتكي من انتقاله عائداً إلى الساحل الشرقي.

وقال: «إنه المكان الذي تتم فيه الأعمال».

وعنى بـ «الأعمال»، عمل الاستخبارات الخاصة. وهو على حق. يمر الطريق الخارج من واشنطن إلى قرية التقاعد في الضواحي الغنية عبر الأبراج الزجاجية المتلألئة ومساحات المكاتب المترامية الأطراف في شمال فرجينيا، والتي نبتت على مدى العقد الماضي من لا شيء تقريباً. وشرعت صناعات الدفاع الجوي والاستخبارات الأميركية، التي انتشرت في ما مضى في أنحاء البلاد في أمكنة مثل جنوب كاليفورنيا والغرب الأوسط، في ترسيخ نفسها وفي الانتقال إلى منطقة واشنطن. واختارت الشركات الانتقال إلى ما هو أقرب مما تسميه «الزبون»: أي البنتاغون والـ «سي. آي. إيه» ووكالة الأمن القومي وغير ذلك من أجهزة الاستخبارات. وبات المتعاقدون مع الحكومة، الكبار منهم والصغار، يشكّلون طوقاً حول العاصمة أشبه بجيش يفرض حصاراً على مدينة من القرون الوسطى.

أخذت الأعمال العسكرية والاستخبارية الخاصة في الازدهار. وأدى ميدان المعركة الدولي بحلول ٢٠١٢ إلى تمدد جيش أميركا السرّي بما هو أكثر من طاقاته. ولزّمت الـ «سي. آي. إيه» وغيرها من أجهزة الاستخبارات بعضاً من مهمّاتها الأساسية لمتعاقدين خاصين وُظّفوا في مهمات التجسس والقيام بالتحليلات الاستخبارية. واستُخدموا لمساندة عمليات طائرات الـ «سي. آي. إيه» التي تطير بلا طيار: من الجلوس في محطات التحكّم الأرضية في نيفادا، إلى تحميل الصواريخ والقنابل في الطائرات التي تطير بلا طيار في قواعد سرّية في أفغانستان وباكستان.

يمثّل جيفري سميث، المحامي العام السابق في الـ «سي. آي. إيه» والشريك الآن في مكتب محاماة مرموق في واشنطن، بعضاً من الشركات التي فازت بعقود مثمرة للقيام بعمل الجيش أو الاستخبارات. وقال لي سميث إنه لمن المذهل المدى الذي ذهبت إليه الحكومة الأميركية في تلزيم الوظائف الأساسية لحرفة التجسس لمتعاقدين خاصين (الكثير من الشركات التي يديرها ضباط سابقون في الـ «سي. آي. إيه» وفي قوات العمليات الخاصة) تعهدوا القيام بعمل أفضل من الموظفين الفدراليين. وباع إريك برانس بلاكووتر وانتقل إلى دولة الإمارات العربية المتّحدة لتأخذ شركات أخرى محله وهي شركات عملت أفضل منه بكثير على البقاء خارج العناوين الكبرى لوسائل الإعلام. ومع انتقال طريقة خوض الحرب الأميركية بعيداً من الاشتباكات بين أرتال المدرعات وخارج مناطق الحرب المعلنة وإلى الظلال، نشأت صناعة صغيرة لتصبح جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه من المجمع العسكري - الاستخباري الجديد.

ويتخذ سميث أحياناً موقفاً عدائياً من التوصيف السلبي الذي لا هوادة فيه للمتعاقدين الخاصين، لكنه يرى أيضاً إمكان الوقوع في مشكلة إذا تعارضت حاجات المهمة مع متطلبات الكسب للشركة. وقال: «يوجد تجاذب قوي يتعلّق بالجهة التي يخلص لها المتعاقد. هل يخلص للعلم؟ أم أنه يخلص للمجموع النهائي للحساب؟».

بقيت ميشال بالارين، مع منتصف ٢٠١٢، تحاول جاهدة الفوز بعقد حكومي آخر طويل المدى لعملها في إفريقيا، ورأت الفرصة في الفوضى الآخذة في الانتشار في القسم الشمالي من القارة. وأبلغتني بالارين، بعدما استولى الراديكاليون الإسلاميون على امتداد واسع من الصحراء في شمال مالي، وبعدما اتضح أن واشنطن تكافح مرة أخرى للحصول على استخبارات عن بلاد تجاهلتها طويلاً، أنها تجري الاتصالات مع متمردي الطوارق في الجزء الشرقي من مالي، وأنها في صدد تدبير مخطط لطرد الإسلاميين من البلاد. ولم تتوسع في الشرح.

لم يقتصر تخطيطها على إفريقيا. فقد أخذت بالارين تبحث عن مستثمرين في مشروع جديد لبناء أسطول من الطائرات المائية، التي استقت نموذجها من «غرامان ج-٢١ غوز»، واعتقدت أنه يمكن الجيش الأميركي استخدامها لإنزال جنود في مناطق بعيدة تفتقر إلى المدارج العاملة. بل إنها أخذت في استكشاف فرص أعمال في كوبا

يمكن أن تثريها فور موت فيدل كاسترو أخيراً وتصل الشيوعية في كوبا إلى خاتمتها.

بدا من غير المرجح كثيراً، في ذلك اليوم من صيف ٢٠١٢، أن يغرف ديوي كلاريدج من جديد من سيل الأموال الحكومية إلى المتعاقدين مع الاستخبارات. فقد انتهت عمليته مع مايكل فورلونغ إلى خاتمة مخزية، وأُجبر فورلونغ سرّاً على التقاعد. ولا يزال كلاريدج غاضباً من الطريقة التي انتهت إليها الواقعة. والمسألة، كما يراها، ليست إلا مثالاً آخر على قيام البيروقراطيين في واشنطن بحماية نفوذهم على حساب الجنود في الميدان، الذين يحتاجون يائسين إلى الاستخبارات التي يمكنه توفيرها، ولو لتفادي الاعتماد على الـ «سي. آي. إيه» فقط. لكنه قال إنه مصمّم على البقاء في اللعبة. وأخبرني أنه لا يزال يحتفظ بشبكة مخبريه في أفغانستان وباكستان حيث يمكن الحفاظ على بعضهم بميزانية صغيرة. وقال إنه إذا كانت واشنطن أحمق من أن تستخدم هؤلاء الناس فربما تكون حكومة صديقة أخرى أكثر تنوّراً.

أشعل سيجاره وأصبح فلسفيّاً.

قال: «أعتقد أن معاهدة وستفاليا انتهت»، متحدثاً عن اتفاقات السلام المعقودة في القرن السابع عشر في أوروبا، والتي وضعت حدّاً لحرب الثلاثين عاماً، وهي ثلاثة عقود دامية من القتال بين الملوك والأباطرة، الذين عمدوا أحياناً إلى استخدام المرتزقة وقوداً للمعارك الكبرى. ويتفق معظم المؤرخين على أن معاهدة وستفاليا أدت إلى نشوء الأمم الحديثة والجيوش الدائمة والهويات الوطنية.

قال: «إن الدول ذات السيادة لم تعد تحتكر القوة العسكرية». بل إن الشركات والمصالح الخاصة هي التي ستصبح مستقبل حروب أميركا. «انظر وحسب إلى منظومتنا. فالشيء الوحيد الذي لم يُلزّم هو الشخص الذي يطلق النار من البندقية».

شكّلت تلك لحظة نادرة يقلل فيها ديوي كلاريدج من قيمة وضع ما. إذ عمدت الولايات المتّحدة أحياناً بعد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر حتى إلى تلزيم الضغط على الزناد. وسواء تعلّق الأمر بإريك برانس وأنريكي برادو وبلاكووتر وقد استخدمتهم الـ «سي. آي. إيه» لمطاردة الإرهابيّين، أو بذوي العضلات الموظفين أمثال رايموند دايفيس الذي قاد سيارته عبر شوارع لاهور ومعه مسدس «غلوك» نصف الآلي في علبة القفازات، أو بجنود عاديين يحاولون تفادي قذائف الهاون في خلال ليلة كاملة

من القتال على سطح قاعدة الـ «سي. آي. إيه» في بنغازي، فقد شهدت تلك السنوات الأولى الفوضوية من حرب الظل الأميركية الولايات المتّحدة وهي على استعداد لتلزيم الوظيفة الأكثر أساسية للحكومة: وهي حماية الدولة.

تأخّر الوقت ونهضتُ للمغادرة. وقرر كلاريدج البقاء وإنهاء سيجاره. تصافحنا واتجهت إلى سيارتي. عاودت وأنا أقود مبتعداً استراق النظر إلى كلاريدج وهو يجلس وحده إلى طاولة المطعم الخالي في دار التقاعد. وتموّج أثر رفيع من دخان السيجار متصاعداً في الضوء الآخذ في الخفوت.

شكر

يتطلب وضع كتاب اتخاذ مئات القرارات، وتصعب مع الكتاب الأول معرفة كم من هذه القرارات هي قرارات جيدة. وأنا محظوظ جداً بأن واحداً من القرارات الأولى التي اتخذتها كان من بين أفضلها، وهو استخدام آدم أحمد ليصبح مساعدي في البحث. وأمكنني القول، منذ لقائنا الأول حول فنجان قهوة في شيكاغو، أن آدم لامع وفضولي ومكرّس. وأثبت أنه كل تلك الأمور وأكثر. وشكّل قطعاً جزءاً لا يتجزأ من الكتاب في مراحله كلها. بحث في الوثائق، وكتب الخلفيات، ونظم الحواشي، وأمكنه في حالات كثيرة تقفّي من يتحدّث الأوردو لترجمة الوثائق والتسجيلات التي لا يمكن لأي منّا فهمها. وبوصولي إلى مركز وودرو ويلسون الدولي للباحثين انضمّت جيسيكا شولبرغ إلى المشروع وقدمت مساعدة في البحث قيّمة في كل جزء منها كالمساعدة التي وفّرها آدم. ولجيسيكا اهتمام خاص بإفريقيا وقد أثارت قدرتها على نبش المعلومات عن الصومال وشمال إفريقيا الذهول. وهي مفكّرة تتمتّع بالوضوح وبحكمة تفوق سنها. وتوصلتُ في سياق وضع هذا الكتاب إلى عدم الاكتفاء بتقدير توجيهات آدم وجيسيكا وحسب بل صداقتهما أيضاً. وأمام كليهما حياة مهنية طويلة وباهرة بغض النظر عن الطريق الذي يختارانه.

من حظي الكبير أنني أمضيت ١٥ شهراً في مركز ويلسون، مؤسسة الأبحاث الفضلى في واشنطن. وفّر لي المركز موطناً محترفاً وزملاء فاتنين وداعمين ووصولاً إلى مكتبة كبيرة يديرها فريق من الدرجة الأولى. وأتوجه بالشكر إلى جاين هارمن ومايكل فان دوسن لقبولي باحثاً في السياسة العامة، وعلى إدارتهما مثل هذه العملية الرائعة. كما

أتقدم بشكر خاص إلى روبرت ليتواك على كونه مصدراً دائماً للتبصّر وللفكاهة وأنا أخوض غمار العملية المؤلمة لكتابة المسودة الأولى لهذا الكتاب.

إنه لفخر عظيم لي أن أعمل مراسلاً للنيويورك تايمز وأنا ممتن لجيل أبرامسون ودين باكيت ودايفيد ليونهاردت على منحي مأذونية من عملي في الصحيفة للعمل على هذا المشروع. وشجعني دين، وهو رئيسي في واشنطن، على تفحص الأوجه غير المُستكشفة في الحروب السرّية – أن أكتب الموضوعات التي لا يكتبها الآخرون. وقد تفحّص هذا الكتاب في العمق بعضاً من القضايا التي كتبت عنها للصحيفة في تلك الحقبة. وقد حظيت في خلال هذه العملية على التشجيع والتوجيه من أصدقائي وزملائي هيلين كوبر وسكوت شاين وإريك شميت، وتحمّل سكوت وإريك الكثير من أعباء العمل الإضافي في خلال مأذونيتي لوضع الكتاب. ولا يمكنني شكرهما بما يكفي. وبالإضافة إلى هؤلاء الثلاثة، فإن فريق الأمن القومي في مكتب واشنطن يضم مجموعة من أفضل المراسلين – وأكثر الناس أنساً – في أي حقل من حقول الصحافة. وأتوجه بشكر خاص إلى بيتر بايكر وإليزابيث بوميلر ومايكل غوردن وبيل هاميلتون ومارك لاندر وإريك ليستبلو وإريك ليبتون وستيف مايرز وجيم ريزن وديفيد سانغر وتشارلي سافاج وتوم شانكر. وأنا محظوظ جداً بالعمل معهم ومع كامل مكتب واشنطن. وأتوجه بالشكر أيضاً إلى فيل تاوبمان ودوغلاس جل، رئيسيّ السابقين في الصحيفة اللذين يمتلكان تجربةً واسعةً في تغطية الاستخبارات وقد ساعداني كثيراً عندما شرعت في تغطية سبق صحافي جديد.

وما أمكن أن يبصر هذا الكتاب النور لولا سكوت مويرز الذي حثّني، في عمله السابق كوكيلٍ أدبي، على النظر بعمق أكبر في الموضوعات التي أكتب عنها في النيويورك تايمز. ثم إنني كنت محظوظاً جداً، بعدما أصبح سكوت ناشر مطبوعات بينغوين، أن يصبح محرّر كتابي. فهو يرى الصورة الكبيرة وقد حثّني على الكتابة بأوسع ما يمكن عن الطبيعة المتغيرة للحرب الأميركية ووقعها. وأنا أقدّر الوقت الذي منحني إياه للتحقق من صحة التغطية لهذا الكتاب، ووفّر لي مساعدة ثابتة في خلال عملية التحرير. وأثبت أن التحرير الرائع للكتاب ممكن حتى في ظل ضغوط المهلة الأخيرة الضيقة. وأشكر أيضاً آن غودوف، رئيسة منشورات بينغوين ورئيسة تحريرها، على القيام بقفزة في هذا المشروع، وعلى ضمان إمكان نشر الكتاب بسرعة في الوقت الذي تحتاج

هذه المسائل إلى المزيد من النقاش العام. كما أن مالي أندرسون في منشورات بينغوين أيقنت أن مختلف أقسام الكتاب تلبي المهل المعطاة لها، وأنا ممتن جداً لها على توجيهي بصبر عبر ما شكل بالنسبة إلي عملية غامضة جداً. ومن الجيد سماع صوتها الهادئ على الطرف الآخر من الخط.

ربما لا تمتلك ربيكا كوربت، الصديقة والمحررة في نيويورك تايمز، أي فكرة حول التحسينات التي طرأت على هذا الكتاب نتيجةً لتوجيهها وصبرها ومهارتها. فقد انكبت على عدة مسودات للكتاب وحثّتني على التعمّق أكثر في التغطية وتوضيح نفسي أكثر في الكتابة. وهي تمتلك حس التفاصيل والقدرة على نفخ الحياة في الشخصيات. ولم تساعدني غداءاتنا في «بوتوم لاين» على تنظيم تغطيتي وحسب، بل ساعدتني بقدر عظيم أيضاً على ترتيب سرد الكتاب. وكان النقاش أفضل كثيراً من الطعام.

أصبح وكيلي أندرو وايلي مؤتمناً على أسراري منذ المراحل الأولى لكتابة الاقتراح لهذا الكتاب، وأنا ممتن له لقبولي زبوناً عنده. وهو محترف حقيقي زوّدني الاستشارة الحكيمة في شكل خاص في خلال يوم مرهق للأعصاب في نيويورك وجب علي فيه اتخاذ قرار في شأن الناشرين. وطلب مني أن أتبع حدسي. «كفّ عن القلق»، قال. «فالحياة قصيرة جداً». وهو محق.

تمتّع زميلي في نيويورك تايمز في إسلام آباد، ديكلان والش، بالكثير من اللطف لإيوائي في خلال الوقت الذي أمضيته في باكستان. فهو إلى جانب كونه مراسلاً رائعاً ومصدراً للحكمة الواسعة في شأن ما قد يشكل البلد الأكثر تعقيداً في العالم، يدير من دون شك أفضل بيوت الضيافة في باكستان. وأشكر الجميع في مكتب إسلام آباد على جعل رحلة تغطيتي الصحافية إلى باكستان منتجةً إلى هذا الحد.

أنا مدين جدّاً لأصدقائي الذين يغطون مسائل الأمن القومي لمؤسسات إخبارية أخرى. فعملهم الذي يتمثل في إلقاء الضوء على الزوايا المظلمة أفاد هذا العمل في شكل هائل. وأتوجه بالشكر الخاص إلى غريغ ميلر، جوبي واريك، بيتر فين، جولي تايت، ودانا بريست من الواشنطن بوست؛ آدم غولدمان، مات أبوزو، وكيمبرلي دوزييه من الأسوشيتدبرس؛ وسيوبان غورمان، جوليان بارنز، وآدم إنتوس من الوال ستريت جورنال. وقد نتنافس جميعنا بشراسة فيما بيننا، ونلعن بعضنا بعضاً عندما نضطر إلى مواكبة موضوع منافس عند العاشرة ليلاً، لكننا جميعنا في النهاية في جانب واحد.

أُدين لعائلتي بدينٍ قد لا أتمكّن من البدء بإيفائه. علّمني والداي، جوزف وجان مازيتي، أن أكون فضوليّاً ومتواضعاً. لكن أكثر ما علّماني إياه هو أن أكون صادقاً، وآمل أن يكونا فخورين بي فخري أنا بهما. أما شقيقتاي، إليز وكايت، فهما أفضل صديقتين يمكن أحداً أن يحظى بهما، وهما بالنسبة إلي – إضافة إلى زوجيهما سوديب وكريس – المثال الذي يحتذى به لطريقة حياتهما وتربية أولادهما.

الشخص الوحيد الذي قدّم المساهمة الكبرى في هذا الكتاب هو ليندزي، زوجتي الرائعة. فمنذ أول نقاش لنا تماماً حول إمكانية أن أؤلف كتاباً ونحن نمشي في متنزه ريفرسايد في نيويورك، ومساندة ليندزي لا تتزعزع. قرأت وحرّرت مسودات الكتاب، وقدمت اقتراحاتها وتحمّلت أرقي وشجّعتني في الأوقات التي اعتقدت أنني أقوم بما لا طاقة لي على تحمّله. وما أمكنني القيام بهذا لولاها، وأنا أحبها كثيراً جداً.

وإلى ماكس، ابني. فقد ولد ماكس وأنا في المراحل الأولى من هذا المشروع، وقد غيّر حياتي بطرائق بدأت الآن حالياً في إدراكها. لا يسعني الانتظار إلى أن يكبر ما يكفي ليقرأ هذا الكتاب. وأنا أثمّن ذكريات كل الصباحات التي أمضيناها معاً في خلال الأشهر القليلة الأولى، والابتسامات التي يمنحها لدى عودتي إلى المنزل في نهاية أيام محبطة في شكل خاص من تحرير الكتاب. فقد وضعا الأمور في نصابها الصحيح. ثمّة ألمّ وأسىً كبيرين في هذا العالم، لكنه مكان أفضل كثيراً بوجود ماكس فيه.

ملاحظة حول المصادر

إنه لتحدّ كبير أن يكتب المرء رواية عن حرب جارية وهي سرّية، أقله رسمياً. وهذا الكتاب نتاج مئات المقابلات في الولايات المتّحدة وفي الخارج، في خلال كل من سنوات عملي مراسلاً لشؤون الأمن القومي، وفي خلال مأذونيتي من النيويورك تايمز لأجل وضع الكتاب. حاولت ما أمكن إقناع من قابلتهم أن يدلوا بتصريحاتٍ رسمية، وقد أشرت إلى من وافقوا بالاسم في كل من النص الأساس وفي الهوامش. كما أنني أجريت عشرات المقابلات على أساس «الخلفية»، حيث أتحت للأشخاص المصادر التحدث من دون ذكر أسمائهم، في مقابل رواياتهم عن العمليات العسكرية والاستخبارية الأميركية وهي لا تزال في معظمها قيد الحفظ. وهذا ليس بالأمر المثالي لا من قريب ولا من بعيد، لكنه شرّ لا بد منه لضمان تمكن المصادر الموثوق بها من التحدث بصراحة.

يمثل استخدام المصادر المجهولة مخاطرةً دائمة. وتعلّمت بوصفي مراسلاً لشؤون الأمن القومي أنه يمكن الوثوق ببعض المصادر أكثر من غيرها بكثير. واستندت كثيراً في هذا الكتاب إلى أناس أصبحت أثق بمعلوماتهم عبر السنين. واستخدمت، بالقدر الذي أمكنني ذلك، الهوامش لإعطاء المزيد من المعلومات عمّن زوّدوني معلومات محدّدة ولو أنني لم أستخدم أسماءهم. وفي بعض الحالات، ولأن المادة في العادة حساسة في شكل خاص، قدّمت معلومات لم أخصص لها هوامش محدّدة. وتحققت في هذه الحالات من المعلومة من مصادر متعددة. ولم أستخدم وأنا أخبر عن محادثات بين

شخصين أو أكثر علامات الاقتباس حول الحوار إلا بعدما أيقنت أن مصادري زوّدتني استذكاراً دقيقاً للمحادثة.

حاولت ما أمكن الاقتباس من مواد المصادر المتاحة والوثائق الحكومية التي نُزع عنها طابع السرية. وساعدني على هذا الجهد عمل عدة مؤسسات مختلفة. ويعمل أرشيف الأمن القومي في جامعة جورج واشنطن بلا كلل على رفع السرية عن الوثائق الحكومية بموجب قانون حرية المعلومات، وأنا ممتن جداً لجهوده. و«مجموعة الاستخبارات سايت» SITE Intelligence Group هي المصدر الأفضل لمتابعة الكتابات والتصريحات العلنية للمجموعات الجهادية في باكستان والصومال واليمن وغيرها من البلدان، وقد استقيت في شكل واسع من عمل «سايت». ونشرت «ويكيليكس»، وهي التنظيم المناهض للسرية، للمرة الأولى على الملأ عدداً كبيراً من وثائق الحكومة الأميركية المذكورة في هذا الكتاب. وقد أصبحت قاعدة بيانات «ويكيليكس» مصدراً مهماً للصحافيين والمؤرخين الذين يحاولون أن يفهموا في شكل أفضل آليات العمل الداخلية للحكومة الأميركية.

أنا مدين جداً لكثيرين من الناس في بلدان مختلفة تخلّوا عن ساعات لا تحصى من وقتهم للسماح لي بإجراء مقابلات معهم. هم وثقوا بي لإخبار قصصهم وهذا هو كتابهم بقدر ما هو كتابي.

مارك مازيتي

لائحة المراجع

الكتب

Bergen, Peter L. *The Longest War: The Enduring Conflict Betwee Amerciran and Al-Qaeda.* New York: Free Press 2011.

——.*Manhunt: The Ten-Year Search for Bin Laden–from 9/11 to Abbottabad.* New York: Crown, 2012.

Bissonnette, Matt (aka Mark Owen). *No Easy Day: The Firsthand Account of the Mission That Killed Osama Bin Laden.* New York: Dutton, 2012.

Boucek, Chriostipher, and Marina Ottaway. *Yemen on the Brink.* Washington, D.C.: Carnegie Endowment for International Peace, 2010.

Bowden, Mark. *Guests of the Ayatollah: The Iran Hostage Crisis: The First Battle in America's War with Militant Islam.* New York: Grove Press, 2006.

Clarke, Richard. *Against All Enemies: Insode America's War on Terror.* New York: Simon & Schuster, 2004.

Clarridge, Duane R., with Digby Diehl. *A Spy for All Seasons: My Life in the CIA.* New York: Scribner, 1997.

Coll, Steve. *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet Invasion to Sptember 10, 2001.* New York: Penguin Books, 2004.

Crumpton, Henry A. *The Art of Intelligence: Lessons from a Life in the CIA's Clandestine Service.* New York: Penguin Press, 2012.

Emerson, Steven. *Secret Warriors: Inside the Covert Military Operations of the Reagan Era.* New York: Putnam, 1988.

Gardner, Richard N. *Mission Italy: On the Front Lines of the Cold War.* New York: Rowman & Littelefied Publishers, 2005.

Graham, Bradly. *By His Own Rules: The Ambitions, Sucesses, and Ultimate Failures of Donald Rumsfeld.* New York: Public Affairs, 2009.

Gunaratna, Rohan, and Khuram Iqbal. *Pakistan: Terrorism Ground Zero.* London: Reaktion Books, 2011.

Hull, Edmund J. *High Value Target: Countering al Qaeda in Yemen.* Washington, D.C.: Potomac Books, 2011.

Hussain, Zahid. *Frontline Pakistan: The Struggle with Militant Islam.* New York: Columbia University Press, 2008.

——. *The Scorpion's Tail: The Relentless Rise of Islamic in Pakistan–and How It Threatens America.* New York: Free Press, 2010.

Johnsen, Gregory D. *The Last Refuge: Yemen, al-Qaeda, and America's War in Arabia.* New York: W. W. Norton & Company, 2012.

Jones, Seth. *Hunting in the Shadows: The Pursuit of al Qa'ida Since 9/11.* New York: W. W. Norton & Company, 2012.

Kean et al. *The 9/11 Commission Report.* Washington, D.C.: U.S. Government Printing Office, 2004.

Klaidman, Daniel. *Kill or Capture: The War on Terror and the Soul of the Obama Presidency.* New York: Houghton Mifflin Harcourt, 2012.

Martin, Matt J., and Charles W. Sasser. *Predator: The Remote-Control Air War over Iraq and Afghanistan: A Pilot's Story.* Minneapolis: Zenith Press, 2010.

Mayer, Jane. *The Dark Side: The Inside Story of How the War on Terror Turned into a War on American Ideals.* New York: Doubleday, 2008.

Musharraf, Pervez. *In the Line of Fire: A Memoir.* New York: Simon & Schuster, 2006.

Naftali, Timothy. *Blind Spot: The Secret History of American Counterterrorism.* New York: Basic Books, 2005.

Nawaz, Shuja. *Crossed Swords: Pakistan, Its Army, and the Wars Within.* Oxford: Oxford University Press, 2008.

Norris, Pat. *Watching Earth from Space: How Surveillance Helps Us–and Harms Us.* New York:Praxis, 2010.

Persico, Joseph. *Casey: The Lives and Secrets of William J. Casey: From the OSS to the CIA.* New York: Penguin, 1995.

Pillar, Paul R. *Intelligence and U.S. Foreign Policy: Iraq, 9/11, and Misguided Reform.* New York: Columia University Press, 2011.

Priest, Dana, and William M. Arkin. *Top Secret America: The Rise of the New American Security State.* New York: Little, Brown and Company, 2011.

Ranelagh, John. *The Agency: The Rise and Decline of the CIA.* New York: Simon & Schuster, 1986.

Rashid, Ahmed. *Taliban: Militant Islam, Oil and Fundamentalism in Central Asia.* London: Yale University Press, 2001.

——. *Descent into Chaos: The U.S. and the Disaster in Pakistan, Afganistan, and Central Asia.* New York: Viking, 2008.

Riedel, Bruce. *Deadly Embrace: Pakistan, America, and the Future of the Global jihad.* Washington, D.C.: Brookings, 2011.

Rodriquez Jr., Jose A., and Bill Harlow. *Hard Measures: How Aggressive CIA Actions After 9/11 Saved American Lives.* New York: Threshold Editions, 2012.

Rohde, David, and Kristen Mulvihill. *A Rope and a Prayer: A Kidnapping from Two Sides.* New York: Viking, 2010.

Rumsfeld, Donald. *Known and Unknown: A Memoir.* New York: Sentinel, 2011.

Sanger, David E. *The Inheritance: The World Obama Confronts and the Challenges to American Power.* New York: Crown, 2009.

——. *Confront and Conceal: Obama's Secret Wars and Surprising Use of American Power.* New York: Crown, 2012.

Scarborough, Rowan. *Rumsfeld's War: The Untold Story of American's Anti-Terrorist Commander.* New York: Regnery, 2004.

Schmidt, John. *The Unraveling: Pakistan in the Age of Jihad.* New York: Farrar, Straus and Giroux, 2001.

Schmitt, Eric, and Thom Shanker. *Counterstrike: The Untold Story of America's Secret Compaign Against Al Qaeda.* New York: Times Books, 2011.

Shultz, Richard. *The Secret War Against Hanoi: The Untold Story of Spies, Saboteurs, and Covert Warriors in North Vietnam.* New York: HarperCollins, 1999.

Singer, Peter W. *Wired for War: The Robotics Revolution and Conflict in the 21st Century.* New York: Penguin Books, 2009.

Smith, Michael. *Killer Elite: The Inside Story of America's Most Secret Special Operations Team.* New York: St. Martin's Press, 2007.

Snider, L. Britt, *The Agency and the Hill: CIA's Relationship with Congress 1946-2004.* Washington, D.C.: Center for the Study of Intelligence, 2008.

Tenet, George. *At the Center of the Strom: My Years at the CIA.* New York: HarperCollins, 2007.

Waller, Douglas. *Wild Bill Donovan: The Spymaster Who Created the OSS and Modern American Espionage.* New York: Free Press, 2011.

Warrick, Joby. *The Triple Agent: The al-Qaeda Mole Who Infiltrated the CIA.* New York: Vintage Books, 2011.

Weiner, Tim. *Legacy of Ashes: The History of the CIA.* New York: Anchor Books, 2007.

Woodward, Bob. *Veil: The Secret Wars of the CIA, 1981-1987.* New York: Simon & Schuster, 1987.

—. *Bush at War.* New York: Simon & Schuster, 2002.

—. *Obama's Wars.* New York: Simon & Schuster, 2001.

Wright, Lawrwnce. *The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11.* New York: Random House, 2006.

مقالات مختارة من الصحف والمجلات

Baker, Aryn. "The Murky Past to the Pakistan Doctor Who Helped the CIA". *Time* (June 13, 2012).

Bamford, James. "He's in the Backseat!" *The Atlantic* (April 2006).

Chesney, Robert. "Military - Intelligence Convergence and the Law of the Title 10/ Title 50 Debate". *Journal of National Security Law and Policy* (2012).

Ciralsky, Adam. "Tycoon, Contractor, Soldier, Spy". *Vanity Fair* (January 2010).

Fair, Christine C., and Seth Jones. "Pakistan's War Within". *Survival* 51, no. 6 (December 2009 - Januray 2010).

Kibbe, Jennifer D. "The Rise of the Shadow Warriors". *Foreign Affairs* (March/ April 2004).

Mayer, Jan. "The Predator War". *The New Yorker* (October 26, 2009).

McChrystal, Stanley A. "It Takes a Network". *Foreign Policy* (March/April 2011).

Pelton, Rober Young. "Erik Prince, an American Commando in Exile". *Men's Journal* (November 2010).

Pham, J. Peter. "Somali Instability Still Poses Threat Even Affer Successful Strike on Nabhan". *World Defense Review* (September 17, 2009).

Richelson, Jeffrey T. "Truth Conquers ALL Chains: The U.S. Army Intelligence Support Activity, 1981–198". *International of Journal Intelligence and Counterintelligence* 12, no. 2 (1999).

——. "Task Force 157: The US Navy's Secret Intelligence Service 1966–77". *Intelligence and National Security* 11, no. 1 (January 1996).

Teague, Matthew. "Black Ops and Blood Money". *Men's Journal* (June 1, 2011).

Whittle, Richard. "Predator's Nig Safari". Mitchell Institue for Airpower Studies, Paper 7 (August 2011).

Yousafzai, Sami. "The Doctor's Grim Reward". *Newsweek* (June 11, 2012).

Zelikow, Philip. "Codes of Condict for a Twilight War". *Houston Law Review* (April 2012).



سلسلة السّياسة

- الخداع
- لا سكوت بعد اليوم
- من يجرؤ على الكلام

كريم بقرادوني

- السلام المفقود
- صدمة وصمود
- لعنة وطن

شكري نصرالله

- السنوات الطيبة
- مذكرات قبل أوانها

شادي خليل أبو عيسى

- رؤساء الجمهورية اللبنانية
- قيودٌ تتمزَّق
- الولايات غير المتحدة اللبنانية

إعداد مريم البسّام

- حقيقة ليكس
- وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل (الجزء الأول)
- وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل (الجزء الثاني)
- مصر ثورة العشرين عاماً عبر تلفزيون الجديد

غادة عيد

- ...؟! أساس الملك
- الخلوي أكبر الصفقات
- سوكلين وأخواتها: النفايات - ثروة... وثورة

موريال ميراك - فايسباخ

- عبر جدار النار
- مهووسون في السلطة
- السياسة الخارجيّة التركيّة - موريال ميراك - فايسباخ وجمال واكيم

جيمي كارتر

- السلام ممكن في الأراضي المقدسة
- ما وراء البيت الأبيض

إسلام كريموف

- أوزباكستان: على تعميق الإصلاحات الاقتصادية
- أوزباكستان: على عتبة القرن الواحد والعشرين

بيل كلينتون

- بالعطاء... لكلٍّ منّا أن يغيّر العالم
- العودة إلى العمل

بيار سالينجر - إريك لوران

- حرب الخليج
- عاصفة الصحراء
- المفكرة المخفية لحرب الخليج

جمال واكيم

- سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط
- السياسة الخارجيّة التركيّة - موريال ميراك - فايسباخ وجمال واكيم
- صراع القوى الكبرى على سوريا



سلسلة السّياسة

د. علي وهب

- الأخطبوط الصهيوني والإدارة الأميركية
- الصراع الدولي للسيطرة على الشرق الأوسط

ستيفن غرين

- بالسيف: أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط
- مساومات مع الشيطان

نعوم تشومسكي

- احتلّوا
- صناعة المستقبل
- غزّة في أزمة - نعوم تشومسكي وإيلان بابه

د. سمير التنّير

- أميركا من الداخل
- أوباما.. والسّلام المستحيل
- معمودية النار

جون كوولي

- تواطؤ ضدّ بابل
- الحصاد

بنازير بوتو

- ابنة القدر
- المصالحة: الإسلام والديموقراطية والغرب

د. عبد السلام المجالي

- بوّابة الحقيقة
- رحلة العمر: من بيت الشعر إلى سدّة الحكم

إيلان بابه

- غزّة في أزمة - نعوم تشومسكي وإيلان بابه
- الفلسطينيّون المنسيّون

بالتعاون مع جامعة كولومبيا

- أنماط الديمقراطية - أرند ليبهارت
- ديموقراطيات في خطر! - تحرير ألفرد ستيبان
- عن الديمقراطية - روبرت أ. دال

د. ياسر عبد الحسين

- الحرب العالمية الثالثة - داعش والعراق وإدارة التوحّش
- السياسة الخارجية الإيرانية

تيم واينر

- الأعداء
- إرث من الرماد: تاريخ «السي.آي.إيه.»

جيريمي سكاهيل

- بلاكووتر: أخطر منظمة سرية في العالم
- حروب قذرة

- أبي لافرنتي بيريا - سيرغو بيريا
- الأحزاب السياسية في العراق - عبد الرزاق مطلك الفهد
- اختراع الديموقراطية - منصف المرزوقي
- أرض لا تهدأ - د. معين حداد



سلسلة السّياسة

- **الأسد** - باتريك سيل
- **إسرائيل والصراع المستمر** - ربيع داغر
- **أسرار مكشوفة** - إسرائيل شاحاك
- **الأشياء بأسمائها** - العقيد عاكف حيدر
- **أصوات قلبت العالم** - كيري كندي
- **أمبراطورية الإرهاب** - أليهاندرو كاسترو أسبين
- **الأمة العربية إلى أين؟** - د. محمد فاضل الجمالي
- **امرأة تبحث عن وطن** - ماريا المعلوف
- **الأمن الوطني الداخلي لدولة الإمارات العربية المتحدة** - عائشة محمد المحياس
- **أوضاع العالم ٢٠١٣** - برتران بادي ودومينيك فيدال
- **الأيادي السود** - نجاح واكيم
- **البعد التوراتي للإرهاب الإسرائيلي** - وجدي نجيب المصري
- **بكامل رصيدنا** - بولا برودويل وفيرنون لوب
- **بلا هوادة** - د. حسن موسى
- **بيتٌ من حجر** - أنتوني شديد
- **التحدي الإسلامي في الجزائر** - مايكل ويليس
- **التشكيلات الناصرية في لبنان** - شوكت أشتي
- **تعتيم** - آمي وديفيد جودمان
- **تقي الدين الصلح: سيرة حياة وكفاح (جزآن)** - عمر زين
- **التمادي في المعرفة** - نورمان فنكلستاين
- **توازن الرعب** - هادي زعرور
- **الثورات العربية في ظل الدين ورأس المال** - راضي شحادة
- **ثورات الفيسبوك** - مصعب حسام الدين قتلوني
- **ثوراتٌ في كل مكان** - بول مايسون
- **حرب تحرير الكويت** - د. حبيب الرحمن
- **حربا بريطانيا والعراق (١٩٤١ - ١٩٩١)** - رغيد الصلح
- **حركات ثورية** - ستيف كراوشو وجون جاكسون
- **حروب الأشباح** - ستيف كول
- **حروب الظلّ** - مارك مازّيتي
- **الحروب الميسَّرة** - نورمان سولومون
- **حزب الله والدَّولة في لبنان: الرؤية والمسار** - الدكتور حسن فضل الله
- **الحكّام العرب** - رودجر أوين
- **حياتي مع طالبان** - عبد السلام ضعيف
- **الخلوي: أشهر فضائح العصر** - ألين حلاق
- **خيارات صعبة** - هيلاري رودهام كلينتون
- **الخيارات الصعبة** - د. إيلي سالم
- **دارفور: تاريخ حرب وإبادة** - جولي فلنت وألكس دي فال
- **الدولة الديموقراطية** - د. منذر الشاوي
- **ديبلوماسيّة إسرائيل السريّة في لبنان** - كيرستين شولتزه
- **الديبلوماسية على نهر الأردن** - د. منذر حدادين
- **الرايات السود** - علي صوفان بالاشتراك مع دانيال فريدمان
- **رؤية للمستقبل** - الرئيس أمين الجميل
- **رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف (١٩٨٩ - ١٩٩٨)** - محمود عثمان
- **السايفربانك** - جوليان أسانج
- **سجن غوانتانامو: شهادات حيّة بألسنة المعتقلين** - مايفيتش رخسانا خان
- **السكرتير السابع والأخير** - ميشيل هيلير
- **سورية: سقوط مملكة الأسد** - ديفيد دبليو ليش
- **الصراع على السلطة في لبنان: جدل الخاص والعام** - زهوة مجذوب
- **الصهيونية الشرق أوسطية والخطّة المعاكسة** - إنعام رعد
- **صيف من نار في لبنان** - الجنرال ألان بيلليغريني
- **ضريبة الدم** - ت. كريستيان ميلر
- **الضوء الأصفر** - عبدالله بو حبيب
- **الطبقة الخارقة** - دايفيد ج. روثكوبف

سلسلة السّياسة

- **طريق أوسلو** - محمود عباس (أبو مازن)
- **عدوّ عدوّي** - لورا أيزنبرغ
- **العرب والإسلام في أوزباكستان** - بوريبوي أحمدوف وزاهدالله مندوروف
- **عزيزي الرئيس بوش** - سيندي شيهان
- **العلاقات الأردنية - اللبنانية** - أسعد كاظم جابر الغزّي
- **العلاقات اللبنانية السورية** - د. غسان عيسى
- **العودة إلى الصّفر** - ستيفن كينزر
- **الفرص الضائعة** - أمين هويدي
- **فنّ التجسُّس** - هنري أ. كرامبتون
- **الفهم الثوري للدين والماركسية** - زاهر الخطيب
- **في قلب المملكة: حياتي في السعودية** - كارمن بن لادن
- **قراصنة أميركا الجنوبية: أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية** - طارق علي
- **قصور من الرمل** - أندريه جيروليماتوس
- **قضيّة سامّة** - يوست ر. هيلترمان
- **قضيّتي ضد إسرائيل** - أنطوني لوينستاين
- **القياصرة الأميركيون** - نايجل هاملتون
- **قيام طائفة... أمّة موسى الصدر** - صادق النابلسي
- **لبنان بين ردَّة وريادة** - ألبير منصور
- **منبر الحوار ٢٠٠٨ - لبنان: أزمات الداخل وتدخّلات الخارج** - مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية
- **اللوبي** - إدوارد تيڤنن
- **اللوبي الإسرائيلي وسياسة أميركا الخارجية** - ستيفن والت وجون ميرشايمر
- **اللوبي الصهيوني في فرنسا** - شاكر نوري
- **الماسونية: دولة في الدولة** - هنري كوستون
- **المال... إن حَكَم** - هنري إده
- **مبادئ المعارضة اللبنانية** - الرئيس حسين الحسيني
- **محو العراق** - مايكل أوترمان وريتشارد هيل وبول ويلسون
- **مدن تحت الحصار** - ستيفن غراهام
- **مذكرات نيلسون مانديلا** - نيلسون مانديلا
- **المراقبة الشاملة** - أرماند ماتّلار
- **مزارع شبعا: حقائق ووثائق** - منيف الخطيب
- **مصر على شفير الهاوية** - طارق عثمان
- **نحو دولة حديثة: بعيداً عن ٨ و١٤ آذار** - الشيخ محمد علي الحاج العاملي
- **نظرية الاحتواء** - إيان شابيرو
- **النفط: استراتيجيّاً وأمنيّاً وعسكريّاً وتنمويّاً** - د. هاني حبيب
- **النفط والحرب والمدينة** - د. فيصل حميد
- **نوال السعداوي والثورات العربية** - نوال السعداوي
- **هكذا.. وقع التوطين** - ناديا شريم الحاج
- **الوجه الآخر لإسرائيل** - سوزان نايثن
- **الولايات المتحدة: الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية** - تحرير: برند هام
- **وهم السلم الأهلي** - حسين يعقوب
- **ويليس من تونس** - ناديا خياري

International Press

الجية، طلعة زاروط،
مبنى International Press، لبنان
هاتف: ٩٦٦٢٠٠/٣٠٠ ٧ ٩٦١+
البريد الإلكتروني: Interpress@int-press.com
الموقع الإلكتروني: www.int-press.com



مارك مازّيتي

كاتب وصحافي أميركي يعمل مراسلًا للأمن القومي في صحيفة «نيويورك تايمز». حاز شهادة ماجستير من جامعة أوكسفورد. عمل من قبل في مجلتي «الإيكونومست» و«لوس أنجلوس تايمز» الأميركيتين. حاز جائزة «بوليتزر» للصحافة، عن تقاريره الصحافية التي استهدف بها العنف في باكستان وأفغانستان. حاز أيضًا جوائز صحافية متعدّدة منها جائزتا «جورج بولك» و«ليفينغستن»، بعد كشفه ما أقدمت عليه وكالة الاستخبارات المركزية من إتلاف لأشرطة فيديو تصوِّر تعذيب معتقلي القاعدة.

حروب الظلّ

لجأت السلطات الأميركية بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر إلى نوع جديد من الحروب لمواجهة التطرف الإسلامي. فإلى جانب حربها في أفغانستان وحربها في العراق، خاضت حربًا ثالثةً، خفيّةً، حدثت في الظلّ وعن بعد، وفي أقاصي العالم. وبدلًا من الحروب التي تكلِّف الكثير من المال والأرواح، اعتمدت الإدارة الأميركية هذه الحروب الجديدة التي ادّعت أنها نظيفة وغير مكلفة وموضعية، بحيث تمكنت من القضاء على أعدائها عن بعد بطائرات من دون طيار وبعمليات خاصّة. واختارت عناصر ودربتهم لتنفيذ عمليات اغتيال، واستخدمتهم في إقامة شبكات سرية للتجسّس. فالرئيس الأميركي بمقدوره أن يختار اسمًا من قائمة ليقتل صاحبه أينما كان: في باكستان أو أفغانستان أو اليمن أو أي بلد آخر.

كيف تحوّلت الاستخبارات المركزية بعد أحداث ١١ أيلول وبأمرٍ من البيت الأبيض إلى آلة لصيد الناس وقتلهم؟

ينقلنا مازّيتي من موقعه كمراسل للأمن القومي إلى داخل مكاتب الـ «سي.آي.إيه» ليكشف لنا معلومات عن حرب من أكثر الحروب سرّية في العالم، وليعرفنا بشخصيات أدت أدوارًا ميدانية مدهشة في هذه الحرب السرّية. فمن الضابط الذي يدعى «كوفر بلاك» والذي كانت شهيته ملتهبة على صيد أسامة بن لادن، إلى الضابط الذي أرسِلَ إلى المناطق القبلية ليتعلم كيفية التجسس في باكستان، إلى المتعاقد مع الـ«سي.آي.إيه» الذي عوقب بالسجن في لاهور بعد أن خرج عن سيطرة رؤسائه.

«حروب الظلّ» هي أيضًا، قصة تنافسٍ حادٍ بين مؤسسات أميركية عملاقة ثلاث: الـ«سي.آي.إيه» و«البنتاغون» و«البيت الأبيض».

ISBN 978-9953-88-840-8



الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥-١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٩٦١١١٨٣٠٦٠٨+ فاكس: ٩٦١١١٨٣٠٦٠٩+

tradebooks@all-prints.com
publishing@all-prints.com
www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر